دونالد مالكولم ريد

فراعنة من؟

علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى

ترجمة رءوف عباس

فراعنة من؟

علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى

تأليف
دونالد مالكولم ريد

ترجمة
رءوف عباس

هنـــداوي

فراعنة من؟

دونالد مالكولم ريد

Whose Pharaohs?

Donald Malcolm Reid

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٨١٣ ٥

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٢.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور رءوف عباس.

المحتويات

مقدمة الطبعة الإلكترونية ٧
تقديم المترجم ١١
إهداء ٢١
عرفان وتقدير ٢٣
مقدمة ٢٥

الباب الأول: البدايات الإمبريالية والوطنية ٤٣
١- إعادة اكتشاف مصر القديمة ٤٥
٢- توماس كوك ٩٧
٣- علم المصريات في عصر إسماعيل مارييت والطهطاوي وبروجش (١٨٥٠–١٨٨٢م) ١٣٥

الباب الثاني: ظهور الإمبريالية وفجر الوطنية ١٨٨٢–١٩١٤م ١٨٩
٤- كرومر والكلاسيكيات ١٩١
٥- علم المصريات في عهد ماسبيرو وأحمد كمال ٢٣١
٦- الفن الإسلامي والآثار والاستشراق لجنة حفظ الآثار وعلي بهجت ٢٨٣
٧- أحفاد الفراعنة مرقص سميكة والتاريخ القبطي ٣٣٩
الخاتمة ٣٦٩
ملحق بالجداول الإيضاحية ٣٧٣
ملحق الأشكال ٣٨١

مقدمة الطبعة الإلكترونية

حينما تكون ابنًا لمؤرِّخ، فإنك تكون مهمومًا بحفظ تُراثه الذي أنفق فيه عمرًا كاملًا؛ فتحافظ على تاريخ أبيك، وتحافظ على تاريخ جيل من الباحثين تَجسَّد في شخصه، وتحافظ على ملامحِ فترةٍ مهمة من تاريخ الوطن؛ لهذا فقد أخذتُ على عاتقي مهمةَ حفظ تراث والدي الأستاذ الدكتور «رءوف عباس حامد»، رحمة الله عليه، وظَلَ الأمر يُراودني — خاصةً بعد أن نفِدَت جميع النُّسخ الورقية — حول إمكانية حفظ هذا التراث وإحيائه من جديد، وإعادة نشره وتوثيقه في ذاكرة التاريخ والبحث الأكاديمي والنضال الوطني، واهتديتُ إلى التعاقُد مع «مؤسسة هنداوي للثقافة والنشر» لنشر أعماله الكاملة ضمن مكتبتها الإلكترونية الثمينة للتراث العربي.

ولكن عندما طلبَت مني المؤسسةُ كتابةَ مقدمة للأعمال الكاملة، انتابَتني الحيرة؛ فأنا لست مُتخصِّصًا في الدراسات التاريخية لكي أكون مؤهَّلًا لكتابة مقدمة الأعمال الكاملة لأحد أساتذتها، فضلًا عن كوني أكتب عن أبي الذي يُمثِّل لي القدوة والمَثل الأعلى؛ وهو ما يجعل كتابتي مُنحازة له بكل تأكيد. فقرَّرتُ أن أكتب عن المؤرِّخ بعيون الابن؛ أستحضِر من الذاكرة البعيدة بعضَ الوَمضات، التي ما زالت عالقةً في ذهني، حول أعماله، التي كنتُ شاهدًا على بعضها وحكى لي أبي بعضَها الآخَر.

لم يكن وعيي قد تشكَّل بعدُ عندما نشَر أبي كتابه الأول «الحركة العُمَّالية في مصر ١٨٩٩–١٩٥٢م»، الذي كان أطروحته للماجستير، ثم صار مَرجعًا رائدًا في موضوعه؛ إلا أنني لا أنسى ما قصَّه عليَّ أبي لاحقًا حول ما تعرَّض له أثناء إعداده هذه الدراسة؛ فكان قد تَواصَل مع بعض قيادات الحركة العُمَّالية خلال العقود الماضية لتوثيق رواياتهم التي تُعَد مصدرًا مهمًّا حول نشاط هذه الحركة، لكن يبدو أن هذا التواصُل لم يَرُق للأجهزة الأمنية بسبب خضوع الكثير من هذه القيادات للمراقبة الأمنية، وتعرُّضهم للاعتقال في السابق

بسبب نشاطهم؛ فاستدعَت المباحثُ أبي للتحقيق معه، وهدَّده قسم مكافحة الشيوعية بالاعتقال، لكنَّ تدخُّل أستاذه المؤرِّخ الكبير «أحمد عزت عبد الكريم» حالَ دونَ ذلك.

لا يَغيب عن ذاكرتي البصرية منظرُ الغرفة الممتلئة بمئات النُّسخ من كتاب «يوميات هيروشيما»؛ هذا الكتاب الذي عزَم على ترجمته عندما أقام في اليابان — بعد حصوله على درجة الدكتوراه — في مهمةٍ عِلمية مدعوًّا من معهد اقتصاديات البلاد النامية في طوكيو، وأثناء إقامته هناك بدأ اهتمامُه بتاريخ اليابان، فكان من ثمرة هذا الاهتمام تأليفُه عِدةَ أعمالٍ تتناول التاريخ الحديث لهذا البلد. كما أن قيامَه بزيارة مدينتَي هيروشيما وناجازاكي — المدينتَين اللتَين تعرَّضتا للقنبلة الذرية أثناء الحرب العالمية الثانية — وقراءاتِه بالإنجليزية عما تعرَّضتا له من جرَّاء القصف النووي، فضلًا عن ملاحظته افتقارَ المكتبة العربية إلى كتاباتٍ تُلقِي الضوء على هذه الجريمة؛ كانت سببًا رئيسًا في ترجمته مُذكِّرات الطبيب الياباني «متشهيكو هاتشيا» التي وثَّق فيها شهادتَه بصفته طبيبًا عَمِل على علاج المصابين في حادث القصف النووي لمدينة هيروشيما. وقد ضمَّ إلى الترجمة شهاداتِ بعضِ مَن عاصروا هذا الحادثَ الأليم، واستهلَّها بمقدمةٍ طويلة لخَّص فيها للقارئ العربي تاريخَ اليابان الحديث وصعود الفاشية، التي أدَّت باليابان إلى هذه النهاية الكارثية (وكان من عاداته المنهجية في الترجمة ألا يُترجِم سوى الأعمال التي يراها مهمة للقارئ وتفتقِدها المكتبةُ العربية، مُستهِلًّا الترجمةَ بمقدمةٍ تُوضِّح السياق التاريخي للعمل المترجَم أو تَنقُده). وبعد أن فرَغ من إعداد الترجمة لتَدخُل في طَور الطباعة والنشر، طبَع أبي الكتابَ على نفقته الخاصة عام ١٩٧٧م، وتَعاقَد مع مؤسسة «الأهرام» لتوزيعه، لكنه صُدم بتعليماتٍ شفهية من المباحث العامة للناشرين بعدم طرحِ الكتاب للبيع في مصر، فما كان منه إلا أن أجرى اتفاقًا مع مكتبة «الخانجي» لتوزيع الكتاب في الدول العربية التي كانت تُسمَّى آنذاك جبهةَ الرفض، وهي «العراق، وسوريا، وليبيا، والجزائر»، وكانت القاعدةُ المعمول بها تَقضي بإرسال عِدة نُسخ إلى البلد المَعني للحصول على موافقة الرقابة، لكن الرد جاء واحدًا من البلاد الأربعة، وهو عدم السماح بدخول الكتاب! والسبب غير المُعلَن هو رغبةُ مصر وهذه الدول الشقيقة عدمَ إزعاج الولايات المتحدة! والطريفُ في الأمر أن الكتاب كان مُترجَمًا إلى الإنجليزية ومنشورًا في الولايات المتحدة قبل هذا التاريخ. ما زلت أتذكَّر هذه القِصة كلما ذهبتُ إلى بيت جَدي، وأتذكَّر معها منظرَ النُّسخ المكدَّسة في تلك الغرفة، التي كان ارتفاعُها يزيد عن طولي آنذاك.

تتداعى إلى ذاكرتي أيضًا تفاصيلُ أول عُطلة قضيتُها في أوروبا برفقة والدَيَّ؛ فقد ادَّخر أبي لهذه العُطلة مبلغًا من المال أثناء إعارته بجامعة قطر، سمَح لنا بتأجير استوديو صغير قُربَ وسط لندن لعدة أسابيع، لكنني لم أتمتَّع بصحبة أبي في المتنزهات، التي كانت تُرافِقني فيها والدتي طوال هذه الأسابيع، إلا في عطلات نهاية الأسبوع؛ فقد كان يَقضي كل أيام العمل في دار الوثائق البريطانية (Public Record Office) يطَّلِع على الوثائق التي أتاحتها الحكومة البريطانية للباحثين طبقًا لقانونها بعدَ عقود من اعتبارها سِرية، ويَلتقط منها نُسخًا مصوَّرة لما يراه مفيدًا لأبحاثه. لم تكن تلك الزيارة هي الوحيدة لأبي؛ فقد ظلَّ يتردَّد لاحقًا على دُور الوثائق في بريطانيا وأمريكا، وكان أغلبها على نفقته الخاصة، يَنهل منها ما يُلقي الضوء على تاريخ منطقتنا العربية، ويستعين بها في كتاباته، وقد دفَعه ذلك إلى التنويه في أحيانٍ كثيرة إلى التقصير الشديد الذي يَلمسه في طريقة التعامل مع الوثائق في مصر والتفريط فيها، إلى الدرجة التي تجعل بعض كبار المسئولين يأخذون حمولةَ شاحناتٍ من الوثائق إلى منازلهم عند ترك مناصبهم باعتبارها «أوراقًا شخصية»، فنُفرِّط بذلك في أحد أهم مصادر دراسة تاريخنا، ولا يكون أمام الباحثين سوى وثائقِ الدول الأخرى التي شاركَت في صُنع الأحداث (بانحيازاتها المتوقَّعة)، وشهاداتٍ مُتفرقة لمن شارَك في الأحداث أو شَهِدها من المصريين.

ظل الدكتور «رءوف عباس» طوال حياته وفِيًّا للعمل الأكاديمي، ومُناضِلًا من أجل استقلال الجامعات؛ فبالرغم من ميله إلى الفِكر اليساري فإنه ظلَّ حريصًا على عدم الانضواء تحت أيٍّ من الأحزاب أو التنظيمات اليسارية، بل كثيرًا ما كتَب عنها موجِّهًا النقد لها ولرموزها، كما كان ناشطًا في جماعة «٩ مارس» التي أسَّسها مجموعةٌ من الأكاديميين المصريين للدفاع عن استقلال الجامعات؛ فلا يُمحى من ذاكرتي إصرارُه الشديد على إتمام تحرير كتاب «الجامعة المصرية والمجتمع: مائة عام من النضال الأكاديمي ١٩٠٨–٢٠٠٨م»، الذي لم يَمنعه مرضُه الأخير واشتدادُ الألم عليه من إتمامه. وقد جاءت سِيرته الذاتية «مشيناها خُطى» التي نشَرها عام ٢٠٠٤م توثيقًا لهذا النضالِ وتنديدِه بالفساد في الجامعات المصرية. وعلى الرغم من الجرأة التي تَناوَل بها الأحداث مع ذِكر المشاركين فيها بأسمائهم، فإن ما ذكَره كان غَيضًا من فَيض؛ فقد آثر ألا يَذكر سوى الأحداث التي يَملك عليها دليلًا ملموسًا إذا ما طعَن أحدٌ في روايته، وكان هذا ما حدَث بالفعل؛ فقد لجأ بعضُ المذكورين في الكتاب إلى القضاء يَتهمونه بالإساءة، فجاءت جميعُ أحكام القضاء النهائية في صالحه.

بقي أن أتحدَّث عن أسلوب المؤرِّخ الكبير في العمل داخل البيت؛ لقد كان الدكتور «رءوف عباس» يكتب كل أعماله ويُراجِعها ويُعدِّلها بخط اليد، وبعد استكماله العملَ يبدأ في كتابته على الآلة الكاتبة الميكانيكية بمساعَدة والدتي قبل إرساله إلى الناشر، ليبدأ بعدَها في مراجعةِ المُسوَّدات التي تأتيه من المطبعة وتصحيحِها يدويًّا. كان أبي يمتلك آلتَين للكتابة؛ إحداهما عربية، والأخرى إنجليزية، وما زال صدى صوتِهما يتردَّد في أُذني، وما زالت صورة مكتبته الضخمة التي ضاقت بها غرفةٌ كاملة فامتدت خارجها، تتراءى أمام عيني، ولا تزالان تُشكِّلان معًا جزءًا من ذكريات طفولتي في منزلنا. وعندما حلَّ الكمبيوتر محلَّ الآلة الكاتبة استمرَّ يخُط أعماله كاملةً على الورق قبل كتابتها عليه، ولم يَقُم قطُّ بالتأليف مباشَرة على الكمبيوتر.

أتمنى لك عزيزي القارئ أن تجد في هذا الكتاب من الحقائق والآراء والتحليلات والأفكار ما يُرضي شغَفَك المعرفي، وأدعوك إلى مُطالَعة باقي الأعمال الكاملة للدكتور «رءوف عباس» التي تنشرها «مؤسسة هنداوي» إلكترونيًّا.

حاتم رءوف عباس
القاهرة فى ٢٢ يوليو ٢٠٢٢م

تقديم المترجم

يعَدُّ علم الآثار المصرية (المصريات Egyptology) من أحدث العلوم الإنسانية. إذ يرتبط بفكِّ طلاسم الكتابة المصرية القديمة الذي تم عام ١٨٢٢م بفضل جهود العالم الفرنسي شامبليون الذي عكف على دراسة حجر رشيد الشهير في المتحف البريطاني، حيث أخذه الإنجليز معهم عندما جاءوا إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها. وقد صدر هذا الكتاب الجديد من دار نشر جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة، وحمل عنوان «فراعنة من؟ – الآثار والمتاحف والهوية الوطنية المصرية من نابليون حتى الحرب العالمية الأولى» ليسد فراغًا في الدراسات التاريخية الخاصة بتاريخ العلوم، وتاريخ علم المصريات على وجه الخصوص، وهو مجالٌ ندرَ التأليف فيه عمومًا، وغاب التأليف فيه عندنا.

ومؤلف الكتاب هو الصديق دونالد مالكولم ريد Donald Malcolm Reid أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية، الذي تخصص — منذ ما يزيد على ربع القرن — في تاريخ الثقافة العربية الحديثة، وبدأه بكتابٍ عن فرح أنطون وريادته للعلمانية (نشر ١٩٧٥م)، وثنَّى بكتابٍ عن «المحامين والسياسة في العالم العربي ١٨٨٠–١٩٦٠م» (نشر عام ١٩٨١م)، وكان كتابه الثالث عن «جامعة القاهرة وصناعة مصر الحديثة» (نشر عام ١٩٩٠م) وصدرت ترجمته العربية عن المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومي للترجمة) عام ٢٠٠١م، والكتاب الذي بين أيدينا هو عمله الرابع المهم الذي شُغل بإعداده — فيما أعلم — في السنوات العشر الأخيرة، وقضى بالقاهرة عامَين متفرقَين في ١٩٨٨م و١٩٩٩م، عكف خلالهما على جمع مادته العلمية، حتى استطاع أن يقدم للأوساط العلمية هذا الكتاب المهم الذي ينفرد به في التأريخ لعلم المصريات. ولم يثبت دونالد ريد — بهذا الكتاب — تميزه بين المؤرخين الغربيين المتخصصين في تاريخ

مصر فحسب، بل أثبت تميزه كمصور ينافس المصورين المحترفين؛ فالكثير من الصور التي وردت بالكتاب كانت من عمله، وهي على درجة عالية من المستوى الحِرَفي.

لقد سار علم الآثار — كما يلاحظ المؤلف — مع الإمبريالية والهيمنة الغربية يدًا بيد، فهناك من علماء الغرب، ورحَّالته، وقناصله — في مصر وغيرها من البلاد التي كانت تخضع للدولة العثمانية — من كانوا يرون أن أهل البلاد لا حق لهم في تلك الآثار التي يتم العثور عليها، فهم لا يقدِّرون قيمتها، ولا يعنيهم من أمرها إلا ما قد يدرُّه عليهم بيعها من مال، والأَوْلى بها الأوروبيون الذين يُفردون لها الأماكن اللائقة بها في متاحفهم باعتبارها تراث الإنسانية. فلا علاقة للمصريين أو العراقيين أو الفلسطينيين «المتخلفين» بما يتم العثور عليه من آثار في بلادهم؛ فهي تخص حضاراتٍ أرقى لا يمتُّ إليها أولئك «الهمج» بصلة.

من هذه المقولة التي رددها المؤلف غير مرة في فصول كتابه القيم، كان انطلاقه لتأليف الكتاب لدحضها، متخذًا من حالة مصر ومن علم المصريات مدخلًا للدراسة، فيبدأ — للوهلة الأولى — بنفي تلك الفرية التي كادت أن تصبح حقيقة مسلَّمة في الثقافة الغربية، بل كانت كذلك (على أقل تقدير) في القرن التاسع عشر. فيعدد دونالد مالكولم ريد كُتَّاب الخطط الذين ذكروا الآثار المصرية وقدَّموا وصفًا لها في العصر الذي كتبوا فيه قبل القرن التاسع عشر بعدة قرون، ولكنه يُلقي المزيد من الضوء على اهتمام الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ورفاعة رافع الطهطاوي وعلي باشا مبارك لا بالآثار وحدها، ولكن بتاريخ مصر القديم، ويبين ما تدل عليه كتاباتهم من وعي بالقيمة التاريخية لما يقع على أرض مصر من شواهد أثرية تدل على تراثها الحضاري العريق؛ ومن ثم يصبح اتهام المصريين خصوصًا والعرب عمومًا، بعدم إدراك القيمة التاريخية للحضارات القديمة التي قامت في بلادهم مجرد مبرر — من وجهة نظر المؤلف — لاستلاب المصريين آثارَهم الثمينة لتعمر بها متاحف أوروبا، ولتزدان ميادينها بالمسلات المصرية.

وإذا كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر يمثل عصر نضج الثورة الصناعية في أوروبا، الذي يشهد هيمنة غرب أوروبا على الأسواق العالمية لتصريف بضاعتها واستثمار فائض رءوس أموالها، وضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة بأبخس الأثمان، فهو العصر الذي لعب فيه الأوروبيون الدور الرئيسي في وضع أسس «علم المصريات» وفي إرساء دعائم علم الآثار والعناية بها، وإقامة المتاحف في مصر. ففيما بين عامَي ١٨٥٨م و١٩٠٨م سيطر الأوروبيون على الإدارة التي عُنيت بالآثار، وعلى المتاحف التاريخية الأربعة

التي أقيمت خلال تلك الفترة: المتحف المصري (الأنتكخانة) الخاص بتاريخ مصر في العصر الفرعوني، والمتحف اليوناني-الروماني بالإسكندرية، والمتحف القبطي بمصر القديمة، ومتحف الفن العربي (الذي عُرف بمتحف الفن الإسلامي فيما بعد). وهكذا سيطر الأوروبيون على الآثار المصرية في الوقت الذي كانوا يُحكمون فيه السيطرة على مصر ذاتها من خلال الهيمنة على اقتصادها — ماليتها ثم احتلالها.

لقد عرف المصريون علم الآثار عن طريق الأوروبيين، ولكنهم ما لبثوا أن عملوا على امتلاك ناصيته، وتوظيفه لخدمة أمانيهم الوطنية. وإذا كان سعيد باشا هو أول من أنشأ متحفًا للآثار الفرعونية عام ١٨٥٨م، وإدارة للآثار، رأَسَهما معًا مارييت بك الفرنسي، فقد أسس الخديو إسماعيل عام ١٨٦٩م أول مدرسة مصرية عليا لدراسة المصريات عُرفت باسم «مدرسة اللسان المصري القديم» تولَّى «نظارتها» عالم الآثار الألماني هنريش بروجش، والتحق بالمدرسة عشرة من الطلاب المصريين الذين اختيروا من بين المتفوقين في اللغة الفرنسية، باعتبارها لغة التدريس بالمدرسة، وقد درس أولئك التلاميذ الكتابة المصرية القديمة واللغة القبطية، إضافة إلى الألمانية والإنجليزية، وتاريخ مصر القديم، وأصول علم الآثار. وإلى جانب إدارته لهذه المدرسة وتكوينه للطلاب المصريين، قام هنريش بروجش بإلقاء محاضرات في تاريخ مصر القديم بدار العلوم، كان يلقيها بالفرنسية، ويترجمها أحد تلاميذه أو معاونيه إلى العربية، ونشر بعضها بمجلة «روضة المدارس المصرية» التي رأس رفاعة الطهطاوي تحريرها، كذلك نشر بروجش جدولًا بملوك مصر القدامى، ومقالات في أصول الكتابة المصرية القديمة بالمجلة نفسها، مما أتاح فرصة نشر المعرفة بالمصريات وتاريخ مصر القديم لأول مرة باللغة العربية. وتدرَّب الطلاب بمدرسة اللسان المصري القديم على الحفائر الأثرية في الصعيد.

وفي عام ١٨٧٢م تخرَّج في أول مدرسة للآثار المصرية سبعة طلاب كان على رأسهم أحمد كمال (الذي أصبح أول عالم مصريات مصري فيما بعد). ولكن مارييت باشا مدير الآثار رفض قبولهم للعمل بإدارة الآثار؛ خشية أن يؤدي وجودهم فيها إلى إنهاء الوجود الأوروبي (وخاصة الفرنسي) بالإدارة. وكان قد بدأ يضايق الطلاب منذ افتتاح المدرسة، فأصدر أوامره لموظفي المتحف بمنع الطلاب من نسخ النصوص المصرية القديمة، ولما لم يجد أولئك الخريجون مكانًا لهم في مجال الآثار، عُينوا مدرسين ومترجمين للغتين الفرنسية والألمانية. وهكذا بددت السيطرة الأوروبية على إدارة الآثار الجهود التي بذلها إسماعيل لإعداد أول أثريين مصريين، فقد أغلقت «مدرسة اللسان المصري القديم» في نفس السنة التي تخرَّج فيها أولئك الطلاب السبعة.

ورغم ذلك أثمرت جهود المدرسة وناظرها، وما نشرته مجلة «روضة المدارس المصرية» من محاضرات الدكتور بروجش في دار العلوم وغيرها من المقالات والدراسات التي نُشرت مترجمة إلى العربية أو كتبها بعض طلاب المدرسة؛ أثمرت في نشر الوعي بتاريخ مصر القديم بين المتعلمين ورجال السياسة، وتجلى ذلك في الخطاب السياسي والثقافي الذي تغنى بمجد مصر القديم، سواء كان ذلك في كتابات رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وميخائيل عبد السيد، أو في أحاديث السيد جمال الدين الأفغاني وأحمد عرابي وعبد الله النديم، أو في تصميم الجناح المصري في معارض لندن وباريس والولايات المتحدة على النسق الفرعوني، أو في اتخاذ الأهرام وأبي الهول رمزًا لمصر على طوابع البريد وغيرها، واتخاذ «الأهرام» اسمًا لأبرز الصحف التي صدرت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. هذا الوعي بالتراث المصري القديم ما كان ليتحقق لولا ذلك الدور البارز الذي لعبته أول مدرسة للمصريات (مدرسة اللسان المصري القديم) — رغم قصر عهدها — وأسهمت في نشره أهم مجلة ثقافية مصرية (روضة المدارس) ظهرت في القرن التاسع عشر.

وأسهم الأجانب المقيمون في مصر — أيضًا — في ذيوع الاهتمام بالتراث المصري القديم؛ ففي عام ١٨٥٩م أسست مجموعة من نخبة الجاليات الأجنبية في مصر «المجمع المصري» بالإسكندرية، حيث كان الوجود الأجنبي كثيفًا، وجاء إنشاء «المجمع المصري» مصاحبًا للبدء في أعمال حفر قناة السويس. وقد كانت ذكريات «المجمع العلمي المصري» الذي أقامه نابليون بونابرت في مصر أيام الحملة الفرنسية حاضرة في أذهان مؤسسي المجمع المصري، فأرادوا إحياءه تحت رعاية الوالي محمد سعيد باشا، ولكن ليصبح اهتمامه مركَّزًا على الآثار المصرية والتراث المصري القديم. وتعاقب على رئاسته (فيما بين ١٨٦١ و١٩١٧م) أربعة فرنسيين ثم خلفهم يعقوب باشا أرتين وكيل نظارة المعارف. وضم المجمع في عضويته بالإضافة إلى الفرنسيين، أعضاء من الإنجليز والإيطاليين والألمان، وكانت اللغات الأربع لغات معتمدة لمنشورات ومحاضرات المجمع، بينما كانت الفرنسية لغة مجلس الإدارة. وحدد المجمع هدفه بالعمل على «إحياء المعارف القديمة على ضفاف النيل؛ تلك المعارف التي تعود إليها عظمة مصر القديمة مهد الآداب والعلوم والفنون»، وقد انتقل «المجمع المصري» إلى القاهرة عام ١٨٨٠م.

ورغم أن الأجانب كانوا يمثلون أغلبية أعضاء «المجمع المصري» فقد وجدت نخبة من العلماء المصريين لنفسها مكانًا بين الأعضاء، وكان على رأس تلك النخبة رفاعة الطهطاوي وإلى جانبه علي باشا مبارك ومحمود الفلكي (الذي كان العضو المصري الوحيد بمجلس الإدارة).

وتجلى اهتمام «المجمع المصري» بالآثار المصرية من اختيار مارييت نائبًا للرئيس، وغلبة الموضوعات الأثرية على محاضرات المجمع ومنشوراته، فألقى مارييت ومحمود الفلكي محاضرات حول تاريخ مصر القديم، وقدَّم الفلكي دراسة لفرع النيل الكانوبي الذي كان يصل فرع رشيد بالإسكندرية، وقد نشرت دراسات الفلكي بالفرنسية في عدد من الدوريات العلمية الأوروبية الشهيرة عندئذٍ، وانضم أحمد كمال (أول عالم آثار مصري) إلى المجمع عام ١٩٠٤م.

كذلك اهتمت الجمعية الجغرافية الخديوية، التي أسسها الخديو إسماعيل عام ١٨٧٥م، اهتمامًا جزئيًّا بالآثار المصرية القديمة، وكانت تلك الجمعية تضم في عضويتها أغلبية من الأجانب الممثلين للجاليات المختلفة الموجودة — عندئذٍ — بمصر، على نحو ما رأينا في «المجمع المصري»، ولكن تميزت «الجمعية الجغرافية الخديوية» بوجود أعضاء أمريكيين من الضباط الذين عملوا في قيادة الجيش المصري في عهد الخديو إسماعيل.

ويربط المؤلف بين اشتراك مصر في المعارض الدولية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ورواج حركة السياحة الأوروبية والأمريكية المتجهة إلى مصر لمشاهدة الآثار المصرية، ويلفت المؤلف الأنظار إلى مواكبة الاهتمام بزيارة مصر بدء حركة السياحة الأوروبية الخارجية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث نضجت مرحلة الرأسمالية الصناعية، واتسع نطاق الطبقة الوسطى ذات الدخول الكبيرة، وزاد ميلها إلى الاستمتاع بجانب من فائض مدخراتها في السياحة الخارجية، وخاصة زيارة مصر وفلسطين؛ حيث مهد الحضارة القديمة ومسرح الأحداث التي سجلها الكتاب المقدس.

فقد جاء اشتراك مصر في «المعرض الصناعي الدولي الكبير» الذي أقيم في لندن عام ١٨٥١م بجناحٍ صُمم على الطراز الفرعوني، مثيرًا لاهتمام الأوروبيين والأمريكيين الذين جاءوا لزيارة أول معرض دولي يقام في العالم، وبهرتهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة التي عبر عنها الجناح المصري، وحدث نفس الأثر عندما اشتركت مصر في «المعرض الدولي» الذي أقيم في باريس عام ١٨٥٥م، وكذلك عام ١٨٦٧م، وخاصة أن المعرض الأخير شهد جناحًا مصريًّا متميزًا، عبر عن التراث المصري القديم ببعدَيه الفرعوني والإسلامي.

وبعد أن كان قدوم الأجانب إلى مصر قاصرًا على الرحالة والمغامرين وأعضاء البعثات التي جاءت إلى مصر بقصد جمع الآثار للاتجار بها في أوروبا أو لحساب المتاحف الأوروبية، شهدت مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قدوم الأفواج السياحية التي نظمها بيت سياحي بريطاني؛ ما لبث أن اكتسب شهرة عالمية باعتباره مشروعًا يعرفه العالم

في هذا المجال، ونعني به «توماس كوك وولده» الذي بدأ نشاطه عام ١٨٤١م بتنظيم رحلات داخلية بالقطار من وسط إنجلترا إلى لندن، واتسع نشاطه مع إقامة «المعرض الصناعي الكبير» عام ١٨٥١م، فزادت رحلاته الداخلية إلى لندن لمشاهدة المعرض، ثم نظَّم رحلات خارجية — لأول مرة — لزيارة معرض باريس عام ١٨٥٥م، وكذلك رحلات لزيارة جبال الألب وإيطاليا. وجاء تنظيم توماس كوك للرحلات السياحية إلى مصر ليحول هذا البيت السياحي إلى مشروع دولي كبير يربط أوروبا وأمريكا بمصر من خلال الرحلات السياحية التي قام بتنظيمها مستخدمًا السفن البخارية، ومبتدعًا خطوط البواخر النيلية، ومشجعًا ومشاركًا في إقامة الفنادق لإقامة السياح بالأقصر وأسوان والقاهرة. ثم جاء امتداد الخطوط الحديدية إلى أسوان قبل نهاية القرن ليساعد على اختزال زمن الرحلة؛ ومن ثم تخفيض تكلفة الرحلة، وزيادة أعداد الرحلات السياحية المتجهة إلى مصر، وهكذا صنع «توماس كوك وولده» إمبراطورية سياحية كبرى ظلت تسيطر على هذا المجال كبيتٍ عائلي حتى تم بيعها لشركة «عربات النوم الدولية» لتتحول بذلك إلى شركة مساهمة عالمية (عام ١٩٢٦م).

ويرتبط بظاهرة السياحة الخارجية التي كان الاهتمام بالآثار المصرية وراء قيامها وتطورها، ظهور نوع من المطبوعات لم يكن معروفًا من قبل، وهو «دليل السائح» الذي حمل بالإنجليزية اسم «كتاب اليد» Hand Book وبالفرنسية اسم «كتاب الجيب» Livre de Poche؛ ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر طُبع أول دليل سائح لمصر باللغة الإنجليزية وآخر بالفرنسية، وازداد العدد في الستينيات من نفس القرن ليصبح أربعة بالإنجليزية وثمانية بالفرنسية، وظهر أول دليل بالإيطالية في الستينيات، وبالألمانية في السبعينيات، وعند نهاية القرن التاسع عشر، بلغ عدد أدلة السائح المنشورة بالإنجليزية ٣١ دليلًا، وبالفرنسية ١٥ دليلًا، وبالألمانية تسعة، وبالروسية دليلًا واحدًا. وهكذا صاحَب ظاهرة الاهتمام بالسياحة الخارجية التي استقطبتها مصر، ظهور وتطور صناعة الأدلة السياحية المطبوعة التي أصبحت عند نهاية القرن التاسع عشر تتنافس مع بعضها البعض، من حيث تنوع المعلومات التي تهم السائح لا عن الآثار المهمة وحدها وإنما عن مصر ذاتها: تاريخًا، ومناخًا، ومجتمعًا، إلى غير ذلك من معلومات، وكذلك بما تقدمه للسائح من خرائط ورسوم وصور إيضاحية.

كذلك ارتبط بظاهرة السياحة الخارجية رواج اللوحات المرسومة باليد لمناظر من مصر كان يرسمها بعض السياح الأوروبيين، ثم يطبعونها ويبيعونها في بلادهم أو يصدِّرونها

إلى مصر لتباع للسياح. ومع ظهور التصوير الفوتوغرافي عند منتصف القرن التاسع عشر، بدأت تظهر صناعة طبع الصور التي تعبر عن الآثار المصرية ومظاهر الحياة في مصر، وأتاح ذلك ظهور «البطاقات البريدية» Post-Card التي تحمل صورًا من مصر، ويرسلها السائح لأصدقائه من مصر بالبريد، وكان ذلك في التسعينيات من القرن التاسع عشر.

ولم تكن زيارة المواقع الأثرية وحدها على جدول زيارات الأفواج السياحية الأوروبية والأمريكية التي كان يجلبها «توماس كوك وولده» إلى مصر، بل كانت زيارة المتحف المصري بالقاهرة من أهم المواقع التي تتجه إليها أفواج السياح، وكان المتحف قد أقيم — على نحو ما رأينا — عام ١٨٥٨م في عهد سعيد باشا على شاطئ النيل عند بولاق (وهو الموقع الذي يقع الآن بين مبنى التليفزيون ومبنى وزارة الخارجية على كورنيش النيل)، وكان اختيار الموقع يهدف إلى تيسير نقل الآثار التي ترد من الصعيد على المراكب النيلية. واشتمل المبنى على «مصلحة الأنتكخانة» (التي كانت تابعة لنظارة الأشغال العمومية)، وصالات عرض التحف الأثرية، ومقر إقامة مدير الآثار، ولكن ما لبث المكان أن ضاق بمقتنياته وزواره، فتم نقل المتحف في أواخر عهد الخديو إسماعيل إلى قصر الحرملك بالجيزة. (وكان يقع على مشارف حديقة الأورمان)، واستمر هناك حتى أقيم له مبنى خاص بميدان الخديو إسماعيل (التحرير الآن) وهو المبنى الحالي الذي افتُتح في عهد الخديو عباس حلمي الثاني عام ١٩٠٢م، وينوء الآن بما يحتويه من آثار بعد قرن من الزمان، دون أن تسعى الحكومات المتعاقبة إلى التفكير في إقامة متحف آخر إلا في السنوات الأخيرة، ولم يتجاوز الأمر بعدُ حدود التفكير!

وظلت الآثار الفرعونية وحدها موضع الاهتمام حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عندما بدأ الاهتمام بالآثار اليونانية-الرومانية وكذلك الآثار العربية (الإسلامية) لتضاف بذلك نواة لمتحفين آخرَين لهذين العصرين، وجاء الاهتمام بالعصر القبطي متأخرًا (في أوائل القرن العشرين)، وأسفر ذلك الاهتمام عن إقامة المتحف القبطي لتكتمل بذلك دُور العرض المتحفي للآثار المصرية على مر العصور.

جاء الاهتمام بالعصر اليوناني-الروماني من خلال البحث في تاريخ مدينة الإسكندرية، ويعود إلى العالم المصري محمود الفلكي فضل ريادة الحفائر الأثرية بالإسكندرية (عام ١٨٦٥–١٨٦٦م) بهدف التحقق من بعض مواقع الإسكندرية القديمة، ونشر خريطة الإسكندرية القديمة محققة في مجلة المجمع العلمي المصري (١٨٦٨–١٨٦٩م) مع تقرير بنتائج الحفائر، وقد نشرها أيضًا بكوبنهاجن، وقد استفاد محمود الفلكي من خبرته كمهندس في تحديد مواقع الحفر وتنفيذه في وقت لم يكن عرف فيه —

بعدُ — الأصول العلمية والفنية لتنفيذ الحفائر الأثرية؛ ومن ثم كان عمل محمود الفلكي مبتكرًا في هذا المجال، ولم يتابع أحد بعده الحفر بالإسكندرية بشكل علمي منظم حتى نهاية القرن.

وفي ١٨٩١م أسس بعض الإيطاليين بالإسكندرية «الجمعية الأثينية»، ونجحت الجمعية في إقناع المجلس البلدي بالإسكندرية باتخاذ قرار بإنشاء المتحف اليوناني–الروماني ومكتبة البلدية، ووافقت الحكومة على القرار بعد تردد لبعض الوقت، على أن يخضع المتحف لإشراف مصلحة الآثار المصرية، وتتحمل البلدية نفقات إقامته. وتأسست «جمعية آثار الإسكندرية» عام ١٨٩٣م لترعى إقامة المتحف دون أن يكون بين أعضائها مصري واحد، بل ضمت نخبة الجاليات الأجنبية بالمدينة من المثقفين ورجال الأعمال. ونجحت الجمعية في إقامة المتحف اليوناني–الروماني عام ١٨٩٧م. وظلت إدارة المتحف بيد الإيطاليين حتى مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، على حين ظلت إدارة «المتحف المصري» بيد الفرنسيين حتى ذلك التاريخ أيضًا.

واستطاعت «جمعية آثار الإسكندرية» أن تجمع أموالًا كونت «صندوق الاكتشافات المصرية»، تم الإنفاق منها على الحفائر الأثرية المتعلقة بالعصر اليوناني–الروماني، وشراء التحف لتعرضها بالمتحف، وكذلك أوراق البردي اليونانية التي تم جمعها من الحفائر.

أما عن الآثار الإسلامية، فيعود الاهتمام بها إلى «لجنة حفظ الآثار العربية» التي شكَّلها الخديو إسماعيل عام ١٨٦٩م بناء على اقتراح من مهندس نمساوي (أوجست سالزمان) لترميم مسجد الظاهر بيبرس، ولكن الأمر لم يتجاوز حد صدور القرار بتشكيل اللجنة، ولم تتم دعوتها للانعقاد حتى نهاية عهد إسماعيل. وفي ديسمبر ١٨٨١م، أعاد الخديو توفيق تشكيل اللجنة من شخصيات أجنبية: إنجليز، وفرنسيين وإيطاليين وألمان، وكانت اللغة المستخدمة في أعمال اللجنة هي اللغة الفرنسية. وقد عقدت اللجنة أول اجتماعاتها في فبراير ١٨٨٢م، ثم تعطلت أعمالها بسبب حوادث الثورة المصرية ووقوع الاحتلال البريطاني لمصر، فاجتمعت في ديسمبر ١٨٨٢م برئاسة ناظر الأوقاف محمد زكي باشا الذي أصبحت اللجنة تتبع وزارته. وظل عمل اللجنة قاصرًا على النظر في ترميم المساجد القديمة التاريخية في حدود الميزانية الفقيرة التي ظلت في حدود ما يقل قليلًا عن أربعة آلاف جنيه سنويًّا، حتى عام ١٨٩٦م عندما قفزت الميزانية المخصصة لها إلى عشرين ألفًا من الجنيهات، ولم يتجاوز ما تم إنفاقه على ترميم الآثار الإسلامية حتى عام ١٩٠٦م (أي بعد ربع قرن من إنشاء اللجنة) ٢٠٥ آلاف من الجنيهات.

وتولت «لجنة حفظ الآثار العربية» إقامة «متحف الفن العربي» عام ١٨٨٤م في فناء مسجد الحاكم بأمر الله، حيث تكدست التحف المجموعة من هنا وهناك دون اتباع لأساليب العرض المتحفي، بل لم يكن هناك خبراء بالفن العربي (الإسلامي) بذلك المتحف، ولم تهتم كتب «الدليل السياحي» الخاصة بمصر بذكر ذلك المتحف إلا نادرًا. وفي عام ١٨٩٨م تم رصد اعتمادٍ لبناء مبنًى بباب الخلق يضم دار الكتب الخديوية ومتحف الفن العربي معًا، حيث تم افتتاح المتحف عام ١٩٠٣م (ويُعرف الآن بمتحف الفن الإسلامي).

وجاء الاهتمام بإقامة «المتحف القبطي» بمبادرة شخصية من مرقص سميكة — أحد أعيان الأقباط — الذي راعه ما تتعرض له التحف القبطية من ضياع، فأخذ على عاتقه مهمة جمعها والدعوة لإقامة متحف للفن القبطي للحفاظ عليها. وكان مرقص سميكة قد سعى لمد اختصاص «لجنة حفظ الآثار العربية» ليشمل ترميم الكنائس والأديرة التاريخية، وهو ما كان محل اعتراض البابا كيرلس الخامس. وفي عام ١٨٩٦م تم تعديل تشكيل اللجنة لينضم إليها عضوان من الأقباط، وتم رصد اعتماد لترميم الكنيسة المعلَّقة. ولكن كيرلس الخامس ظل معترضًا على تدخُّل اللجنة في أعمال ترميم الكنائس باعتباره أمرًا يخص الكنيسة وحدها، وأخيرًا وافق البابا على ترميم الكنيسة المعلقة عام ١٩٠٦م (وهو العام الذي أصبح فيه مرقص سميكة عضوًا باللجنة)، كما وافق على إقامة «متحف قبطي» عام ١٩٠٨م مقابل مساندة مرقص سميكة له في مواجهة دعاوى الإصلاح التي تبنَّاها المجلس الملِّي للأقباط الأرثوذكس. واشترط أن يكون «المتحف القبطي» تابعًا للكنيسة. وتم افتتاح المتحف القبطي عام ١٩١٤م.

وقد حرص دونالد مالكولم ريد في هذا الكتاب أن يؤرخ لرواد علم الآثار المصريين، ممن مارسوا العمل الأثري؛ ليدحض مقولة إن علم الآثار علم غربي لا شأن لأهل الشرق به. وهكذا رأيناه يحرص على تسجيل اهتمام الكتاب المصريين بالآثار، وألقى الضوء على الوعي بتاريخ مصر القديم وتراثها الحضاري عند المصريين، كما سجَّل فضل محمود الفلكي في ريادة الحفائر الأثرية في الإسكندرية (على نحو ما رأينا)، ولكنه أفرد مساحةً أوسع من دراسته لثلاثة من رواد العمل الأثري المصريين: أحمد كمال، وعلي بهجت، ومرقص سميكة (باعتباره صاحب فكرة المتحف القبطي).

وخلال تتبُّعه لتاريخ علم الآثار المصرية والمتاحف من حملة نابليون بونابرت حتى عام ١٩١٤م، لم يسقط المؤلف من اعتباره التطور العلمي والمعرفي والثقافي في مصر القرن التاسع عشر، بل اتخذ منه إطارًا عامًّا لدراسة موضوعه الأساسي، فرسم للقارئ معالم

النهضة العلمية والثقافية التي صاحبت مشروع محمد علي من إقامة نظام التعليم الحديث إلى حركة الترجمة، إلى الاتصال المعرفي بالحضارة الأوروبية الحديثة. كذلك وضع بين يدَي القارئ العلاقة بين التطورات التي شهدتها مصر في عهد الخديو إسماعيل ومشروعه الثقافي الشامل الذي تولَّى صياغته علي مبارك بمساعدة رفاعة الطهطاوي. كما لم يفصل المؤلف بين الاهتمام بالآثار من جانب الأجانب، والموجة الإمبريالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي استهدفت فتح الأسواق لاستثمار فائض رءوس الأموال وتصريف الإنتاج، وسعت إلى حماية مصالحها من خلال الهيمنة السياسية على مصر.

وهو إذ يتحدث عن محاولات الأجانب إبعاد المصريين عن ميدان الآثار، يضع أمام القارئ صورة الصراع الذي دار بين المصريين والأجانب من أجل تحرير بلادهم من الهيمنة الأجنبية، ويعالج العلاقة بين الرواد أحمد كمال وعلي بهجت والأجانب في سياق العمل الوطني الذي يهدف إلى الحفاظ على الهوية المصرية، ويحرص في خاتمة الكتاب على أن يلقي الضوء على ما حدث لعلم الآثار من تطورات بعدما ملكت مصر أمرها بيدها، وما تركته الكشوف الأثرية المهمة (قبل اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون) من آثار إيجابية على الحركة الوطنية المصرية.

لقد سبق للمؤلف أن قدَّم تاريخًا ثقافيًّا لمصر في القرن العشرين من خلال دراسته لجامعة القاهرة. وكتابه الذي بين أيدينا اليوم يقدم تأريخًا ثقافيًّا لمصر في القرن التاسع عشر من خلال دراسته لتاريخ علم الآثار والمتاحف في مصر، وهو ما يضفي على العمل أهمية خاصة، ويجعله مرجعًا أصيلًا لمن يريد الوقوف على تطور مصر الثقافي في القرن الذي شهد التحولات الكبرى في تاريخ مصر الحديثة.

إهداء

إلى
عبد المنعم إبراهيم الجميعي
صديقًا حميمًا للمؤلف والمترجم
ومؤرخًا قديرًا …

رءوف عباس

عرفان وتقدير

ما كان باستطاعتي متابعة البحث في موضوع هذا الكتاب بمصر لولا المنح التي حصلت عليها من «الوقف القومي للعلوم الإنسانية» (من خلال مركز البحوث الأمريكي بمصر)، ومن لجنة فولبرايت بمصر، وبرنامج فولبرايت-هايز لأبحاث أعضاء هيئة التدريس بالخارج، وجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وخلال عامين جامعيَّين قضيتهما في مصر (١٩٨٧–١٩٨٨، ١٩٩٨–١٩٩٩م)، كنت موضع رعاية د. جاب الله علي جاب الله الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار بمصر، ود. حسنين ربيع نائب رئيس جامعة القاهرة، ود. رأفت النبراوي عميد كلية الآثار بجامعة القاهرة، ود. رءوف عباس حامد وكيل كلية الآداب بجامعة القاهرة، ومركز البحوث الأمريكي بمصر. كما لقيت عونًا طيبًا من د. مختار الكسباني من كلية الآثار جامعة القاهرة. وحظيت بدعم وتشجيع الزملاء من جامعة ولاية جورجيا: العميد أحمد عبد العال، ورئيس قسم التاريخ بالجامعة: تيموثي كريمنز، وديان ويللن، وتحملت منحة كوين لأعضاء هيئة التدريس نفقات الفهرسة، كما ساعدني كل من د. جيمس هينرمان وبلاك يوسري على إعداد الخرائط.

ولعب الأستاذان د. ل. كارل براون، ود. فرحات ج. زيادة، دورًا فعالًا في تشجيعي على المضيِّ قدمًا في هذا العمل، وتركتْ صداقةً وزمالة عمرها ثلاثين عامًا جمعتني بوليم كيفلاند وروبرت هانتر بصماتها على هذا الكتاب، ومن بين الأصدقاء الآخرين الذين قدموا لي مساعدات قيمة: أحمد عبد الله، وجير باتشراتش، وإدموند بروك الثالث، وبروس كريج، وإسرائيل جرشوني، وآرثر جولد شمث جونيور، وعلاء الحبشي، وفايزة هيكل وكينيث بركنز، ومايكل رايمر، وجون رودنبك، وجاسون طمسون، ومي طراد، وجورج سكانلون، وسمير سميكة، ودولاند وتكومب، وكارولين ليامز.

كما لقيت مساعدة قيمة من د. عبد المنعم الجميعي، والسيد/مكرم نجيب اللذين غمراني بكرمهما أثناء وجودي بمصر. وللأسف جاء اتصالي المتأخر بإريك جادي حائلًا دون أن أُدخل على الكتاب سوى القليل من مقترحاته الممتازة والإشارات الببليوجرافية في هذا الكتاب.

وكدأبها دائمًا كانت زوجتي باربرا جيبس ريد خير عون ومشجع وناقد موضوعي لهذا العمل.

كما قدم الأستاذ نيل آشر سلبرمان وأحد المحكِّمين المجهولين الذين استعانت بهم إدارة النشر بجامعة كاليفورنيا؛ قدَّما نظرات نقدية ثاقبة على مخطوطة الكتاب. كما أدين بالفضل للآنسات لين ويتي، ولورا هارجر، ووبن ويتاكر من إدارة النشر بجامعة كاليفورنيا.

وأَذِن لي بعض الناشرين باستخدام بعض المقتطفات من بحوثي التي نُشرت لديهم؛ مما يستوجب تقديم الشكر إلى مركز الدراسات الوثائقية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية بالقاهرة (سيديج SEDEJ)، وفرانك كاس للنشر بلندن، وإدارة النشر بجامعة كولومبيا.

وتبقى مسئولية الآراء التي قدمتها في هذا الكتاب من نصيبي وحدي.

المؤلف

مقدمة

«جدير بالمثقفين الأوروبيين أن يقدِّموا الشكر لفرنسا لانتزاعها مسلةً من أعماق الطمي المتراكم في مصر، ومن الجهل البربري للتُّرك؛ فالأوروبيون هم أصحاب الحق في الآثار القديمة؛ لأنهم وحدهم يعرفون كيف يتذوقونها، فهي حقيقةً تخص من لهم الحق الطبيعي في رعايتها وجني ثمارها.»

الكابتن فرانك سان-مور
رحلة الأقصر (١٨٣٥م)

«إنه لمؤسف حقًّا أن تكون الآثار آثارنا، والتاريخ تاريخنا، ولكن من يكتبون تاريخ مصر القديم ليسوا من المصريين ... غير أننا لا نملك سوى التعبير عن إعجابنا بالأستاذ سليم حسن لبراعته في علم الآثار ولاكتشافاته الأثرية الدائمة، والتي كان آخرها الهرم الرابع.»

صحيفة «البلاغ» المصرية، ٢٦ فبراير ١٩٣٢م

يعالج هذا الكتاب الكيفية التي تناول بها المصريون (ومعظمهم من الوطنيين)، والأوروبيون (ومعظمهم من الإمبرياليين)، حقبًا معينة من تاريخ مصر الممتد فيما بين غزو نابليون لمصر في العام ١٧٩٨م، واندلاع نيران الحرب العالمية الأولى.

وتعود البداية الأوروبية لعلم الآثار في مصر إلى زمن الحملة الفرنسية، فقد اكتشف الجنود الفرنسيون حجر رشيد صدفة عام ١٧٩٩م، واستطاع جان فرانسوا شامبليون أن

يحل رموز النص الهيروغليفي المدوَّن عليه بعد ثلاثة وعشرين عامًا من ذلك التاريخ، ففتح بذلك الباب أمام علم «المصريات» الحديث. وعلى مدى نصف القرن الذي يقع بين ١٨٥٨م و١٩٠٨م، لعب الأوروبيون الدور الرئيسي في تأسيس مصلحة الآثار المصرية وأربعة متاحف تاريخية هي: المتحف المصري (للعصر الفرعوني)، والمتحف اليوناني الروماني، والمتحف القبطي، ومتحف الفن العربي (ويعرف الآن بمتحف الفن الإسلامي). وخلال نفس الفترة — نصف القرن — أحكم الاستعمار الأوروبي قبضته على مصر؛ مدفوعًا لتحقيق متطلبات الثورة الصناعية: الحاجة للقطن وغيره من المواد الخام، والسعي لإيجاد أسواق وفرص استثمار فيما وراء البحار، واحتدام مشكلات الإنتاج الواسع، والصراعات بين الدول الأوروبية. وبدا وكأن علم الآثار والإمبريالية يسيران معًا يدًا بيد.[١]

وعندما تعرَّف المصريون على علم الآثار عن طريق الأوروبيين، بدءوا يدركون — تدريجيًّا — إمكانية استخدامه لخدمة أهدافهم الوطنية. وعندما أيقن المصريون من الدور الحيوي الذي يلعبه علم الآثار — في صياغة هويتهم القومية — راحوا يلتمسون السبل التي تتيح لهم تدريب الآثاريين المصريين، وهيأ ذلك المسرح للتحدي الوطني للهيمنة الأوروبية على المؤسَّسات الآثارية المصرية، وللتفسيرات الغربية الإمبريالية لتاريخ مصر.

كانت الاعتبارات الجيوبوليتكية وحدها هي التي دعت الأوروبيين في القرن التاسع عشر إلى محاولة السيطرة على مصر، ولكن الرؤية المبهرة لتاريخها السحيق أعطت تلك المحاولات دفعة قوية. فقد أحس الغربيون الذين يطئُون أرض مصر أنهم يدخلون عالم الفراعنة، عالم التوراة، والإغريق والرومان، والقرآن، وألف ليلة وليلة. وقد عبَّرت فلورانس نايتنجيل عن هذه العوالم الأربعة في جملة واحدة حين قالت: «هنا عاش أوزيريس وعباده، وسار إبراهيم وموسى، وإلى هنا جاء أرسطو، وفيما بعد جاء محمد[٢] ليتعلم مبادئ دينه

[١] «علم الآثار» يُعنى بدراسة المجتمعات القديمة من خلال ما يتم العثور عليه من آثار مادية في الحفريات. وقد استخدمنا المصطلح في هذا الكتاب ليعني «التاريخ القديم» (ويجمع بين الفلسفة والتاريخ)، وقد ساد هذا المعنى في العقود الأولى من القرن العشرين. وأخذت بهذا المفهوم كلية الآثار بجامعة القاهرة حتى الآن، ويركز قسم الآثار الإسلامية فيها على التاريخ والفن أكثر من اهتمامه بالحفائر.

[٢] هذا نص الاقتباس من نايتنجيل، أورده المؤلف ونقلناه بأمانة، ولا يعني ذلك أن النبي محمدًا تعلَّم مبادئ الدين في مصر. (المترجم)

ويدرس المسيحية، ولعل أُمَّ مخلِّصنا (السيدة مريم) جاءت بابنها إلى هنا ليفتح عينيه على النور.»[٣]

ولم تكن تلك الزوايا الوحيدة التي رأى الغربيون من خلالها تراث مصر؛ فورثة السحر رأوا في مصر منبع الحكمة السحرية، وما زال الإيمان بالسر الخفي للأهرام موجودًا حتى اليوم. وتصوَّر البعض الآخر من الغربيين أنفسهم صليبيين عادوا لاسترداد مواقعهم المفقودة، وإن كان ذلك أكثر ارتباطًا بفلسطين وسوريا، مثلما كان شعور الجنرال اللينبي عند دخوله القدس عام ١٩١٧م، والجنرال جورو عند دخوله دمشق عام ١٩٢٠م. وراح الرومانسيون الذين افتقدوا عالم ما قبل الثورة الصناعية في بلادهم، راحوا ينشدون في البدو «الأرستقراطية الطبيعية» والمُثل الخلقية الفطرية، ورأى بريطانيو الهند في المصريين الصفات الوراثية للشرقيين الذين يمكن حكمهم بالأساليب التي استُخدمت في الهند. ولما كانت الحكمة غائبة عن الجميع، كان السؤال الأساسي يتعلق بنوع الغرابيل التي يمكن استخدامها لاستخلاص حقيقة مصر، ومدى اتصال ذلك بالواقع المصري وتعبيره عنه.

وثمة رؤيتان فرنسيتان ترمزان إلى ارتباط الغرب بالآثار المصرية طوال القرن التاسع عشر، إحداهما: فاتحة المجلد الأول من كتاب «وصف مصر» الذي أعدته الحملة الفرنسية، وثانيتهما: مبنى «المتحف المصري» الذي افتتُح عام ١٩٠٢م وما زال يُستخدم حتى اليوم؛ ففي فاتحة المجلد الأول من «وصف مصر» رسم إطار زخرفي غني، يدعو ناظره إلى الغوص في مناظر النيل الخلابة من الإسكندرية إلى أسوان (انظر الشكل رقم ١).[٤] فهذه بلاد قديمة مليئة بالخرائب الفرعونية، ولا نرى أثرًا إسلاميًّا بينها. أو منظرًا للقاهرة، أو سكان مصر المحدثين. وعلى رأس الإطار منظر عارٍ لنابليون في صورة أبولُّو أو الإسكندر، يصوِّب رمحًا من عربته الحربية بينما يخر المماليك أمامه، ووراء «البطل» اثنتا عشرة من إلهات الفنون (في الأساطير الإغريقية) يُعدن إلى مصر الفنون لتستقر في أرضها الأسطورية التي نبعت منها.

---

[٣] Florence Nightingale, Letters From Egypt: A Journey on the Nile 1849–1850 (New York), 33.

[٤] رغم أن المجلد الأول من «وصف مصر» يحمل تاريخ ١٨٠٩م فإنه لم يُنشر إلا في ١٨١٠م. انظر: Commission des monuments d’Egypt, Description de l’Egypt, vol. 1, Paris 1809, Frontispiece.

وبعد ذلك بقرن من الزمان، خلَّدت واجهة «المتحف المصري» عام ١٩٠٢م، وحديقة النصب التذكاري لمؤسسة أوجست مارييت، أبطال علم المصريات الأوروبي منذ نابليون (انظر الشكلين ٢، ٣). وتضمنت قائمة رواد علم المصريات الأوروبيين: ستة من الفرنسيين وخمسة من البريطانيين، وأربعة من الألمان، وثلاثة من الإيطاليين، وهولندي، ودانماركي، وسويدي (انظر الشكل ٤). وخلت القائمة من أسماء المصريين. وثمة لوح تذكاري آخر أكد المدخل الكلاسيكي الذي أطال من خلال الغرب النظر إلى مصر القديمة، إذ يبرز اللوح هيرودوت، وإراتوس، ومانيتو، وهور أبولُّو. واحتل ذلك اللوح مكانه بين ألواح أخرى خلدت حكام مصر القدامى والعلماء المحدثين.

وعلى جانبَي مدخل المتحف، نُحت تمثالان جداريان يمثلان إلهة الوجه القبلي، وإلهة الوجه البحري (انظر الشكل ٥) يرتدي كلٌّ منهما «عباءة مبتلة» على نحو ما جرت عليه تماثيل النساء عند الإغريق، حيث تكشف تلك العباءة عن تفاصيل الجسد، وذلك في وقت كانت فيه نساء الطبقة العليا في مصر يعشن في عصر الحريم ولا يستطعن الخروج من بيوتهن دون نقاب. وجاء نقش اسم الخديو عباس حلمي الثاني على المدخل طبيعيًّا، ولكنه لم يقدم ترضية كافية للمشاعر الوطنية (انظر الشكل ٦)، فقد كُتب النص باللاتينية التي لا يعرفها إلا الندرة من المصريين، وجاءت إضافة السنة الهجرية إلى جانب السنة الميلادية كنوع من الترضية ولكنها كُتبت باللاتينية أيضًا وبطريقة الترقيم الرومانية. وقد تعني بذلك واجهة المتحف عند المصريين أن «علم المصريات أوروبي خالص، وهو العلم الذي كشف عن عظمة مصر القديمة التي تعد أصل الحضارة الأوروبية، وأن المصريين المحدثين لا يستحقون أن يكونوا ورثة قدماء المصريين، فهم لم يصلوا إلى عظمتهم، ولم يأخذوا علم المصريات مأخذ الجد.»[٥]

وكان للمصريين نظراتهم الخاصة بهم في مجال السياسة وعلم الآثار؛ فعلى الصفحة الأولى من أحد أعداد العام ١٨٩٩م لصحيفة الأطفال المصرية «السمير الصغير» التي لم

---

٥ انظر: Benedict Anderson, Imagined Communities, 2nd ed. (London 1991), 181; Karl Baedeker, Egypt and the Soudan, 8th ed. (Leipzig 1929) 88.

حيث يذكر أن فردينان فيفر هو النحات الذي صنع تمثالَي إلهة الوجه القبلي وإلهة الوجه البحري على جانبي مدخل المتحف.

تعمر طويلًا، وُضعت مصر القديمة في بؤرة النهضة الوطنية الحديثة (انظر شكل ٧)،[٦] فأشعة الشمس التي ترمز إلى «نور المعرفة» تتجه نحو الأم التي بدت في زيها الوطني، والتي توجه أنظار أطفالها إلى الأهرام وأبي الهول. واحتل عباس حلمي الثاني (وليس نابليون) قمة المشهد الذي أحاط به أربعة من رموز الإصلاح من رجال الدولة والمعلمين والعلماء، ثلاثة منهم يحتلون موقعًا مهمًّا من كتابنا هذا، وهم: رفاعة الطهطاوي، ومحمود الفلكي، وعلي مبارك. وبذلك وُضعت عند ختام القرن التاسع عشر البذور التي أنبتت أُكُلها في العشرينيات من القرن العشرين التي اتسمت بالاعتزاز القومي بالماضي الفرعوني وعلم المصريات.

لم يكن العصر الفرعوني وحده الذي ادعى العلماء الغربيون وشعوبهم حقهم فيه، فقد كان للأوروبيين فضل الريادة في تأسيس متاحف أخرى في مصر: المتحف اليوناني-الروماني بالإسكندرية، ومتحف الفن العربي (الإسلامي الآن) بالقاهرة، وهم الذين ألهموا من أسسوا المتحف القبطي، وكما رأينا في «المتحف المصري»، عبر كل المتاحف الثلاثة عن أحد الفروع العلمية القائمة، وعن عصر من عصور تاريخ مصر الضارب في أعماق الزمن، ومع وجود هذه المتاحف والحقول المعرفية التي اتصلت بها، شعر المصريون بالحاجة إلى تكوين وتدريب المتخصصين الذين يعطون مصداقية لتطلُّع المصريين إلى تولِّي مهمة دراسة وتفسير مختلف عصور تاريخهم المديد.

وجاء تتابُع تأسيس المتاحف ليعكس أولويات الاهتمام الأوروبي بمصر أكثر من تعبيره عن الأولويات المصرية. فجاء تأسيس «المتحف المصري» للآثار الفرعونية نتيجة اهتمام الأوروبيين بالكشف عن الحضارة المصرية القديمة، وكان الاهتمام بالإغريق تأكيدًا لأهمية هذه الحضارة كأصل للحضارة الغربية. وتسمية «المتحف المصري» وعلم «المصريات» تعكس الأهمية الكبرى التي يوليها الغرب للعصر الفرعوني، وكان من المنطقي أن يتضمن علم المصريات دراسة لتاريخ مصر في مختلف عصور التاريخ، ولكن المصطلح صيغ في منتصف القرن التاسع عشر ليعني دراسة تاريخ مصر القديم مع اعتبار العصرين

---

[٦] Bertrand Millet, Samir, Mickey, Sindbad et les autres: Histoire de la presse enfantine en Egypt (Cairo 1987) 30–31.

وقد تأسست «السمير الصغير» عام ١٨٩٧م لتقديم المعلومات المصورة للأطفال.

اليوناني-الروماني والقبطي نتاجًا له. وهذا الاستثناء للعصرين الإسلامي والحديث يعني — بصورة أو بأخرى- «أن مصر فقدت هويتها عند نهاية تاريخها القديم».[٧]

وجاء تأسيس متحف القاهرة للفن العربي تاليًا لتأسيس «المتحف المصري» نتيجة عمل «لجنة حفظ آثار الفن العربي» التي تأسست عام ١٨٨١م، وكان تأسيس اللجنة لهذا المتحف الذي افتُتح عام ١٨٨٤م تعبيرًا عن افتتان أهل الغرب بالآخر «الشرقي»، ولا يدخل هذا الاهتمام — بحال من الأحوال — في نطاق سعي الغرب للبحث عن جذوره الحضارية.

وأعقب ذلك تأسيس المتحف اليوناني-الروماني عام ١٨٩٢م الذي لم يقم بالقاهرة، وإنما أقيم بالإسكندرية العاصمة البطلمية لمصر. ومن السهولة بمكان تعريف الأوروبيين في إطار الحضارة الإغريقية-الرومانية أكثر من حضارتَي مصر القديمة والإسلام. فقد قلل الكثيرون من فضل مصر القديمة على اليونان والرومان، واعتبروها مجرد نقطة ارتكاز في الطريق إلى الحضارة اليونانية-الرومانية العظيمة. ومع وجود العديد من المتاحف التي ضمت آثار اليونان والرومان في أوروبا، كان إنشاء متحف آخر بمصر لا يحتل الأولوية.

ولكن بحلول عام ١٨٩٢م، ومع وجود نخبة من البريطانيين المثقفين ممن حكموا مصر، ووجود جاليات أوروبية كبيرة، أصبح الوقت مناسبًا لإقامة هذا المتحف؛ ففي إيطاليا كانت الطبقات العليا تبحث منذ عصر النهضة عن الآثار الرومانية القديمة وأعطى القوميون الذين أسسوا الوحدة الإيطالية في القرن التاسع عشر دفعة جديدة لتلك الجهود، وتعاقب على إدارة المتحف اليوناني-الروماني ثلاثة من المديرين الإيطاليين الذين بذلوا الجهود لدعم الجانب الثقافي من مطالب بلادهم في تلك الولاية القديمة من ولايات الإمبراطورية الرومانية.

وكان المتحف القبطي — الذي أُسس عام ١٩٠٨م — آخر المتاحف الأربعة التي تمت إقامتها في مصر. لقد ظل الكاثوليك والبروتستانت في الغرب ينظرون إلى الكنيسة القبطية منذ زمن بعيد على أنها هرطقة تعكس عيوب «البيئة الشرقية». ولكن المسيحيين الغربيين — واليهود فيما بعد — اهتموا بعلم الآثار لإقامة الدليل على صحة الكتاب المقدس في مواجهة دعاوى العلمانية والنزعة العلمية، دعمًا لقضيتهم. وقد جاسوا خلال فلسطين وبقية بلاد الهلال الخصيب بحثًا عن الأدلة الأثرية التي تدعم دعواهم، وكان من الصعب

---

[٧] A. Zvie, “L’Egypte ancien ou l’Orient perdu et retrouvé” in D’un Orient l’autre, 2 vols. (Paris 1991), 1: 38.

عليهم تجاهل بلد النيل (مصر) التي ارتبط بها يوسف، وموسى، والمسيح، وأمه مريم، والقديس مرقص. ويرجع الأقباط أصل كنيستهم إلى القديس مرقص، وهم الذين ابتدعوا نظام الرهبنة المسيحية. وفي التسعينيات من القرن التاسع عشر، اهتم بعض الأوروبيين بالفن القبطي والعمارة القبطية، وكان حماسهم مصدر إلهام مرقص سميكة فكرة تأسيس «المتحف القبطي»، وكان المتحف فريدًا في نوعه، يديره مؤسِّسه المصري، ولا يخضع لسلطة الدولة وإنما ترعاه الطائفة القبطية.

والغرض الرئيسي لهذا الكتاب هو كتابة تاريخ المصريين المحدثين من خلال دراسة تاريخ هذه المتاحف والمؤسَّسات والعلوم التي ارتبطت بهم: علم المصريات، والدراسة القديمة (الكلاسيكية)، والدراسات القبطية، والفن والعمارة الإسلامية. فالكتابات الغربية في تاريخ تلك العلوم تعكس عادة النظرة الإمبريالية التي طبع بها ذلك العصر، وحتى الكتابات التي احتفت بها، همشت دور المصريين. ويهتم هذا الكتاب — أيضًا — بالبحث في المفاهيم الأكثر شيوعًا عن المصريين فيما يتعلق بماضيهم — في مصر والغرب على حد سواء — ومدى صلتها بالإمبريالية، والقومية والهوية المصرية.

وكانت تلك التطورات التي شهدها علم الآثار المصري والمتاحف جزءًا من عملية دولية، سعت من خلالها الدول والشعوب لتقديم نفسها باعتبارها «أممًا حديثة»، وكان البون شاسعًا بين أن يكون أو لا يكون المرء مواطنًا لإحدى الدول الغربية الكبرى: بريطانيا، أو فرنسا، أو ألمانيا، أو حتى الولايات المتحدة الأمريكية؛ تلك الدول التي حظي نفوذها السياسي والاقتصادي باعتراف العالم أجمع. وكانت المتاحف التي أُنشئت في المستعمرات كمصر والهند، ساحات متميزة للنضال من أجل الاستقلال الوطني. أما البلاد المستقلة شبه الطرفية كاليونان، وإيطاليا، والإمبراطورية الروسية، والمكسيك، فقد بُذلت فيها جهود مضنية لدراسة وعرض ما يتصل بماضيها لخدمة أهداف توسعية عكست — بدرجات مختلفة — ملامح علم الآثار في البلاد المستقلة والمستعمرة على السواء.

ويحاول هذا الكتاب تقديم أطروحة ذات مستويات خمسة؛ أولًا: المقابلة بين التواريخ المألوفة للآثاريين الغربيين والتاريخ المهمل لنظرائهم المصريين، فما زال علم الآثار المصرية يحتاج إلى أن يُكتب عنه الكثير حتى بعد ميشيل فوكو، وإدوارد سعيد، وعودة الاهتمام بأنطونيو جرامشي، والفرضيات الوضعية حول المعرفة التقدمية، الموضوعية، «العلمية». فالذين يحتلون على مسرح علم الآثار المصرية دور «البطولة» هم: شامبليون، ريتشارد

ليبسيوس، أوجست مارييت، جاستون كاميل شارل ماسبيرو، أدولف إرمان، فلندرز بتري، هوارد كارتر، جيمس برستيد، وجورج ريشنر. بينما تحجب الظلال المصريين باعتبارهم ملاحظي عمال أكفاء، وخدمًا مخلصين، وعمالًا، ولصوص جبَّانات، وتجار عاديات، وموظفين معوقين للعمل، ووطنيين مهووسين. ومن المقابلات التي لا جدال فيها، مقابلة شامبليون ورفاعة الطهطاوي، وكذلك إدوارد لين ورفاعة الطهطاوي، وماسبيرو وأحمد كمال، وماكس هيرتز وعلي بهجت، على نحو ما فعلنا في هذا الكتاب لتحدي الفكرة السائدة عن تفرد الغربيين في علم الآثار المصرية، دون أن نقلل من حجة مساهمات الغربيين أو نبالغ في مساهمات المصريين أو أوجه التشابه بين الفريقين، ولندحض الفكرة القائلة باستحالة التقاء الطرفين، وأن تاريخ علم الآثار كان غربيًّا محضًا، يلعب المصريون فيه دور المتفرج.

لقد أسقطت الطبعة الأولى (١٩٥١م) من موسوعة أعلام علم المصريات (Who Was Who in Egyptology) اسم رائد المصريات المصري أحمد كمال، ولم يذكر في الطبعتين الثانية والثالثة إلا عرضًا، وإن خصته الطبعة الثالثة من هذه الموسوعة البريطانية الشهيرة (١٩٩٥م) بعشرين سطرًا، على حين كان نصيب ماسبيرو ٨٢ سطرًا، ونصيب بتري ١٣٤ سطرًا. ولا شك أن ماسبيرو وبتري كانا عملاقين، ولكن التعامل مع أحمد كمال بهذا القدر من الإهمال يحتاج إلى تفسير. إن الموسوعات من هذا النوع تهدف إلى استخلاص «العلم» من السياق السياسي الاجتماعي، ولا تضع في اعتبارها الانتماء القومي للأعلام أو الصراعات الشخصية ولكن ما فعلته «موسوعة أعلام علم المصريات» يحول دون فهم علم المصريات كما عاشه أولئك الرواد.[٨] كانت سيادة اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية في حقل المصريات أحد العوامل المهمة التي أعطت للأوروبيين ميزة بارزة في هذا المجال.

أما المستوى الثاني للأطروحة فهو وضع تاريخ علم الآثار والمتاحف في المجرى العام لتاريخ مصر الحديث. فبعد احتدام الحركات الوطنية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، زعم علماء الآثار الغربيون أنهم أقاموا أسس علمهم على قواعد الموضوعية ونبذ المنفعة. وفي العقدين الماضيين تعرَّض هذا الزعم لهجوم متزايد بافتراض أن الأهداف السياسية

---

[٨] W. R. Dawson, Who Was Who in Egyptology (London 1951), W. R. Dawson and Eric P. Uphill, 2nd ed., (1972); W. R. Dawson, Eric P. Uphill and M. L. Bierbrier, 3rd ed., (1995).

كانت كامنة وراء علم الآثار في الغرب،[٩] ولكن بالنسبة لمصر بدأت عملية إعادة التقويم. فلا يُذكر مارييت وماسبيرو إلا باعتبارهما من كبار علماء المصريات، ولكن يجب أن يذكرا أيضًا باعتبارهما ممثلين بارزين للإمبريالية في عصرهما، وعناوين مثل «اغتصاب النيل»، و«اغتصاب مصر»، و«اغتصاب توت عنخ آمون»، تعكس الاعتراف الغربي الراهن بالجانب الإمبريالي من علم المصريات في القرن التاسع عشر، ولكن هذه الكتب تترك الغربيين يتصدَّرون المسرح، وتترك للمصريين دور «الضحايا».[١٠]

غير أن المؤرخين المصريين المحدثين ركزوا جهودهم في مراجعة التاريخ على مجالات أخرى، ولم ينل علم الآثار إلا القليل من اهتمامهم؛ فالقليل من المصريين والأقل من الغربيين يعرفون شيئًا عن أحمد كمال، أو علي بهجت، أو مرقص سميكة؛ وغير هؤلاء من المصريين الذين تناولهم هذا الكتاب معروفون بشكل أفضل، كالجبرتي، والطهطاوي، وعلي مبارك، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، والملك فؤاد؛ ولكن علم الآثار، والمتاحف والتاريخ القديم، لا يدخل ضمن ما عُرف عن هؤلاء. تُرى من يتذكر أن طه حسين عندما عُين أستاذًا بالجامعة كان أستاذًا للتاريخ اليوناني-الروماني وليس أستاذًا للأدب العربي؟[١١]

وفي المستوى الثالث للأطروحة التي يقدمها هذا الكتاب، يتسع إطار النظر إلى تواريخ علوم المصريات، والدراسات اليونانية-الرومانية، والدراسات القبطية، والعمارة والفن الإسلامي، ليضمنها جميعًا معًا. فمجال هذه العلوم الأربعة هو ماضي مصر، ولكن المتخصص في واحد منها نادرًا ما يهتم بما يخرج عن إطار تخصصه، وأحيانًا يمتد اهتمامه إلى العصر السابق أو اللاحق لمجال تخصصه. والتخصص في واحد من هذه العلوم ضروري بحكم اختلاف اللغات وطرق الكتابة والأديان في كل عصر من تلك العصور عنها في غيره،

---

[٩] Bruce Trigger, A History of Archaeological Thought (Cambridge, Mass., 1989); Bruce Kuklick, Puritans in Babylon: The Ancient Near East and American Intellectual Life 1880–1930 (Princeton, N.J., 1996): Suzanne L. Marchand, Down From Olympus, Archaeology and Philhellenism in Germany, 1750–1970, (Princeton, N.J., 1996).

[١٠] Brian M. Fagan, The Rape of the Nile (London 1975); Peter France, The Rape of Egypt: How Europeans Stripped Egypt of Its Heritage (London 1991); John and Elizabeth Romer, The Rape of Tutankhamun. (London 1993).

[١١] كان المقرَّر الذي تولَّى طه حسين تدريسه بالجامعة المصرية عام ١٩١٩م هو «تاريخ الشرق القديم»، وقد قام بتدريسه مركِّزًا على التاريخ اليوناني الروماني وموقع مصر منه.

ولكن حدود التخصص والعصور التاريخية قد تترك آثارًا سلبية على الدراسات نفسها. وقد ارتضى المؤرخون المصريون المعاصرون أن يتركوا تاريخ علم الآثار للآثاريين (ولهواة الكتابة من غير المتخصصين)، مما يؤدي إلى نقص في دراسة تاريخ علم الآثار؛ فرغم أن كتابة الآثاريين فيه مطلوبة إلا أن مؤرخي مصر الحديثة أقدر على وضع تطور ذلك العلم في سياق تاريخ مصر الحديث.

ويتناول المستوى الرابع من أطروحة هذا الكتاب، الاهتمام العلمي والشعبي بتاريخ مصر، في مصر، وكذلك في الغرب. وغالبًا ما تقوم الدراسات التاريخية لعلم المصريات وغيره من تخصصات الآثار المصرية، بتنحية الأفكار الشعبية المتصلة بموضوع دراستهم، رغم ما في بعضها من إثارة للخيال: فالأدبيات الخاصة «بالولع بمصر» طرقت موضوعات فرعونية في الرسم والتصوير الفوتوغرافي، وطرز الملابس، وأدب الرحلات، والروايات، والأغاني الشعبية، والموسيقى الكلاسيكية، والمعارض الدولية، وكتب الدليل السياحي، وبطاقات البريد، وطوابع البريد، فابتداءً من «معرض لندن الكبير» (أو قصر الكريستال) في العام ١٨٥١م، لم يكن هناك معرض دولي يستحق أن يسمى كذلك إذا غاب عنه «جناح مصر». وعلى الجانب المصري التفتت الأنظار مؤخرًا إلى الرموز الفرعونية التي استخدمها دعاة الاستقلال الوطني في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.[١٢] وفي تتبعي لهذه الظاهرة فضلت أن أصفها «بالولع المصري بالعصر الفرعوني» أو «الحماس الشعبي تجاه مصر القديمة» نحو «الفرعونية» أو «النزعة الفرعونية» التي تثير عند الكثير من المسلمين الصور المستهجنة للوثنية وطغيان فرعون الذي عانى منه موسى وبنو إسرائيل على نحو ما جاء به القرآن (والإنجيل).

ولا يتضح دائمًا الحد الفاصل بين «علم المصريات» و«الولع بمصر الفرعونية»؛ فمن بين أصحاب الاتجاه الأخير نجد مارييت، وزميله الألماني هنريش بروجش، وعضو اللجنة المهندس المعماري ماكس هرتز الذي سعى لضمان الأصالة المصرية في تصميم الجناح المصري في المعارض الدولية، واستخدم كارل بايدكر، وتوماس كوك، وجون موراي العلماء من أهل الاختصاص لكتابة بعض فصول كتب «الدليل السياحي» التي حملها السياح

---

١٢ Israel Gershoni and James Jankowski, Egypt, Islam and the Arabs, The Search For Egyptian Nationhood, 1900–1930, (New York 1986).

والكتاب يتناول النزعة الفرعونية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

معهم في رحلاتهم المتجهة إلى الصعيد. وتنوع الرسامون والمصورون الغربيون من السياح إلى الآثاريين. وكتب جورج إيبرس كتيبات في علم المصريات، كما كتب بعض الروايات التي تناولت موضوعات من عصر الفراعنة. وتولى ماريت — عالم المصريات — إدارة مصلحة الآثار والمتحف، بينما عبر عن ولعه بمصر القديمة من خلال كتابته النص الذي أصبح أوبرا «عايدة» لفردي، وقد أصر على أن تكون ملابس الأوبرا مطابقة تمامًا للزي الفرعوني، ولكن ماذا يجدي الإصرار على الأصالة مع تلك الموسيقى الأوروبية البديعة التي لا صلة لها بمصر القديمة، والتي لم يستطع تذوُّقها المصريون المعاصرون له؟

أما المستوى الخامس لأطروحة هذا الكتاب فيتناول المناورات التي درات بين «الوطنية» و«الإمبريالية» من ناحية، والموضوعية المثالية لعلم ذي طبيعة دولية من ناحية أخرى. ولم ينجح كل من الغربيين والمصريين في التوصل إلى حل معضلة أن يكونوا مواطنين صالحين لمجتمعَين متخيَّلَين؛ أحدهما سياسي ذو طبيعة خاصة (إما إمبريالي غربي، أو مصري وطني)، والآخر عالمي. ففي الاقتباس الذي نستهل به هذه المقدمة، برر سانت-مور نقل مسلة من الأقصر إلى باريس بالمزج بين مخاطبة «مثقفي أوروبا» كمبرر عالمي الطابع، والوطنية والإمبريالية الفرنسية.[١٣] وبعد ذلك بقرن من الزمان كتب مصري مجهول في صحيفة «البلاغ» القاهرية صيغة بليغة جمعت بين العالمي والوطني معًا عندما قال: «إن العلم لا وطن له؛ لأنه ثمرة الفكر البشري المتطلع لتحقيق الخير للإنسانية، ويجب ألا يعرف العلم حدودًا جغرافية، وأن يتخلص تمامًا من شبهة التحيز الوطني. غير أننا لا نملك سوى التعبير عن إعجابنا بالأستاذ سليم حسن، لبراعته في علم الآثار، ولاكتشافاته الأثرية الدائمة والتي كان آخرها الهرم الرابع.»[١٤]

وتقدم الإمبريالية الغربية في مواجهة الوطنية المصرية، إطارًا ضروريًّا لهذا المستوى من الأطروحة، لا يتسم بالبساطة، ولكنه ليس كافيًا. فقبل عام ١٩١٤م أبدى الآثاريون الغربيون (الإنجليز، والفرنسيون، والألمان، والإيطاليون، والنمساويون، والأمريكيون) اتجاهات إمبريالية في تعاملهم مع الآثار المصرية. وكان بعض أولئك العلماء أكثر تسيسًا من الآخرين. وكان الصراع بين بعض الأفراد من جنسية واحدة بالغ الحدة أحيانًا. وتباين

---

[١٣] E. de Verninac Saint-Maur, Voyage du Luxor (Paris 1835) as quoted in Leslie Greener, The Discovery of Egypt (New York 1965), 157–58.

[١٤] البلاغ، القاهرة: نقلًا عن الإجبشيان جازيت، عدد ٢٦ فبراير ١٩٣٢م.

الآثاريون المصريون أيضًا في درجة التزامهم الوطني وسبل التعبير عن ذلك الالتزام. وقصر الغربيون المناصب الكبرى على أنفسهم أحيانًا، مسيئين بذلك إلى حرمة العلم المتسم بالتقدمية، واتهموا المصريين بأنهم مجرد «وطنيين متطرفين». لأنه — على حد قول فرانز فانون — «تُستخدم الموضوعية دائمًا ضد كل من يتسم بالوطنية».[١٥]

ولا يُغفل هذا الكتاب الجدل الخلَّاق الذي دار بين إدوارد سعيد ونقاد الاستشراق من ناحية، والمؤرخين ذوي العقلية الإمبريقية من نقاد إدوارد سعيد وغيره، فقد أبرز سعيد الدور المعقد للمستشرقين الذين يريدون فرض الإمبريالية الغربية على العالم الإسلامي.[١٦] ويذهب المؤرخون من نقاده أن سعيدًا يبحث عن باطن النصوص ليضع يده على ما يدين به الاستشراق، وأن نقده للاستشراق مفرط في الأيديولوجية، ويستند إلى وقائع تاريخية بعينها تفتقر إلى الدقة.

ويذكر جون ماكنزي في كتابه: «الاستشراق: التاريخ، والنظرية، والفنون» أنه رغم التفاوت في القوة، كان اتصال الغربيين «بالشرقيين» يسير في اتجاهين، وأنه أدى إلى نتائج متعددة غير متوقعة. وفي تناوله للفنون تحديدًا، رأى أن الكثير من الفنانين المستشرقين: من الرسامين، والمعماريين، والمصممين، والمسرحيين، والموسيقيين لم يبدُ منهم عداء للشرق، كما لم يروِّجوا للإمبريالية.[١٧] وأشار إدموند بروك الثالث إلى أن تركيز سعيد على مقدمة فورييه لكتاب «وصف مصر» المحملة بالأيديولوجية، حجبت عن سعيد مغزى هذا العمل. ويقول إن كتاب سعيد (الاستشراق) يعيد إنتاج نفس الأساسيات والتعميمات، مغطاة بطلاء من الرعاية الإمبريالية التي استخدمتها، فهي ذات سلالة معروفة، ولكن ليس لها تاريخ.[١٨] ويعترف كارتر فندلي في مقاله: «عثماني مستغرب في أوروبا» بالرؤية الثقافية للاستشراق التي قدمها إدوارد سعيد، وطرح خطوطًا أخرى مثمرة للتفسير.[١٩]

---

[١٥] Quoted in Edward Said, Culture and Imperialism (New York 1993).

[١٦] Edward Said, Orientalism (New York 1978); and Said, Culture and Imperialism; Timothy Mitchell, Colonising Egypt (Cambridge, 1988); Martin Bernal, Black Athena, Afroasiatic Roots of Classical Civilization, 2 vols. (New Brunswick, N.J., 1987–1991).

[١٧] John MacKenzie, Orientalism: History, Theory and the Arts (Manchester, 1995).

[١٨] Edmund Burke III, “Egypt in the Description de l’Egypte”, Paper, MESA meeting at Phoenix, Ariz., November 1994.

[١٩] Carter Vaughn Findley, “An Ottoman Occidentalist in Europe: Ahmed Midhat Meets Madame Gülnar, 1889” American Historical Review 103, (February 1998), 14–49.

ويقدم هذا الكتاب — من حين لآخر — مقترحات حول نقاط في حاجة إلى إضافة أو دراسة متعمقة، فيذهب برانسنجت دوارا — من منطلق مدرسة «المهمشين» — إلى ضرورة «إنقاذ التاريخ من الأمة».[٢٠] وقد يحاول البعض ذلك باسم الموضوعية «ذلك الحلم النبيل»، ولكن بيتر نوفك يثير الشك حول صلاحية هذا الاختيار.[٢١] ويرى أصحاب مدرسة «المهمشين» أن مقولة الوطنية أداة لتأكيد هيمنة النخبة الحاكمة على عامة الناس (المهمشين)، والحواضر على الأقاليم، والرجال على النساء. ونستطيع أن نقدم رواية تاريخ علم الآثار المصرية كما تروى «من أسفل». أو من وجهة نظر بعض المصريين:[٢٢] المرأة، الأقباط، أهل الصعيد، التراجمة، عمال التنقيب عن الآثار، تجار العاديات، بحارة السفن النيلية، الفلاحين من قرى الجيزة أو القرنة، الجماعات الإسلامية التي هاجم أفرادها السياح.[٢٣] ورغم إدراك برانسنجت دوارا لواقع مجتمع ما بعد الاستعمار، فإن قصة المراحل الأولى لمحاولات المصريين في مجال علم الآثار هي «إنقاذ الأمة من الإمبريالية» الذي يمثل الخط الرئيسي في هذه الدراسة.

وهذا الكتاب لا يقدم تاريخًا شاملًا لعلوم المصريات أو الدراسات القبطية أو الدراسات اليونانية-الرومانية أو الفنون والعمارة الإسلامية. ولأن الكتاب يركز على التطورات التي شهدتها مصر ذاتها في القرن التاسع عشر، فقد تم تهميش علماء المصريات من أمثال صامويل برش — الذي كان يعمل بالمتحف البريطاني — وأدولف إرمان الذي كان أستاذًا بجامعة برلين الذين فضلوا العمل في حقل الكشوف الأثرية، بدلًا من البقاء في بلادهم داخل قاعات الدراسة وباحات العرض المتحفي. ولكن ماربيت وماسبيرو يبرزان هنا بسبب طول فترة خدمتهما في مصر ونشاطهما المؤثر فيها.

---

٢٠ Prasenjit Duara, Rescuing History from the Nation: Questioning Narratives of Modern China (Chicago 1995).

٢١ Peter Novick, That Noble Dream: The "Objectivity Question" and the American Historical Profession (Chicago 1988).

٢٢ Partha Chatterjee, The Nation and Its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories (Princeton, N.J., 1993).

٢٣ Michael Herzfeld, A Place in History, Social and Monumental Time in a Cretan Town (Princeton, N.J., 1991).

وبالنسبة للحقبة الزمنية التي يتناولها الكتاب، يعد القرن التاسع عشر من ١٧٩٨م حتى ١٩١٤م مناسبًا للوفاء بالغرض الذي ننشده، فقد ذهب المتصدون لهذا العصر بالدراسة إلى التردد بين قدوم حملة نابليون في ١٧٩٨م وتولية محمد علي في عام ١٨٠٥م باعتبارها الحد الفاصل بين «العصر الوسيط» و«العصر الحديث» في مصر.[٢٤] فافتراض أن «الغرب» الحركي الطابع قد أثر في «الشرق» الراكد لا يصمد أمام النقد، فهناك استمرارية للكثير من الظواهر تمتد جذورها حول ذلك الفاصل الزمني بين العصرين. ورغم ذلك اتخذنا عام ١٧٩٨م نقطة انطلاق لهذا الكتاب؛ لأنه لولا مجيء الحملة الفرنسية لما اكتُشف حجر رشيد، ولما كُتب «وصف مصر»؛ فبدون حجر رشيد ربما تأخر حل رموز الهيروغليفية، وبدون حل تلك الرموز يظل التاريخ الفرعوني مجهولًا.

وعلى كلٍّ، فلا مناص من بروز مصر الحديثة وعلم المصريات، ولكن في سياق زمني آخر، وبفعل عوامل أخرى.

ويتوقف الكتاب عند عام ١٩١٤م الذي شهد تقاعد كل من ماسبيرو وأحمد كمال، وقيام الحرب العالمية الأولى التي أوقفت نشاط علماء المصريات من الألمان والنمساويين العاملين في مصر. وتوقف — أو كاد — نشاط العلماء الإنجليز والفرنسيين، وفتح رحيل النمساوي ماكس هرتز من لجنة حفظ الآثار العربية وإدارة «متحف الفن العربي»، فتح الباب أمام تمصير إدارة المتحف على يد علي بهجت. وعند نهاية الحرب العالمية الأولى، قامت ثورة ١٩١٩م. وأصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م الذي أعطى مصر نوعًا من الاستقلال المنقوص، وبدأت حقبة جديدة شبه استعمارية في تاريخ السياسات الوطنية والمتاحف وعلم الآثار، وعلى مدى العقود الثلاثة التي أعقبت التطور سارت عملية تمصير العمل في الآثار وغيرها من مرافق الحكومة بخطى مناسبة، وإن كانت الأبواب الخلفية أتاحت للأوروبيين أن يمسكوا بأيديهم زمام التحكم في السلطة حتى ثورة ١٩٥٢م.

ويستند الكتاب إلى المادة الوثائقية والمصادر المنشورة بالعربية واللغات الغربية التي دعمت بالمقابلات الشخصية. فقد تم استخدام الوثائق غير المنشورة المودعة بدار الوثائق القومية ودار المحفوظات العمومية بالقاهرة، ووثائق الخارجيتين البريطانية والفرنسية،

---

[٢٤] من أمثلة ذلك: Peter Gran, Islamic Roots of Capitalism, Egypt 1760–1840 (Austin, Tex., 1979); Kenneth Cuno, The Pasha’s Peasants: Land, Society and Economy in Lower Egypt, 1740–1858 (Cambridge 1992).

ومحفوظات المتحف البريطاني، ومتحف جامعة بنسلفانيا. وكان أهم ما عثرنا عليه حتى الآن المخطوطة التي لم يسبق استخدامها من قبل، والتي تضم مذكرات مرقص سميكة مؤسس المتحف القبطي.

ويعالج الباب الأول «البدايات الإمبريالية والوطنية» الفترة السابقة على الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢م، فيتناول الفصل الأول التصورات الغربية والإسلامية لمصر القديمة قبل القرن التاسع عشر، والحملة الفرنسية وكتاب «وصف مصر» وتطور التنافس الإنجليزي-الفرنسي في ميدان المصريات حتى منتصف القرن، ويبرز الفصل مساهمات الجبرتي ورفاعة الطهطاوي، ومحمد علي، ويوسف حككيان في تاريخ المصريات الذي يعالج — غالبًا — من منطلق المركزية الأوروبية.

يوضح الفصل الثاني مدى مساهمة السفن البخارية والسكك الحديدية، وكتب الدليل السياحي الحديثة، والفنادق السياحية في اختراع السياحة الجماعية التي لعبت فيها مصر وشركة توماس كوك دورًا قياديًّا. ويرجع الفضل في ظهور عصر السياحة الجديد إلى التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدها الغرب عندئذٍ. وحظيت كتب الرحلات والرسوم والصور الفوتوغرافية التي تناولت موضوعات ومشاهد مصرية باهتمام كبير من جانب العلماء، ولكن الدور الذي لعبه المصريون في هذا المجال ما زال بحاجة إلى المزيد من البحث.

أما الفصل الثالث، فيعالج علم المصريات في ثلاثة عقود تتركز في عصر إسماعيل الذي مهد الطريق للاحتلال البريطاني في العام ١٨٨٢م. فمع امتداد ظلال الإمبريالية الغربية بعد منتصف القرن، شجع ولاة مصر: سعيد وإسماعيل: مارييت على تأسيس مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري. وقام مارييت بإشباع نزعة الولع بمصر الفرعونية عند الأوروبيين بالترتيبات التي وضعها لاحتفالات افتتاح قناة السويس، ونص أوبرا عايدة، وجناح مصر بالمعرضين الدوليين بباريس. وكتب الطهطاوي أول كتاب بالعربية عن تاريخ مصر القديم، وقام علي مبارك — ناظر المعارف — بجلب هنريش بروجش من ألمانيا ليتولى إدارة «مدرسة اللسان المصري القديم»، وبدأ بعض المصريين المساهمة في نشاط الجمعية الجغرافية الخديوية، والمجمع العلمي المصري، والمؤتمرات الدولية للاستشراق.

ويتناول الباب الثاني فترة ازدهار الاحتلال البريطاني (١٨٨٢–١٩١٤م)، ويضم فصلًا عن كل من المتاحف الأربعة، والتخصصات الأثرية التي ارتبطت بكل منها. وقد استهلت هذه الفترة — سياسيًّا — بكرومر، وختمت بكتشنر، بينما سيطر ماسبيرو وبتري على مشهد علم المصريات. وتناول علي مبارك آثار مختلف العصور في موسوعته الشهيرة

«الخطط التوفيقية»، وتولى أحمد كمال وعلي بهجت ومرقص سميكة تكوين جيل جديد من المتخصصين في مختلف فروع التخصصات الآثارية.

ويعالج الفصل الرابع المتحف اليوناني-الروماني والدراسات القديمة (الكلاسيكية)، فقد أهمل الإمبرياليون الإنجليز والفرنسيون في مصر، من نابليون إلى كرومر وكتشنر، آثارَ الإسكندر وقيصر، وازدهر المتحف اليوناني-الروماني بفضل من تولَّى إدارته من الإيطاليين: جيسب بوتِّي، وإيفرستو برشيا، وقدمت الجمعية الآثارية بالإسكندرية ذات الطبيعة الدولية، وكذلك بلدية الإسكندرية، الدعم اللازم للمتحف، ولم يظهر أي متخصص مصري في الدراسات القديمة أو الآثار اليونانية-الرومانية من مستوى أحمد كمال وعلي بهجت ومرقص سميكة حتى نهاية فترة الدراسة، ولكن نفرًا قليلًا من المصريين تابعوا أعمال علماء الغرب الإمبريالي في حقل الدراسات القديمة، ووجدوا فيها مَعينًا جديدًا للمعرفة.

أما الفصل الخامس، فيتناول علم المصريات في تلك الحقبة، حيث يقف في الجانب الأوروبي ماسبيرو، وبتري وصندوق الكشوف الأثرية، بينما يقف في الجانب المصري أحمد كمال وحيدًا. وغطت الخلافات الحادة بين الآثاريين الإنجليز والفرنسيين على الضجة التي أثارها حادث فاشودة في السودان عام ١٨٩٨م، وكان للوفاق الودي عام ١٩٠٤م جانبه الآثاري إضافة إلى جانبه السياسي، وقامت الحكومة بنقل المتحف من بولاق إلى الجيزة ثم استقر في موقعه الحالي بميدان التحرير. وحوالي نهاية القرن التاسع عشر استأنف الألمان حفائرهم في مصر، وبدأ علماء المصريات الأمريكيون يضعون أقدامهم في هذا الميدان، وانهمك أحمد كمال في بذل الجهد في مجال المصريات، ونشر الوعي بتاريخ مصر القديم بين مواطنيه، وبذلك ساعد الكتَّابَ والسياسيين المصريين من أمثال أحمد لطفي السيد على التماس جذور فرعونية للقومية المصرية.

ويتحول الفصل السادس إلى «لجنة حفظ الفن العربي» و«متحف الفن العربي»، والصحوة المعمارية الإسلامية الجديدة. وقد وجَّه أعمالَ كلٍّ من اللجنة والمتحف بنجاح في الفترة من ١٨٨١م حتى ١٩١٤م كلٌّ من يوليوس فرانتز الألماني، وماكس هرتز اليهودي المجري (من رعايا إمبراطورية النمسا والمجر)، بقدر كبير من النجاح. وحاول يعقوب أرتين — الأرمني الكاثوليكي — أن يلعب دور حلقة الوصل بين العلماء الأوروبيين والمصريين. وعمل علي بهجت تحت رئاسة هرتز لمدة عشر سنوات قبل أن يبدأ حفائره الرائدة في الفسطاط عام ١٩١٢م. وجاء رحيل هرتز المفاجئ بعد عامين ليفتح الطريق أمام علي بهجت ليصبح مديرًا لمتحف الفن العربي.

وخُصص الفصل السابع للدراسات القبطية والمتحف القبطي. والفصل يعتمد أساسًا على مذكرات مرقص سميكة التي لم يسبق استخدامها من قبل. ويضع الفصل الآثار القبطية والتاريخ القبطي في إطار الجدل الذي يدور بين الأقباط حول الإصلاح الاجتماعي، وفي سياق السياسة الوطنية المصرية. ويعكس عنوان هذا الفصل «الأبناء المحدثون للفراعنة» الانتماء عميقَ الجذور لمصر القديمة الذي بدأ بعض مثقفي الأقباط تأكيده عند نهاية القرن التاسع عشر.

وبعد أن لخصت الخاتمة التطورات التي شهدتها المجالات الأربعة لعلم الآثار على مر القرن التاسع عشر، أشارت إلى التغيرات التي حدثت بعد الحرب العالمية الأولى. ففي عام ١٩٢٢م ربط التصريح البريطاني بإعلان استقلال مصر، واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، بين علم المصريات والنزعة القومية عند المصريين بشكل أكثر وضوحًا من ذي قبل، فاستفاد المصريون من استقلالهم الجديد في افتتاح جامعة حكومية عام ١٩٢٥م، وكان من بين أقسام الجامعة قسم للآثار والمصريات وقسم للدراسات الأوروبية القديمة (الكلاسيكية). وبعد ذلك بعامٍ أُدخل برنامج للدراسات العليا في الآثار الإسلامية، وأبدى المشتغلون بالعمل الوطني فخرهم واعتزازهم بأجدادهم الفراعنة، وعبَّر عن ذلك الكتَّاب، والرسامون، والمعماريون، والنحاتون، ومؤلفو الكتب الدراسية، ومصممو طوابع البريد في استخدامهم للرموز الفرعونية.

وفقد علم الآثار بوفاة أحمد كمال عام ١٩٢٣م، وعلي بهجت عام ١٩٢٤م، رائدَين مصريَّين لعلم الآثار في فترة حرجة من تاريخ مصر، وجاء سقوط وزارة سعد زغلول عام ١٩٢٤م ليحبط الآمال في تحقيق الاستقلال التام. وخلال ربع القرن التالي أحكم بيير لاكو وإيتيان دوريوتون قبضة الفرنسيين على مصلحة الآثار المصرية، وخلف أكيل أدرياني، برتشتا في إدارة المتحف اليوناني-الروماني، وآلت إدارة متحف الفن العربي إلى جاستون فييت. وتولى الأوروبيون رئاسة قسم الآثار بالجامعة المصرية. وفي عام ١٩٣٣م، أسَّس الكابتن كييل أرشيبالد كامرون كرزويل شعبة الآثار الإسلامية بالجامعة. وكان درايتون، وفييت، وكرزويل علماء كبارًا لم يتأثروا بهجوم غلاة الوطنيين ضد الأجانب. وكان على ثورة ١٩٥٢م التي قادها عبد الناصر أن تحقق هدفين كانا مثار قلق جيل ثورة ١٩١٩م هما تحقيق الاستقلال التام، وتمصير العمل في المتاحف وعلم الآثار.

الباب الأول

البدايات الإمبريالية والوطنية

١٧٩٨–١٨٨٢م

الفصل الأول

إعادة اكتشاف مصر القديمة

شامبليون والطهطاوي

«يدمر الأجانب الخرائب القديمة، ويأخذون منها الأحجار وبعض المشغولات، ويصدِّرونها إلى بلادهم. فإذا استمر ذلك لن يبقى بمصر شيء من المخلفات القديمة. ومن المعروف أن الأوروبيين يشيدون أبنيةً خاصة بالعاديات، والأحجار المرسومة والمنقوشة وغيرها من تلك الأشياء، يحفظونها بعناية، ويعرضونها على أهالي البلاد وعلى السياح الراغبين في مشاهدتها … ومع أخذ هذه الحقائق بعين الاعتبار، رأت الحكومة أن الأمر يقتضي منع تصدير العاديات، التي يتم العثور عليها في الخرائب القديمة، إلى خارج البلاد … وتخصيص مكان في العاصمة ليكون مستودعًا لها … وقررنا عرضها للسياح الذين يزورون مصر، منعًا لنهب الخرائب القديمة بالصعيد، مع بذل كل جهد ممكن للحفاظ عليها.»

أمرٌ صادر من محمد علي باشا في ١٥ أغسطس ١٨٣٥م،
أورده جاستون فييت في كتابه:
«محمد علي والفنون Mohammed Ali et les Beaux-Arts»

قد يثير عنوان هذا الفصل فضول القارئ الغربي عندما يجدني أضع العبقري الفرنسي الذي حل رموز الكتابة الهيروغليفية في مستوًى واحد مع العالم المصري رفاعة الطهطاوي، الأقل شهرة في الغرب؛ فالقاسم المشترك بين الرجلين أنهما أحدثا انقلابًا في فهم قرائهما لمصر القديمة، عندما طرحا بين أيديهم المعرفة المستخلصة من الهيروغليفية التي طال زمان صمتها. وعلى حين كتب شامبليون بالفرنسية مخاطبًا القارئ الغربي، كتب

الطهطاوي بالعربية مخاطبًا المصريين. وهكذا فتح شامبليون أبواب عالم مجهول أمام قرائه، بينما دعا الطهطاوي قراءه أن يمعِنوا النظر فيما وراء تلك الأبواب، وذلك رغم عدم قراءته للهيروغليفية. ويرصد هذا الفصل ما عرفه الغربيون والمسلمون عن مصر القديمة قبل العام ١٨٠٠م، ويبحث في العمل الأثري للحملة الفرنسية، ويقف عند التنافس الإنجليزي-الفرنسي في حقل المصريات، ويسجل دخول الألمان إلى الساحة على يد ريتشارد ليبسيوس، ومحمد علي، ويوسف حككيان، في إطار قصة علم المصريات التي تروى دائمًا من منطلق المركزية الأوروبية. ونظرًا لقرب حككيان من الدوائر الأوروبية بحكم تعليمه وثقافته، أكثر من قربه من الدوائر المصرية، فإن الطهطاوي يعد الشخصية المحورية في التعبير عن المصريين. وقد لعب دورًا أساسيًّا في المحاولة التي لم يقدَّر لها النجاح لإقامة إدارة خاصة بالآثار ومتحف لحفظها في عهد محمد علي عام ١٨٣٥م، ونشر عام ١٨٦٨م كتابًا في تاريخ مصر القديم، سنُلقي عليه نظرة في الفصل الثالث من هذا الكتاب، ويبين الجدول رقم ١-١ المصريين الذين اهتموا بالآثار في النصف الأول من القرن التاسع عشر في مقابلة الأوروبيين أصحاب نفس الاهتمام.

جدول ١-١: العلماء وجامعو الآثار والحكام الأوروبيون والمصريون

العلماء وجامعو الآثار الأوروبيون	العلماء المصريون	الحكام ومدة حكمهم
دينون ١٧٤٧–١٨٢٥م		
	الجبرتي ١٧٥٤–١٨٢٢م	نابليون ١٧٩٩–١٨١٤م
	حسن العطار ١٧٦٦–١٨٣٥م	محمد علي ١٨٠٥–١٨٤٨م
يانج ١٧٧٣–١٨٢٩م		
دروفيتي ١٧٧٦–١٨٥٢م		
جومار ١٧٧٧–١٨٦٢م		
بلزوني ١٧٧٨–١٨٢٣م		
بوركهارت ١٧٨٤–١٨١٧م		
شامبليون ١٧٩٠–١٨٣٢م		
ولكنسون ١٧٩٧–١٨٧٥م		
روسلِّيني ١٨٠٠–١٨٤٣م		

العلماء وجامعو الآثار الأوروبيون	العلماء المصريون	الحكام ومدة حكمهم
لين ١٨٠١–١٨٧٦م	رفاعة الطهطاوي ١٨٠١–١٨٧٣م	إبراهيم ١٨٤٨م
لبسيوس ١٨١٠–١٨٨٤م	يوسف حككيان ١٨٠٧–١٨٧٥م	عباس الأول ١٨٤٨–١٨٥٤م

رؤية الأوروبيين لمصر القديمة قبل شامبليون

كان الضباب يلفُّ رؤية الأوروبيين لمصر القديمة قبل شامبليون، فقد كانت معرفتهم بمصر تعتمد على الروايات اليونانية-الرومانية، والإنجيل، وما يراه الزائر من آثار مهملة. وهناك لوحة على واجهة «المتحف المصري» بالقاهرة تخلِّد ذكرى هيرودوت، وأرانوس، ومانيتو، وهور أبولُّو، وهم من الإغريق والمصريين المتأغرقين الذين كتبوا عن مصر القديمة. وعندما زار هيرودوت مصر عام ٤٥٠ق.م.، كان باستطاعته أن يستعلم من الكهنة الذين كانوا يمارسون الخدمة الدينية بالمعابد، ويعرفون الهيروغليفية، فكتب بقدرٍ من المعرفة عن الأسرة الفارسية السابعة والعشرين وعن الأسرة السابقة لها (٦٤٤–٥٢٥ق.م.)، والأسرة «الإثيوبية» الخامسة والعشرين (٧٤٥–٦٦٤ق.م.)، ولكن معلوماته عن الحقب الأقدم لهذا التاريخ كانت تفتقر إلى الدقة على نحو شبيه بما كتبه هوميروس، فقد كان الفارق الزمني بين هيرودوت وعصر بناة الأهرام ألفَي عام. وقد كتب كل من الكاهن المصري مانيتو، والعالم الإغريقي الموسوعي إراتوس أمين مكتبة الإسكندرية، تاريخها باليونانية بعدما أصبحت مصر تنتمي إلى العالم الهلِّينستي بعدما ضمها الإسكندر إليه. ولم يتبقَّ من تاريخ مانيتو سوى قائمة بملوك مصر،[١] ولكن علماء المصريات ما زالوا يستخدمون تحديدها المناسب للأسرات الحاكمة.

وقد انعكس الجانب العلماني من الفكر الأوروبي نفسه في إغفال واجهة «المتحف المصري» لما يشير إلى الأنبياء إبراهيم، ويوسف، وموسى، وعيسى. غير أن هؤلاء الأنبياء الذين ورد ذكرهم بالإنجيل (والقرآن) كانوا يمثلون أكثر ما كان يعرفه الأوروبيون عن مصر

[١] Gerald P. Verbrugghe and J. M. Wickersham, Berossos and Manetho, introduced and translated (Ann Arbor, 1996).

القديمة. وقد أدى تحوُّل المصريين إلى المسيحية في القرنين الرابع والخامس للميلاد إلى حدوث قطيعة كاملة مع الديانات الوثنية القديمة، والملوك الآلهة والكتابة الهيروغليفية. وقام المسيحيون بطمس النقوش والصور الدينية القديمة على جدران المعابد الوثنية، وحوَّلوها إلى كنائس. وهكذا انتهت معرفة الهيروغليفية والديموطيقية بنهاية الكهنة القدامى، وماتت معهم.

ولكن التراث الفرعوني ظل على قيد الحياة وإن كساه غطاءً من الوعي. فصورة إيزيس وابنها حورس تحولت إلى صورة مريم تحمل ابنها المسيح، وتمثل بعث أوزيريس إلى قيامة المسيح، وتحول ست عدو أوزيريس إلى التنين الذي قتله ماري جرجس، وأصبح «عنخ» بالهيروغليفية (مفتاح الحياة) أول شكل من أشكال الصليب واستمرت اللغة المصرية القديمة في الحياة تحت اسم اللغة «القبطية» التي كُتبت بحروف يونانية مضافًا إليها سبعة حروف ديموطيقية. واستمر الحديث بالقبطية لعدة قرون بعد الفتح العربي، ولكن ما بقي منها الآن نصوص وأدبيات كنسية.

وخلال العصور الوسطى الأوروبية، جذب الحج والحملات الصليبية والتجارة الأوروبيين إلى مصر. فقد توقف الحجاج بمصر في طريقهم إلى القدس، ليشاهدوا المواقع المصرية التي ارتبطت بيوسف وموسى وعيسى، والقديس مرقص والقديس أنطونيوس، وأدرجت الأهرامات في مشاهد الحج باعتبارها صوامع يوسف التي قام العبرانيون ببنائها. وعلى الصعيد التجاري، قام جون ساندرسون التاجر الإنجليزي بشحن ستمائة رطل من المومياوات إلى بلاده في أواخر الثمانينيات من القرن السادس؛ لأنه كان يعتقد بفائدتها في علاج الجروح والرضوض والكدمات.[٢]

وأضاف إنسانيو عصر النهضة إلى مبررات السفر إلى مصر عند أهل العصور الوسطى؛ أضافوا الرغبة في التعلم والترويح عن النفس، وكتبوا أقدم كتب الرحلات التي ضمنوها مشاهداتهم في مصر، فأوجدوا بذلك طريقة جديدة للبحث، وصدرت طبعات لأعمال هيرودوت، وسترابو، وديودور الصقلي بعد مرور عقدين من الزمان على طباعة جوتنبرج للإنجيل، وبذلك أصبح من السهل التعرف على الكلاسيكيات وعلى المتطلبات الدينية للحج. وفي ١٦١٠م زار الشاب جورج ساندي الجيزة في جولة طويلة عندما كان

[٢] John David Wortham, British Egyptology 1549–1906 (Newton Abbot, Devon, 1971), 15–16.

في الثانية والعشرين من عمره، وأيد الفكرة الإغريقية الرومانية عن الأهرام باعتبارها قبورًا ملكية، ونفى تمامًا وجود أي علاقة بينها وبين يوسف أو العبرانيين. ولكن المعرفة الكلاسيكية لها حدود، ولم يكن أحد قد عرف بعدُ ما إذا كان الملوك الذين ذكرهم مانيتو في قائمته ملوكًا حقًّا أو محض خيال، وقال ساندي إن محاجر طرة سُمِّيت كذلك لأن تراجان سُجن هناك.[٣]

لقد شوهت العدسات الكلاسيكية صورة الأهرام، فحتى القرن التاسع عشر كان الكثير من الأوروبيين يعتبرون أن هرم كايوسي سيستيوس بروما (الذي يبلغ انحداره ٧٥ درجة) النموذج المثالي للهرم رغم أن (أهرام الجيزة كان انحدارها ٥٢ درجة). وذكرت مادة «الهرم» في الطبعة الأولى لدائرة المعارف البريطانية (١٧٧١م) أن هرم سيستيوس سابق على أهرام الجيزة. كان ساندي قد رأى الأهرام رؤية العين، ولكن رسمها بزاوية انحدار كبيرة، ولا تزال زاوية انحدار هرم سيستيوس تؤثر على تصور شكل الهرم في خاتم الولايات المتحدة الكبير الذي يظهر على أوراق النقد (الدولار)، وكان البناءون الأحرار من أوائل من قاموا بتصميم ذلك الخاتم.[٤]

وقام أستاذ الرياضيات بأكسفورد، الفلكي، والمستشرق جون جريفز بتجربة عملية، فجلب معه إلى مصر أدوات لقياس الأهرام وفي كتابه «جغرافيا الأهرام، أو حديث عن أهرام مصر» الصادر في ١٦٤٦م قدَّم تحديدًا أدق لأبعاد الأهرام، مبينًا الممر الداخلي بالهرم الأكبر، مؤكدًا أنها كانت مقابر للملوك.[٥] غير أنه أخطأ في حساب زاوية انحدار الهرم. وحتى بعد مرور ١٢٥ عامًا على ذلك، ذكرت دائرة المعارف البريطانية تقديرات ارتفاع الهرم الأكبر التي تراوحت بين سبعمائة وخمسمائة قدم، دون أن توجه انتقادًا إليها.

---

٣ On Sandays, see W. R. Dawson, Who Was Who in Egyptology, 3rd. ed., revised by M. L. Bierbrier (London 1995), 260–61; and George Sandys, A Relation of a Journey Begun An: Dom: 1610 (London 1915; reorint of 2nd. ed. Amesterdam 1973).

٤ Sandys, Relation, 128; Erik Iverson, The Myth of Egypt and Its Hieroglyphs in European Tradition (Copenhagen, 1961), Plate 7, Facing 48, and on 164 n. 82; Ency. Britannica (Edinburgh, 1771), 3: 519; John A. Wilson, Signs and Wonders upon Pharaoh: A History of American Egyptology (Chicago 1964), 37.

٥ Who Was Who in Egyptology, 3: 176.

ومن المثير للدهشة أن يحظى هور أبولُّو — من مؤلفي القرن الخامس الميلادي — بالتخليد على واجهة «المتحف المصري» بالقاهرة، فقد ثبتت قيمة كتابه «هيروغليفيكان»، ولكن طريقة قراءته للرموز الهيروغليفية ضللت العلماء عدة قرون. وفي القرن الخامس عشر أعاد الأفلاطونيون الجدد بفلورنسا اكتشاف هور أبولُّو وقوانين هرمس (Corpus Hermeticum) وأتاحوها للتداول. وكان المؤلف المزعوم لتلك القوانين هو هرمس ترسمجتس — وهو يجمع بين هرمس وتوت المصري — الذي كان يعتقد بأسبقيته على موسى وبتعبيره عن حقائق المسيحية. وفي عام ١٦٠٠م، مات جيوردانو برونو وهو يسعى لتأكيد تفوق الحكمة الهرمسية على المسيحية، ورغم أن إسحاق كازوبون أقام الدليل في ١٦١٤م أن قوانين هرمس كُتبت بعد ظهور المسيحية، فإن الرؤية الأسطورية لمصر القديمة باعتبارها منبع الحكمة الصافية انتقلت إلى الروزيكوربين (وهي جمعية دينية سرية زعمت امتلاك أسرار الطبيعة والدين)، وإلى البنائين الأحرار، وإلى حلقات الصراع في العصر الجديد الآن.[٦]

أما العلامة اليسوعي أثناسيوس كرشر (١٦٠١–١٦٨٠م)، الذي كان يقرأ العبرية، والسوريانية، والعربية، والقبطية، فقد التزم جانب الغموض الباطني، فكتب كتابًا من ثلاثة آلاف صفحة ليبرهن على ما يزعمه من أن الهيروغليفية كانت سابقة في تعبيرها عن المسيحية. وتحمل صفحة عنوان كتابه «أوديب المصري» (Oedipus Aegyptiacus) رسمًا للمؤلف يصوره يسعى لمعرفة سر أبي الهول المصري الذي بدا في شكله الأنثوي المجنح أقرب ما يكون إلى الطابع الإغريقي لا المصري (انظر الشكل رقم ٨). ورغم ثبوت خطأ ما ذكره أثناسيوس كرشر بالنسبة للهيروغليفية واعتقاده في جنيات البحر، والغرفين (حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد)، ومركزية الأرض، فقد كان له فضل إرساء دعائم الدراسات القبطية في أوروبا.[٧]

---

[٦] Garth Fowden, The Egyptian Hermes: A historical Approach to the Late Pagan Mind (Princeton, 1986); Erik Iverson, The Myth of Egypt and Its Hieroglyphs in European Tradition (Copenhagen 1961); Frances Yates, Giordano Bruno and the Hermetic Question, (Chicago 1946).

[٧] Joscelyn Godwin, Athanasius Kircher: A Renaissance Man and the Quest for Knowledge (London 1979).

إعادة اكتشاف الأوروبيين لآثار الصعيد

قبل قرن ونصف القرن من وصول بونابرت إلى مصر، نشر رحالة فرنسيون سبعة وعشرين كتابًا — على الأقل — عن رحلاتهم في مصر، بزيادة ١٦ كتابًا عما كتبه الإنجليز، بينما كتب الألمان ست كتب، والهولنديون أربعة كتب، والإيطاليون كتابين، والسويسريون كتابين.[٨] وكان الأوروبيون يدخلون إلى مصر إما عن طريق موانيها على البحر المتوسط، أو عبر فلسطين بطريق البر، وحتى ستينيات القرن السابع عشر، ندر من غامر منهم بالتنقل جنوب القاهرة. وبعد ذلك قام الرهبان الكاثوليك بالإبحار على صفحة النيل جنوبًا لممارسة مهامهم التبشيرية التي تستهدف تحويل الأقباط إلى الكاثوليكية. وفي الطريق إلى دير الشهداء بإسنا، دلف راهبان كابوتشيان إلى الكرنك عام ١٦٦٨م. وفيما بعد كلف الأب فاسيليب وكلود سيكار من قبل ملك فرنسا بشراء المخطوطات المسيحية (القبطية) القديمة إضافة إلى مهمتهما التبشيرية. وكان سيكار — الذي قام برحلته فيما بين ١٧١٤ و١٧٢٦م — أول رحالة أوروبي حديث يكتب عن خرائب الأقصر في طيبة. وزار أيضًا معبدَي كوم أمبو والفانتين. وحتى الآن ما زال ينظر إلى مصر القديمة في الدوائر المسيحية واليهودية الغربية من خلال منظار الكتاب المقدس (انظر الشكل ٩).

وكانت الرموز العلمانية أكثر وضوحًا عند بنوادي مابيت الذي كان قنصلًا لفرنسا في القاهرة قرب نهاية القرن الثامن عشر، ولم يقم مابيت بزيارة الصعيد، ولكنه شجع الآخرين على زيارته، ولا يعد كتابه الذي حمل عنوان «وصف مصر» من كتب الرحلات العادية، ولكنه كان يضم كمًّا هائلًا من المعلومات[٩] عن مصر، وتوضح إحدى لوحات الكتاب «عمود بومبي» والمسلة القائمة بالإسكندرية جنبًا إلى جنب، فثقافته الكلاسيكية جعلته يعبر عن ميله للعمود الروماني أكثر من تأثره بالمسلة الفرعونية.

وقد رسم العمود بعناية كبيرة، ولكنه لم يلتزم الدقة في رسمه للرموز الهيروغليفية المنقوشة على المسلة والتي كان من المتعذر قراءتها. وعلى نقيض مواطنيه بعد ذلك بقرن

[٨] تم حصر عدد الكتب ونسبتها إلى جنسيات أصحابها استنادًا إلى: Martin Kalfatovic, Nile Notes of a Howadji: A Bibliography of Travelers' Tales from Egypt (Metuchen, N.J., 1992).

[٩] فيما يتعلق باستكشاف الصعيد، راجع: Claude Traunecker and Jean-Claude Golvin, Karnak: Résurrection d'un site (Paris 1984), 35–99; Carré, Voyageurs 1: 29–118.

من الزمان، كان يرى أن أفضل ما تحصل عليه فرنسا هو عمود بومبي وليس المسلة الفرعونية (انظر الشكل ١٠).[١٠]

وفي عام ١٧٣٧م، جاء إلى مصر رجلان من بروتستانت شمالي أوروبا، هما: ف. ل. نوردون الضابط البحري الموفد من ملك الدنمارك، وريتشارد بوكوك، القس الإنجيلي، وأسهما في اكتشاف الصعيد، دون أن يعرف أحدهما بوجود الآخر، وبعدما عاد كل منهما إلى بلاده كتب عن رحلته، وانضما إلى «الجمعية المصرية» التي أسسها بلندن عام ١٧٤١م جون مونتاجو، إيرل مقاطعة ساندوتش والتي لم يقدَّر لها أن تعمر طويلًا. وقد سارت الجمعية على نهج «جمعية ديلبتاني» (١٧٣٢م) التي ضمت المتحمسين للدراسات الكلاسيكية ممن قاموا بزيارة إيطاليا. وقد عبر بيكوك عن افتتانه بأبي الهول عندما صوره سليم الأنف، وكان نوردون أول مَن رسم أبا الهول على حقيقة أنفه المفقود.[١١]

وبعد عام ١٧٥٠م، حالت الاضطرابات التي شهدها الصعيد على مدى نصف القرن دون الأوروبيين وزيارة المنطقة، ورغم ذلك جاس اللورد الأسكتلندي جيمس بروس خلال الصعيد في طريقه إلى إثيوبيا، فتوقف عند الكرنك ووادي الملوك، بينما لم يتجاوز كلٌّ من المستشرق كلود سافري، والفيلسوف كونت دي فولني ما وراء القاهرة جنوبًا. وكان تصوير فولني لمصر والشام باعتبارهما ترزحان تحت نير الاستبداد الشرقي، كان عونًا عفويًّا للتخطيط لحملة بونابرت على مصر.[١٢]

وهكذا بنى علماء الحملة الفرنسية معرفتهم بمصر من تراكم المعلومات التي وردت فيما كتبه الغربيون عن مصر القديمة، ولم يبدءوا من الصفر على نحو ما يتردد غالبًا في بعض الكتابات. فقبل العام ١٧٩٨م، التفت الرحالة الغربيون إلى المعابد الكبرى في الصعيد حتى أسوان. ولم تتم رؤية معبدَي إدفو وأبيدوس عن قرب.[١٣]

---

١٠ Benoît de Maillet, Description de l'Egypt… composée sur les mémoires de M. de Maillet, ancien consul de France an Caire, Par l'abbé le Mascrier (Paris, 1735), 147–48.

١١ Who Was Who in Egyptology, 3: 312, 338؛ وفيما يتعلق بأنف أبي الهول، انظر: Alberto Siliotti, The Discovery of Ancient Egypt (Cairo, 1998), 36–37, 42–43.

١٢ Volney, Voyage en Syrie et en Égypte, Pendant les années 1783, 1784 et 1785, 2 vols., 2nd ed., (Paris 1787).

١٣ Carrré, Voyageurs, 1: 67–68.

رؤية المسلمين لمصر القديمة قبل الطهطاوي

تعد فكرة الأوروبيين عن مصر القديمة قبل القرن التاسع عشر معلومة بصورة أوضح من فكرة المسلمين عنها؛ فالكتابات العربية التقليدية تبرز العداء الإسلامي لمصر القديمة وتعتبر عبادة الأوثان وتعددية الآلهة نوعًا من «الجاهلية» السابقة على الإسلام. ولما كانت مصر الإسلامية تختلف عن مصر القديمة عقيدة ولغة، فإنها لم تنتج نظيرًا «للشاهنامة» التي احتفى فيها الفردوسي بالتراث الفارسي وأشاد بالساسانيين وملوك الفرس الأسطوريين، وربما كانت الكتابات العربية التقليدية في السحر، التي ارتبطت بمعرفة السحر الفرعوني، وافدة على مصر من العراق في القرن الحادي عشر، وليس لها جذور عميقة بمصر. وليس هناك سوى مصدر عربي واحد سابق على العصر الحديث، أورد ذكر الكرنك، فقد أشار الرحالة ابن بطوطة إلى مسجد الولي الشيخ أبو الحجاج فوق قمة خرائب معبد الأقصر.[١٤] وسادت في مصر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أزمة متصلة بسبب الحروب والأوبئة والمجاعات، وأدت تلك الأزمة إلى موجة من التشدد الديني والتعصب ضد الرموز الدينية القديمة، فقام المسلمون بتحطيم تمثال لإيزيس بالفسطاط مدفوعين في ذلك بالحماس الديني. وتم استخدام حجارة تحمل نقوشًا، انتزعت من «المعبد الأخضر» في منف، في بناء تكية للمتصوفة، وتم هدم معبد أخميم، كما قام بعض المتصوفة بالهجوم على تمثال أبي الهول بالجيزة.[١٥]

واعتمد الطبري (المتوفى في ٩٢٣م) في تاريخه على مصادر يهودية ومسيحية، وفارسية، وعربية سابقة على الإسلام، ولكنه لم يشر إلى مصر القديمة إلا عرَضًا عند ذكره للأنبياء يوسف وموسى وعيسى، وأعطى الجبرتي لفرعون موسى اسمًا عربيًّا. واستهجن طغيانه الوثني. وأسقط الطبري من ذكر حكام مصر الفترة اليونانية-الرومانية.[١٦]

---

[١٤] Ulrich Haarmann, “Medieval Muslim Perceptions of Pharaonic Egypt”, in Ancient Egyptian Literature: History and Forms, ed. Antonio Loprieno (Leiden, 1996), 605–27; H. A. R. Gibb, trans., Ibn Battuta: Travels in Asia and Africa 1325–1354 (London, 1953), 53.

[١٥] لاحظ مايكل كوك إهمال المسلمين لمصر القديمة، ويؤكد ذلك ها أرمان ولكنه يشير إلى إعجاب المسلمين بسحر الفراعنة، انظر: Michael Cook, “Pharaonic History in Medieval Egypt”, Studia Islamica 57 (1983) 67–113; Ulrich Haarmann, “Regional Sentiment in Medieval Islamic Egypt”, Bulletin of SOAS, 43 (1980): 55–66.

[١٦] تاريخ الطبري في خمسة أجزاء، وانظر مادة «فرعون» بدائرة المعارف الإسلامية.

وعلى كلٍّ، بيَّن أولريش ها أرمان أن الأدب العربي الوسيط تميز بموقف إيجابي غير تقليدي من مصر القديمة. فالمسعودي (توفي ٩٥٦م) أبحر في النيل حتى أسوان باحثًا عن أسرار المسلمين والأقباط في كتابه «مروج الذهب» الذي قدَّم فيه عرضًا لتاريخ اليونان منذ فيليب المقدوني، والتاريخ البيزنطي، والأساطير الخيالية عن الفراعنة، وأبدى المسعودي إعجابه ببراعة الفراعنة في الطب والفلك، واستخدامهم للحجارة والمعدن.[١٧]

وعبر الكثير من الكتاب المسلمين عن مصر القديمة باعتبارها بلاد السحر والغموض. وقيل إن ملكًا يمنيًّا يدعى شداد بن عاد غزا مصر، وملكًا مصريًّا يدعى سريد بن شلق، وهرمس ترسمجستوس (الذي يرد اسمه في القرآن باسم إدريس وفي الإنجيل باسم إنوك) قد بنى كل منهم الأهرام للحفاظ على «الحكمة» حتى لا يضيعها فيضان النيل. ووصف الرحالة عبد اللطيف البغدادي (المتوفى ١٢٣١ / ١٢٣٢م) الآثار بتفصيل مبهر. وذهب المقريزي (المتوفى ١٤٢٢م) إلى أن الهيروغليفية ما هي إلا ترميز للمعرفة القديمة في الكيمياء، وذكر أن بمصر عشرين من عجائب الدنيا الثلاثين، من بينها الأهرام ومعابد أخميم ودندرة.[١٨]

وكتب جمال الدين الإدريسي (حوالي ١٢٣٨م) كتابًا عن الأهرام باعتبارها تحذيرًا إلهيًّا للبشرية. وأعطاها مسحة إسلامية بزعمه أن النبي والصحابة كان يسعدهم الاستظلال بها، وذكر أن شيخًا مغربيًّا أعاد حاجًّا من مكة إلى مصر لأنه لم يزر الأهرام قبل قدومه إليها. وخصص الإدريسي فصلًا للتراث الخيالي عن الأهرام، مشيرًا إلى أبعادها، واصفًا الهرم الأكبر من الداخل.[١٩]

---

[١٧] Ahmed M. H. Shboul, Al-Mas‘udi and His World: A Muslim Humanist and His Interest in Non-Muslims (London, 1979): and Tarif Khalidi, Arabic Historical Thought in the Classical Period (Cambridge, 1994), 131–81.

[١٨] بالإضافة إلى دراسة ها أرمان سالفة الذكر، راجع مادة «هرم» بدائرة المعارف الإسلامية، ٢: ١٧٣؛ ومادة «المقريزي»، ٦: ١٩٣-١٩٤.

[١٩] Ulrich Haarmann, “In Quest of the Spectacular: Noble and Learned Visitors to the Pyramids around 1200 A.D.” in Islamic Studies Presented to J. Adams, ed. Wael Hallaq and Donald P. Little (Leiden 1991), 57–67; Haarmann’s edition of Abu Jafar al-Idrisi, Anwar uluw al-Ajram fi-l-Kashf an Asrar al-Ahram, (Beirut 1990).

وبذلك سبق الإدريسي جون جريفز الذي كان أول من قدَّم للغرب صورة مماثلة بعد الإدريسي بأربعة قرون.

ولم يكن الغربيون أفضل معرفة بمصر القديمة من المسلمين؛ لأنهم اعتمدوا على ما أورده هيرودوت وديودور الصقلي وسترابو. ولأن كتب التاريخ والمسرحيات والأساطير وكتب الرحلات اليونانية لم تكن ضمن العدد الهائل من الكتب اليونانية التي نقلت إلى العربية. ولكن الميزة التي تمتع بها الغربيون كانت محدودة لأن الكتابات اليونانية-الرومانية القديمة لم تحقق التسلسل الزمني لمصر القديمة ولم تقدم أسلوبًا صحيحًا لقراءة الكتابة الفرعونية القديمة. وفي أواخر القرن الثامن عشر، أقرت دائرة المعارف الفلسفية الفرنسية أن «تاريخ مصر القديم في حالة فوضى، يختلط فيه التطور الزمني بالدين والفلسفة وتغرق جميعًا في الغموض والاضطراب».[٢٠]

الحملة الفرنسية والمجمع العلمي المصري

وُلد علم المصريات في خضم العنف، والإمبريالية، والصراع الإنجليزي-الفرنسي. فقد جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر لتحقيق مشروع استعماري اقترحه ليبينز عام ١٦٧٢م، وكان الغرض من الحملة الهجوم على المصالح البريطانية في البحر المتوسط والهند، وعثر الجنود الفرنسيون — صدفة — على حجر رشيد عندما كانوا يحفرون الأرض لإقامة الاستحكامات العسكرية، واستولى الإنجليز على الحجر كغنيمة حرب عام ١٨٠١م، ليصبح ذلك مَعلمًا لبداية صراع أنجلو-فرنسي في حقل المصريات امتد لأكثر من قرن. ولولا الغزو الفرنسي لمصر لما كان هناك «وصف مصر».[٢١]

وقد ذهب نقاد تاريخ هذه الحقبة إلى أن عام ١٧٩٨م كان مجرد حدث لا يرقى إلى المستوى المفترض منه، فقد مهدت إصلاحات علي بك الكبير الطريق لإصلاحات محمد علي،

---

[٢٠] "Égyptiens (Philosophie des)," Encyclopédie raisonné des sciences, 1966, reprint of (1751–1780 ed. Paris), 5: 434.

[٢١] تعتمد الدراسات الأخيرة التي تناولت الحملة الفرنسية على مصادر فرنسية من بينها: Henry Laurens, L'Expédition d'Égypte 1798–1801 (Paris 1989); André Raymond, Égyptiens et Français au Caire 1798–1801 (Cairo 1998).

ولم تكن مصر بعيدة عن السوق العالمية قبل العام ١٧٩٨م، وأن الحملة الفرنسية تركت القليل من الآثار الثقافية.[٢٢] كما أنه قد بولغ في تقدير تأثير كتاب «وصف مصر» في أوروبا، وأن أسرار الماسونية، ومزمار موزار السحري، والتصميمات المعمارية لبرانسي تقوم دليلًا على وجود الولع بمصر قبل العام ١٧٩٨م. وقام الأوروبيون الذين كان باستطاعتهم قراءة القبطية بزيارة الكنائس والأديرة الرئيسية بمصر، وحددوا المواقع التي ذكرها المؤلفون القدامى، ووصلوا إلى المعابد الكبرى في الصعيد فيما عدا إدفو وأبيدوس، الآثار الإسلامية وحدها هي التي لم تكن معروفة إلا قليلًا.[٢٣]

وكان هناك كتاب أسبق يحمل عنوان «وصف مصر» (١٧٣٥م) الذي ذكر أن «النيل معروف للكثير من الناس كنهر السين تمامًا».[٢٤]

ولكن الحملة الفرنسية كانت نقطة تحول في تأكيد الصراع الجغرافي الأنجلو فرنسي، واستطاعت أن تضعف المماليك بشكل مؤثر، وتمهد الطريق أمام محمد علي، كانت هناك عقبات، ولكن محمد علي استطاع أن يدخل تغييرات أساسية في مجالات الاقتصاد والمالية والجيش والسياسة والثقافة.[٢٥]

ومثل عهد الحملة الفرنسية وعصر محمد علي فتحًا جديدًا في علم الآثار — فقد مهد العثور على حجر رشيد الطريق لحل رموز الكتابة الهيروغليفية ومولد علم المصريات الحديث، ولعب «وصف مصر» دورًا مهمًّا في تسجيل الفن الفرعوني وكذلك العمارة الفرعونية والطبوغرافيا.

ولما كان نابليون يسعى لتحويل الهزيمة العسكرية في الحملة إلى نصر ثقافي، فقد جعل من «وصف مصر» مشروعًا للدولة عام ١٨٠٢م. وبرهن العمل الكبير الذي بذل في إعداد المشروع على أنه قد يكون وريثًا لدائرة المعارف المعروفة، فقد صحب نابليون معه ١٧٠ عضوًا كونوا لجنة العلماء والفنانين الموفدين إلى مصر، وكان علماؤها الأساسيون

[٢٢] من بين نقاد التحقيب بيتر جران وكين كونو (انظر ما سبق ذكره بالمقدمة).

[٢٣] Carré Voyageurs 1: 67–73.

[٢٤] De Maillet, Description de l'Égypte, iv.

[٢٥] أحدث الدراسات الخاصة بهذا العصر هي دراسة خالد فهمي: All the Pasha's Men, Mohamed Ali, His Army and the Making of Modern Egypt (Cambridge, England, 1998).

ينتمون إلى المجمع العلمي المصري الذي أقيم على نسق مجمع مماثل أقيم حديثًا في فرنسا، وتولى جسبار مونج — رائد الهندسة الوصفية — رئاسة المجمع، وتولى «المواطن بونابرت» منصب نائب الرئيس، وإضافة إلى جان باتست فورييه، كان مونج منتميًا إلى قسم الرياضيات، بينما كان فيفان دينون منتميًا إلى قسم الأدب والفنون الجميلة، وكلود لوي برتوليه إلى قسم الفيزياء.[٢٦]

وضمنت اللجنة خمسة وأربعين مهندسًا (وفيهم الجغرافيون)، ونحو الاثني عشر من الميكانيكيين وأخصائي المناظير، ومثلهم من الأطباء والصيادلة، وثلاثين من الفلكيين والرياضيين والكيميائيين، وعلماء الحيوان والنبات، والتعدين، كما كان هناك ما يزيد قليلًا على خمسة عشر من رسامي الخرائط والرسامين، والمعماريين والأدباء، وعلماء الآثار والموسيقيين والاقتصاديين. وكان هناك عشرة من المستشرقين يعملون كمترجمين. وفي عام ١٧٩٩م طبعت مجلة «الاستشراق» لتكون المجلة الأولى التي يسهم في تحريرها كل من يدرس أو يرسم الشرق. وتولى ثمانية عشر طباعًا تشغيل مطبعتين كانت إحداهما غنيمة من الفاتيكان، وضمت حروفًا عربية ويونانية ولاتينية. وضم المجمع مكتبة، ومرصدًا، وورشة، ومعملًا كيماويًّا، ومجموعة من المعادن والآثار. تُرى، هل كان فرانسيس بيكون أودينيس ديدروت يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك؟

وكانت الأسئلة الستة التي طرحها بونابرت في افتتاح المجمع محبطة لأحلام الحالمين. فقد سأل عن كيفية استطاعة الجيش صناعة الجعة دون استخدام حشيشة الدينار، وكيف يستطيع تحسين أفران الخبز، وتنقية المياه، وصناعة البارود محليًّا؟ وما إذا كان من الأفضل إقامة طواحين هواء أو ماء؟ وما هي الإصلاحات التي يمكن إدخالها على القانون المحلي والتعليم وتكسب قبولًا شعبيًّا؟[٢٧]

ولم يحظَ باهتمام الأوروبيين من بين هؤلاء العلماء سوى فيفان دينون (١٧٤٧–١٨٢٥م)، فقد عاد إلى فرنسا مبكرًا بصحبة بونابرت، وكان كتابه «رحلة في صعيد مصر» الذي نشر عام ١٨٠٢م ممهِّدًا الطريق «لوصف مصر»، وسرعان ما ترجم كتابه

[٢٦] Gabriel Guémard, Histoire et bibliographie critique de La Commission des sciences et arts et de l'Institut d'Égypte (Cairo 1936).

[٢٧] La Décade égyptienne, vol. 1, (Year 7, 1798), 11–12.

إلى الإنجليزية والألمانية. كان دينون في الحادية والخمسين عندما انضم إلى الحملة، وكانت له إنجازات في مجال الكتابة والفن، كما خدم في السلك الدبلوماسي في سان بطرسبرج والسويد، ونابولي وقد فقد دينون أملاكه في حوادث الثورة ولكنه نجا من «الرعب» بفضل حماية الرسام دافيد.[٢٨]

وقد صحب دينون الجنرال ديزيه في حملته على المماليك بالصعيد، ورسم الآثار التي وقعت عليها عيناه طوال الطريق. وكان الجنود يسخرون من «العلماء»، ولكن الجيش الفرنسي أصيب بالذهول عندما رأى طيبة «وكأن احتلال خرائب تلك العاصمة القديمة أعظم أعمالهم، وأنه المتمم لاحتلال مصر». وليس من الغريب أن تناقض رسوم دينون التقليد الكلاسيكي، فقد وصف المعابد المصرية بالنمطية والطابع الحزين، وقال عن معبد دندرة «لم يخترع اليونان أو يفعلوا شيئًا يفوق عظمة هذا المعبد»، متحديًا بذلك مقولة كاترميردي كونسي إن العمارة المصرية أقل شأنًا من العمارة اليونانية.[٢٩]

وتبع دينون مهندسان شابان هما إدوارد دي فيلييه دي تراج (الذي يذكر دائمًا باسم دي فيلييه)، وجان باتست بروسبير جولوا، تبعاه في الاهتمام بآثار الصعيد، فأحضرا معهما رسومًا ومخططات معمارية للمعابد، كما أُرسلت الحملة فيما بعد بعثتان علميتان إلى الصعيد لدراسة الآثار، وعقد دي فيلييه مقابلة بين عظمة الماضي وتخلف الحاضر، بربرية الشرق والتنوير الأوروبي فقال:

«القرية العربية تضم أكواخًا بائسة، وتتحكم في أعظم آثار العمارة المصرية، ويبدو أنها قائمة هناك لتعبر عن انتصار الجهل والبربرية على قرون النور التي رفعت في مصر الفنون إلى الذروة.

وقد سعدنا عندما فكرنا أننا سنأخذ معنا إلى بلادنا منتجات علوم وصناعة المصريين القدماء، وهو غزو مشروع سنقوم به باسم الفنون.»[٣٠]

---

[٢٨] عن دينون راجع كتابه: Voyage dans la basse, et l'haute: Égypte, Description de l'Égypte, 2 vols., (Paris, 1802).

[٢٩] Jean-Claude Golvin, "L'Expédition de l'Haute-Égypte: À la découverte des ou la révélation de l'architecture pharonique" in Henry Laurens, l'Expédition d'Égypte (Paris, 1989), 333–50.

[٣٠] الاقتباس مأخوذ من: Golvin, "L'Expédition", 344.

وصف مصر

إن الرجل الذي رعى «وصف مصر» حتى اكتماله هو إدمي فرانسوا جومار (١٧٧٧–١٨٦٢م) الجغرافي الذي ساعد الحملة على رسم خرائط القاهرة والإسكندرية والأقاليم. وقد شمل هذا العمل الموسوعي أربع محافظ ضخمة من النصوص المتعلقة بمصر القديمة، واثنتين (من ثلاثة أجزاء) للدولة الحديثة، واثنتين (في خمسة أجزاء) للتاريخ الطبيعي، وخمس محافظ ضخمة للوحات التي خطت الآثار القديمة، واثنتين للدولة الحديثة، واثنتين (من ثلاثة أجزاء) للتاريخ الطبيعي. ولما كان العصر الإسلامي قد جاء بعد نهاية العصر القديم، فقد صنفه أصحاب «وصف مصر» ضمن «الدولة الحديثة» وفي هذه الحالة لم ينتهِ الخلاف حول التفرقة بين القديم والحديث بصورة تامة، فسوف يقود هذا الخلاف إلى تقسيم التاريخ إلى عصور ثلاثة، جعلت «التاريخ الوسيط» يحتل موقعًا بين القديم والحديث.[٣١] وقد عمل على هذه اللوحات التي بلغ عددها ٩٧٤ لوحة نحو ٤٠٠ رسامًا. ولم تظهر باكورة «وصف مصر» مطبوعة بالمطبعة الإمبراطورية التي أدارها جان — جوزيف مارسيل (أحد من خدموا في صفوف الحملة بمصر)، لم تظهر إلا عام ١٨١٠م (رغم أن صفحة الغلاف تحمل عام ١٨٠٩م)، وطبع آخرها عام ١٨٢٨م (ولا يعد من بينها الأطلس المستقل الذي طبع عام ١٨٢٩م) غير أن بانكوك أصدر طبعة ثانية مختصرة (١٨٢٠–١٨٣٠م) كعمل تجاري.

وقد انتقد إدوارد سعيد وغيره المقدمة التي كتبها فورييه لتتصدر الكتاب، ووافق عليها نابليون، أشاد فورييه بالأهمية الاستراتيجية لموقع مصر عند ملتقى قارات ثلاث وبكونها بيت الفنون حتى قبل حرب طروادة، وتلقى العلم فيها هوميروس، وليكورجوس، وسولون، وفيثاغورث، وأفلاطون، وسعى إليها كل من الإسكندر، وبومبي، وقيصر، ومارك أنطونيوس، وأغسطس طلبًا للقوة والمجد. وتبع خطاهم نابليون العظيم، ولكن «هذه

[٣١] Irene Bierman, “The Time and Space of Medieval Cairo”، أشار إلى غياب فترة العصور الوسطى من وصف مصر. (unpublished paper, 1998) وهناك دراسة مهمة عن تاريخ نشر «وصف مصر» هي: Michael W. Albin, “Napoleon’s Description de l’Égypte: Problems of Corporate Authorship”, Publishing History 8 (1980): 65–85.

وقد أعيدت طباعة اللوحات في ألمانيا طباعة ممتازة في كولون عام ١٩٩٤م.

البلاد التي نقلت معارفها إلى العديد من الأمم، تعيش الآن بين براثن البربرية».[٣٢] ومن ثم كانت بحاجة ماسة إلى الغزو الفرنسي الذي كان عليه استعادة المنافع الحضارية.

وتناولت صورة الغلاف التي أشرنا إليها من قبل (شكل ١) ما يدعم هذه الرسالة.[٣٣] فهناك خراطيش بها نجمة ونحلة — قيل في شرحها أنها ترمز إلى الإمبراطور — تحيط بالإطار الذي يعبر عن تتويج نابليون. وحتى نابليون نفسه لم يعترف صراحة أن النجمة والنحلة تعنيان (في الهيروغليفية) «الملك المقدس».[٣٤]

وقبل نشر «وصف مصر» بعقد من الزمان، عندما كان الجيش الفرنسي وعلماؤه لا يزالون رهن الحصار في مصر، قام الرسام البريطاني الساخر جيمس جليراي بالسخرية من العلماء الفرنسيين عندما صوَّرهم فوق عمود بومبي مذعورين منهكين، وقد أحاط البدو بالعمود من أسفل يُحكمون عليهم الحصار (الشكل ١١) وكتب تحت ذلك الرسم أن خطابًا من الجنرال كليبر وقع في يد الإنجليز ذكر فيه أنه عندما تقدمت قوة عثمانية، وأجبرت الفرنسيين على التقهقر نحو الإسكندرية، حوصر مجموعة من العلماء كانوا قد اعتلوا عمود بومبي لأغراض علمية، حيث أحاط البدو بالعمود وأشعلوا النار في كم هائل من القش جمعوه تحته، وتبين للعلماء في تلك المحنة الفكرة التي كانت وراء تصميم رأس العمود على هذا النحو.

وسار «وصف مصر» على نهج دائرة المعارف الفرنسية في تخطيه للتاريخ الفرعوني وإغفاله الإشارة إلى المجتمع الفرعوني وتطوره السياسي والديني.[٣٥] ويستمد العمل قوته فيما اتصل بالتاريخ القديم من استناده إلى التراث الكلاسيكي (اليوناني-الروماني) من حيث استخدامه في محاولة فهم ما شاهده العلماء من آثار. وقد أشار «وصف مصر» إلى مصادر يونانية ولاتينية تم استخدامها وكانت النقوش الهيروغليفية الواردة «بوصف

---

[٣٢] Description, Fourier, “Preface historique”, iii; Edward Said, Orientalism (New York, 1978), 80–87.

[٣٣] Description, vol. 1: Antiquités: Planches (Paris 1809), وقد أعيدت طباعتها لغلاف كتابين آخرَين نُشرا في ١٩٨٤م، ١٩٨٧م.

[٣٤] Iverson, Myth, 132–33.

[٣٥] Claude Traunecker, “L’Égypte antique de la Description”, in Laurens, Expédition, 351–70.

مصر» لا قيمة لها حتى صدور المجلد الأخير عام ١٨٢٨م، فالعلماء لم يلتزموا الدقة في تصوير الرموز الهيروغليفية، كما أن جومار نفسه لم يكن مقتنعًا بعمل شامبليون.

ونحَّى العلماء التطور التاريخي جانبًا، وقاموا بترتيب اللوحات الخاصة بالآثار المصرية القديمة على أساس موقعها الجغرافي من جزيرة فيلة إلى الإسكندرية شمالًا. وتعد لوحات الآثار التي اندثرت بعد الحملة الفرنسية بالغة القيمة اليوم؛ فالكتابات الإسلامية عن الآثار الفرعونية تفتقر إلى القيمة لأنها لا تتضمن توثيقًا مصورًا لتلك الآثار.

الجبرتي والحملة الفرنسية

عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤–١٨٢٢م)، عالم أزهري، سجلت حولياته التي حملت عنوان «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» — تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى وفاته، ولكن سرده لأخبار الحملة الفرنسية تخطى الجانب الأثري من عملها. ومن المحتمل ألا يكون قد رأى «وصف مصر» الذي كانت أجزاؤه تصدر تباعًا في باريس عندما مات الجبرتي. وقد أورد الجبرتي البيانات التي أصدرها بونابرت بالعربية موجهة إلى المصريين، ولم تأخذه بالفرنسيين الشفقة عندما راح يعدد الأخطاء النحوية الواردة بتلك البيانات، وينتقد ادعاء بونابرت صداقته للإسلام والسلطان، وعداءه للبابا، وإنقاذه المصريين من طغيان المماليك. وافتتح حولياته عن الحملة الفرنسية بالقول: «وهي أول سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعُف الشرور، وترادُف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب.»[٣٦]

وذكر الجبرتي أن الفرنسيين بعيدون عن التدين، ماديون، يمارسون الخلاعة والمجون مع النساء الأوروبيات والمصريات، وأنهم دنسوا الأزهر الشريف. غير أن الجبرتي قدَّر للفرنسيين علمهم أعظم تقدير، وعبَّر عن إعجابه «بالعلماء» الفرنسيين، وقد زار مكتبة المجمع العلمي ومعمله، ووصفه قائلًا:

«أفردوا للمدبرين، والفلكيين، وأهل المعرفة، والعلوم الرياضية كالهندسة، والنقوشات، والرسومات، والمصورين، والكتبة، والحسَّاب، والمنشئين، حارة الناصرية

---

[٣٦] الجبرتي، عجائب الآثار، ٣: ١، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٩٨م.

حيث الدرب الجديد … وفيه جملة كبيرة من كتبهم، وعليها خُزان ومباشرون، يحفظونها ويحضرونها للطلبة، ومن يريد المراجعة، فيراجعون فيها مرادهم، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين، ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة. فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها، فيحضرها له الخازن. فيتصفحون ويراجعون ويكتبون، حتى أسافلهم من العساكر. وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقَّونه بالبشاشة والضحك، وإظهار السرور بمجيئه إليهم، وخصوصًا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعًا للنظر في المعارف، بذلوا له مودتهم ومحبتهم، ويُحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها التصاوير …

ولقد ذهبت إليهم مرارًا، وأطلعوني على ذلك؛ فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم … وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم … ورأيت بعضهم يحفظ سورًا من القرآن. ولهم تطلع زائد للعلوم، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغة والمنطق، ويدأبون في ذلك الليل والنهار. وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات، وتصاريفها واشتقاقاتها … وعند توت الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة … كذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق … وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان، واستخراج الأملاح …»[٣٧]

ولم يذكر الجبرتي شيئًا عن مجموعة الآثار التي جمعها علماء المجمع العلمي ولكنه رأى كتبًا تحتوي على «صور البلدان والسواحل والبحار والأهرام، وبرابي الصعيد، والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها …» وهكذا نقل إلينا عالم أزهري مصري صورة إيجابية لمكتبة غربية، ومعامل البحث، ومعرفة الفرنسيين للإسلام والعربية، ومشاهدته للصور التي رسموها للمعابد والنقوش الهيروغليفية.

القناصل جامعي الآثار (سولت ودروفتي) والصراع الأنجلو-فرنسي

يحدد الاستيلاء البريطاني على حجر رشيد بداية ما يزيد على القرن من الصراع الإنجليزي الفرنسي في ميدان المصريات. وعندما جاء وليم هاملتون — سكرتير اللورد إيلجن السفير

[٣٧] الجبرتي، عجائب الآثار، ٣: ٥٧–٥٨، نفس الطبعة (وقد آثر المترجم الرجوع إلى النص الأصلي الذي نقل المؤلف ترجمته من تحقيق موريه لعجائب الآثار).

البريطاني في إستانبول — إلى مصر عام ١٨٠١م ليساعد في إجلاء الحملة عن مصر، أحبط محاولة فرنسية لتهريب حجر رشيد من مصر، واضطر لإقامة نقطة مراقبة على النيل هناك لهذا الغرض. وأورد هاملتون في كتابه عن مصر (١٨٠٩م) ترجمة للنص اليوناني على حجر رشيد. وفيما بعد، ساعد هاملتون اللورد إيلجن في الحيلولة دون حصول الفرنسيين على التمثال الرخامي لبارثينون، واضطر اللورد إيلجن أن يبيعه للمتحف البريطاني خاسرًا بذلك سمعته وماله.[٣٨]

وتابع القنصل البريطاني العام سولت وخصمه الفرنسي برناردينو دورفتي التسابق في اقتناء الآثار المصرية وخاصة ما ندر منها، وعظمت قيمته. جاء سولت إلى مصر عام ١٨١٥م، ومات بعد اثني عشر عامًا، وقد رحب باقتراح السير جوزيف بانكس — عالم النبات وأمين المتحف البريطاني ورئيس الجمعية الملكية أن يتولى جمع الآثار لحساب المتحف البريطاني. ولم يكن المرتب السنوي الذي يحصل عليه سولت (١٥٠٠ جنيه إسترليني) يكفي لتغطية نفقات القنصلية وتعلقت آماله بما يمكن أن يكسبه من تجارة الآثار، ولكن الضجة التي أثارها شراء المتحف البريطاني للتماثيل الرخامية لوثت الأجواء. فقام سولت أولًا بإهداء المتحف البريطاني تمثالًا لرأس رمسيس الثاني ثم عرض على إدارة المتحف شراء المجموعة التي كانت عنده كلها، ولكن السير بانكس خذله، ويعقب صديقه وصاحب ترجمته على ذلك بقوله: «اتهم سولت المسكين بأنه مجرد تاجر ويهودي، ونسخة أخرى من اللورد إيلجن.»[٣٩]

وكان من بين رجال سولت العاملين في حقل الآثار جيوفاني كافجليا، وهو قبطان بحري من مالطا، أجرى حفائر بالجيزة، وجيوفاني بلزوني، وهو لاعب سيرك سابق، والشخصية التي كُتبت عنها ست تراجم. وقد أحضر بلزوني رأس رمسيس الثاني على مركب نيلي إلى سولت بالقاهرة، وفتح معبد أبو سمبل، ومقبرة سيتي الأول، وهرم الجيزة.

[٣٨] فيما يتعلق بهاملتون انظر: Who Was Who 3: 188 وفيما يتصل باللورد إيلجن انظر: William St. Clair, Lord Elgen and the Marbles (London 1967).

[٣٩] J. J. Halls, The Life and Correspondence of Henry Salt, 2 vols. (London 1834), 2: 301, see also Who Was Who 3; 370–371.

وعندما قطع علاقته مع سولت قام بتنظيم معرض في الصالة المصرية ببيكاديلِّي (لندن) في ١٨٢١م، ونشر كتابًا بديعًا عن نشاطه.[٤٠]

أما دروفتي فكان توسكانيًّا، خدم في الجيش الفرنسي في إيطاليا وجاء إلى مصر كنائب قنصل عام ١٨٠٢م، ثم ترقى إلى منصب القنصل العام. وعند عودة الملكية فقد وظيفته عام ١٨١٤م، ولكنه استمر مقيمًا بمصر، يجمع الآثار على أمل بيعها فيما بعد إلى متحف اللوفر. ولم يدَّع دروفتي العلم كما فعل غريمه سولت. وقد استعاد منصبه القنصلي عام ١٨٢١م، واستمر في جمع الآثار. ووصل الأمر برجاله ورجال سولت إلى العراك داخل الكرنك، مما دفع القنصلين إلى التوصل إلى اتفاق بتقسيم مناطق مصر الأثرية بينهما، فما يقع غرب النيل من نصيب سولت، وما يقع شرقه من نصيب دروفتي. وقام جان جاك ريفر — أحد العاملين لحساب دروفتي — بإجراء حفائر في الكرنك فيما بين عامَي ١٨١٧م و١٨٢٣م.[٤١]

وتابع خلفاء سولت ودروفتي الصراع القنصلي الأنجلو-فرنسي لجمع الآثار المصرية. ففي الخمسينيات من القرن التاسع عشر، تولَّى ذلك الأمر جون بيكر، وباتريك كامبل، وتشارلز موراي على الجانب البريطاني، وتولاه على الجانب الفرنسي كل من جان فرانسوا ميمو وريموند ساباتييه، أما أدريا لوي كوشيليه الذي تولَّى القنصلية الفرنسية بمصر فيما بين ميمو وساباتييه فلم يكن له اهتمام بجمع الآثار.[٤٢]

وكان من بين قناصل الدول الأخرى من اهتم أيضًا بجمع الآثار المصرية مثل: جيسب دي نيزولي القنصل النمساوي في العشرينيات من القرن التاسع عشر، وجيوفاني أنستاسي الذي كان ابنًا لأحد الأمريكيين ممن كانوا يمدون الحملة الفرنسية في مصر بالمؤن، وقد

---

[٤٠] For Caviglia, see Who Was Who 3: 88; For Belzoni, his Narrative of the Operations and Recent Discoveries (London 1820), Who Was Who 3: 40–41; Stanley Mayes, The Great Belzoni (London 1959).

[٤١] On Rifaud, see Who Was Who 3: 358; Ronald T. Ridley, Napoleon's proconsul in Egypt: The Life and Times of Bernardino Drovetti (London 1998).

[٤٢] On Barker, Campbell, Murray, Mimaut and Sabatier, see Who Was Who 3: 30–31, 81–82, 302, 289, 369; On Cochelet, see George Gilddon, An Appeal to the Antiquaries of Europe on the Destruction of the Monuments of Egypt (London 1841), 107.

وقع نشاطه في حقل جمع الآثار بين فترة دروفتي — سولت وفترة بارييت، وتولى جمع الآثار أثناء عمله قنصلًا للسويد والنرويج بالقاهرة فيما بين ١٨٢٨ و١٨٥٧م. وعن طريق عملائه في سقارة والأقصر، استطاع أنستاسي أن يكون مجموعة ضخمة من الآثار المصرية انتهى بها المطاف إلى متاحف هولندا ولندن وباريس. كما قام ستيفان زيزينيا — اليوناني المولود بجزيرة خيوس والفرنسي الجنسية — قنصل بلجيكا بالقاهرة، بجمع الآثار المصرية.[٤٣]

وحالَ التمزق السياسي لإيطاليا دون انتفاعها بجهد الإيطاليين في تجميع الآثار المصرية، وقد مارس الإيطاليون عملهم في هذا المجال تحت أعلام دول أخرى (على طريقة كولومبوس وفيسيوتشي)، فقد عمل كل من بلزوني وكافجليا وألكسندرو ريتشي لحساب الإنجليز، وأصبح دروفتي البيدمونتي المولد فرنسي الجنسية. بل إن «الكورسيكي العظيم» — وهي الصفة التي خلعها أحد مؤرخي النشاط الإيطالي بمصر على بونابرت[٤٤] — بدأ حياته إيطاليًّا أكثر من كونه فرنسيًّا. وفي العشرينيات من القرن التاسع عشر، اشترت بروسيا مجموعات الآثار المصرية التي جمعها كل من هنريش فون مونيتولي وجيسب باسالاكا، لتودع في متحف برلين، وكان مونيتولي ضابطًا بروسيًّا إيطالي المولد برتبة جنرال، أما باسالاكا فكان إيطاليًّا من تريسته، وقد تبع مجموعته إلى برلين وأصبح أمين المتحف المصري هناك. ومن بين مواطني الدول الصغرى الذين عملوا لحساب دول أخرى جيوفاني أثاناسي الذي قام بحفائر لحساب سولت في وقت كانت فيه بلاده — اليونان — تابعة للإمبراطورية العثمانية. والمستكشف السويسري يوهان لودفيج بوركهارت (واسمه الإنجليزي جون لويس، وعُرف بين المصريين باسم إبراهيم المهدي) وكان يقوم باستخراج الآثار لحساب الإنجليز.[٤٥]

ولعل الأبعاد القومية بين المتصارعين الأوروبيين في حقل الآثار المصرية كانت مثار حرج أرستقراطية القرن الثامن عشر التي كانت ترسم الحدود بين البلاد بطريقة أيسر من رسم الحدود بين الطبقات، ولكن عقدين من الحروب الثورية فعلت فعلها في إضفاء

---

[٤٣] Who Was Who 3; 217; 8: 457.

[٤٤] Angelo Sammarco, Gli Italiani in Egitto (Alexandria 1937), 144–45.

[٤٥] On Ricci, Passalacqua, Athanasi and Burckhardt, see Who Was Who 3, 356, 321, 21, 74.

الصفة العالمية على العلم والثقافة؛ فقد أخذت فرنسا بالنظام المتري للقياس في عام ١٧٩٣م، وأرجأت بريطانيا عقد معاهدة دولية لجعل هذا النظام عامًّا في مجال العلوم حتى عام ١٨٧٥م.[٤٦]

هذا المزج بين الوطنية، والمنفعة، والحماس للتنقيب عن الآثار الذي تفاوت من جامع للآثار لآخر، والمتاحف التي انتشرت في المدن الأوروبية، ما لبثت أن أنهت دور الجامعين الوطنيين. فقد رفض اللوفر عرض دروفتي بيع مجموعته للمتحف، وانتهى بها المطاف في بلده الأصلي بيدمونت بدلًا من فرنسا التي حمل جنسيتها. ودفع المتحف البريطاني ألفي جنيه إسترليني لأول دفعة من مجموعة سولت، ولكن اللوفر حصل على بقية مجموعته بضعف الثمن، وانتهى الأمر بلوحة الملوك التي جلبها ميمو من أبيدوس إلى المتحف البريطاني.

الجبرتي والآثاريون الفرنجة

ولم يكن نشاط القناصل جامعي الآثار خافيًا على العلماء المصريين؛ ففي عام ١٨١٧م سجل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي نشاط الأوروبيين في مجال الآثار كما يلي:

«إن طائفة من الإفرنج الإنكليز قصدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة الكائنة ببر الجيزة غربي الفسطاط؛ لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشياء المستغربات، والفحص عن الجزئيات، وخصوصًا الآثار القديمة وعجائب البلدان، والتصاوير والتماثيل التي في المغارات والبرابي بالناحية القبلية وغيرها، ويطوف منهم أشخاص في مطلق الأقاليم بقصد هذا الغرض، ويصرفون لذلك جملًا من المال في نفقاتهم ولوازمهم ومؤجراتهم، حتى إنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد، وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام وتصاوير ونواويس من رخام أبيض، كان بداخلها موتى بأكفانها وأجسامها باقية بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلا ... وأحضروا أيضًا رأس صنم كبير، دفعوا في أجرة السفينة التي أحضروه فيها ستة عشر كيسًا، منها ثلاثمائة وعشرون ألف نصف فضة، وأرسلوها إلى بلادهم لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها، وذلك عندهم من جملة المتاجر في الأشياء الغريبة.

[٤٦] Dhombres, Naissance, 223–33.

ولما سمعت بالصور المذكورة، فذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير المعروف بالساعاتي، وسيدي إبراهيم المهدي الإنكليزي (وهو الاسم الذي عرف به يوهان لودفيج بوركهارت في مصر) إلى بيت قنصل بدرب البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية (وهو بيت سولت). وشاهدت ذلك كما ذكرته، وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم، وصقالة أبدانهم الباقية على ممر السنين والقرون التي لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب. وأرادوا الاطلاع على أمر الأهرام، وأذن لهم صاحب المملكة (محمد علي باشا)، فذهبوا إليها ونصبوا خيمة، وأحضروا الفعلة والمساحين والغلقان وعبروا إلى داخلها، وأخرجوا منها أتربة كثيرة من ذيل الوطواط وغيره، ونزلوا إلى الزلاقة، ونقلوا منها ترابًا كثيرًا وزبلًا، فانتهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك، هذا ما بلغنا عنهم. وحفروا حول الرأس العظيمة بالقرب من الأهرام التي تسميها الناس رأس أبي الهول، فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد ممتد كأنه راقد على بطنه، رافع رأسه، وهي التي يراها الناس، وباقي جسمه مغيب بما انهال عليه من الرمال، وساعداه من مرفقيه ممتدان أمامه، وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سماق أحمر عليه نقوش شبه قلم الطير، في داخله صورة سبع مجسم من حجر مدهون بدهان أحمر، رابض باسط ذراعيه في مقدار الكلب، رفعوه أيضًا إلى بيت القنصل، ورأيته يوم ذاك. وقيس المرتفع من جسم أبي الهول من عند صدره إلى أعلى رأسه فكان اثنين وثلاثين ذراعًا، وهي الربع من باقي جسمه. وأقاموا في هذا العمل نحوًا من أربعة أشهر.»[٤٧]

وهكذا عبر الجبرتي عن إعجابه بدقة ما صنعه الفراعنة ولاحظ إقبال الأوروبيين على العمل في استخراج الآثار، مستغربًا ذلك دون أن يستهجنه، ولعل هذه الفقرة المدفونة في حوليات الجبرتي مرت أمام أعين قراء تاريخه دون أن تلفت نظرهم.

وقد مات الجبرتي عام ١٨٢٢م، وهو العام الذي شهد الإنجاز الذي حققه شامبليون في حل رموز الهيروغليفية. وسوف تمضي اثنتا عشرة سنة قبل أن يتمكن أزهري آخر هو رفاعة الطهطاوي من نقل ثمار عمل شامبليون إلى المصريين.

---

[٤٧] الجبرتي، عجائب الآثار، ٤: ٤٣٩–٤٤١ طبعة دار الكتب ١٩٩٨م، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن. (وقد فضَّل المترجم ردَّ الاقتباس إلى أصله لأن المؤلف نقله عن ترجمة T. Philipp and M. Perlmann أما ما ورد بين قوسين فى النص فمن عند المؤلف والمترجم).

التسابق الأنجلو-فرنسي لحل الهيروغليفية (يانج وشامبليون)

تطور علم المصريات ودراسة آثار الشرق الأدنى من خلال الاستعانة بالنصوص في فهم الآثار، مع وجود كتابات مسجلة تلعب دورًا حاسمًا في تفسير الآثار المادية، وهو هنا على نقيض علم الآثار ما قبل التاريخ في الأمريكيتين وأوروبا وأفريقيا ما وراء الصحراء. ولذلك كان من أولويات علم الآثار في الشرق الأوسط حل رموز الكتابات الهيروغليفية المصرية، والأكادية، والسومرية، والفارسية القديمة، والحيثية. لأن كل واحدة من تلك الكتابات كانت مفتاحًا لفهم النصوص التي تعد هدفًا أوليًّا للمنقبين عن الآثار. ورغم أن اليونانية واللاتينية لم تكونا في حاجة إلى مفتاح لقراءتها، فقد تطور علم المصريات على نفس الخطوط التي سارت عليها دراسة الآثار اليونانية-الرومانية. أما دراسة علم الأشوريات (تاريخ العراق القديم) والآثار الإنجيلية فقد صاحب تطور علم المصريات أو تأخر عنه قليلًا.[٤٨]

وتعلقت آمال الإنجليز على توماس يانج (١٧٧٣–١٨٢٩م) لحل رموز الهيروغليفية، وكان يانج طبيبًا ولغويًّا، له مساهمات في المصريات. وقد أدرك يانج أن القبطية لغة مصر القديمة، واستطاع أن يستنتج بعض الرموز الديموطيقية المأخوذة عن الهيروغليفية، وأن الهيروغليفية مزيج من الرموز الأبجدية وغير الأبجدية. وتمكن من حل خرطوش بطليموس والملكة برنكي ووضع قائمة صحيحة جزئيًّا للعلامات الأبجدية ولكنه ظل عاجزًا عن تحقيق تقدم في فك طلاسم الهيروغليفية.[٤٩]

وقبل جان فرانسوا شامبليون التحدي ممثلًا لفرنسا. وكان أخوه الأكبر جاك جوزيف يتمنى الذهاب إلى مصر مع حملة بونابرت ووجه حماس أخيه الصغير نحو علم المصريات. وفي سن السادسة عشر، قدَّم شامبليون الصغير بحثًا لأكاديمية جرينويل أكد فيه أن القبطية هي لغة مصر القديمة. وتلقى العلم في باريس على يدي سلفستر دي ساسي ولوي لانجليه في كلية فرنسا والمدرسة الخاصة باللغات الشرقية. وفي عام ١٨٢٢م، أعلن

---

٤٨ Bruce Trigyer, A History of Archaeological Thought (Cambridge, Mass., 1989), 39–40.

٤٩ Who Was Who 3: 454–55; Alexander Wood and Frank Oldham, Thomas Young. Natural Philosopher, 1773–1829 (Cambridge, 1954); Richard Parkinson, Cracking Codes, The Rosetta Stone and Its Decipher (Berkeley, Calif., 1999), 31–41.

والكتاب الأخير يقدم تقييمًا لجهود كل من يانج وشامبليون.

توصله إلى حل لرموز الكتابة الهيروغليفية في خطاب وجهه للأكاديمية الفرنسية بعنوان: «خطاب للمسيو داسييه عن الأبجدية الهيروغليفية الصوتية».[٥٠]

لقد استولى الإنجليز على حجر رشيد، ولكن قراءة النص المنقوش عليه احتاجت إلى جهد رجل فرنسي! وتكشف عناوين الكتابات الإنجليزية التي تصدت لدعم المزاعم الإنجليزية عن ذلك السباق بين البلدين في هذا المجال، مثل ما كتبه يانج بعنوان «تقرير عن بعض الكشوف الحديثة في الأدب الهيروغليفي والآثار المصرية بما في ذلك الأبجدية التي وضعها المؤلف التي عرضها المسيو شامبليون» (نشر عام ١٨٢٣م)، وكذلك كتاب سولت «مقال حول التكوين الصوتي للهيروغليفية عند الدكتور يانج ومسيو شامبليون» (نشر عام ١٨٢٥م)، وما زال رفض شامبليون الاعتراف بأي فضل ليانج مسجلًا على اللوحة الموضوعة عند حجر رشيد بالمتحف البريطاني.

وتجاوز الجدل حول أبجدية شامبليون حدود الدول. ففي ألمانيا اعتبر شامبليون بطلًا في نظر عالم التاريخ الطبيعي ألكسندر فون هامبولد وشقيقه اللغوي فلهلم، بينما رفضه كل من هنريش كالبروت وجستافوس سايفارت. ولم يتأكد أن ما توصل إليه شامبليون بعيد تمامًا عن الشك إلا عندما أقر ذلك ليبسيوس عام ١٨٣٧م، وعندما نشرت أعمال شامبليون بعد وفاة صاحبها: كتاب: «النحو» (١٨٣٦–١٨٤١م)، و«القاموس» (١٨٤١–١٨٤٤م).[٥١]

وكذلك اختلف العلماء الفرنسيون في الرأي حول إنجاز شامبليون فعلى حين أيده تمامًا سيلفستر دي ساسي، أدت معارضة إدمي فرانسوا جومار إلى عدم انضمام شامبليون إلى «أكاديمية النقوش» حتى العام ١٨٣٠م. وكانت رعاية دوف بلاكا — الملكي والمهاجر السابق — لشامبليون حاسمة في تمكينه من تجاوز انتماء عائلته لليعاقبة، وأن ينتصر على جومار ويحصل على أمانة القسم المصري باللوفر عام ١٨٢٦م، وصرف جومار جهده إلى الوقوف على إخراج المجلدات الأخيرة من «وصف مصر»، والمساعدة في إدارة أمور «الجمعية الجغرافية» والإشراف على البعثة العلمية التي أرسلها محمد علي باشا إلى

[٥٠] H. Hartleben, Champollion, sein Leben und sein Werk, 2 vols. (Berlin 1906); Jean Lacouture, Champollion: Une Vie de Lumières (Paris, 1988).

[٥١] Anne-Frabçoise Ehrhard “Champollion et les Frères Humboldt” L’Égyptologie et les Compollion, ed. Michel Dewachter and Alain Fouchard (Grenoble, 1994), 95–115.

باريس، وتولى أمانة قسم الخرائط بالمكتبة الوطنية بباريس. ولكن من المؤسف أن رفضه لشامبليون جعله يحرم نفسه من الدخول في زمرة علماء المصريات، فقد صنفته موسوعة من هو عالم الآثار على أنه «مهندس، وجغرافي، ومنقب عن الآثار — ولكنه ليس من علماء المصريات».[٥٢]

رسامو الآثار البريطانيون والفرنسيون

انضم — في العشرينيات من القرن التاسع عشر — بعض الرسامين الشباب إلى الميدان إلى جانب القناصل جامعي الآثار. وكان البريطانيون في المقدمة دون أن يتلقوا رعاية مادية خاصة أو حكومية. فقام السويسري يوهان يوركهارت باستكشاف بلاد النوبة والشام ومكة لحساب الجمعية الأفريقية بلندن، واعتزم البريطانيون الذين تبعوه في مصر — في العشرينيات — رصد الآثار، والمناظر الطبيعية، والمجتمع المصري الحديث بالفرشاة والقلم.

وقد أصبح جاردنر ويلكنسون (١٧٩٧–١٨٧٥م) بارزًا في ميدان المصريات كما أصبح إدوارد وليم لين (١٨٠١–١٨٧٦م) رائد الاستشراق البريطاني في جيله. وكانت الثروة التي ورثها الرسام روبرت هاي (١٧٩٩–١٨٦٣م) كافية لإعالة فريق كامل من الرسامين، ولكن الدراسات التي أجراها فريق هاي على العمارة المصرية لم تعرف طريقها إلى النشر. وقد قام كل من ويلكنسون وهاي ولين بإهداء بعض الآثار المصرية إلى المتحف البريطاني، ولكن تسجيل الآثار بالرسم كان شغلهم الشاغل.[٥٣]

وقضى ويلكنسون معظم الفترة التي عاشها في مصر (١٨٢١–١٨٣٣م) في قرية القرنة التي تقع في مواجهة الأقصر على الضفة الغربية للنيل. وهناك شغل برسم مناظر القبور الفرعونية التي نشرها في كتابه «عادات وتقاليد المصريين القدماء». ومن الغريب

[٥٢] Robert Marichal, “Champollion et l’académie”, Bulletin de la Société Française d’Égyptologie 95, (1983): 12–31; On Jomard, see also Who Was Who 3, 218–19.

[٥٣] Jason Thompson, Sir John Gardner Wilkinson and his Circle (Austin, Tex., 1992). On Lane. See: Leila Ahmed, Edward W. Lane (London, 1978); Edward William Lane, Description of Egypt, ed. Jason Thompson (Cairo, 2000): On Hay See, Selwyn Tillet, Egypt Itself: The Career of Robert Hay, Esquire of Linplum and Nunraw, 1799–1861 (London 1984).

بمعايير اليوم أن نعرف أن ويلكنسون عاش في مقبرة تكسوها النقوش، وكان يتخذ من أخشاب توابيت المومياوات وقودًا. ولما كانت قراءة الهيروغليفية — عندئذٍ — ما زالت من الصعوبة بمكان، فقد كان جُلُّ اعتماد ويلكنسون على الإنجيل، والدراسات الكلاسيكية (اليونانية-الرومانية)، والمناظر المنقولة من نقوش القبور، وكان ويلكنسون يخشى أن يسرق الألمان أو الفرنسيون فضل المبادرة إذا تقاعس هاي عن نشر نتائج العمل الميداني المكثف الذي قام به البريطانيون في العشرينيات والثلاثينيات.[٥٤]

لقد تعلَّم لين الرسم، وجاء إلى مصر عام ١٨٢٥م، وأعد كتابه الذي لم تتح له فرصة النشر إلا بعدما يزيد على القرن، والذي حمل عنوان «وصف مصر» مقابلًا جزئيًّا للعمل الفرنسي العظيم. وقد عكس كتابه الشهير «عادات وتقاليد المصريين المحدثين» جانبًا من عمله عن «وصف مصر» الذي يعكس معرفته بالمصريات، ولكنه تخصص بعد ذلك بالاستشراق، فترجم «ألف ليلة وليلة»، ووضع قاموسه العربي برعاية بعض الارستقراط. ولم تكن الجامعات — عندئذٍ — قد احتلت مركز العلم البريطاني الحديث؛ ولذلك اعتمد ويلكنسون ولين ومعاصريهما تشارلز لايل وتشارلز داروِن على رعاية بعض الأثرياء أو ثرواتهم الخاصة.

وقد نشر البريطانيون ١١٤ رحلة عن مصر (على الأقل) فيما بين ١٧٩٨ و١٨٥٠م بينما لم يزد ما نشره الفرنسيون عن ٥٤ رحلة (ومنذ عشرينيات القرن التاسع عشر احتل الأمريكيون المركز الثالث بعدما أزاحوا عنه الألمان).[٥٥] وأدت التقارير الواردة إلى أوروبا عن النشاط البريطاني في التنقيب عن الآثار المصرية إلى حفز شامبليون على إعداد بعثته الأثرية ١٨٢٨–١٨٢٩م، وساعده في قيادتها تلميذه التوسكاني في إبوليتو روسلِّيني.

ولما كان العلماء يتحرَّقون شوقًا للنصوص، فقد انكبوا على نسخها، ولكن كان من بين أهداف بعثتهم جمع الآثار المصرية لحساب متحف اللوفر. وعندما سمع جوزيف بونومي — ناسخ النقوش الذي كان يعمل مع هاي — أن شامبليون ينوي قطع بعض النقوش من مقبرة سيتي الأول كتب له ما يلي:

«سيدي — علمت أن أناسًا وصلوا إلى القرنة بأمر منك لقطع رسوم معينة من مقبرة وادي الملوك التي فتحها بيلزوني بتمويل من المرحوم سولت القنصل البريطاني، فإذا صح

٥٤ Thompson, Wilkinson, 184.

٥٥ Compiled From Kalfatovic, Nile Notes.

عزمك على ذلك، أرى من واجبي كإنجليزي محب للآثار أن استخدم كل الحجج الممكنة لحثك على عدم ارتكاب مثل هذا العمل القوطي.» فرد عليه شامبليون قائلًا:

«فلتهدأ بالًا — سيدي — لأنك تستطيع يومًا ما أن ترى النقوش الجميلة من مقبرة أوزيري (سيتي الأول) في المتحف الفرنسي. فقد تكون هذه الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها من الدمار الواضح، وعندما أقوم بهذا العمل سوف أتصرف بمنطق المحب للآثار، طالما كنت سآخذها للمحافظة عليها، وليس لبيعها.»[٥٦]

ونتج عن عمل البعثة الفرنسية — التوسكانية مجموعتان من اللوحات العظيمة، مجموعة شامبليون التي نشرت بعد وفاته بعنوان «آثار مصر والنوبة» وتقع في أربع مجلدات (١٨٣٥–١٨٤٧م)، ومجموعة روسلِّيني ونشرت بعنوان «آثار مصر والنوبة» وتقع في تسعة مجلدات بالإضافة إلى ثلاثة مجلدات للأطالس (١٨٣٢–١٨٤٤م).[٥٧]

وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر، انتقل مركز الصراع الأنجلو-فرنسي في مجال الآثار — القديمة من النيل إلى دجلة، فقد أرست الإنجازات — التي تمت في مجال نسخ النقوش وجمع الآثار وحل رموز الكتابة — أرست قواعد علم «الأشوريات» القديمة. وكان كلوديوس ريس — وكيل شركة الهند الشرقية ببغداد وجامع الآثار مثل سولت — قد اكتشف بابل في أوائل العقد الثاني من القرن، وجمع بعض الألواح المسمارية التي انتهى بها المطاف إلى المتحف البريطاني. وفي الأربعينيات، أدهش بول إميل بوتا — نائب القنصل الفرنسي بالموصل — الإيطالي المولد مثل دروفتي، الفرنسي الجنسية — أدهش العالم بالكشف عن تماثيل لثيران مجنحة ذات رأس بشري وبعض التماثيل الآشورية الأخرى التي عثر عليها في خور سباد، وقام بشحنها إلى اللوفر. وقام أوستن هنري لايارد — خصم بوتا وصديقه الذي أصبح سفيرًا لبريطانيا في إستانبول فيما بعد — قام باكتشاف تماثيل ونقوش مماثلة في نمرود وكيونجك وشحنها بدوره إلى المتحف البريطاني. وأدى اندلاع حرب القرم إلى وضع نهاية لمرحلة الإقبال على اكتشاف آثار الرافدين عام ١٨٥٥م.[٥٨]

---

[٥٦] النص مقتبس من: Kent Weeks, The Lost Tomb: The Greatest Discovery in the Valley of Kings since Tutankhamun (Cairo, 1998), 68.

[٥٧] On Rosellini, see Who Was Who 3: 262–63.

[٥٨] William H. Stiebing Jr., Uncovering the Past: A History of Archaeology (Buffalo, N.Y., 1993), 95–190.

غير أن ما تحقق من نجاح في حل رموز الكتابة المسمارية قرب الفجوة بين تفوق علم المصريات، وعلم الآشوريات الوليد. ففي ١٨٠٢م اكتشف مدرس ألماني يدعى جورج جروتفند دلالة اثني عشر رمزًا في الفارسية القديمة عن طريق مقارنة اسم دارا باسم كسرى، ولكنه عجز عن التوصل إلى حل سليم لرموز الكتابة، تمامًا كما فعل يانج في سعيه لحل رموز الهيروغليفية. وفي العام ١٨٤٦–١٨٤٧م، نشر هنري رولنسون نص وترجمة نقش دارا الأول، وهو نص فارسي قديم كتب بثلاث لغات بالخط المسماري، عثر عليه في بيهستن بفارس، وبعد ذلك التاريخ بنحو عقد من الزمان نجح رولنسون واثنان آخران من العلماء في التوصل إلى حل الرموز الأكادية — لغة بابل وآشور القديمة — عندما استطاع كل منهم — على حدة — أن يترجم النص المسماري.

الظهور الأول للألمان، بعثة ليبسيوس

بينما كان الانتباه الفرنسي والبريطاني موجهًا نحو دجلة، نجحت بعثة ريتشارد ليبسيوس البروسية في الفترة ١٨٤٢–١٨٤٥م في حفائرها بمصر وبلاد النوبة، وفاقت إمكانات البعثة تلك التي كانت للبعثة الفرنسية — التوسكانية التي قادها شامبليون. فقد أنفقت الحكومة البروسية بسخاء على هذه البعثة للقيام بحملة واسعة من نسخ النقوش والتنقيب عن الآثار، وجمعها. وكانت جامعة برلين وغيرها من الجامعات الألمانية قد برزت في الثلاثينيات كمراكز للبحث العلمي، عندما كان ليبسيوس يدرس فقه اللغة بجامعات ليبزج وجوتنجن وبرلين. وانتقل ليبسيوس إلى باريس بعد عام واحد من وفاة شامبليون لمتابعة الدراسة، فأعد نفسه منهجيًّا بدراسة العلوم المساعدة قبل أن ينخرط في دراسة فقه اللغة المصرية القديمة التي كان بروزها حاسمًا عام ١٨٣٧م. ففي كتابه «خطاب إلى السيد الأستاذ روسيلِّيني بخصوص الأبجدية الهيروغليفية» هبط ليبسيوس بما فعله شامبليون إلى مستوى الهراء.

ويقدم هذا الكتاب صورة مختصرة للجهود المبكرة في الكشف عن آثار الرافدين، أما العرض التفصيلي فتجده في: Seton Lloyd, Foundations in the Dust: The Story of Mesopotamian Exploration, 2nd ed. (London, 1980); Brian Fagan, Travelers, Archaeologists and Monuments in Mesopotamia. (Boston 1979).

وعندما اعتلى فردريش فيلهلم الرابع (١٨٤٠–١٨٦١م) العرش البروسي، نصحه كل من ألكسندر همبولد، وكرستيان كارل بونسن (الدبلوماسي العالم) بأن يرسل ليبسيوس على الفور إلى مصر على رأس بعثة أثرية. وكان والده الملك فردريش فيلهلم الثالث (١٧٩٧–١٨٤٠م) قد تولَّى رعاية البعثة المتواضعة التي قادها هنريش فون مينوتولي عام ١٨٢٠–١٨٢١م للتنقيب عن الآثار في مصر، وقد زارت تلك البعثة الصعيد وواحة سيوة.[٥٩] وقد نجح مينوتولي في جذب الأمير البروسي (ولي العهد) إلى الاهتمام بالمصريات، ولعب الأمير الدور الأساسي في تدبير شراء مجموعة الآثار المصرية الخاصة بباسالاكا، وعينه أمينًا لمتحف برلين. وكانت بعثة ليبسيوس على درجة عالية من التنظيم حتى إنها أخذت معها قسًا لوثريًّا لتوفير الخدمة الدينية للفريق. وقد احتفلت البعثة بعيد ميلاد ملك بروسيا على قمة الهرم الأكبر برفع علم بروسيا وإضرام شعلة (انظر الشكل ١٢).

ورحب محمد علي باشا بالبروسيين، وقدم لهم عونًا تمثل في توفير وسيلة نقل نيلية مجانية لهم، وتقديم ما يلزمهم من العمال المسخرين، وعلى مر الطريق إلى الجنوب، جمع ليبسيوس وسجل بالرسم كل ما قابله من آثار، وعاد إلى بلاده حاملًا معه خمسة عشر ألفًا من القطع الأثرية والأقنعة المصبوبة. واحتل مقعد أستاذية المصريات الذي نشئ خصيصًا من أجله بجامعة برلين، وبأسلوب منهجي رصين نشر كتابه «آثار مصر وإثيوبيا» الذي ضم ١٢ مجلدًا (١٨٤٩–١٨٥٩م).

وقد كان ليبسيوس القوة المحرِّكة وراء إدارة وتوسيع متحف برلين، رغم أن باسالاكا كان الأمين الاسمي للمتحف حتى وفاته عام ١٨٦٥م. وخسر ليبسيوس معركة مع المغامر الفرنسي بريس دافين (١٨٠٧–١٨٧٩م) الذي ما كاد يسمع أن ليبسيوس ينوي نقل لوحة الملوك بالكرنك إلى برلين حتى هرع إلى هناك وعمل طوال الليل على اقتلاع اللوحة من موضعها، وحملها في مركب على النيل، وعندما مر بجوار مركب ليبسيوس المتجه جنوبًا، دعاه إلى مركبه واستضافه دون أن يدري أنه كان يجلس فوق صندوق يحتوي على الكنز الثمين الذي كان يسعى للحصول عليه! وكان بريس رسامًا يشتغل بنسخ النقوش، كما كان معنيًّا بجمع الآثار وقد نشر لوحات عن الفن الفرعوني والفن العربي بالقاهرة.[٦٠]

---

[٥٩] On Minutoli, see Who Was Who 3: 289; On Lepsius see George Ebers, Richard Lepsius: A Biography, trans. Z. D. Underhill (New York, 1887); E. Freier and W. F. Reineke, eds., Karl Richard Lepsius (1810–1884), (Berlin, 1988).

[٦٠] Carré, Voyageurs, 1: 301–323.

سباق المؤسَّسات، المتاحف والجمعيات العلمية الأوروبية

قامت المتاحف والجمعيات العلمية برعاية أعمال التنقيب الأثرية في حقل المصريات — حتى أواخر القرن التاسع عشر — أكثر مما كانت تفعله الجامعات، فقد أعلن شامبليون توصله إلى حل رموز الهيروغليفية إلى «أكاديمية الفنون الجميلة والنقوش» وعمل أمينًا باللوفر، وحصل على كرسي الأستاذية «في كلية فرنسا» قبل عامين من وفاته. وكان الإنجليزي صامويل بيرش من رجال المتاحف، وليس أستاذًا بالجامعة، وكان كونرا دوس ليمانز (١٨٠٩–١٨٩٣م) رائد المصريات في هولندا مديرًا لمتحف ليدن.[٦١]

وأدى استيلاء بريطانيا على القطع الأثرية التي جمعتها الحملة الفرنسية (وفيها حجر رشيد) إلى تأخر البدء في تكوين مجموعة الآثار المصرية باللوفر. وعندما أصبح دينون مديرًا للمتحف المركزي للفنون بعد عشر سنوات من الثورة الفرنسية، جعل مجموعة المقتنيات الفنية الملكية متاحة للجمهور، ثم ما لبث أن ترقى إلى منصب مدير عام المتاحف الوطنية. وقام بجمع ما صادره نابليون من تحف أعدائه الأوروبيين وفقد دينون منصبه في ١٨١٥م عندما تخلص البوريون من موظفي نابليون، وكان يجب استعادة ما تم نهبه عقب هزيمة ووترلو. ورغم ذلك بدا اللوفر نموذجًا للمتاحف الوطنية يحتذى به في أوروبا كلها، وفي بلاد بعيدة كالولايات المتحدة، والمكسيك، ومصر، وإستانبول (انظر الشكل ١٣).

وأضاع اللوفر فرصة ذهبية عام ١٨٢٤م، عندما حرضه جومار على رفض شراء مجموعة الآثار المصرية الأولى التي عرضها دروفتي، فقد اشترتها بيدمونت (البلد الأصلي لدروفتي)، وكان على شامبليون أن يتبع المجموعة حتى تورين بحثًا عن النصوص اللازمة لبحثه اللغوي. وهناك اقترح إقامة أول متحف للآثار المصرية في العالم.[٦٢] وما لبث اللوفر

---

[٦١] On Leemans, see l'Égyptologue Conrade Leemans et sa Correspondance, ed. W. F. Leemans (Leiden 1973) and Who Was Who 3: 242–43.

[٦٢] Christiane Ziegler, Le Louvre: Les Antiquités Égyptiennes (Paris 1990), 5–6; Todd Porterfield, The Allure of Empire: Art in the Service of French Imperialism 1798–1836 (Princeton, N.J., 1998), 81–116; McClellan, Inventing the Louvre: Art, Politics and the Origins of the Modern Museum in Eighteenth-Century Paris (Cambridge, 1994).

أن عوَّض ما فاته من وقتٍ لاقتناء الآثار المصرية، فحصل على مجموعة سولت، ومجموعة دروفتي الثانية، وعُيِّن شامبليون أمينًا للجناح المصري الجديد عام ١٨٢٦م. وفي العام التالي — بعد أقل من ثلاثة عقود على الحملة الفرنسية — فتح شامبليون الجناح المصري للوفر الذي كان يسمى رسميًّا «متحف شارل العاشر». وتغاضى شامبليون عن العادة الشائعة لترتيب المعروضات وفق المعايير الجمالية، فقام بعرض المقتنيات على أساس زمني وحسب الغرض الذي صنفت من أجله: ديني، أو زمني، أو جنائزي. وساعدت ثمار بعثته إلى مصر على سد بعض الثغرات في المجموعة.

ولم يبدأ المتحف البريطاني بمجموعة ملكية، ولكنه بدأ بمجموعة خاصة، أوصى بها عام ١٧٥٣م الطبيب وعالم التاريخ الطبيعي السير هانز سلون، فقد نصت وصيته على أن تكون مكتبته وتحفه «للنفع العام»، وأن يتاح الاطلاع عليها «لكل الطلاب ومحبي الاطلاع». وقد تم إنشاء أقسام المتحف الخاصة بالآثار القديمة عام ١٨٠٧م، وبدأت بداية غير ثابتة، على نحو ما حدث من صعوبات واجهها إيلجن وسولت في تعاملهما مع المتحف، وقد بدأ صمويل بيرش — الذي خلدته واجهة المتحف المصري بالقاهرة إلى جانب شامبليون وليبسيوس وروسيلِّيني — بدأ رحلة عمله الذي امتد إلى نصف القرن، بالمتحف البريطاني عام ١٨٣٦م.

وفي برلين، لم يعد مونبيجو كافيًا لاستيعاب مجموعة الآثار المصرية بعد عودة ليبسيوس من مصر، وتم افتتاح المتحف الجديد عام ١٨٥٠م بجزيرة المتحف مع استمرار باسالاكا مديرًا للجناح المصري اسمًا بينما كان ليبسيوس صاحب اليد العليا فيه. وصممت صالة العرض على طراز فرعوني جديد مبهر يضفي الكثير على الآثار المعروضة.[٦٣]

أما عن الجمعيات العلمية، فقد كان السبق لباريس في إنشاء الجمعية الجغرافية عام ١٨٢١م، تلتها برلين عام ١٨٢٨م ولندن عام ١٨٣٠م، ونيويورك في ١٨٥١م، وكان الأخوان شامبليون وراء تأسيس الجمعية الجغرافية بباريس، ولكن جومار

---

[٦٣] Louis Keimer, “Le Musée égyptologique de Berlin”, Cahiers d’histoire égyptienne, Série 3, Fasc. 1 (November 1950), 27–41; Thomas W. Gaehtgens, “The Museum Island in Berlin,” in The Formation of National Collections of Art and Archaeology, ed. Gwendolyn Wright (Washington, D.C., 1966), 52–77.

جعل منها منتدى له لمدة أربعين عامًا، وغالبًا ما كان يوجه مجلتها نحو الموضوعات المصرية.[٦٤]

وقد ورثت «الجمعية الجغرافية الملكية «بلندن»، جمعية النهوض يكشف المناطق الداخلية من أفريقيا» (تأسست عام ١٧٨٨م)، وجمعية فلسطين (تأسست عام ١٨٠٤م)، و«نادي الرالي للرحالة» (تأسس ١٨٢٦م)، وقد وجهت الإمبريالية غير الرسمية مسار «الجمعية الجغرافية الملكية»، ثم لعبت «الإمبريالية الجديدة» نفس الدور، وقد فاقت الجمعية منافساتها من جمعيات الدول الأخرى في النهوض بالكشوف الجغرافية والبحث العلمي.

وتأسست «الجمعية الآسيوية» بباريس عام ١٨٢٢م، وتلتها «الجمعية الملكية الآسيوية لبريطانيا العظمى وأيرلندا» التي أنشئت بلندن عام ١٨٢٣م في نفس العقد الحرج الذي تأسست فيه الجمعية. وفي التجربة البريطانية، أثرت المستعمرات في المركز ولم يحدث العكس، فقد أنشأ وليم جونز «الجمعية الآسيوية بالبنغال» عام ١٧٨٤م، وأقيمت نظيرتها في بومباي عام ١٨٠٤م. ولم تظهر الجمعيات الاستشراقية الألمانية والأمريكية قبل الأربعينيات من القرن التاسع عشر. ولذلك كانت الجمعيات الجغرافية والآسيوية التي تأسست في لندن وباريس، والمجمع العلمي المصري الذي ذوى مع الحملة الفرنسية، «والمجمع العلمي الفرنسي»، و«الجمعية الملكية البريطانية» هي النماذج التي حذا حذوها الأوروبيون الذين أسسوا «الجمعية المصرية» بالقاهرة عام ١٨٣٦م.

استلهام النموذج الأوروبي، الجمعية المصرية بالقاهرة

كانت حملة نابليون، والبعثات الأثرية التي قادها شامبليون وليبسيوس ذاتية الدوافع خرجت جميعًا من أوروبا متجهة إلى مصر، جمعت الآثار من مصر، وحملتها معها إلى بلادها لدراستها وعرضها ونشر ما استخلصته منها من معلومات.

وظلت ذكريات المجمع العلمي المصري ماثلة في أذهان الأوروبيين المقيمين بمصر بعد جلاء الفرنسيين عن البلاد؛ ففي عام ١٨٢٨م أقيمت جمعية غامضة بالإسكندرية

---

[٦٤] Donald Malcolm Reid, “The Egyptian Geographical Society”. Poetics Today 14, no. 3 (Fall 1993), 539–72; T. W. Freeman, A History of Modern British Geography (London .1980)

سُمِّيت «جمعية القراءة الإنجليزية»، وأسس الأوروبيون بالقاهرة «الجمعية المصرية» عام ١٨٣٦م «كملتقى للرحالة بهدف إيجاد رابطة بين أهل العلم والآداب الذين قد يزورون مصر من وقتٍ لآخر».[٦٥] وقد سعت الجمعية — التي أطلق عليها أيضًا اسم «الجمعية الشرقية» — إلى تكوين مكتبة للمراجع الخاصة بمصر «لجمع وتسجيل المعلومات» عن مصر وجيرانها، وباستطاعة أي زائر أو زائرة لمصر استخدام المكتبة، «وجميع الرجال من مختلف الجنسيات» لهم حق العضوية مقابل جنيه إنجليزي واحد في السنة،[٦٦] وكان استثناء النساء من العضوية يتسق مع ما جرى العمل به — عندئذٍ — في أوروبا.

وكان أنتوني هاريس (١٧٩٠–١٨٦٩م) أول رئيس للجمعية، تاجرًا في الآثار، أثرت مجموعة بردياته المتحف البريطاني. وبلغ عدد أعضاء الجمعية عشرين عضوًا عام ١٨٣٩م عندما حصلت مكتبتها على «الأعمال الكبرى لمدرسة الآثار الجديدة، وجعلتها متاحة للاطلاع في مصر لأول مرة».[٦٧] وبعد أربع سنوات، ارتفع عدد الأعضاء إلى ١١٠ عضوًا، كان الثلثان من البريطانيين، يليهم الفرنسيون (وكان من بينهم أنطوان كلوت بك، ولينان دي بلفون وفردنان دي ليسبس)، وكان هناك مجموعة من البريطانيين والألمان والأمريكيين، وكان كلوت بك والطبيبان البريطانيان: هنري أبوت، وألفرد والن، مولعين بجمع الآثار تمامًا مثل هاريس رئيس الجمعية. ومنحت الجمعية العضوية الشرفية لستين شخصية، كان من بينهم بيرش، وفون بونسن، وهاملتون، وجومار، ولين، وليبسيوس، وروسيلِّيني، وويلكنسون. وتولى جومار متابعة تلبية طلبات الجمعية من الكتب في باريس، وقام لين بنفس المهمة في لندن،[٦٨] وعندما ضمت الجمعية أعضاء من المصريين في عضويتها، كان الأيسر قبولًا سليمان باشا الفرنساوي الذي تولَّى قيادة الجيش المصري، والأرمينيان حككيان وأنستاسي.

---

٦٥ Laws and Regulations of Egyptian Society (Alexandria, n.d.), 1; See also Philip Sadgrove, “Travellers’ Rendezvous and Cultural Institutions in Muhammad Ali’s Egypt” in Travellers, ed. Starkey and Starkey, 257–66.

٦٦ Laws and Regulations of the Egyptian Society, 1, 2, 8.

٦٧ حول تاريخ الجمعية انظر: L. Auriant, “Les Origines de l’Institut égyptien, La Société égyptienne (1836–59),” Journal des savants (1926): 217–27.

٦٨ Fifth Report of the Egyptian Society (n.p., ca. 1841), 2.

وهناك قائمة بأسماء الأعضاء على كتاب Linant de Bellefonds, Mémoire sur le Lac Moeris (Alexandria, 1843).

وفي عام ١٨٤٢م دب نزاع بين الأعضاء حول كتاب كلف بإعداده بريس دافين،[٦٩] أدى إلى حدوث انشقاق، وتأسيس جمعية منافسة باسم «الجمعية الأدبية المصرية»، وكان الانقسام على أساس شخصي وليس على أساس الانتماء الوطني، فقد قاد الطبيبان البريطانيان والن وأبوت هذا الانشقاق، وكانت أغلبية الأعضاء في الجمعيتين من البريطانيين. وأسهم كل من ويلكنسون وبريس دافين في المجلد الوحيد الذي أصدرته «الجمعية الأدبية» قبل أفول نجمها. وفي الدليل الذي نشره ويلكنسون عام ١٨٦٧م، ذكر مكتبة «الجمعية المصرية» كمكان جدير بزيارة السياح، ولكن الجمعية لم تكن ذات نشاط ملحوظ عندئذٍ، وفي ١٨٧٣–١٨٧٤م قام حككيان ولينان دي بلفون بإهداء ما تبقى من مكتبة «الجمعية المصرية» إلى دار الكتب الخديوية التي أنشئت حديثًا.[٧٠]

الطهطاوي يكتشف الفراعنة

عند صدور طبعة رابعة من موسوعة «من كان هو في علم المصريات»، يجب أن يدرج الطهطاوي ضمن الشخصيات التي رصدتها الموسوعة. فرغم أنه لم يقم بالتنقيب عن الآثار، ولم يقرأ الهيروغليفية، إلا أنه لعب دورًا مهمًّا في جذب اهتمام مواطنيه المصريين بمصر القديمة على نحو ما فعل الرحالة وجامعو الآثار والمؤلفون الغربيون — الذين ورد ذكرهم في الطبعات الثلاث من الموسوعة — مع أبناء بلادهم.[٧١] والطهطاوي شيخ أزهري، ختم تعليمه في باريس، وتولى مناصب رسمية في ميادين الترجمة، والتعليم، والصحافة، وأصبح أشهر مفكر مصري في جيله (انظر الشكل ١٤).

---

[٦٩] British Library, Additional Manuscripts 37, 449, Hekekyan Papers, vol. 2: 45 (4 July 1842), on the split, see Yacoub Artin, “Lettres inédites du Dr. Perron à M. J. Mohl” BIE, ser. 5, 3, Fasc. 2 (1909): 144–46.

[٧٠] I. G. Wilkinson, A Handbook for Travellers in Egypt (London, 1847), 113; Artin, “Lettres”, 146.

[٧١] حول رفاعة الطهطاوي راجع: Gilbert Delanoue, Moralistes et politiques musulmans dans l’Égypte du XIXe siècle (1798–1882) 2 vols. (Cairo, 1982) 2; Anouar Louca, Voyageurs et écrivains égyptiens en France an XIXe siècle (Paris 1970).

وانظر أيضًا: صالح مجدي، حلية الزمن بتاريخ خادم الوطن: سيرة رفاعة الطهطاوي، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٨م)؛ وأحمد بدوي: رفاعة رافع الطهطاوي، ط ٢ القاهرة (١٩٥٩م).

وقد حرصنا أن نقرن الطهطاوي وشامبليون في عنوان هذا الفصل لتأكيد الدور الذي لعبه هذان العالمان في تقديم معلومات جديدة — كل إلى قرائه — مستمدة من النصوص الهيروغليفية، كما أن الحياة العملية للطهطاوي قريبة الشبه بتلك التي كانت للمستشرق البريطاني إدوارد وليم لين؛ فقد وُلد كل منهما عام ١٨٠١م، وفي منتصف العشرينيات، اتجه الأول إلى الغرب، بينما اتجه الآخر إلى الشرق، عبر البحر المتوسط، بحثًا عن المعرفة التي غيرت مسار حياة كل منهما. وعاش كل منهما في العاصمة الكبرى للثقافة التي ينشد دراستها، وتعلم كل منهم لغة الثقافة التي تعنيه، وعاد كل منهما إلى بلاده، لينشر — في منتصف الثلاثينيات — كتابًا رصينًا قدم فيه لمواطنيه عادات وتقاليد أهل الثقافة الأخرى. (عاش الطهطاوي في باريس ولم يعش في لندن بلد لين، وتعلم الفرنسية وليس الإنجليزية).

وركز كل من الكتابين على عاصمة واحدة — باريس، والقاهرة — ويكاد كل منهما يستبعد الأقاليم الأخرى في البلاد التي كتب عنها. وضم كتاب لين عن «المصريين المحدثين» صورًا رُسمت بعناية، ولكن تعليم الطهطاوي الأزهري لم يؤهله لتزويد كتابه بالرسوم المصورة.

وقد أتبع كل من الرجلين كتابه الأول بنشر ترجمات لإطلاع قراءه على ثقافة الآخر، ورغم أن وجودهما بالقاهرة قد تزامن، وأن لين اشترى نسخة من كتاب الطهطاوي «تخليص الإبريز» عند ظهوره، إلا أننا لا نجد دليلًا على أنهما قد تقابلا. وكان كل منهما شديد الاهتمام بمصر القديمة والحديثة، وبعد أن قضيا حياتهما يلعبان دور قناة الاتصال بين الثقافتين، مات الطهطاوي في ١٨٧٣م، ولحق به لين في ١٨٧٦م.

ولا شك أن الطهطاوي ولين اختلفا من حيث الشخصية، والأفكار، والعلاقات على الصعيدين الوطني والعالمي. فخلال حياتهما تحول ميزان القوى بصورة حاسمة ضد مصر لمصلحة الغرب. لقد أبدى لين أسفه للتغيرات التي شهدتها مصر باستلهام الغرب، ولعل ذلك يرجع إلى عدم ارتياحه للتغير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي السريع الذي كان يجري في بريطانيا، ورغم أنه اعتمد تمامًا على ما يلقاه من رعاية مادية أرستقراطية، كان لين إنطوائيًّا، عزوفًا عن الارتباط بالنظام البريطاني. وكان الطهطاوي نقيضًا له، يعمل في خدمة الحكام الذين يتطلعون إلى دعم سلطتهم من خلال اقتباس التكنولوجيا ونظم الإدارة الغربية.

وُلد رفاعة الطهطاوي بمدينة طهطا — جنوب أسيوط — في العام ١٨٠١م، الذي شهد جلاء الفرنسيين عن مصر، لأسرة من العلماء، ولكن إقدام محمد علي باشا على إلغاء

نظام الالتزام أضر بوالد رفاعة، وقد تلقَّى الصبي تعليمه الديني الأولي ببلده ثم انتقل إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر عام ١٨١٧م. وكان أستاذه — عندئذٍ — الشيخ حسن العطار عالمًا واسع الأفق، اتصل بعلماء الحملة الفرنسية، وقدر له أن يصبح — فيما بعد — شيخًا للأزهر. وقد رشح العطار تلميذه الطهطاوي ليعمل إمامًا للبعثة التي ضمت ٤٤ طالبًا أوفدهم محمد علي إلى باريس عام ١٨٢٦م. وكان يقيم بفرنسا — عندئذٍ — عدد من المصريين الذين تعاونوا مع الحملة الفرنسية، وفروا من مصر بصحبة الفرنسيين عند جلائهم عن البلاد في ١٨٠١م. ولكن ظهر الآن نوع آخر من المصريين هم الطلاب الذين أوفدوا إلى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة، والعودة إلى مصر لتطبيقها.[٧٢] وبرَّر الطهطاوي طلب العلم في بلاد «الكفار» بالحديث النبوي «اطلبوا العلم ولو في الصين».

وفي باريس، تحول «الإمام» ليصبح أكثر طلاب البعثة نجابة وشغفًا للمعرفة. وقام جومار — باعتباره «ناظر» البعثة المصرية — بتقديم رفاعة الطهطاوي إلى سيلفستر دي ساسي — عميد المستشرقين الفرنسيين-[٧٣] ولعدد كبير من علماء فرنسا.

وفي عام ١٨٣٠م، كان الطهطاوي شاهد عيان لثورة يوليو التي أدت إلى نفي الملك شارل العاشر، واعتلاء لوي فيليب العرش الفرنسي، وفي العام نفسه عرض الطهطاوي على دي ساسي مسودة كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»،[٧٤] الذي وصف فيه رحلته وملاحظاته على الحياة الباريسية، وفي ١٨٣١م عاد إلى مصر ليتولى وظائف في مجالات التدريس والترجمة والصحافة، جعلت منه نجم النهضة العربية في القرن التاسع عشر.

نشرت المطبعة الأميرية ببولاق كتاب «تخليص الإبريز» عام ١٨٣٤م ليكون الأول من ثلاثة كتب ظهرت خلال ذلك العقد من الزمان الذي أخذت فيه مصر والغرب بمعايير بعضهما البعض. فقد ظهر كتاب لين «عادات وتقاليد المصريين المحدثين» عام ١٨٣٦م، ونشر كتاب ويلكنسون «عادات وتقاليد قدماء المصريين» عام ١٨٣٧م. وقد جاء كتابا الطهطاوي ولين متناظرين، وكان من الممكن أن يحمل كتاب الطهطاوي عنوان «عادات

[٧٢] Louca, Voyageurs, 25–27.

[٧٣] Louca, Voyageurs, 61–62.

[٧٤] قام أنور لوقا بترجمة «تخليص الإبريز» إلى الفرنسية (باريس ١٩٨٨م)، وقدم ديلانو في كتابه Moralistes ملاحظات بيلوجرافية عن الطبعات والترجمات المختلفة.

وتقاليد الفرنسيين المحدثين». وكان من الطبيعي أن يترافق كتابا لين وويلكنسون في حقيبة كل مسافر غربي إلى مصر؛ وذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر. وإذا كان كتاب ويلكنسون قد فقد قيمته، فإن كتاب لين ظل يحمل طابع التراث.

لقد تناولت دراسات أخرى ملاحظات الطهطاوي عن باريس، وما يعنينا هنا هو اهتمامه الواعي بمصر القديمة، ورغم أن أهل الصعيد يفترض فيهم الانتماء إلى مصر القديمة، يصعب إثبات هذا الافتراض، كما أن الطهطاوي لم ينشأ في رحاب الكرنك أو إدفو، وإن كانت بعض الأعمدة المتداعية من معبد قاد الكبير تقع على بعد سبعة أميال إلى الجنوب من بلدته طهطا.

والدليل الأول على اهتمام الطهطاوي بمصر القديمة يعود إلى باريس عام ١٨٢٧م، عندما نشر ترجمة عربية لعمل جوزيف أجوب «قصيدة ملحمية عن مصر». وكانت عائلة أجوب قد ربطت نفسها بالفرنسيين أثناء وجود الحملة بمصر، وفروا معها عند خروجها من البلاد، ومعهم جوزيف الذي كان طفلًا في السادسة من عمره، وقد ترعرع الطفل في مارسيليا ثم انتقل إلى باريس، ودرس اللغات، وقام بتدريس العربية، وتردد على الصالونات الأدبية، وعمل معاونًا لجومار في إعداد «وصف مصر»، كما علم الطهطاوي وتلاميذ البعثة المصرية اللغة الفرنسية أثناء وجودهم في باريس، وكانت قصيدة أجوب الملحمية تعبيرًا عن حنين ولوعة رومانسية على الوطن المفقود «مصر أم الآلهة والأبطال الحكماء» فبين خرائبها «تجتمع أربعون قرنًا».[٧٥]

وقدم شامبليون — شخصيًّا — تقريرًا لمحمد علي عام ١٨٢٨م عن دراسة رفاعة الطهطاوي في باريس،[٧٦] ولكن ربما لم تتح لشامبليون والشيخ فرصة اللقاء. ورغم علاقة الطهطاوي بجومار، يخلو «تخليص الإبريز» من أي إشارة إلى «وصف مصر» الذي كان له بالغ الأثر في الوعي الأوروبي، وإن كان يشير في «تخليص الإبريز» إلى وجود موقع لحفظ الآثار — لعله اللوفر — يضم العجائب التاريخية للقدماء كالمباني والمومياوات

[٧٥] Jean-Jacques Luthi, Introduction à la littérature d'expression française en Égypte (1798–1945), (Paris 1974) 103–5, 268; see also Louca, Voyageurs, 26.

[٧٦] Anouar Louca, "Rifaa al-Tahtawi (1801–1873) et La Science Occidentale" in D'un Orient l'autre (Paris 1991), 2: 213.

والملابس، ومن بينها آثار من مصر مثل دائرة البروج المجلوبة من دندرة، التي وقف منها علماء فرنسا على معرفة المصريين القدماء بالفلك والنجوم.[٧٧]

ويرد ذكر قدماء المصريين في «تخليص الإبريز» قرب نهاية الكتاب، انتقل فيها من الحديث عن القديم حيث الآثار والذكريات. فقد توقف الطهطاوي في فونتانبلو — في طريقه إلى مصر عام ١٨٣١م — وشاهد المسلة التي أقيمت تذكارًا لعودة البوريون إلى الحكم. ويشرح لقرائه أن الأوروبيين شأنهم شأن المصريين وسائر القدماء يخلدون أنفسهم بإقامة النصب التي تحمل كتابات. وعلى كلٍّ، في تلك الحالة قام ثوار ١٨٣٠م بمحو أسماء الملوك.[٧٨]

هذا النصب جعله يفكر في الأهرام فيقدم مزيجًا من التخرصات القديمة وما اكتشفه الأوروبيون حديثًا، فيقول إن بعض الفرنج يذكرون أن ملكًا يدعى قوف (خوفو) بنى أهرام الجيزة منذ ثلاثة آلاف عام. ويرجعه آخرون إلى خامس أوخيوب (يقصد Cheops وهو النطق اليوناني لخوفو على أي حال)، ويذكر البعض أن إقامتها استغرقت ٢٣ عامًا وأن الهرم الأكبر احتاج إلى ٣٥٠ ألف عامل لبنائه، وأن طعام العمال تكلف ٢٢ مليونًا من القروش المصرية. وأن فتحة الهرم الثاني والثالث المغلقين يحتوي أحدهما على جثمان زوجة الملك والآخر على جثمان ابنته (وهي معلومات خاطئة نقلها الطهطاوي إلى قرائه).

ويورد الطهطاوي ما أبداه السيوطي (المتوفى ١٥٠٥م) من الاهتمام بالأهرام، رغم أن المسلات الموجودة بالصعيد تبدو أكثر قيمة. ويضيف الطهطاوي أن الفرنج أخذوا مسلة إلى روما، كما نقلت أخرى «في أيامه» إلى باريس، ويعلق على إهداء محمد علي مسلة لفرنسا بقوله إنه ما دامت مصر قد اختارت الأخذ بالحضارة والعلم على نحو ما تفعل الدول الأوروبية، فإنه من الواجب الاحتفاظ بالتحف والأعمال التي تركها الأجداد للمصريين.

ولما كان «تخليص الإبريز» قد طُبع في المطبعة الأميرية ببولاق فقد وُزع مجانًا على طلاب المدارس والموظفين، وطبعت الترجمة التركية للكتاب عام ١٨٣٩م، ولعلها أثرت في الشباب العثماني الذي اتجه إلى المطالبة بالحكم الدستوري. وفي عام ١٨٣٥م، تولَّى

[٧٧] رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز (القاهرة ١٩٩٤م)، ٢٧٠.

[٧٨] انظر، الطهطاوي، تلخيص، ٣٧٧–٣٧٩.

الطهطاوي تأسيس ونظارة مدرسة الألسن، وتولى بعد ذلك إدارة قلم الترجمة، وتحرير «الوقائع المصرية».

وقد تضمنت المقدمة التي كتبها شيخ الأزهر حسن العطار لكتاب «تخليص الإبريز» بعض النقد، ولكن لين سمع أن الكتاب وصف بأنه يحكي قصة إفساد فضائل الغرب للمؤلف في بلاد الكفار.[٧٩] ولعل الطبعة الثانية من الكتاب (١٨٤٩م) قد سبقت ما تعرَّض له الطهطاوي من إهمال في عهد عباس حلمي الأول الذي كان معاديًا للنفوذ الأوروبي — وخاصة الفرنسي — واستبدل برجال محمد علي بعض رجاله. فأغلق عباس مدرسة الألسن، وقلم الترجمة، والوقائع المصرية، وباع المطبعة الأميرية، ونفى الطهطاوي إلى الخرطوم. وقد خشي الطهطاوي أن تدركه الوفاة هناك، وخاصة أن نحو النصف من زملائه الذين نفوا معه قد ماتوا.[٨٠] ولكن ما لبث أن أنقذه تولي سعيد الحكم خلفًا لعباس الذي مات مقتولًا، فعاد إلى مصر مرة أخرى، وأعيد إلى الخدمة.

دبلوماسية محمد علي في مجال الآثار

كانت الآثار — عند محمد علي باشا — مجرد أداة مساومة تُستبدل بها الدبلوماسية والعون التقني الأوروبي. غير أن هناك إشارات إلى مواقف للباشا كانت أقل نفعية منها: فزعه عندما شاهد استخراج مومياء بقرية القرنة، واختياره الهرم كرمز يتوج الصفحة الأولى من جريدته الرسمية (الوقائع المصرية) عام ١٨٢٩م، (انظر الشكل ١٥).[٨١] ويشاع أن الأوروبيين وحدهم رأوا في الأهرام رمزًا لمصر في أوائل القرن التاسع عشر، وأن اللوتس الفرعونية الجديدة التي تتوج جامع محمد علي بالقلعة ربما تعكس التأثير الأوروبي وليس الإلهام المحلي المباشر.[٨٢] لعل امتداح محمد علي لرسوم شامبليون للآثار كان مجرد تصرف دبلوماسي، غير أن طلب الباشا إلى العلماء الفرنسيين أن يقوموا بترجمة نقوش

[٧٩] من خطاب شخصيٍّ من جيسون طومسون إلى المؤلف بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٩٣م.

[٨٠] الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية (القاهرة ١٢٦٨هـ/ ١٨٦٩م)، ٢٦٥ اقتبسه المؤلف من كتاب: Delanoue Moralistes 2: 404.

[٨١] إبراهيم عبده، تاريخ الوقائع المصرية (القاهرة ١٩٤٢م)، ٣٥-٣٦، وانظر أيضًا: Mohammed al-Asad, “The Mosque of Muhammad Ali in Cairo”, Muqarnas 9 (1992): 55, n. 24.

[٨٢] Asad, “Mosque”, 48.

مسلة الإسكندرية وكتابه تاريخ مختصر للعصر الفرعوني يشير إلى وجود فضول ثقافي حقيقي عند محمد علي.[٨٣]

وفي العام ١٨٣٠م، قدم شامبليون التماسًا إلى محمد علي لحماية الآثار المعرضة للخطر، مشيرًا إلى اختفاء ثلاثة عشر معبدًا من الوجود خلال الثلاثين عامًا التي انقضت على الحملة الفرنسية. وأنحى شامبليون باللائمة على الفلاحين، وتجار الآثار، وجامعي الآثار. وأكد للباشا أن «كل أوروبا سوف تعْلم بالإجراءات التي قد يتخذها سموه للحفاظ على المعابد والقصور والمقابر وجميع الآثار التي تشهد بمتانة معطيات مصر القديمة، والتي تعد — في الوقت نفسه — أجمل ما تتحلى به مصر الحديثة.»[٨٤]

وعلى كلٍّ استمر تعرُّض الآثار للدمار، ونبه مينو — القنصل الفرنسي العام — محمد علي باشا إلى أن معبد دندرة تقتلع حجارته لتستخدم في بناء مصنع للنسيج بقنا، وتمنى مينو على الباشا أن يوقع بالفاعلين عقوبة صارمة ليتأكد أن «أحدًا من أولئك المتوحشين» لن يجرؤ على استخدام حجارة المعابد في بناء «مصانع حقيرة».[٨٥] وعندما علم محمد علي باستمرار تعرُّض الآثار للدمار مرة أخرى، علَّق الاتهام في رقبة الأوروبيين الذين لا سلطان عليهم.

ففي ١٥ أغسطس ١٨٣٥م، أصدر محمد علي أمرًا وجَّه فيه أصبع الاتهام إلى سوابق تصرفات الأوروبيين في هذا المجال، ليبرر خطر تصدير الآثار، ويأمر بجمعها لتعرض في القاهرة: «ومن المعلوم أن الأوروبيين لديهم مبان لحفظ الآثار، والأحجار المنقوشة، والنقوش، وغيرها من الأشياء الأخرى، التي يتم حفظها بعناية وعرضها على أهل البلاد وزوارها من الأجانب ... ومثل هذه الأبنية تجلب الشهرة للبلاد التي تقيمها.»[٨٦]

---

[٨٣] Jean-François Champollion, Lettres écrites d'Égypte et de Nubie, en 1828 et, 1829 (Geneva, 1973, reprint of 1833 Paris ed.), 42, 409, 429–54.

[٨٤] Champollion, Lettres, 456–57; Entire Memo 455 &, حول الجهود الأولى التي بذلت في المتحف ومصلحة الآثار، راجع: G. Maspero, Guide du visiteur au Musée du Caire, 4th ed., (Cairo, 1915), ix–x.

[٨٥] Gaston Wiet, Mohammed Ali et les Beaux-Arts, (Cairo ca. 1949), 24.

[٨٦] انظر نص الأمر في دار الوثائق القومية، فهرس بطاقات الدار، درج رقم (١) آثار، ومحافظ الأبحاث رقم ١١٨ آثار، وقد قام جاك تاجر بنشر ترجمة هذه الوثائق وغيرها مما يتصل بالآثار في: "Ordres

ونصَّ الأمر على إرسال الآثار التي يتم جمعها إلى الطهطاوي ناظر مدرسة الألسن بالأزبكية، وأن على الطهطاوي وحككيان اختيار الموقع المقترح لإقامة المتحف في مقابل المدرسة، وأسند تصميم المبنى إلى حككيان، حكم كونه مهندسًا، كما أسندت نظارة المتحف إلى يوسف ضياء أفندي، الذي كان عليه — أيضًا — القيام بدورات تفتيشية سنوية إلى المواقع الأثرية بالصعيد، فقام ضياء أفندي بجولة تفتيشية، وعيَّن ممثلين له بالصعيد لتجميع ما يتم العثور عليه من آثار وإرساله إلى القاهرة، ورغم إشارة أمر محمد علي إلى أن أهل البلاد وزوارها يشاهدون الآثار بالمتحف، اقتصر دخول المتحف على «السياح من زوار البلاد».

ولو قُدِّر لهذه الخطة أن تنفذ، لسارت مصر مع اليونان جنبًا إلى جنب في تحقيق السيطرة والحماية الوطنية للآثار. فقد أسس متحفها الوطني عام ١٨٢٩م، والإدارة المختصة بالآثار فيها في ١٨٣٣م، وصدر أول قانون خاص بالآثار فيها عام ١٨٣٤م، وأسست الجمعية الآثارية اليونانية عام ١٨٣٧م. وفي فرنسا أدى الاستيلاء على التحف والأيقونات الدينية الملكية أيام الثورة إلى إقامة متحف لها بدير الجراند أوجستان في تسعينيات القرن الثامن عشر. وأدت عودة البوربون إلى الحكم في فرنسا إلى إشاعة نوع من الحنين إلى العصور الوسطى. وفي عام ١٨٣٠م قام فرانسوا جيزو — المؤرخ والوزير الدائم للوي فيليب — بتعيين مفتش للآثار التاريخية، وبعد ذلك بأربع سنوات، أسست الحكومة الفرنسية «لجنة الآثار التاريخية». أما في بريطانيا، فقد أدى الاهتمام بحقوق الملكية الفردية إلى تأخير تعيين مفتش مسئول عن الآثار القديمة، حتى تم ذلك عام ١٨٨٢م.[٨٧]

ويعتبر المصريون — أحيانًا — الأمر الصادر في ١٨٣٥م حجر الأساس لإقامة مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري.[٨٨] ولكن المصادر الفرنسية تشير إلى أن الهدف

---

supérieurs relatifs à la Conservation des antiquités et la Création d'un musée au Caire", Cahiers d'histoire Égyptienne, ser. 3, Fasc. 1: 13–25.

[٨٧] Hans Huth, "The Evolution of Preservationism in Europe" Journal of the American Society of Architectural Historians (July/Oct. 1941): 5–12; Paul Léon, La vie des monuments Français: Destruction, restauration (Paris, 1951).

[٨٨] من خطبة لسوزان مبارك، الأهرام ١٦ ديسمبر ١٩٩٨م؛ وحول وجهة النظر الفرنسية، راجع، Maspero, Guide, ix.

من صدوره هو عرقلة جهود القنصل الفرنسي العام مينو لجمع الآثار المصرية وتصديرها خارج البلاد. وعلى كلٍّ، كان من سوء الطالع أن الأمر الذي أصدره محمد علي لإنشاء ١٨ مصنعًا للملح الصخري (نترات البوتاسيوم أو الصوديوم) أدى إلى تدمير الإيوان التاسع بمعبد الكرنك وتحويله إلى أحجار استخدمت في بناء أحد تلك المصانع.[٨٩] وأبدى القنصل الأمريكي جورج جليدون سعادته بهزيمة محمد علي في «المسألة الشرقية» ١٨٤٠-١٨٤١م؛ لأن ذلك يؤدي إلى توقف بناء المصانع مما يقلل من نهب الآثار وتحويلها إلى مواد بناء.[٩٠]

وشجع نهم الغرب إلى الآثار الأوروبيين — من القناصل إلى أقل الناس شأنًا — على السخرية من حظر تصدير الآثار، فقد قام شامبليون نفسه بقطع لوحة من مقبرة سيتي الأول المكتشفة، كما انتزع مينو لوحة الملوك من معبد أبيدوس، واستطاع بريس دافين أن يرشي رجال الجمارك بالإسكندرية لتصدير لوحة الملوك دون الحاجة إلى مساعدات القنصل.

وكانت المسلات أعظم الآثار شأنًا وأكثرها اجتذابًا، وقد حملها الرومان معهم غنيمة إلى روما والقسطنطينية. وقد اقترح الجنرال ديزيه على نابليون أن يأخذ إحداها معه إلى باريس.[٩١] وبعد إجلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٨٠١م، تحدث الضباط الإنجليز عن أخذ إحدى مسلات الإسكندرية معهم احتفالًا بالنصر على الفرنسيين. وتغيرت الأذواق عند أوائل القرن الثامن عشر، عندما اقترح بوادي ماييه نقل عمود بومبي — وليس إحدى المسلات — إلى باريس. واقترح دروفتي على محمد علي باشا أن يكسب ود الملك لوي الثامن عشر بإهداء فرنسا إحدى مسلات الإسكندرية. واستطاع شامبليون أن يساومه على المسلة الأحسن حالًا بمعبد الأقصر، وأخيرًا وصلت المسلة إلى باريس لتقف شامخة في ميدان الكونكورد عام ١٨٣٦م. ورفض الإنجليز أن يتحملوا نفقات نقل المسلة التي وعدهم بها محمد علي، ولكن إرازمس ويلسون — الخيّر — تحمل نفقات نقلها وإقامتها على ضفاف التيمس.[٩٢]

---

٨٩ Traunecker and Golvin, Karnak, 1336.

٩٠ Wiet, Mohamed Ali, 30; Gliddon, Appeal, 69.

٩١ Carré, Voyageurs I: 57, n. 3.

٩٢ Bernadette Menu, “L’es Frères Champollion,” L’Égyptologie et Les Champollion, ed. Dewachter and Fouchard, 77–94; Jean Vidal, “L’absent de l’obelisque” in Lacouture,

وفي عام ١٨٤١م، نشر القنصل الأمريكي جليدون — عضو الجمعية المصرية — كتابه «التماس إلى آثاريي أوروبا بشأن تخريب آثار مصر»، وتساءل ساخرًا: «لماذا لا نقيم حائطًا من الحجر الجيري في كل موقع أثري، حتى يحفر عليه — كل سائح إنجليزي متجه إلى الهند أو قادم منها — اسمه؟» ولعل السياح الذين يضيقون ذرعًا بالآثار التي زاروها يمضون الوقت في كتابة أسمائهم على النحو الذي كان يفعله الوندال في زخرفة حوائطهم.[٩٣]

واتهم جليدون مينو باستحواذه على لوحة الملوك الخاصة بمعبد أبيدوس من قبيل المنفعة المادية وليس اهتمامًا بالآثار. ووجه اللوم إلى دروفتي وسولت لصراعهما حول «تمثال جرانيتي لأبي الهول، وليس صراعهما حول الفرعون الذي أمر بنحته، ولكن حول السعر الذي يجلبه عندما يباع في أوروبا»،[٩٤] ولكن جليدون أعاد النظر في موقفه هذا، فامتدح شامبليون «لإنقاذه الآثار من جحورها، لتنعم بالأمان في المتاحف الأوروبية». ووصف سولت بأنه «رجل نبيل وعالم»، واستنكر جليدون صدور الأمر الخاص بالآثار عام ١٨٣٥م واعتبره خادعًا، يمثل «عملًا جديدًا من أعمال الإحتكار» الذي يعرقل التجارة الحرة برعاية الحضارة، ويقيم متحفًا بمصر! وطالب بإصدار فرمان عثماني يجعل من القناصل «أمناء على الآثار»، ويأمر المصريين بإطاعة أمرهم فيما يتصل بحماية الآثار.[٩٥] ولعب جليدون دورًا مهمًّا في نشر الاهتمام بمصر القديمة في الولايات المتحدة في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، ونشر — أيضًا — الفكرة القائلة بأن قدماء المصريين كانوا مبدعين.[٩٦]

وفي العام ١٨٤٢م، ذكر محمد علي لليبسيوس أن مشروع إقامة المتحف المصري قد فشل، وبرر ذلك بالقول بأن مصر الحديثة ما زالت في «بدايات الحضارة». ولكن تقييم ويلكنسون لذلك الموقف كان فجًا، فقد قال:

.Champollion, 473–92; Erasmus Wilson, Cleopatra’s Needle (London 1877)

انظر أيضًا: دار الوثائق القومية، فهرس بطاقات الدار، آثار، درج ١، من محمد علي للكتخدا، معية تركي، دفتر ٤٢، أمر ٦١١، المحرم ١٢٤٧هـ.

٩٣ .Gliddon, Appeal, 142–44

٩٤ .Gliddon, Appeal, 52; and Gliddon, “Ancient Egypt”

٩٥ .Gliddon, Appeal, 127, 146–48

٩٦ Robert J. C. Young, Colonial Desire: Hybridity in Theory, Culture and Race (London .1995), 124–29, On Gliddon, see Who Was Who 3, 169

«إقامة متحف بمصر فكرة خيالية محضة، فبينما يؤدي حظر تصدير الآثار من مصر إلى الإضرار بالعالم، لا تحقق مصر مغنمًا. فالحفائر تتم دون حاجة إلى معرفة أو جهد، ومن يعملون فيها يخدعون الباشا ولا يهتمون بإقامة المتحف ... وبعد وضع الحظر كعقبة في طريق الأوروبيين، لن يقيم الباشا متحفًا.»[٩٧]

وبعد ذلك ببضع سنوات، تلقَّى لينان دي بليفون أمرًا من الحكومة المصرية عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٨-١٨٤٩م ليقوم بالتفتيش على مواقع الآثار المصرية، وأن يشحن إلى القاهرة ما يراه عرضة للنهب من جانب السياح والتجار. ولكن جهوده في هذا الصدد لم تكلل بالنجاح.

واستخدم إبراهيم باشا نجل محمد علي، رجلًا تركيًّا للتنقيب عن الآثار بالأقصر، وقام بطرد المنقبين الآخرين. وقلل ويلكنسون من قيمة المجموعة التي نتجت عن هذا العمل، وتجمعت في قصر إبراهيم، فقد احتوت على «خليط من المومياوات المحطمة والتوابيت وبعض اللوحات غير الكاملة، ومجموعة متنوعة من حطام الآثار».

وبعد عصر محمد علي، اهتم عباس الأول بالآثار، فأمر اثنين من المهندسين بالقيام بالتفتيش على المواقع الأثرية بالصعيد، وأمر ناظر ديوان المدارس بإعداد تقرير عن المواقع الأثرية القريبة من القاهرة.[٩٨] ويذكر جاستون ماسبيرو أن عباسًا نقل مجموعة الآثار التي كانت بالأزبكية إلى القلعة عام ١٨٥١م،[٩٩] ولكن مصدرًا آخر يؤكد أن عباسًا أصدر أمرًا في أكتوبر ١٨٤٩م بنقل مدرسة الألسن إلى الناصرية (السيدة زينب)، ولما كانت الحاجة ماسة إلى مكان أرحب بسبب ضيق المكان هناك، فقد تم نقل مجموعة الآثار إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق، وعلى كلٍّ، قام عباس الأول بإهداء المجموعة إلى السلطان عبد العزيز، وأهدى خلفه سعيد ما بقي منها إلى ماكسمليان — أرشيدوق النمسا — عام ١٨٥٥م. وكان اتجاه الوالي العثماني في مصر إلى اعتبار الآثار المصرية هدية مناسبة

---

٩٧ I. G. Wilkinson, Modern Egypt and Thebes, 2 vols, (London 1843).

٩٨ Ehud Toledano, State and Society in Mid-Nineteenth-Century Egypt (Cambridge, 1990), 88–90, 272.

٩٩ Maspero, Guide, x: Dia' Abou-Ghazi, "The First Egyptian Museum"; Annales du Service des antiquités de l'Égypte [ASAE] 67 (1991): 1–13; John Murray, Handbook for Travellers in Constantinople, Brusa and the Troad (London, 1900), 72.

للسلطان، جديدًا في بابه. وفي إستانبول أيضًا، بدأت الحكومة الاهتمام بالآثار والمتاحف وما تمثله من تراث. ويقبع نصيب ماكسمليان من الآثار بمتحف الآثار التاريخية بفيينا الآن.

الوساطة الأرمينية، يوسف حككيان

تعلَّم يوسف حككيان (١٨٠٧–١٨٧٥م) بأوروبا، شأنه في ذلك شأن رفاعة الطهطاوي، وكان محبًا للآثار، أقبل على تعلُّم اللغات التي تساعد على اتصال مصر بأوروبا. وإذا كان الطهطاوي المصري المسلم استخدم موقعه كموصل بين الثقافة الأوروبية وبلاده في حفز مواطنيه على الاهتمام بمصر القديمة، فقد كان حككيان على نقيضه تمامًا، فقد كان أرمينيًّا كاثوليكيًّا، وُلد بإستانبول، ونأى به تعليمه في بريطانيا بعيدًا عن وطنه الثاني مصر. وعندما طرده عباس الأول من وظيفته، اشتغل بالتنقيب عن الآثار تحت رعاية بريطانية، ومد يد العون للأوروبيين من زوار مصر، وكتب كثيرًا عن مشكلة التوفيق بين ما جاء بالكتاب المقدس والإطار الزمني للعصر الفرعوني، وكانت مشكلة ملحة عند أهل الغرب، وتغلب عنده الميل إلى الثقافة الأوروبية على انتمائه الشرقي، حتى إن أوراقه الخاصة مودعة بالمكتبة الوطنية البريطانية بلندن، وليس القاهرة.

كان حككيان واحدًا من بين مجموعة صغيرة من الأرمن الذين لعبوا دور الوساطة مع الغرب، واحتلوا وظائف كبرى في مصر في القرن التاسع عشر. وكان الأرمن — الذين زاد عددهم عن الألفين عام ١٨٤٠م — ينقسمون إلى قسمين: أحدهما يتبع الكنيسة الجريجورية (الأرثوذكسية)، والآخر يتبع الكنيسة الأرمينية الكاثوليكية وقد جلب محمد علي والد حككيان — الأرمني الكاثوليكي من إستانبول ليعمل لديه مترجمًا في مطلع عهده، ولعب أرميني آخر جاء إلى مصر من إستانبول — أيضًا — هو بوغوص يوسفيان — دورًا مهمًّا في خدمة محمد علي فتولى نظارة «ديوان التجارة والأمور الأفرنكية» وخلفه أرمينيان آخران في منصبه في الأربعينيات. وقد زكى هؤلاء الأرمن عند محمد علي، افتقارهم إلى الجذور الاجتماعية المصرية، وإتقانهم التركية واللغات الأوروبية، واختار بوغوص يوسفيان أربعة من الطلاب الأرمن ليوفدوا إلى باريس ضمن البعثة التعليمية الأولى التي انضم إليها الطهطاوي عام ١٨٢٦م، وكان نوبار باشا — أول رئيس وزراء لمصر فيما بعد — عضوًا بالبعثة التعليمية التي ذهبت إلى فرنسا عام ١٨٤٤م.[١٠٠]

[١٠٠] انظر كتاب: محمد رفعت الإمام، الأرمن في مصر في القرن التاسع عشر، (القاهرة ١٩٩٥م).

ظل يوسف حككيان بإستانبول بعدما رحل والده إلى مصر للعمل في خدمة محمد علي، ولم يغادرها إلا بعد موافقة محمد علي على تحمل نفقات تعليمه بإنجلترا. وعندما وصل إلى لندن عام ١٨١٧م كان في العاشرة من عمره حيث تلقَّى نبأ وفاة والده. وأشرف صامويل بريجر — التاجر ونائب القنصل السابق بالإسكندرية — على تعليمه العام الذي استغرق سبع سنوات، تعلَّم خلالها الإنجليزية واليونانية واللاتينية، وعلى تعليمه الهندسي الذي استغرق خمس سنوات. وحتى يقف يوسف حككيان على جوهر التقدم الصناعي والتجارة الحرة، قام بجولات استطلاعية للقنوات والجسور، ومصانع الغزل والنسيج بمانشستر وجلاسجو، وشهد مولد عصر السكك الحديدية.[١٠١] وضمن مذكراته اقتراحات لتحديث مصر التي لم يكن قد رآها بعد: «أظن أن بناء بواخر نيلية، وعربات لنقل الركاب على الطريق بين القاهرة والإسكندرية مشروع جيد. ولا بد من إنشاء خطوط حديدية تيسر سبيل تحريك القوات العسكرية ونقل البضائع … وخطوط البرق وما يشابهها من وسائل الاتصال التي تستخدم فيما بين لندن وبورتسموت يجب تركيبها بين القاهرة والإسكندرية. كما يجب استخدام الأنابيب لمد المدن بالمياه، ولا بد من العناية بالسجون …»[١٠٢]

وعندما أمره محمد علي بالعودة إلى مصر عام ١٨٣٠م، وكان يوسف حككيان قد تفرنج تمامًا حتى إنه نسي اللغة التركية، وأصبح يتحدث من خلال مترجم. وقد أدهشه ما لقيه من استهجان في مصر لاستمراره في ارتداء القفازات والجوارب[١٠٣] ولم يستطع حككيان أن يخفي تحيزه لثقافته الإنجليزية، فيقول: «كان الزاد الذي حملته معي إلى مصر، رفاهية اليونان، واضطراب الترك، وصوت المقارع للسادة أكلة الضفادع.»[١٠٤]

كان حككيان سريع التعلم، وما لبث أن اكتسب قدرًا مما يتسم به رجال البلاط من مرونة، كان محمد علي يسرع الخطا في طريق التصنيع، مما أعطى للمهندسين أولوية عنده. وشغل حككيان بالتفتيش على المصانع، والبحث في جدوى استغلال المناجم، وتصميم

---

[١٠١] أوراق حككيان جميعًا مودعة بالمكتبة البريطانية، مجموعة المخطوطات الإضافية، انظر أحمد عبد الرحيم مصطفى.

"The Hekekyan Papers" in Political and Social Chang in Modern Egypt, ed. P. M. Holt (London, 1968), 68–75.

[١٠٢] أوراق حككيان، ١: ٥٠ (٢٤ يوليو ١٨٢٩م).

[١٠٣] أوراق حككيان، ٣: ٦٥ (يونيو ١٨٤٥م).

[١٠٤] أوراق حككيان، ٢٤: ٤٥٨ (١٨٥٨م).

المباني وإدارة مدرسة المهندسخانة، وأضاف التركية والعربية والفارسية إلى اللغات التي يعرفها (الإنجليزية — الفرنسية — اليونانية-اللاتينية)، ثم بدأ يتعلم الإيطالية والألمانية والأرمينية. وكان إتقانه للإنجليزية يعطيه وزنًا خاصًّا في حاشية محمد علي التي تتحدث التركية؛[١٠٥] لأن بوغوص بك يوسفيان «ناظر ديوان التجارة والأمور الأفرنكية» ومساعده أرتين تشراكيان كانا يعرفان الفرنسية والتركية ويجهلان الإنجليزية،[١٠٦] فقام حككيان بترجمة المراسلات الإنجليزية إلى الفرنسية ليتولى بوغوص وأرتين ترجمتها إلى التركية وعرضها على محمد علي.

ولكن دراسته للهندسة لم تعلمه احترام الآثار وتقدير قيمتها، فقبل قدومه إلى مصر كتب في يومياته:

«إذا كانت الأهرام الواقعة بجوار القاهرة تتكون من كتل من الجرانيت والأحجار الأخرى؛ فمن المفيد اقتلاع تلك الأحجار، واستخدامها في بناء الجسور وغيرها من المباني ذات النفع العام، ويكتفى بالإبقاء على هرم واحد أو هرمين في موضعهما إلى الأبد … ولما كانت جوانب الهرم منحدرة، فإن اقتلاع الأحجار الضخمة من القمة إلى القاعدة على التوالي يصبح ممكنًا، وقد يمد خط حديدي تدفع عليه حاويات الحجارة من عند قاعدة الهرم إلى النيل … ويجب أن نأخذ كل ما يقال عن عدم اقتلاع أحجار الهرم بنوع من التراضي. ويمكن الإبقاء على التماثيل والأعمدة والمعابد واللوحات الرخامية …»[١٠٧]

وفي ١٨٣٦م، عندما اعتزم محمد علي اقتلاع أحجار الهرم لاستخدامها في بناء القناطر الخيرية، فزع مينو (القنصل الفرنسي)، وقدم إليه التماسًا قال فيه:

«لقد حققت شهرة عظيمة لنفسك بفضل ما قمت به من جلائل الأعمال … ولما كان الرأي العام قويًّا في البلاد المتحضرة، فسوف يثور ضد تخريب الآثار. فالأوروبيون ينظرون إلى الأهرام باعتبارها أعظم آثار باقية للجنس البشري القديم، وهي تعد في التراث القديم إحدى عجائب الدنيا السبع … وأمر هذه الآثار يعني جميع شعوب العالم … وهي فوق ذلك كله تعني للفرنسيين الكثير منذ قال بونابرت كلمته الخالدة في المعركة التي حملت اسم الأهرام: تذكروا أن أربعين قرنًا (من التاريخ) تنظر إليكم من فوق قمم الأهرام

[١٠٥] أوراق حككيان، ١٤: ٥٩ (٢ فبراير ١٨٣٧م).

[١٠٦] Who Was Who 3: 456–99.

[١٠٧] أوراق حككيان، ١: ٨٢-٨٣ (١٩ أغسطس ١٨٢٩م).

... ويجب على حكام البلاد أن يحفظوها لتنقل إلى الأجيال القادمة سليمة وخالدة، بعد أن تنتهي حياتهم القصيرة على الأرض.»[١٠٨]

وبعدما وصل حككيان إلى مصر، تغيرت نظرته إلى الآثار تمامًا تأثرًا بالأوروبيين، وأصبح من أقوى الدعاة للمحافظة على الآثار. وكان من بين مؤسسي «الجمعية المصرية». وخلال تنقله في ربوع البلاد في مهام تتصل بالعمل، قام برسم المعابد واللوحات ونسخ النقوش الهيروغليفية، وما زالت أوراقه الخاصة مصدرًا مهمًّا للمتخصصين في المصريات. وقدم — في يومياته — وصفًا رومانسيًّا لكوم أمبو:

«عندما رسا قاربنا أمام هذه الحوائط الشامخة، لم أملك سوى إطلاق العنان لمشاعري أمام ذلك الصرح الذي يطل علينا باعتبارنا غرباء لا نستحق الاستحواذ على الآثار، فلا يجب أن نهمل الصروح التي أقامها الأقدمون ... إن كل ما يهمنا في خرائب الآثار هو قدرتها على إنتاج الملح الصخري.»[١٠٩]

وفي إدفو، راح حككيان يبدي انزعاجه من «التراب والقذارة المتراكمة بفعل سكانها الحاليين؛ فالمعبد يئن تحت تلك الأكواخ البائسة التي أقاموها فوقه، ولو كان ذلك في بلد أوروبي لنفضت عنه الأتربة وقامت بترميمه ...»[١١٠]

ومع مضيِّ الأربعينيات، تكشف يوميات حككيان عن تصاعد اغترابه التام عن مصر، وتبنِّيه الفكرة الشائعة بين الأوروبيين عن تعصب المسلمين.[١١١] ودارت في ذهنه أفكار النموذج الأوروبي لحرية العبادة، وإلغاء الرق، والآثار: «ألا يمكن — لوجه الله — أن ينقل كل معبد إلى إنجلترا أو فرنسا بواسطة ساحر، مع اتخاذ إجراءات صارمة للحفاظ على الآثار في مصر، ولا بد أن تتدخل القوى الثلاث الكبرى لفرض حرية العبادة وتصفية الرق، وحماية الآثار.»[١١٢]

ومع تزايد شعور حككيان بفقدان الأمان، ازداد اغترابه عن المجتمع المصري. فقد حرص محمد علي على تزكية الخصومات بين الأرمن العاملين معه ليقينه أن مراسلات

---

[١٠٨] Wiet, Mohamed Ali, 31–34.

[١٠٩] أوراق حككيان ٢: ٤٨٩ (٢٩ سبتمبر ١٨٤٤م).

[١١٠] أوراق حككيان ٢: ٤٨٩ (٣٠ سبتمبر ١٨٤٤م).

[١١١] أوراق حككيان ٣: ٣٦ (١٨٤٥م).

[١١٢] أوراق حككيان ٢: ٤٨٩ (أول أكتوبر ١٨٤٤م).

الأرمنية لا يستطيع قراءتها إلا واحد من قومه.[١١٣] وكان زواج حككيان من شقيقة أرتين بك تشراكيان (بانومانيكافا) دعمًا لمركزه في بداية الأمر، ولكن مع تولي عباس الأول السلطة انتابت حككيان الهواجس من نوبار (رئيس الوزراء فيما بعد) قريب بوغوص يوسفيان، لدسه ضده عند الباشا.[١١٤] وقد نصح أرتين صهره حككيان بالتزام الحذر. وأشار حككيان في يومياته إلى أنه كان باستطاعة أرتين وأخيه خشرف الارتكان إلى الحماية الفرنسية والعثمانية. ولكن أرتين فر إلى إستانبول عام ١٨٥٠م عندما اتهم بالفساد، تاركًا وراءه حككيان يعاني من الفزع وفقدان الحماية، وقد ذكر في يومياته أن الرجال والنساء كانوا يختفون ببساطة تامة في عهد عباس.[١١٥]

ولجأ حككيان إلى القنصل العام موراي، وأنتوني هاريس — زميليه في الجمعية المصرية — كما لجأ إلى بريجز الذي أشرف على تعليمه بإنجلترا، طالبًا الحماية البريطانية. وتم وضع ترتيب تم بموجبه تعاقد ليونارد هورنر — ممثل الجمعية الجيولوجية الملكية — مع حككيان ليقوم بالتنقيب عن الآثار في عين شمس لحساب الجمعية، وبذلك اكتسب الحماية البريطانية، وكان للقنصل موراي دالة عند عباس الذي فضل المشروع البريطاني لإقامة سكك حديد الإسكندرية-القاهرة، على المشروع الفرنسي الخاص بشق قناة السويس؛ ولذلك وصل عباس إلى درجة تقديم دعم مادي لحفائر حككيان، فزوده بمهندس وبالعمال المسخرين للعمل مجانًا، وبالأدوات اللازمة للحفر. وحرص حككيان ألا يثير شك حارسه، فقد ذكر أن موظف القصر «لم يخفِ عني أن هناك انطباعًا عامًّا أن الهدف من حفائر عين شمس استخراج كنوز الذهب، وسألني عما أنوي فعله بالكنوز التي قد أعثر عليها فأجيب بأنني سوف أرسلها لخزانة الوالي.»[١١٦]

بدأ حككيان حفائر عين شمس من يونيو ١٨٥١م،[١١٧] كما قام فيما بعد بحفائر في منف — لحساب هورنر — فيما بين ١٨٥٢ و١٨٥٤م. وساعدته معرفته بالجيولوجيا إلى القيام بأول حفائر استخدم فيها علم الطبقات في مصر، وكان ذلك سابقًا لماربيت الذي

[١١٣] أوراق حككيان ٣: ٣٥ (١٢ يونيو ١٨٤٥م).
[١١٤] أوراق حككيان ٥ (أوائل عام ١٨٥١م).
[١١٥] أوراق حككيان ٥: ٤٨–٥٠ (٢٩ أبريل ١٨٥١م).
[١١٦] أوراق حككيان ٥: ٦٩ (٥ يونيو ١٨٥١م).
[١١٧] أوراق حككيان ٥: ٦١ (أواخر مايو ١٨٥١م).

احتفظ بمجرد قوائم بما تم العثور عليه[١١٨] وكان هورنر يعتقد أن التراكم السنوي لطمي النيل فوق الآثار المصرية قد يحسم الخلاف بين دارسي الكتاب المقدس وأولئك الذين ينتقدون بحدَّة التحقيب الزمني لما جاء بالكتاب المقدس. ومن ثم رأى أن مسلة عين شمس الخاصة بسنوسرت الأول (الأسرة الثانية عشر) وتماثيل رمسيس الثاني الضخمة في منف (الأسرة التاسعة عشر) أماكن مناسبة لبداية العمل في هذا الاتجاه. ونشر هورنر نتيجة الحفائر التي أثارت المتخصصين في الكتاب المقدس الذين حددوا بدء الخليقة بحوالي عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، وحدد زمان ما قبل التاريخ بما كشفت عنه حفائر حككيان في منف بالعام ١١٥٠٠ قبل الميلاد.

واعتزل حككيان التنقيب عن الآثار عام ١٨٥٤م، واهتم بتعريف سيل الأوروبيين الذي انهمر على مصر لزيارتها، بتراث هذه البلاد. فكتب الكثير عن الحساب الزمني لمدة فيضان النيل، وعن الكتاب المقدس، ومانيتو، والنظريات الخيالية حول الحكمة الخفية في الآثار. وقد تمت طباعة عمله حول هذا الموضوع بشكل خاص في لندن عام ١٨٦٣م بعنوان «رسالة في تقويم الآثار القديمة».

وقد تأثرت سمعة حككيان كثيرًا لأنه لم يدرج ضمن علماء الآثار الوطنيين، فقد بدأ عثمانيًّا في وقت كانت فيه مصر تتباعد عن إستانبول، وأدت تربيته الإنجليزية إلى اغترابه عن المجتمع المصري، وعن اهتمام المؤرخين الوطنيين، لقد كان يتمتع بالحماية البريطانية دون أن يحمل الجنسية، وكان كاثوليكيًّا بعيدًا عن الكنيسة الأرمينية الجريجورية. وفي عالم المصريات تعد رسومه الأثرية وحفائره التي وظفت علم الطبقات ذات قيمة، ولكن تحوله عن المجال — مثل بيازي سميث — جعل وجوده باهتًا في التخصص الذي كان في مرحلة التكوين. ولا تزال أوراقه الخاصة في المكتبة البريطانية في حاجة إلى دراسة استكشافية.

وفي الوقت الذي بدأ فيه حككيان التنقيب عن الآثار في منتصف القرن، كان الفرنسيون والألمان والإنجليز قد قاموا بعمل جسات أثرية، وعثروا على مجموعات كبيرة من الآثار المصرية، وتعمقت المعرفة بالهيروغليفية، وصحح إطار جدول مانيتو للأسرات الفرعونية. وكان محمد علي يرى في الآثار مجرد أدوات تستخدم في المساومات الدبلوماسية، غير أن الطهطاوي ساعده على اتخاذ الخطوات المترددة «الأولى» لحماية التراث الفرعوني.

[١١٨] Thompson, Wilkinson, 249, n. 25.

وتهيأ المسرح لظهور ماربيت الذي سيعيد تكوين مصلحة الآثار ويقيم المتحف على أسس متينة، وليقوم الطهطاوي بحملته التي دعت المصريين إلى تبني التراث الفرعوني. وفيما بين ١٨٥٠ و١٨٨٢م نشرت تلك التطورات أشرعتها في مواجهة سحب العاصفة السوداء للإمبريالية الغربية التي تجمعت في الأفق. وفي عام ١٨٤٩م كتب حككيان الذي كان متأثرًا بالإجماع الأوروبي، تحذيرًا جاء فيه:

«إن من المقدر لمصر ألا تبقى هكذا في ظلال الجهل وترزح تحت ثقل البربرية، تلك البلاد التي نقلت إلى أوروبا في العصور القديمة شعلة الحضارة المقدسة. وإن عاجلًا أو آجلًا سنضطر إلى فتح الأبواب أمام ضغوط الحضارة الأوروبية والدول، وإلا فسوف يقومون بفتح تلك الأبواب عنوة.»[١١٩]

[١١٩] النص مقتبس من تقرير عن التعليم عام ١٨٤٩م، ذكره Dykstra, “Joseph Hekekyan”, 165.

الفصل الثاني

توماس كوك

من الاستكشاف إلى السياحة

في كتاب المويلحي «حديث عيسى بن هشام» الذي نشر في مطلع القرن العشرين، نجد تعليقًا يورده المؤلف على لسان مصري، معلقًا على تواجد السياح الأوروبيين بملهى ليلي بالقاهرة:

«... هؤلاء سياح الغربيين أهل المدنية والحضارة، الناظرون إلى الشرقيين بعين المهانة والحقارة، فإن نظروا إليهم من جهة العزة فنظرة العقاب من شماريخ رضوى وثبير إلى جنادب الرمل وضفادع الغدير. وإن نظروا إليهم من طريق العلم، فنظرة معلم الإسكندر عالم العلماء، إلى صبي يتهجى في العين والياء، وإن نظروا إليهم من باب الصناعة فنظرة «فيدياس» صانع التماثيل والدمى إلى بنَّاء يقيم أكواخ القرى، وإن نظروا إليهم من جهة الغنى، فنظرة صاحب المفاتيح التي تنوء بالعصبة إلى أجيرٍ ينضح عرقًا تحت القربة ... تلك دعواهم في نفوسهم بأفواههم.

وهم في رحلتهم إلى الشرق على ضربين: أهل الفراغ والجِدَة الذين أبطرهم الغنى، وألهاهم الاستمتاع ببدع المدنية، ولم يبقَ في أعينهم جديد ... فأصبحوا هائمين على وجوههم في الأقطار والبلدان، وحطتهم القدرة إلى الاستشفاء من الداء بالتنقل في البلاد المنحطة عنهم في درجات المدنية، والإقامة في الأقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية.

والضرب الثاني: منهم أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض، يستعملون علومهم، ويُعملون أفكارهم في احتلال البلدان، وامتلاك البقاع ومنازعة

الناس في موارد أرزاقهم، ومزاحمة الخلق أرضهم وديارهم، فهم طلائع الخراب، أدهى على الناس في السلم من طلائع الجيوش في الحرب.»[١]

وسياح المويلحي الغربيون، الذين لا يجدون ما يفعلون سوى التجول هنا وهناك، هم موضوع هذا الفصل. ويختلف هذا الفصل عن بقية الكتاب في أنه لا يروي سوى نصف قصة التواصل الغربي المصري من منظور غربي خالص. وتشير الفقرة المقتبسة من «حديث عيسى بن هشام» أن المصريين يرون إمكانية أن يكون للسياحة تاريخ في بلادهم، ولكن ذلك يخرج عن نطاق هذا الكتاب. والدراسات الاستكشافية تعاني نقصًا شديدًا، والمصادر الأولية حول رؤية المصريين للسياحة في القرن التاسع عشر محدودة جدًا، والكثير من المصريين الذين عملوا بمجال السياحة المتنامي كانوا من الأميين، كما انشغل معظم كتّاب ذلك العصر بأمور أخرى.

وعلى النقيض من ذلك، هناك وفرة كبيرة في المصادر الأوروبية عن السفر والسياحة في مصر. فقد مكنت الثورة الصناعية قطاعات من الغربيين من توفر وسائل ومتعة السفر، عندما أصبحت البواخر والقطارات تربط العالم. واجتذبت مصر الكثير من راغبي السفر إلى الشرق، فقد تخيلها الغربيون باعتبارها أرض التاريخ القديم والعراقة، أرض الفراعنة، والكتاب المقدس، وهيرودوت، وألف ليلة وليلة. وفي السنوات الأخيرة، أدى الحنين إلى «الزمن الجميل» زمن السياحة إلى مصر قبل ١٩١٤م إلى صدور كم هائل من الكتب التي تتراوح بين كتب لصور طاولات المقاهي إلى الدراسات الجادة. ويعتمد هذا الفصل على هذه الكتب والمصادر الأولية التي اعتمدت عليها لتوضيح كيف أن السياحة الحديثة، والمتاحف، وعلم الآثار قد شبت عن الطوق معًا على أرض مصر.[٢] فقد كتب الآثاريون كتب الدليل السياحي أو كتبوا بعض فصولها، وقاموا بتأسيس المتاحف في بلادهم وفي مصر وهم يفكرون في خدمة السياح الذين لم يغيبوا عن بالهم، ونظموا أجنحة مصر في

---

١ محمد المويلحي، حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن، (القاهرة ١٩٦٤م)، ٢١٣ (اختار المؤلف هذا النص من الترجمة الإنجليزية للكاتب روجر ألن، وهي ترجمة غير دقيقة إذا ما قورنت بالأصل. المترجم).

٢ Timothy Mitchell, "Worlds Apart: An Egyptian Village and the International Tourism Industry", Middle East Report (September–October 1995), 8–11, 25; Dean MacCannell, The Tourist: A New Theory of the Leisure Class (New York, 1976); Tom Selwyn ed., The Tourist Image: Myths and Myth Making in Tourism (Chichester, England, 1996).

المعارض الدولية، واستثاروا فضول القراء بقصص المغامرات والاكتشافات. وقد تحوَّل معظم من أقبلوا على شراء هذه المواد إلى سياح، وتحول القليل من السياح — بدورهم — إلى آثاريين.

المكتشف، والرحالة، والسائح

«إنك تنظر إلى ظهر رجل من أبناء البلاد، معمم، يرتدي قفطانًا طويلًا أزرق اللون، ويتمنطق بحزام أحمر، وقدماه البنِّيتان مكشوفتان، فتقول: «يا له من شرقي نموذجي!» وعندما يستدير نحوك، وتقرأ عبارة «حمَّال كوك»، يقول لك: «إنك تسافر مع كوك يا سيدي»، ويسألك: «كله تمام؟» ... ويكون كل شيء على ما يرام ... إن مندوب كوك هو أول من تلقاه في مصر، فهو يستقبلك، ويصحبك في رحلتك، ويودعك عند السفر ...»

نقلًا عن ستيفنز كما وردت بكتاب جون باندي «قصة توماس كوك».

لقد بدأ استخدام البواخر والقطارات في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، فبدأت بذلك ثورة في دنيا السفر، أخرجت مصر والشام وغيرها من بلاد العالم خارج أوروبا من عالم المستكشفين والرحالة المغامرين إلى عالم السياح العاديين.

ففي مطلع القرن الثامن عشر، اعترف الدكتور صامويل جونسون أن «من لم يزر إيطاليا يشعر بعقدة نقص تجاه الآخرين؛ لأنه لم يرَ ما يجب على الإنسان أن يراه».[٣] وفي القرن التالي فعل توماس كوك وولده جون ما لم يفعله غيرهما، فأضافا الأهرام إلى قائمة «ما يجب على الإنسان أن يراه». وقد أثار امتعاض النخبة الأرستقراطية أن توماس كوك وولده وسعوا من دائرة السياح لتشمل من جاءوا من الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعي بأعداد ملحوظة.

ويذهب جيمس بوزارد إلى أن السياحة الحديثة وما حققته من دفعة، تعود إلى مجال واحد برز في شمال أوروبا والولايات المتحدة مع الثورة الصناعية والديموقراطية، وركز الرحالة على البلاد المتخلفة ليميزوا أنفسهم عن السياح حتى يكونوا أكثر حساسية ومتعة واقتناعًا. وهذا التمييز بين الرحالة والسائح يعود إلى افتراض وجود تمييز طبقي

[٣] كما صدرت في James Buzard, The Beaten Track: European Tourism, Literature, and the Ways to Culture, 1880–1918 (Oxford 1933), 110.

وحساسية شديدة، وأحيانًا تميز ثقافي. ويقول إيفلن فوج: «السائح هو الرفيق الآخر»، ويرد بول فوسل بقوله: «كلنا سياح الآن، ولا مفر من ذلك.»[٤]

وكانت القاهرة والإسكندرية بالنسبة للأوروبيين في القرن الثامن عشر لا تدخل في مجال المكتشفين، وإنما تدخل في اهتمام الرحالة المغامرين. وهناك الكثير من الروايات عن الإسكندرية والقاهرة والأهرام. وفي أعقاب الحملة الفرنسية وتكوين محمد علي لحكومة مركزية قوية انضم الصعيد حتى أسوان إلى جدول الرحالة، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح على جدول السياح العاديين.

أما جون لويس بوركهارت الذي اكتشف (من وجهة نظر الغرب) بترا — المدينة النبطية — فقد مد نشاطه جنوب أسوان، وقام باكتشاف النوبة حتى قرب الشلال الثالث — أي ما يمثل اليوم الحدود المصرية السودانية — مما جعلها في متناول الرحالة. وقد اشتمل دليل ريفو السياحي الرائد والخاص بمصر عام ١٨٣٠م على النوبة السفلى،[٥] ووادي حلفا قرب مسقط الشلال الثاني، الذي ما لبث أن أصبح «الخط الذي يقف عنده الرحالة الذين ينشدون استكشاف المناطق الصعبة والخطرة».[٦]

الباخرة والقطار وزمن الرحلة

ظهر مصطلح «السائح» في الإنجليزية لأول مرة عام ١٧٨٠م، وما لبث مصطلح «السياحة» أن ظهر عام ١٨١١م، فقد حبست الحروب النابليونيين البريطانيين في جزرهم، واستفاد مغامر كاللورد بيرون من قوة البحرية البريطانية ليستبدل بالجولة التقليدية في فرنسا وإيطاليا الرحلة إلى اليونان والبلقان.[٧] ووجد مصطلح «سائح» طريقه إلى الفرنسية عام

---

[٤] كما ورد في جيمس بوزار سالف الذكر، ١، ١٣٣.

[٥] Jean Leclant, “Le Voyage en Nubie (1813–1913) in D’un Orient L’autre, 2 vols. (Paris, 1991), 1: 405–13.

[٦] Adolphe Joanne and Émile Isambert, Itinéraire descriptif, historique et archéologique de l’Orient (Paris, 1861), 1094.

[٧] Oxford English Dictionary, 2nd ed. (1989); Helen Angelomatis-Tsougarakis, The Eve of Greek Revival: British Travellers’ Percéptions of Early Nineteenth-Century Greece (London, 1990).

١٨١٦م، في الوقت الذي كانت فيه موجة من السياح البريطانيين تجتاح أوروبا بعد الحروب النابليونية، وانضمت كلمة «سياحة» إلى الفرنسية عام ١٨٤١م، وهو العام الذي شهد أول رحلة نظمها توماس كوك في وسط إنجلترا.

ونظم أول خط بحري لنقل الركاب بالبواخر بين دوفر وكاليه عام ١٨٢١م، وفي نهر الراين عام ١٨٢٨م، وفي نهرَي الرون والدانوب في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر.[٨] وهو نفس العقد الذي شهد إقبالًا على مد الخطوط الحديدية في غرب أوروبا والولايات المتحدة، كما شهد ظهور «جدول مواعيد القطارات»، وكتب الدليل السياحي واستخدام البرق الكهربي (التلغراف). وأدى التوسع التدريجي لمجموعات السياح من الطبقة الوسطى إلى تحويل ما كان قاصرًا على النخبة إلى حركة سياحية جماهيرية، «وحيثما كانت الباخرة ترسو على الشاطئ، تراجع الرحالة المغامرون إلى الداخل، وأخذ الخيال الرومانسي في التلاشي ... ولكنه ثمن بخس لنشر الحضارة» على حد قول ثاكيراي.[٩]

لقد احتاج هنري سولت إلى قضاء ستة شهور في الطريق — في ١٨٠٢-١٨٠٣م — حتى يصل إلى كلكتا قادمًا من لندن عن طريق رأس الرجاء الصالح؛ ولذلك ليس غريبًا أن تحاول شركة الهند الشرقية البريطانية أن تقيم خطًّا بريًّا لنقل الركاب والبريد عبر مصر، لتختصر ٤١٪ من طريق كلكتا — لندن عن طريق رأس الرجاء الصالح الذي يصل إلى ١٠٧٠٠ ميل. وحتى في البحر المتوسط، استغرقت رحلة الطهطاوي من الإسكندرية إلى مرسيليا عام ١٨٢٥م شهرًا بالسفينة الشراعية، قضى بعدها ١٨ يومًا أخرى في الحجر الصحي. وأدى سوء الأحوال الجوية إلى إطالة زمن الرحلة البحرية التي حملت ويلكنسون من مالطا إلى الإسكندرية عام ١٨٣٣م إلى ما يزيد على الشهر.[١٠]

وقد غيرت البواخر ذلك تمامًا؛ ففي عام ١٨٣٧م، حصلت شركة «بننسولار آند أورينتال P & O» على عقد لنقل البريد إلى الهند عن طريق جبل طارق ومالطا والإسكندرية. وفي عام ١٨٤٢م حصلت على مرسوم ملكي يرخص لها بحمل البريد الحكومي إلى الهند

---

[٨] Grand Larousse de la langue Française (Paris, 1971–1987), 7: 6142.

[٩] Patrick Brantlinger, Rule of Darkness: British Literature and Imperialism, 1830–1914 (Ithaca, N.Y., 1988), 138.

[١٠] Daniel R. Headrick, The Tentacles of Progress: Technology Transfer in the Age of Imperialism, 1850–1940 (London 1988), 26.

على خط البواخر الذي مدته الشركة بين السويس وبومباي. وفي العام ١٨٤٣م وصلت بواخر الشركة القادمة بين ساوث هامبتون إلى الإسكندرية في رحلة استغرقت خمسة عشر يومًا. وأدى استخدام طريق أقصر عبر فرنسا ومنها ببواخر شركة «مساجيري ماريتم» من مرسيليا إلى الإسكندرية، أدى إلى اختصار زمن الرحلة ما بين ثلاثة وأربعة أيام.[١١]

ونظم ثوماس واجهورن وصلة برية من الإسكندرية إلى السويس في خمسة أيام، جعلت بالإمكان الوصول من لندن إلى بومباي في ٤١ أو ٤٢ يومًا. وقفز عدد المسافرين عبر مصر من ٢٧٥ مسافرًا عام ١٨٤٤م إلى ثلاثة آلاف مسافر عام ١٨٤٧م.

وما كان غريبًا على نابليون، طلبه ثاكيراي من فندقه بالقاهرة: «بالمقارنة بواجهورن، ذبح نابليون المماليك عند الأهرامات، ولكن واجهورن هزم الأهرام ذاتها، وقربها من إنجلترا شهرًا، وجلب الإنجليز إليها ... يروح واجهورن جيئة وذهابًا في الفناء مشغولًا بعمله، لقد غادر بومباي صباح الأمس، وشوهد في البحر الأحمر يوم الثلاثاء، ويتناول العشاء مساء اليوم في ريجنت بارك (بعد دقيقتين من رؤيتي به بالفناء) ولا شك أنه الآن في مالطا أو الإسكندرية، وربما كان فيهما معًا.»[١٢]

وقد أقيم نصب تذكاري تخليدًا لهذه السرعة في مدينة السويس فيما بعد.[١٣]

وفي عام ١٨٣٤م، اقترح البريطانيون إقامة خط حديدي يربط القاهرة بالسويس لتسهيل النقل البري، ولكن محمد علي رفض الاقتراح، وجاء نجله عباس الأول (١٨٤٨–١٨٥٤م) فمنح جورج ستيفنسون، ابن رائد السكك الحديدية روبرت ستيفنسون، امتياز مد الخط الحديدي من الإسكندرية إلى القاهرة، ثم امتد الخط إلى السويس عام ١٨٥٨م. وبحلول عام ١٨٧٣م، كانت القطارات السريعة تقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية في أربعة ساعات ونصف بعد أن كانت الرحلة تستغرق أربعة أيام.[١٤] وأقيمت شبكة أخرى من الخطوط لا صلة لها بالطريق إلى الهند، ولكنها اتصلت بنقل القطن إلى

---

١١ Headrick, Tentacles, 39–41; Wilk. 1843, 2: 473–76.

١٢ W. M. Thackeray, The Paris Sketchbook of Mr. M. A. Titmarsh: The Irish Sketchbook and Notes of a Journey From Cornhill to Grand Cairo (New York, n.d.), 719, 720.

١٣ E. A. W. Budge, Cook's, Handbook for Egypt and the Sudan, 2nd ed. (London, 1906, 411-12).

١٤ John Murray, A Hand-Book for Travellers in Egypt (London, 1858) 112-13; Murray, A Handbook for Travellers (London, 1873), 111.

ميناء التصدير، غطت الدلتا وبعض مناطق الصعيد. وصحب البرق الكهربي بناء السكك الحديدية.[١٥]

وكان فردينان ديلسبس صديقًا لسعيد في صباه، وعندما تولَّى الأخير الحكم منحه امتياز حفر قناة السويس، وتغلب ديلسبس على الاعتراضات البريطانية والعثمانية، وبدأ الحفر عام ١٨٥٩م. وجاء افتتاح القناة بعد ذلك بعشر سنوات ليضع مصر في نقطة التقاء التجارة الآسيوية-الأوروبية. وفقد بذلك الخط الحديدي أهميته، وبدأت تظهر كتب الدليل السياحي خاصة بمصر وحدها بعد أن كانت تشركها مع الهند في رحلة سياحية واحدة.[١٦]

وقد وضع دليل ويلكنسون السياحي عام ١٨٤٧م إطار رحلة مداها ثلاثة شهور لزيارة مصر، فالرحلة من القاهرة إلى الأقصر بالمراكب النيلية كانت تستغرق عشرين يومًا في المتوسط ذهابًا وإيابًا، يضاف إليها ١٤ يومًا لزيارة الشلال الثاني. وكانت تلك الرحلة التي تمتد إلى ثلاثة شهور تكلف الفرد ٨٠ جنيهًا إسترلينيًّا أو ١٢٠ جنيهًا لشخصين. وفي عام ١٨٨٠م، كان باستطاعة السائح أن يقوم بنفس الرحلة من لندن إلى الشلال الثاني والعودة في ستة أسابيع، رغم أن دليل موراي السياحي أوصى السائح بقضاء ما بين شهرين ونصف الشهر وخمسة شهور، لتغطية كل ما يمكن رؤيته بمصر.[١٧]

المال، والمتعة، والطبقة الاجتماعية

كانت الجولة السياحية الكبرى تربط بين أرستقراطية القرن الثامن عشر في بريطانيا — الذين عاشوا في وهم العصر الأوغسطي — والذين اشتركوا في المغامرة على الطريقة الفرنسية، وحب الفن الإيطالي والآثار الرومانية.[١٨] وعلى مر القرن التاسع عشر انضم إلى الطبقة الأرستقراطية في الإقبال على السياحة قطاع متزايد من أبناء الطبقة الوسطى

---

[١٥] Wiener, Égypt, 64–76; Daniel R. Headrick, The Invisible Weapon: Telecommunications and International Politics 1851–1945 (New York, 1991) 1–115.

[١٦] المعلومات الواردة هنا عن كتب الدليل السياحي الخاصة مأخوذة من كتاب: Oleg V. Volkoff, Comment on visitait du Nil: Les Guid de l’Égypte, (Cairo IFAO, 1967).

[١٧] Wilk. 1847, 2; Murr. 1858; 2; John Murray, A Hand-book for Travellers in Lower and Upper Egypt, 2 vols., (London 1880) 1: xiv.

[١٨] Buzard, Beaten Track, 121.

الذين جنوا ثمار الثورة الصناعية، وأقبلوا على السياحة من أجل المتعة أو الثقافة. وخرج توماس كوك، رسول سياحة عصر الصناعة الذي ظهر من المنجم والمصنع وبلاد السكك الحديدية، وسط إنجلترا، وعمل كوك جاهدًا ليسحب متعة السياحة لتغطي الدرجات الأدنى من السلم الاجتماعي. وانضم إلى البريطانيين في الجولات السياحية الأوروبية، الأمريكيون من رجال الدين والكتاب والفنانين، فقد وجد الأمريكيون في السياحة متعة استهلاكية الطابع. فالدراسة أو الكتابة أو الرسم فيها علاج لمخاوف البيوريتان من خشية الميل إلى إشباع الشهوات.[١٩]

وقد صنعت شركة بواخر P & O أسعار السفر على خطوطها حسب النوع، والطبقة الاجتماعية، والتمايز العرقي/الوطني. وفي عام ١٨٤٧م، كانت أجرة السفر من إنجلترا إلى عدن ٧٧ جنيهًا إسترلينيًّا للرجل الأرستقراطي، و٨٢ جنيهًا للسيدة، و٣٧ جنيهًا للخادمة الأوروبية، و٣٥ جنيهًا للخادم الأوروبي، و٣٠ جنيهًا للخادمة من أهالي المستعمرات، ٢٦ جنيهًا للخادم من أبناء المستعمرات. ويبدو أن المقصورات الخاصة بالنساء كانت أغلى ثمنًا، أنيقة، أو لعلها كانت أفخم من مقصورات الرجال. وحتى بين الخدم روعي التمييز بين الأوروبيين وغيرهم، ليبقى كل في موقعه. وبحلول عام ١٨٥٨م كانت أجرة السفر بالدرجة الثانية من ساوثهامبتون إلى الإسكندرية، والتي استخدمها هواة الاقتصاد في النفقة، كانت تزيد قليلًا عن أجرة سفر الخدم. وفي عام ١٨٨٠م وحدت أجور السفر بالدرجة الثانية وأجور سفر الخدم. وفي عام ١٨٩٥م، توقف دليل بايدكر السياحي عن ذكر أجرة سفر الخدم.[٢٠] كذلك اختفى التمييز في أجور السفر على أساس النوع.

وقام توماس كوك بتنظيم رحلات لمحدودي الدخل وأبناء الطبقة العاملة إلى «معرض لندن الكبير» عام ١٨٥١م، وذلك للتغلب على خشية زبائنه من أبناء الطبقة الأولى من الاختلاط بالسوقة. وبعد صدور قانون الإصلاح في ١٨٦٧م، ذلك القانون الذي وسع من دائرة من لهم حق الانتخاب من الرجال، نظَّم كوك رحلة سياحية إلى مصر لأول فوج من أبناء الطبقة الوسطى، ولكن كوك لم يستطع أن يجعل أسعار السفر عبر البحار في

---

[١٩] William W. Stowe, Going Abroad: European Travel in Nineteenth-Century American Culture, (Princeton 1994), 7.

[٢٠] Wilk, 1847: xvi; Murr. 1858 ix-x; Murr. 1880, 1: xv, Karl Baedeker, Egypt: Hand-book for Travellers, 6th ed., (Leipzig 1895, 1-2).

متناول الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى، وأبناء الطبقة الدنيا إلا من سافروا منهم كخدم أو جنود أو بحارة.[٢١]

مولد كتاب الدليل السياحي الحديث – موراي، بايدكر، جوان

مع ازدياد سرعة، وانضباط، ورخص أسعار وسائل السفر، قام ثلاثة من المنظمين بتبنِّي نصيحة عملية لتلخيص ما يمكن مشاهدته في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر، مما أدى إلى اختراع كتاب الدليل السياحي. فقد ورث كل من جون موراي الثالث (١٨٠٨–١٨٩٢م) وكارل بايدكر (١٨٠١–١٨٥٩م) دور طباعة وتوزيع كتب، بينما بدأ أدولف جوان (١٨١٣–١٨٨١م) حياته العملية محاميًا وصحفيًّا. وكان مجال السياحة الذي يحيطه الشك يفت في عضد المؤلفين، ويجعلهم يترددون في تقديم كتب تشرح جغرافية وطبيعة البلاد التي تتجه إليها السياحة، والمعلومات الخاصة بها، لحث القراء على الإقدام على مغامرة السفر. وكانت بعض نشرات الرحلات السياحية تعكس خبرات كتابها، بينما كان بعضها الآخر يقدم معلومات عن المناخ والطرق، والنباتات، أو الشعوب، واللغات، والطعام والعمارة، والآثار.[٢٢]

وعلى نقيض النشرات السياحية، يخضع مؤلف كتاب الدليل السياحي لمطالب المحرر. ولما كان قراء تلك الكتب هم من يعتزمون السفر سائحين، فإنهم يحتاجون إلى معلومات دقيقة عن الأسعار، وقيمة صرف العملة، والطرق ووسائل المواصلات، وأماكن الإقامة، وألوان الطعام، والحالة الصحية، وبعض النصائح المهمة، وما يمكن شراؤه من أشياء تذكارية. وقد رتبت كتب الدليل السياحي المواقع حسب أهميتها، وقدمت حقائق موضوعية صحيحة. وخرجت تلك الكتب صغيرة الحجم، يسهل حملها في اليد (hand book) أو في الجيب (livre de poche)، وكُتبت ليستعين بها السائح مباشرة في المواقع التي يقوم بزيارتها.

[٢١] John Pemble, The Mediterranean Passion: Victorians and Edwardians in the South, (Oxford 1987), v.

[٢٢] فيما جاء بهذه الفقرة والتالية لها، انظر: Ali Behdad, Belated Travelers: Orientalism in the Age of Colonial Dissolution (Durham, N.C., 1994), 39–47.

وكما يتضح من الجدول رقم ١ (انظر الملاحق)، ظهرت كتب الدليل السياحي الأولى الخاصة بمصر في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، كان أولها عام ١٨٣٠م، وثانيها في ١٨٣٥م، وظهرت خمس طبعات أخرى من تلك الكتب في الأربعينيات، وست طبعات في الخمسينيات. ولم يطبع سوى كتاب واحد عام ١٨٨٢م وهو العام الذي شهد الاضطرابات التي صحبت الثورة العرابية والاحتلال البريطاني، وكان ذلك الكتاب من مطبوعات وزارة الحربية البريطانية، ومن الطريف أنه كان بالفرنسية وليس الإنجليزية. وطبعت أربع كتب فقط فيما بقي من عقد الثمانينيات مما يعكس حالة القلق بالنسبة لاستمرار الوجود الاحتلالي في مصر واندلاع الثورة المهدية بالسودان، ولكن نهاية العصر الفيكتوري وخلال العصر الذهبي الإدواردي ظهرت ٨٢ طبعة من كتب الدليل السياحي الخاصة بمصر فيما بين ١٨٩٠ و١٩١٤م.

وكان ريفو (١٧٨٦–١٨٥٢م) أول من أدلى في هذا المجال بكتابه الذي حمل عنوان «جدول مصر والنوبة وملحقاتها» (نشر في باريس ١٨٣٠م). وُلد ريفو في مارسيليا، ودرس النحت، وخدم بجيش نابليون بإسبانيا قبل قدومه إلى مصر عام ١٨١٢م ليقضي فيها أربعة عشر عامًا كمساعد لدروفتي في جمع الآثار. ولما كان ريفو ذا قدرات علمية وأدبية، فقد قاد كتابه السياح من الإسكندرية إلى القاهرة إلى الأهرام فيما بين الجيزة والفيوم، وصعودًا مع النيل إلى طيبة وأسوان والشلال الثاني. وتضمن رحلات اختيارية جانبية إلى الدلتا والبحر الأحمر وسيناء. وخصص فصولًا من الكتاب لجغرافية البلاد، وسكانها، وعاداتهم.[٢٣] واحتوت ملاحق الكتاب على ٤١ صفحة من كلمات عربية باللهجة الصعيدية، وسبع صفحات لكلمات نوبية. لقد كان كتاب ريفو أول محاولة في مجال لم توضع بعد أصوله، ولذلك افتقر إلى الخرائط، واكتفى بإعطاء معلومات سطحية عن الآثار، ولم يشر إلى حل شامبليون للرموز الهيروغليفية، وأسرف في ذكر مواقع لا تهم السائح من قريب أو بعيد.

واستجاب جاردنر ويلكنسون للتحدي الفرنسي بدليله السياحي الأكثر علمية، والذي نشر عام ١٨٣٥م بعنوان «طبوغرافية طيبة، ونظرة عامة إلى مصر»، وقام ويلكنسون بتوقيع مقدمة الكتاب في طيبة عام ١٨٣١م، ولا ندري كيف تلقَّى قراء الكتاب ممن

---

٢٣ On Rifaud, see Who Was Who 3: 358.

يعتزمون زيارة مصر، اعتذار المؤلف عن تأخر الكتاب في الصدور بسبب تفشي الكوليرا، ووفاة الناشر الذي اعتزم نشر الكتاب، مما أدى إلى تأخر الطبع حتى ١٨٣٥م.

وكان تأخير طبع الكتاب خيرًا، فقد تمكن ويلكنسون أن يجد ناشرًا مناسبًا هو جون موراي. كان جون موراي الثاني ما زال مسئولًا عن دار النشر، ولكن جون موراي الثالث (١٨٠٨–١٨٩٢م) كان مشغولًا بتطوير كتب موراي الشهيرة للدليل السياحي. فقد أحس أن الإنجليز الذين تدفقوا على أوروبا زائرين بعد موقعة وترلو في حاجة إلى دليل جيد مناسب، فألف موراي الصغير كتاب «دليل المسافرين إلى هولندا وبلجيكا وبروسيا وشمال ألمانيا وعلى الراين من هولندا إلى سويسرا» (١٨٣٦م)، وقد أدخل هذا الكتاب المصطلح الألماني Handbuch إلى الإنجليزية. وقد أحرزت دار موراي شهرة عن طريق كتب الدليل وليس عن طريق الكتب الأخرى.[٢٤] وما لبثت الدار أن أصدرت كتبًا أخرى لإرشاد السياح. وكان ويلكنسون أحد ثلاثة من أعضاء «الجمعية الجغرافية الملكية» الذين كلفهم موراي بتأليف سلسلة من تلك الكتب.

كان كتاب ويلكنسون «طبوغرافية طيبة ونظرة عامة إلى مصر» سابقًا على أول كتاب نشر في سلسلة موراي للدليل السياحي الأوروبي. وتضمن كتاب ويلكنسون مائتي صفة عن تاريخ طيبة القديمة منها ٦٠ صفحة عن «عادات وتقاليد قدماء المصريين» و٢٥ صفحة عن «الإنتاج في مصر الحديثة» وهنا فقط قفز ويلكنسون إلى الإسكندرية نقطة الدخول الوحيدة إلى مصر للقادم من أوروبا، ووصف الطريق على النيل صعودًا إلى أسوان، متجاوزًا طيبة التي عالجها بإسهاب من قبل. وكان نصيب الإسكندرية خمس صفحات، والقاهرة ثماني عشرة صفحة، وأهرام الجيزة ١٢ صفحة.

وتضمنت الطبعة الأولى من كتاب ويلكنسون الملامح التي أصبحت أساسية في كل كتاب دليل سياحي بمصر: مفردات إنجليزية — عربية، قسم عن الهيروغليفية، قائمة بخراطيش الفراعنة، وجدول زمني لحكام مصر حتى الغزو العثماني، أضيف إليها في الطبعة الثانية الولاة العثمانيون وأسرة محمد علي إلى زمن صدور الطبعة.

[٢٤] Oxford English Dictionary, 2nd ed. (1989); Johann Gottfried Ebel, Introduction pour un voyageur qui se propose de parcourir la Suisse, 2 vols., (Basel 1975); On the Murray's guidebooks, see W. B. C. Lister, A Bibliography of Murray's Handbooks for Travellers (Dereham, England 1993).

ورغم أن الطبعة الثانية من كتاب ويلكنسون (١٨٤٣م) لم تكن قد أدرجت ضمن سلسلة موراي للدليل السياحي فقد كانت قريبة الشبه بها من حيث الإخراج، وأصبح العنوان «مصر الحديثة وطيبة» ويبدأ الرحلة بالإسكندرية (٨٥ صفحة) والقاهرة (١٨٥ صفحة)، وجاءت طبعة ١٨٤٧م من الكتاب ضمن سلسلة موراي، وحملت عنوان «كتاب الدليل للمسافرين إلى مصر»، وفي الطبعة الثالثة من الكتاب في سلسلة موراي (١٨٦٧م) حل اسم موراي محل ويلكنسون، وحملت الطبعة الرابعة اسمهما معًا. وفي ١٨٥١م ظهر دليل موراي للسياحة في سوريا وفلسطين. وتحدث توماس كوك عن الحجاج إلى الأراضي المقدسة الذين كانوا «يحملون الإنجيل في يد، ودليل موارى في اليد الأخرى».[٢٥]

وفي فرنسا، صدر أول دليل سياحي لجوان عن منطقة الألب (١٨٤١م)، وتبع موراي في تناول خط سير الرحلة،[٢٦] وتبع ذلك صدور دليل جوان لمناطق أخرى من فرنسا، وفي الخمسينيات أصدر جوان دليل سياحي لإنجلترا بالفرنسية وكذلك لألمانيا وإسبانيا. وأعقب ذلك إصداره لدليل «الشرق» وفيه مصر (١٨٦١م)،[٢٧] وجاء بعده دليل اليونان ١٨٨٨–١٨٩١م.

وكما فعل سميث في إنجلترا، أوجد الناشر الفرنسي جوان ولوي هاشيت سوقًا لكتب الدليل السياحي بإقامة أركان لبيعها في محطات السكك الحديدية، وميز لون الغلاف الأحمر كتب دليل موراي وبايدكر، وحملت كتب جوان اللون الذي جعلها تعرف فيما بعد «بالدليل الأزرق».

وتناول دليل جوان للشرق (١٨٦١م) مصر وسيناء، ومالطا، واليونان، وتركيا الأوروبية، وتركيا الإسلامية، وسوريا، وفلسطين، و«بترا العربية». وكان نصيب مصر مائتي صفحة من بين ١١٠٠ صفحة ضمها الكتاب. وبعد مقالات افتتاحية، تبع جوان الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة ثم صعودًا بالنيل حتى الشلال الثاني متناولًا رحلات جانبية على طول الطريق. ولما كان الكتاب موجهًا للقارئ الفرنسي فقد خصص صفحة لكلٍّ من معركة

---

[٢٥] مقتبس من: Piers Brendon, Thomas Cook: 150 Years of Popular Tourism (London, 1991), 120.

[٢٦] Mordmann, “Guides”, 529–67.

[٢٧] Joan. 1861.

أبي قير والأهرام، وحدد موقع البيت الذي أقام فيه بونابرت بالأزبكية، والموقع الذي اغتيل فيه كليبر، وقدم شرحًا مطولًا للاكتشافات الأثرية التي قام بها ماريت في السرابيوم.[٢٨]

وفي ألمانيا، أسس كارل بايدكر دارًا للنشر عام ١٨٢٧م في كوبلنز على نهر الراين، وهي محطة على طريق خط بواخر كولن — مينز النهري الذي افتُتح في تلك السنة.[٢٩] وتأثرًا بموراي، أصدر بايدكر كتاب الدليل الأول عن ألمانيا والنمسا عام ١٨٤٢م، وأصدر أول دليل بايدكر عن مصر بالألمانية في ١٨٧٧م، وبالإنجليزية في ١٨٧٨م.

ولما كان كوك يعمل في مجال السياحة وليس النشر، باع لعملائه — في بداية الأمر — دليل هنري جيز (منافس موراي الذي لم يعمر طويلًا). وفي ١٨٧٦م أصدرت الشركة «دليل كوك السياحي لمصر والنيل والصحراء». وبعد ذلك بعشر سنوات تبنَّى كوك دليلًا أعده عالم المصريات بالمتحف البريطاني إرنست بادج[٣٠] الذي بلغ عدد طبعاته ١٢ طبعة بحلول عام ١٩١٢م.

وبينما عكس دليل ريفو ذروة سيطرة القناصل، وغلب عليه طابع العمل البدائي، جاء كتاب دليل ويلكنسون نتاجًا لعمل خبير بالمصريات. وسار بقية علماء المصريات على نهج ويلكنسون، فقد أعد ماريت دليلًا لزوار احتفالات افتتاح قناة السويس، وكتب بادج دليلًا لكوك. وفي عصر انتصار العلم تضمن دليل بايدكر فصولًا كتبها كبار المتخصصين مثل عالم التاريخ الطبيعي جورج شيفا ينفورت، والكابتن ليونز من مصلحة المساحة المصرية، وخبير العمارة الإسلامية يوليوس فرانز، والمستشرق كارل بيكر، وعلماء المصريات صامويل بيرش، وجورج ايبرز، وجورج شتايندورف.

وإذا أخذنا في الاعتبار أن أوروبا كانت في قمة الهيمنة والقوة، وتقدُّم المعرفة، فلن يدهشنا عدم وجود دليل سياحي عربي لأوروبا في القرن التاسع عشر. كانت هناك رحلات مثل رحلة الطهطاوي التي قدم فيها المجتمع الفرنسي وعاداته، ولكن لم يكن هناك كتاب دليل سياحي، ليس لأوروبا فحسب، بل ولمصر ذاتها. وقد استقى مرقص سميكة — مؤسس المتحف القبطي — معلوماته عن الآثار المصرية من دليل موراي، ودليل بايدكر،

---

[٢٨] Joan 1861: 968–69, 922–93, 1005–8.

[٢٩] Baedeker's Egypt, 8th ed. (London, 1929; reprint 1985).

[٣٠] Edmund Swinglehurst, Cook's Tours: The Story of Popular Travel (Poole, Dorset, England 1982), 45.

ولفتت رحلة لتوماس كوك إلى صعيد مصر شارك فيها سلامة موسى، لفتت انتباهه إلى التاريخ الفرعوني لبلاده.[٣١]

فنادق القاهرة والإسكندرية

كان زوار مصر من الأوروبيين — حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر — يضطرون للإقامة في منزل أو فندق متواضع، إذا عجزوا عن العثور على مكان للإقامة ببيت قنصل بلادهم أو أحد التجار المقيمين بمصر من أبناء بلادهم. وبعد ذلك العقد من الزمان قامت فنادق يديرها الأوروبيون، لتقدم الإقامة المريحة الملائمة لنزلائها. وكان البريطانيون الذين يصلون إلى الإسكندرية — في ١٨٤٣م — يقيمون بفندق «أوروبا» (الذي امتلكه هيل ثم انتقلت ملكيته إلى راي) مقابل أربعين قرشًا في اليوم. وتولى الفرنسيون إدارة «فندق الشرق» الذي امتلكه كولومب. وكان «فندق أوروبا» لا يزال الاختيار الأول للسائح في دليل موراي عام ١٨٨٠م، يليه «فندق أبات».[٣٢]

وفي القاهرة عام ١٨٣٠م، وجه ريفو السياح إلى الحي الفرنجي إلى جوار شارع الموسكي، حيث كان هناك بيت ضيافة لرجال الدين الكاثوليك، يستقبل الزوار للإقامة مقابل ما يتراوح بين سبعة وثمانية قروش في اليوم. وكان هناك خان أوروبي صغير بالقرب منه يحصل من السائح على ١٢ قرشًا في اليوم. وفي العام ١٨٤٣م حل «فندق الشرق» المتسع الأرجاء بالأزبكية محل فندق هيل بالحي الفرنجي، واستخدمه المسافرون بالطريق البري من الهند وإليها مقابل خمسين قرشًا للإقامة الكاملة في اليوم الواحد. وفي عام ١٨٤٦م تحول اسم الفندق إلى «شبرد» ليحمل اسم رجل الأعمال البريطاني الذي امتلكه.[٣٣]

---

[٣١] Marcus Simaika, “Excerpts From Memoirs of Marcus H. Simaika, C. B. E., F. S. A. (1864–1944).

مخطوط طرف د. سمير سميكة؛ سلامة موسى: تربية سلامة موسى.

[٣٢] Wilk. 1843, 1: 101; Murr. 1880, 1: 115-116.

[٣٣] Jean-Jacques Rifaud, Tableau de l’Egypte, 61-62; Michael Byrd, Samuel Shepheard of Cairo: A Portrait (London, 1957).

واختار الفرنسيون والطليان الإقامة «بفندق جياردينو» — الذي كان يملكه دوميرج — بالحي الفرنجي مقابل ثلاثين قرشًا في اليوم.[٣٤] وقد أشاد دليل موراي في ١٨٥٨م وفي ١٨٨٠م بفنادق شبرد، وويليامز، والشرق، وكانت تقع جميعًا بالأزبكية (انظر الشكل ١٦). وتقاطر البريطانيون والأمريكيون على «فندق شبرد»، بينما فضل الفرنسيون «فندق الشرق». وبعد توسع فندق شبرد ليضم ٣٥٠ غرفة، كان لا يزال يحتل قمة قائمة الفنادق عام ١٩٠٨م في دليل بايدكر. أما أولئك الذين لم يكن يلائمهم وسط حي الأزبكية، فقد فضلوا فندق «الجزيرة بالاس» الذي يقع بجزيرة بالنيل، أو فندق «مينا هاوس» بالأهرام الذي ظهر بالدليل لأول مرة عام ١٨٨٩م، وتضمنت قائمة الفنادق بدليل بايدكر عام ١٩٠٨م «فندق سميراميس» الذي ضم ثلاثمائة غرفة ويقع على النيل بالقرب من دار المعتمد البريطاني.[٣٥]

الفرمانات والزي، الأعلام والأسلحة النارية

وتسجل كتب الدليل السياحي التغيرات الأساسية فيما بين العشرينيات والخمسينيات فيما يتعلق بالفرمانات، والزي، والأعلام والأسلحة النارية بالنسبة للسياح الغربيين. ففي عام ١٨٣٠م نصح ريفو قراءه بأن يقوم كل منهم بزيارة قنصل بلاده عند وصوله إلى مصر، حتى يرتب له القنصل مقابلة مع محمد علي باشا ليعطيه فرمانًا يرخص له بالتجول في البلاد وربما التنقيب عن الآثار: وفي عام ١٨٤٧م توقف تقليد مقابلة الباشا للحصول على فرمان. وبعد ذلك بوقت طويل، ذكر بايدكر عام ١٩٠٨م، «لا تعد جوازات السفر ضرورية ويكفي المرء أن يقدم بطاقة الزيارة التي تحمل اسمه ليتمكن — عمليًّا — من إنجاز أعماله في داخل البلاد.»[٣٦] ولكن الحرب العالمية الأولى ما لبثت أن وضعت نهاية لذلك.

وحتى العقد الأول من القرن التاسع عشر، جرت العادة على أن يرتدي الأوروبيون الزي المحلي حتى لا يثيرون انتباهًا إليهم غير مطلوب، وربما الشكوك والعداء. وقبل ذلك

---

[٣٤] Rifaud, Tableau, 61–62, Wilk. 1843, 1, 202–4.

[٣٥] Murr. 1858, 114–15; Joan. 1861, 958; Murr. 1880, 1: 157–58; Karl Baedeker, Egypt: Handbook for Travellers, 6th ed. (Leipzig 1908).

[٣٦] Rifaud, Tableau, 32–35; Wilk. 1847: 8; Murr. 1873, 8, Baedeker 1908, v.

كان «الفرنجة» يغامرون بالخروج إلى الشوارع بزيهم الغربي في الإسكندرية وحدها. وكان ارتداء زي الأتراك يبرز اختلاف الزوار الأوروبيين عن المصريين، ويبرر عدم استخدامهم العربية التي لا يتخذها الترك لغة للحديث. وقد ارتدى كل من بوركهارت وبلزوني، ولين، وويلكنسون، وشامبليون، وروسيلِّيني، وبريس دافين، ارتدوا جميعًا العمامة والجلباب وأطلقوا لحاهم على طريقة الترك. واتخذ بعضهم لنفسه اسمًا عربيًّا.

وفي العام ١٨٣٠م، نصح ريفو قراءه بارتداء الزي المحلي، ولكن سولت انتقد ويلكنسون — قبل ذلك بسنوات — لتوقعه تدخل القنصل لحماية من يرتدون زيًّا تركيًّا من الزوار الأوروبيين[٣٧] وفي العام ١٨٣٥م نصح ويلكنسون بارتداء الزي المحلي في القاهرة وواحات الصحراء الغربية، والبحر الأحمر، ولكنه ذكر عدم وجود ضرورة لذلك بالصعيد، وعلى الطريق البري (القاهرة-السويس). وفي أواخر الثلاثينيات، كان تمسك اللورد ليندساي بزيه الأوروبي دليلًا على تحسن وضع الأوروبيين: «لم يعد هناك وجود للشتائم التي كانت توجه للمسيحيين في السابق … فباستطاعة المسافرين التنقل بالزي الفرنجي بأمان تام. تُرى، ماذا كان باستطاعة سانديز وليثجواي أن يقولا؟ هل كان باستطاعتهما التنبؤ في أيامهما، أنه في العام ١٨٣٦م يستطيع بريطانيان أن يسيرا معًا علنًا في القاهرة، يتقدمهما خادم محلي يفسح لهما الطريق مناديًا بكلمات لا تفرق بين الدواب والبشر؟»[٣٨]

وفي عام ١٨٤٧م، أعلن ويلكنسون أن من يرتدي الزي المحلي ولا يتحدث العربية يصبح مثارًا للسخرية.[٣٩]

وفي العام ١٨٣٥م، أوصى ويلكنسون المسافر الأوروبي أن يرفع علم بلاده على (الدهبية) القارب الذي يبحر به في النيل، حتى يتحاشى مضايقات قوارب الحراسة المسلحة. وتباهى منديس كوهين بأنه كان أول أمريكي يرفع العلم الأمريكي على صفحة النيل عام ١٨٣٢م. وشجعت القنصلية البريطانية مواطنيها على تسجيل الأعلام الشخصية المثلثة الشكل لكل منهم حتى يستطيع كل منهم التعرف على قارب صديقه دون مشقة.[٤٠]

---

٣٧ Rifaud, Tableau, 56–58; Thompson, Wilkinson, 1, 45–47.

٣٨ Lord Lindsay, Letters on Egypt, Edom, and the Holy Land (London, 1838) 1: 44–45.

٣٩ Wilk. 1847, 7.

٤٠ I. G. Wilkinson, Topography of Thebes and General View of Egypt (London, 1835).

وكان المسافر الأوروبي — في أوائل حكم محمد علي — يحمل السلاح ويستأجر فردًا أو اثنين من «الإنكشارية» لحراسته. وجاءت نصيحة ريفو — عام ١٨٣٠م — تجنب التجول في مصر دون سلاح، في غير موضعها؛ لأن محمد علي كان قد أقر النظام في ربوع البلاد حتى النوبة جنوبًا. وفي العام ١٨٤٣م، لم يورد ويلكنسون ذكرًا لضرورة حمل الأسلحة النارية دفاعًا عن النفس، أما الأمر بالنسبة لسوريا وفلسطين فكان مختلفًا، فأصر دليل موراي على ضرورة أن يحمل السائح الأوروبي السلاح، وأن يتخذ لنفسه مرافقًا من أبناء البلاد. وفي عام ١٨٩٥م وصف بايدكر السفر إلى مصر بأنه آمن تمامًا كما هو الحال في أوروبا، ونصح السياح بعدم الحاجة إلى حمل السلاح إلا إذا كان السائح من هواة الصيد.[٤١]

مخالطة أهل الشرق

وحفلت كتب الدليل السياحي بنصائح عامة ذات طابع عنصري، حول ما أسماه بايدكر «مخالطة أهل الشرق». كان التراجمة يقدمون خدماتهم لزوار مصر منذ أيام هيرودوت الذي ذكرهم باعتبارهم محرِّفين وجهلة. وفي عام ١٨٣٥م، استخدم ويلكنسون مصطلح «الترجمان» للوسيط الذي يستخدم في التفاهم مع النخبة الحاكمة التي تتحدث التركية، ورأى عدم وجود حاجة إليهم، ونصح السائح بأن يستأجر خادمًا أوروبيًّا من مالطا أو خادمًا مصريًّا من حي الفرنجة بالقاهرة ممن يجيدون الحديث بالفرنسية والإيطالية. وبحلول عام ١٨٧٣م، لم يجد دليل موراي أن هناك ضرورة لاستخدام اللغة التركية وذكر أنه من الممكن — لقاء أجر معلوم — استئجار ترجمان يتحدث الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية لترتيب الرحلة إلى الصعيد، فيقوم الترجمان بدوره بتأجير المركب والخدم وجلب المؤن الضرورية للرحلة.[٤٢]

وكان بعض أولئك التراجمة من الجنود الفرنسيين أو الإنجليز السابقين الذين أُسِروا أو فروا من الخدمة أيام الحروب النابليونية. فقد التقى فرانسوا أوجست رينيه دي

[٤١] Rifaud, Tableau, 88; Brendon, Cook, 120; Baedeker 1895, x.

[٤٢] Baedeker 1908, xxiii–xxv, Wilk. 1835, 559; Murr. 1873, 119; Frances Karttunen, Between Worlds: Interpreters, Guides and Survivors (New Brunswick, 1994).

شاتوبريان «مماليك فرنسيين» في خدمة محمد علي، أحدهما كان يدعى إسماعيل رشوان (واسمه الأصلي بيير جاري) الذي رافق الكونت دي فوربان في جولته عام ١٨١٧م. ومن أشهر البريطانيين من هؤلاء عثمان أفندي، وهو اسكتلندي، كان في صباه طبالًا أو ممرضًا، وقع في الأسر عندما قام البريطانيون بغزو مصر ١٨٠٧م (حملة فريزر)، وتم استرقاقه وتحول إلى الإسلام، ونجح القنصل البريطاني سولت في التدخل لإعتاقه، ولكنه رفض العودة إلى أسكتلندا. وقد عمل مساعدًا لبوركهارت، ومترجمًا وحارسًا للقنصلية البريطانية، وتولى تأجير البيوت بالقاهرة، وأدى خدمات لرويرت هاي وغيره.[٤٣]

وحذر دليل موراي السياح من الجلبة التيستواجههم عند زيارتهم لأهرام الجيز ة:

«يشكو الزوار من حشود القرويين الذين يتجمعون حولهم مثل سحابة من الذباب، يلحون عليهم في قبول خدماتهم المزعجة، مما يسبب للزوار الضيق والانزعاج. ومن واجب الترجمان الذي يرافق السائح أن يضع حدًا لهذا باختيار عدد معقول من الأدلة، ولا يسمح لغيرهم بالاقتراب من السياح ... ولا يجب أن يعطي لهم شيء أثناء وجود السائح بالهرم، ويجب مقاومة أي مطالب لهم بحزم.»[٤٤]

وهناك رسم هزلي من السبعينيات عن «الحمَّارين والسياح الأجانب» يعبر عن المفهوم الشائع بين الأوروبيين عن «مخالطة أهل الشرق» (انظر الشكل ١٧).

وقد عكست الصلات بين السياح وأهالي البلاد — غالبًا — حدة التمايز النوعي، فتبين إحدى اللوحات سائحين — رجل وامرأة — محمولين عبر مخاضة ماء كانت موجودة قبل رفع مستوى طريق أهرام الجيزة عام ١٨٦٩م (انظر الشكل ٤)، وهناك صورة فوتوغرافية نادرة تبين نساء العصر الفيكتوري وهن يسحبن من ظهورهن بحبال حول خواصرهن لصعود الهرم (انظر الشكل ١٩)، وسوف نتناول الرؤية الخيالية للمرأة الشرقية عند الرجل الغربي فيما بعد. فقد كان أبرز ما جاء برحلة جستاف فلابير؛ تلك الرحلة التي قضاها مع الراقصة كوجك هانم بإسنا، وليس زيارته للكرنك أو الأهرام.[٤٥]

وحذر دليل بايدكر من إعطاء «البقشيش» دون مقابل، عندما راح يعدد الطباع الصبيانية لبعض «أبناء البلاد»: «يعتبر الشرقي العادي السائح الأوروبي مغفلًا، بل

[٤٣] Jean-Joel Brégeon, l'Égypte Française au jour le jour 1798–1801 (Paris, 1991).

[٤٤] Murr. 1858, 160.

[٤٥] Carré, Voyageurs, 2: 108.

— أحيانًا — يعتبره مجنونًا؛ فالشرقي لا يقدر قيمة السياحة ومتعتها؛ فالسياح غالبًا ما يدفعون الكثير من أجل تحقيق متعة وقتية بثمن باهظ، ولا يدركون أن بذور الطمع الذي لا نهاية لها قد بذرت، لتؤتي أكلها لمن يخلفهم، وتفسد من أخلاق المتلقين أنفسهم. لذلك لا يجب إعطاء البقشيش إلا في مقابل خدمة …

ويجب أن نتذكر دائمًا أن المصريين يحتلون أكثر الدرجات دنوًا في سلم الحضارة مقارنة بمعظم أمم الغرب، ويعد الجشع أحد الأسباب الرئيسة لفشلهم، ولكن إذا وضع السائح عيوبهم في اعتباره، وعاملهم بالكثير من الحزم، لوجد أنهم لا يفتقرون إلى الإخلاص والأمانة ورقَّة الحاشية.»[٤٦]

وفي العام ١٨٣٠م، حذر ريفو السائح من شراء الآثار المزيفة، واتهم فلاحي الصعيد ويهود القاهرة بترويجها، وبعد ذلك بخمس سنوات جاء بدليل ويلكنسون أن أسعار الآثار بقرية القرنة (مقابل الأقصر) قد تضاعفت بسبب تزايد عدد السياح الوافدين إلى مصر منذ العام ١٨١٦م.[٤٧]

ومع تعاقب عقود القرن التاسع عشر، استنكرت كتب الدليل السياحي الرق، وطقس «الدوسة» حيث يمر الشيخ الصوفي بحصانه فوق أجساد مريديه. وذكر ريفو — دون حرج — أن سعر الجارية السوداء الجميلة في العاشرة من عمرها يتراوح بين ٦٠٠–٨٠٠ قرشًا بالقاهرة، بينما تبلغ قيمة الجارية الجركسية ستة آلاف قرشًا أو تزيد، وقد اشترى كل من لين وويلكنسون جارية، وعدًّا ذلك من قبيل الإحسان، وما لبث لين أن تزوج الجارية التي اشتراها.[٤٨] وذكر دليل موراي لعام ١٨٥٨م، أنه منذ قيام سعيد بإلغاء تجارة الرقيق، لم يعد سوق العبيد بالقاهرة مكانًا يستحق الزيارة.[٤٩]

وأعلن دليل موراي في ١٨٥٨م، ومرة أخرى في ١٨٨٠م، أن: «لا يستطيع الأوروبي مشاهدة حفل «الدوسة» دون أن يشعر بالفزع والاشمئزاز. وفي تلك المناسبة يمتطي شيخ السجادة حصانًا … وتجري الطقوس في الأزبكية حيث يرقد على الأرض ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ من المريدين ملتصقين ببعضهم البعض، ويمر الشيخ بحصانه فوقهم … ويقيم هذا الاحتفال البرهان على التعصب الوحشي الذي لا يصدقه من لم يره رأي العين.»

---

[٤٦] Baedeker, 1895, xxii.

[٤٧] Rifaund, Tableau, “Avis”, Wilk. 1835.

[٤٨] Rifaud, Tableau, 104; Thompson, Wilk. 52–54.

[٤٩] Wilk. 1843, 1: 245–51; Murr. 1858, ci.

وفي دليل بايدكر للعام ١٨٣٥م، وصف حفل «الدوسة» بأنه «عادة بربرية» تم إلغاؤها على يد الخديو توفيق، ولكن يقال إن أتباع «الطريقة العلوانية» يمارسون أحيانًا مضغ جمر الفحم وابتلاعه، وابتلاع قطع الزجاج المكسور، ويمارسون «الرقص الوحشي».[٥٠]

السياح والأوروبيون المقيمون، الجنسيات والأعداد

يذكر ريفو — عام ١٨٣٠م — أن القاهرة افتقرت إلى الصحف والبورصات، والأكاديميات، ودور العرض المسرحي، وأن الأوروبيين يجتمعون عادة في حديقتين: إحداهما بالقنصلية الفرنسية، والأخرى في دير قبطي حيث يقيم الكاثوليك صلواتهم، وأكد دليل موراي ذلك عام ١٨٥٨م، فذكر أن «القاهرة لا تكاد تقدِّم للسياح أماكن عامة للترويح عن أنفسهم»،[٥١] ولكن تدفق السياح الذين يسعون لتجربة حظهم على النيل، سرعان ما غير ذلك. فقد زاد تعداد الأوروبيين ومن تمتعوا بحمايتهم نحو عشرة أضعاف بالإسكندرية من ٤٨٢٤ عامًا ١٨٤٨م (٥٪ من سكان المدينة) إلى ٤٢٨٨٤ عامًا ١٨٧٨م (نحو ربع سكان المدينة).[٥٢] وفي عام ١٨٧٣م تضمَّن دليل موراي قائمة بالقنصليات، ومكاتب البريد الأوروبية والمحلية، ومكاتب البرق، والبنوك، والمقاهي، والمطاعم، ومحلات بيع الكتب، والمصورين، والصيدليات، والأطباء، وأطباء الأسنان، والترزية، وتجار المواد التموينية، والجواهرجية، والحلاقين، بالقاهرة والإسكندرية. كذلك تضمن الدليل كنائس الروم الكاثوليك، والإنجيليين، والبرسبتاريين الأسكتلنديين والأمريكان، واللوثريين، والبروتستانت الفرنسيين، واليونان الأرثوذكس، واليونان الكاثوليك، والموارنة، والأرمن، والمعابد اليهودية بالمدينتين. وكان دليل ويلكنسون في الأربعينيات قد أوصى السائح بأن يحضر معه «الأشياء اللازمة لرحلته بمصر» لأنه يصعب الحصول عليها بالبلاد. وفي العام ١٨٧٣م، كان كل ما يلزم السائح من أغراض متوفرًا بالقاهرة والإسكندرية، رغم أن الأسعار لم تكن دائمًا

---

٥٠ Murr. 1858, 140; Murr. 1880, 1: 215; Baedeker 1895, ci.

٥١ Rifaud, Tableau, 64; Murr. 1858, 117.

٥٢ Michael Reimer, Colonial Bridgehead: Government and Society in Alexandria, Egypt 1807–1882, (Boulder, Colo., 1997), 108.

مناسبة. وفي دليل بايدكر عام ١٨٩٥م، لم يجد صاحبه أن هناك ما يدعو للإبقاء على تلك القوائم.[٥٣]

وفي العام ١٨٧٣م، قدَّرت إيمليا إدواردز أنه من بين كل «دهبية» راسية بالأقصر، كان البريطانيون يشغلون ١٢ والأمريكان ٩ والألمان ٢، وشغل الفرنسيون والبلجيك واحدة لكلٍّ.[٥٤] وقد بينَّا في ملاحق هذا الكتاب (الجدول ٢) توزيع السياح حسب الجنسيات وفق ما أورده مؤلفو كتب الدليل السياحي لمصر، (الجدول ٣) يبين أن الأوروبيين المقيمين بمصر تمتعوا بحماية دولهم، (الجدول ٤) يلخص المادة الواردة في الجداول من ١–٣. فقد كانت هناك علاقة بين حجم الجالية المقيمة بمصر من أبناء البلد الأوروبي ومكانها في مجال السياحة. ولم يكن لليونانيين وجود كسياح، ولكن كانت لهم أكبر جالية في مصر. ولم يصدر سوى دليل سياحي واحد بالإيطالية، رغم أن الجالية الإيطالية بمصر تحتل الموقع الثاني من حيث الحجم، بينما فاق البريطانيون — الذين احتلت جاليتهم المركز الثالث من حيث الحجم — غيرهم في عدد كتب الدليل السياحي، وفي السياح حتى تفوَّق عليهم الأمريكان فيما بعد.

وترجع هذه العلاقة العكسية بين حجم الجاليات الأوروبية المقيمة في مصر، ونصيب بلادها من حركة السياحة، ترجع إلى سرعة تطور بريطانيا والولايات المتحدة على طريق الصناعة، وما صاحب ذلك من اتساع حجم الطبقة الوسطى التي توفر لها الرخاء المادي الذي يتيح لها فرصة السفر والسياحة. أما اليونان وإيطاليا (وخاصة في الجنوب) فقد كان حظهما من الصناعة قليل، فكانتا مستوردتين للسياح ومصدِّرتين للأيدي العاملة.

كتب ثيوفيل جوتبيه عام ١٨٤٠م «الإنجليز في كل مكان ما عدا لندن، التي لا تجد فيها إلا الإيطاليين والبولنديين.»[٥٥] ولعل بعض مَن كان يفتقدهم من سكان لندن توجهوا إلى مصر لقضاء جانب من فصل الشتاء هناك، وحيث كان السياح البريطانيون منتشرين في كل مكان بأعداد كبيرة. وربما زاد عدد السياح الأمريكان على عدد البريطانيين في عقد الثمانينيات، عندما احتل الأمريكان المقدمة في عدد كتب الرحلات التي نشرت عن مصر بالإنجليزية. وعلى كل فقد كان عدد الأمريكان المقيمين في مصر عام ١٩٠٧م لا يتجاوز ٥٢١ فردًا.

---

[٥٣] Murr. 1873; 1: xix–xx; Wilk. 1843, 1: 85–89.

[٥٤] Amelia Edwards, A Thousand Miles up the Nile, 2nd ed. (New York, ca. 1881), 370.

[٥٥] Théophile Gautier, Voyage en Espagne, (Paris, 1929).

ورغم طول المدى الزمني للروابط الفرنسية — المصرية، نشر البريطانيون من كتب الرحلات وكتب الدليل السياحي ما فاق ما نشره الفرنسيون، ولم يزد عدد كتب الرحلات الفرنسية عن مصر على عدد ما نشر بالإنجليزية إلا في الستينيات التي شهدت عصر ديلسبس ونابليون الثالث وولع الخديو إسماعيل بالثقافة الفرنسية.

لقد تدفق الأمريكان عبر الأطلنطي بعد انتهاء الحرب الأهلية التي شغلتهم طويلًا، تمامًا كما فعل الإنجليز عندما عبروا القنال الإنجليزي بعد ووترلو.[٥٦] وارتفع عدد كتب الرحلات الأمريكية التي كُتبت عن مصر، ولكن لم يُنشر دليل سياحي أمريكي لمصر قبل الحرب العالمية الأولى.[٥٧] ويبدو أن السياح الأمريكيين اكتفوا بما كان ينشره موراي وكوك وبايدكر.

وبدأ الألمان ينشرون العديد من كتب الرحلات عن مصر في عقد الأربعينيات، ورغم أن الألمان لم يواكبوا العدد المتزايد من كتب الرحلات التي نشرها الأمريكيون بعد الحرب الأهلية، ولكن كتب الدليل السياحي الألمانية عكست الاهتمام بالعالم الخارجي بعد توحيد ألمانيا عام ١٨٧١م.

كتب جورج ستيفنس عام ١٨٩٨م يقول: «حقق البريطانيون والأمريكان الغلبة في هذا الميدان، ولكن اللافت للنظر بروز الألمان في هذا المجال. فمنذ عشر سنوات كنت تستطيع القول إنه لم يتوفر لديهم المال ولا الخبرة للسفر إلى أبعد من نابولي، واليوم تراهم في كل مكان. لقد استمعنا إلى صوت أغنية قادمة من باخرة من بعيد، فإذا هي ألمانية.»[٥٨] ومثَّل دليل بايدكر السياحي عن مصر بالإنجليزية إحدى قنوات التأثير الألماني.

القراءات والأماكن الموصى بها

لعل ويلكسنون كان حسَن الظن بقرائه عندما اقترح عليهم أن يحملوا معهم مجموعة من الكتب لهيرودوت وغيره من المؤلفين القدامى (الكلاسيكيين)، وشامبليون، وكتب الرحالة الذين زاروا مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكتاب لين عن المصريين المحدثين،

---

[٥٦] Buzard, Beaten Path, 219.

[٥٧] لاحظ أن دليل ماكميلان لفلسطين ومصر المنشور بنيويورك ١٩٠١م لم يُذكر عند فولكوف.

[٥٨] G. W. Steevens, Egypt in 1898 (London 1998).

وكتاب ويلكنسون — نفسه — عن قدماء المصريين، وقد أصبح ذكر قائمة القراءات التي يوصي السائح بقراءتها نموذجًا يحتذى به في كتب الدليل السياحي الصادرة عن موراي وبايدكر.

وأوصى ويلكنسون السائح أن يحمل معه سدسية (آلة لقياس الأجرام المساوية)، وأفق صناعي، وكرونومتر (لقياس الزمن)، وسحارة، وبارومتر (لقياس الضغط الجوي)، وترمومتر (لقياس درجة الحرارة)، ومقياس متري.[٥٩] وتذكِّرنا هذه الوصية بطريقة الرجال الهواة من خارج الجامعات — مثل لايل، وداروين ولين، وويلكنسون ذاته — في إجراء معظم بحوثهم في العصر الفيكتوري. وقد تضمَّن دليل ويلكنسون/موراي (من الأربعينيات حتى السبعينيات) قائمةً «بنقاط معينة في حاجة إلى فحص» تعبيرًا عن فن السفر؛ فالذين أوقفوا حياتهم على القيام برحلات، قاموا بذلك طلبًا للحقائق أكثر من سعيهم للشهرة أو المنفعة، أو التسلية، أو التعلم أو جمع الآثار، أو الاستعداد لاحتراف مهنة. وقد أورد كتاب ليوبولد برشتولد «مقال في توجيه اتجاه وتحديد مجال استطلاع الرحالة الوطنيين» (نشر ١٧٨٩م) أسئلة على الرحالة أن يبحث عن إجابة لها، بلغ عددها ٢٤٤٣ سؤالًا، ولعله كان آخر كتاب من نوعه.[٦٠]

واقترح دليل ويلكنسون/موراي على القارئ التنقيب عن الآثار في عين شمس، وعند أبي الهول بالجيزة، وفي مدينة سايس بالدلتا، وأن يقوموا بنسخ السقوف الفلكية بوادي الملوك، وكل الرموز والكتابة الهيروغليفية في مقبرة واحدة، والنقوش على الأعمدة التسعة والسبعين بمعبد إدفو، وأسماء الملوك وتماثيلهم في «إثيوبيا العليا». وحث الدليل القراء على البحث عن النقوش المثلثة على الأحجار التي أعيد استخدامها في مساجد القاهرة، والأقواس المدببة التي ترجع إلى مطلع العصر الإسلامي في أسوان، وموقع المستعمرة اليونانية في نوكواتيس، وموقع الإسكندرية القديمة، وتبدو هذه المقترحات بالغة الغرابة الآن؛ لأن السائح، وعالم الآثار يسير كل منهم اليوم في طريق منفصل عن الآخر، وعند العام ١٨٧٣م، أقر دليل موراي بوضوح أن قائمة توصياته التي حذفت معظمها بتلك الطبعة كانت تمثل نوعًا من المفارقة التاريخية؛ لأن «مارييت وغيره قد أجابوا بالفعل عن

---

[٥٩] Wilk. 1843, 1: 89; Wilk. 1835, 560.

[٦٠] Justin Stagl, A History of Curiosity: The Theory of Travel 1550–1800 (Chur, Switzerland 1995).

الكثير مما ورد بقائمة الأسئلة التقليدية، وأن الآثار المصرية قد وضعها الخديو في متحف وجعل مارييت مسئولًا عنه، كما لم يعد مسموحًا لأي فرد، أن ينقب عن الآثار في أي مكان يشاء دون الحصول على ترخيص بذلك، كما أصبح تصدير الآثار للخارج محظورًا.»[٦١] واختفت القائمة تمامًا من طبعة ١٨٨٠م.

من بلد الأوبئة إلى منتجع صحي

كان المرضى من البريطانيين يهربون من الشتاء القارص في بلادهم إلى البحر المتوسط طلبًا للشفاء، عندما مات كينس بروما في عام ١٨٢١م. وبعد ذلك بأربع سنوات، ترك إدوارد لين عمله في مجال النقش متجهًا إلى مصر لأسباب صحية. ولكن الأوروبيين — أيضًا — يذكرون مصر باعتبارها بلاد الطاعون الذي يرد ذكره بالكتاب المقدس، وقد قضى بوركهارت نحبه بمصر عام ١٨١٧م بسبب الدوسنطاريا، كما أن زوجة سولت، والناشر الذي كان ويلكنسون يعتزم نشر دليله عنده، ماتا بالطاعون. وقد ذكر كينجليك في كتابه «إيوثن» أن كل من التقاه بالقاهرة تقريبًا في العام ١٨٣٥م حصده الطاعون.[٦٢] وقضت الكوليرا على ابن صامويل شيبرد الطفل، وعلى زوجة مارييت. «لأسباب مجهولة» أقيمت المحاجر الصحية في مارسيليا، وليجورن وجنوا والبندقية، كما أقيم نطاق على الحدود الشرقية لإمبراطورية الهابسيورج لمنع دخول الوباء الذي كان متفشيًا في الشرق الأوسط. ولم يتم اكتشاف انتقال ميكروب الطاعون عن طريق براغيث الفئران إلا في العام ١٨٩٨م. وخصص ويلكنسون تسع صفحات من دليله للحديث عن إجراءات الحجر الصحي بجزيرة مالطا التي استغرقت ما بين ١٩ و٢٤ يومًا يقضيها المسافر إلى أوروبا.[٦٣] وكانت الطرق البحرية المباشرة بين الإسكندرية وإنجلترا تتمتع بميزة قضاء فترة الحجر الصحي خلال الرحلة.

---

[٦١] انظر قائمة المقترحات سالفة الذكر في Murr. 1873, 46; Murr. 1858, 46.

[٦٢] Alexander Kinglake, Eothen (Lincoln, Nebr., 1970), 272.

[٦٣] حول الطاعون في الشرق الأوسط، انظر: Daniel Panzac, Quarantaines et Lazarets: l’Europe et la peste d’Orient (XVIIe–XXe siècles) (Aix-en-Provence, 1986); LaVerne Kuhnke, Lives at Risk: Public Health in Nineteenth-Century Egypt (Berkeley, Calif. 1990), esp. 70–87.

وعكست المحاجر الصحية الاعتقاد الذي ساد عند الأوروبيين — في القرن السابع عشر — أن الطاعون مرضٌ معدٍ. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قدم معارضو هذه الفكرة تحديًا عمليًّا لها، إذ قام كلوت بك — الطبيب الفرنسي الذي تولَّى نظارة مدرسة الطب في عهد محمد علي — بحقن نفسه بدم أحد ضحايا الطاعون ثلاث مرات ليقيم الدليل على أن الطاعون غير معد. وفي شمالي أوروبا، ساعدت الثورتان التجارية والصناعية على ترجيح كفة انعدام العدوى بالطاعون. فقد أشار الدكتور جون باورنج في تقريره عن مصر وكريت عام ١٨٤٠م إلى ما تتعرض له التجارة من تكلفة طائلة بسبب الحجر الصحي الذي يتعرض له المسافرون والتجار. وساند أنصار التجارة الحرة بمدرسة مانشستر القائلون بانعدام العدوى الذين كانوا ينصحون بالتخلص من النفايات بطريقة صحية، وتجديد الهواء، والاهتمام بالسكن، وتقويم العادات.

وعلى كلٍّ، أدرك الإيطاليون بحكم الخبرة أن الأوبئة تصل بحرًا وتنتشر برًّا، وأقام الأطباء الإيطاليون محاجر جديدة بالإسكندرية وبلاد الشام في الثلاثينيات، وكانت فرنسا — التي لها شواطئ على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي — منقسمة حول هذه القضية. وكان حلم ديليسبس الكبير بشق القنوات لخدمة التجارة الدولية قد قرَّبه من أفكار كلوت بك.

وعلى أية حال، اختفى الطاعون من مصر بعد العام ١٨٤٤م بصورة غامضة. ولكن دليل ويلكنسون/موراي عام ١٨٤٧م، كان لا يزال يذكر بالتفصيل إجراءات الحجر الصحي بجزيرة مالطا وميناء مارسيليا وفي إيطاليا التي تم إغلاقها بعد ذلك بقليل. وفي دليل موراي عام ١٨٥٨م ورد ذكر الطاعون باعتباره «وباء سابق».[٦٤]

وقبل أن ينحسر الطاعون، لعبت البواخر والخطوط الحديدية دورًا مهمًّا في نقل الكوليرا من موطنها بالبنغال إلى أقطار بعيدة. وساعدت شبكة الري — التي شهدت توسعًا في مصر — على نقل هذا الوباء الذي ينتقل عن طريق الماء. وقد حمل الحجاج الوباء معهم من الحجاز إلى مصر عام ١٨٣١م، وذلك الوباء الذي استمر معهم حتى ١٨٣٧م، ثم انتقل إلى أوروبا وأمريكا. وقد أصاب وباء الكوليرا مصر ١١ مرة فيما بين ١٨٣١ و١٩٠٢م. وجلب الحجاج الهنود الوباء معهم إلى مكة ١٨٦٥م، وانتقل إلى الحجاج المصريين الذين أدى استخدامهم للخط الحديدي السويس-القاهرة-الإسكندرية في رحلة

---

٦٤ Wilk. 1847, xviii–xxv, Murr. 1858, 7.

العودة إلى انتشار الوباء بسرعة في جميع أنحاء البلاد. وقد نجح عالم البكتريولوجي الألماني روبرت كوخ في تتبُّع ميكروب الكوليرا في مصر خلال وباء ١٨٨٣م واستطاع أن يضع يده عليه بالهند في العام التالي.[٦٥]

وأدى وباء الكوليرا (١٨٣١-١٨٣٢م) إلى تكليف محمد علي للقناصل بتشكيل مجلس للصحة ومحجر بالإسكندرية تحت إدارة طبيب إيطالي. ودفع وباء (١٨٤٦–١٨٥٠م) الأوروبيين والعثمانيين والمصريين إلى إرسال مندوبين إلى أول مؤتمر صحي دولي عقد بباريس عام ١٨٥١م، وعقد المؤتمر الدولي الصحي الثاني بإستانبول عام ١٨٦٦م. وتبع ذلك وقوع وباء كوليرا آخر أدى إلى وضع نظام حجر صحي دولي على الساحل المصري للبحر الأحمر.[٦٦]

ورغم العودة الدورية للكوليرا، أدى اختفاء الطاعون إلى تمهيد الطريق لكي تصبح مصر منتجعًا للأوروبيين؛ ففي العام ١٨٥٩م نشر ريل كتابًا بالألمانية بعنوان «مصر منتجع للمرضى في فصل الشتاء»، وجاءت لوسي دف جوردون عام ١٨٦٢م لتستشفي في مصر من مرض السل، لتنشر الدعاية لجوٍّ مصر الشتوي الصحي، قبل أن يتغلب عليها المرض بعد ذلك بسبع سنوات.[٦٧]

وأوصى دليل موراي عام ١٨٧٣م بزيارة مصر «مرضى السل الرئوي، والربو الشعبي، وحالات التهاب المفاصل المزمنة، وانتفاخ أمعاء البطن، والإرهاق العصبي، وقصور الدورة الدموية نتيجة حالة مرضية متقدمة بالقلب ... والأمراض السرية بمختلف أنواعها، وتضم الغدة.»[٦٨]

وبحلول عام ١٨٥٨م، اجتذبت عيون حلوان الكبريتية الأتراك والأوروبيين الذين ينشدون الاستشفاء من أمراضهم، وعند نهاية القرن أنشئ فندق مينا هاوس بالهرم وكذلك فنادق الأقصر وأسوان كمنتجعات صحية بكل منها أطباء وممرضات مقيمون من الأوروبيين.[٦٩]

---

٦٥ Kuhnke, Lives, 49–66, 101–7; Panzac, Quarantaines, 117–21.

٦٦ Kuhnke, Lives, 49–66, 101–4; Panzac, Quarantaines, 95-96, 120-121.

٦٧ Volkoff, Guides, 104; K. Frank, Lucie Duff Gordon (London, 1994).
وانظر كتابها رسائل من مصر، الترجمة العربية (القاهرة ١٩٧١م).

٦٨ Murr. 1873, 12, 4.

٦٩ Murr. 1858, 226, Murr. 1880, 1: 278; Pemble, Mediterranean, 246–47.

الاتجاه إلى الصعيد – الدهبية، الباخرة، القطار

حققت السياحة في الصعيد تقدمًا على ثلاثة مراحل خلال القرن التاسع عشر، ارتبطت كل واحدة منها بوسيلة نقل معينة هي: الدهبية، والباخرة، والقطار، وكان الإبحار إلى الصعيد بالدهبية بطيئًا، مكلفًا، قاصرًا على السياح الأثرياء؛ ففي ١٨٥٨م كان إيجار الدهبية الكبيرة لثلاثة أو أربعة مسافرين، بمقصورتين، أو ثلاث مقصورات مجهزة، وحمام، يتراوح بين ٥٠–٧٩ جنيهًا إسترلينيًّا شهريًّا. أما الدهبية المتوسطة الحجم التي يعمل بها طاقم من عشرة أفراد (من بينهم طباخ وترجمان)، فكانت تحمل شخصين من السياح إلى الشلال الثاني ذهابًا وإيابًا بتكلفة قدرها ٢٠٠ جنيه لمدة شهرين. وكانت الرحلة من القاهرة إلى الأقصر والعودة تستغرق أربعين يومًا وتكلف ١١٠ جنيهات، أما الرحلة إلى أسوان ذهابًا وإيابًا فتستغرق خمسين يومًا، وتكلف ١٥٠ جنيهًا. وكان جدول زيارة الأقصر يتضمن التوقف لمدة عشرة أيام لزيارة الآثار، ولكن إذا هبت ريح معاكسة، فقد يؤدي ذلك إلى إطالة زمن الرحلة كثيرًا.[٧٠]

وقد أوصى دليل ويلكنسون للعام ١٨٤٣م بضرورة غمر المركب المستأجر بالماء تمامًا ثم تفريغه قبل القيام بالرحلة لتخليصه من الفئران والحشرات، ونصح السائح بأن يحمل معه مصيدة فئران حديدية، وقفصًا من الدجاج، وبقسماطًا؛ لأن الخبز لا يتوفر في القرى على الطريق. وقدم للقارئ نموذجًا لعقد استئجار الدهبية الذي يجب أن يبرم في القنصلية.[٧١]

وفي عام ١٨٥٨م، أصبحت الباخرة بديلًا للدهبية، ولكنها لا تقوم برحلة القاهرة–أسوان والعودة التي تستغرق عشرين يومًا إلا إذا توفر عددٌ كافٍ من السياح الراغبين في السفر. وكانت التكلفة الإجمالي للرحلة للفرد عشرين جنيهًا، وعشرة جنيهات للخادم المرافق لسيده. وبحلول عام ١٨٧٣م، أصبحت رحلات البواخر تسير بانتظام طوال الموسم السياحي. وأدى استخدام البواخر في رحلات الصعيد إلى خفض زمن الرحلة إلى النصف أو حتى الثلث، وحررت السياح من الخضوع لحركة الرياح، وأدخلت نظام الجداول الزمنية الذي اقترن بعصر الصناعة.[٧٢]

---

[٧٠] كان السياح قبل ذلك يستخدمون مراكب متواضعة أقل كلفة تسمى خانقة.

[٧١] Wilk. 1843, 1: iv, ii, 210–13.

[٧٢] Murr. 1858, 122; Murr. 1873, 120, 318–19; Murr. 1880, 2: 386; Baedeker 1908, 197–98.

وعند العام ١٩٠٠م، كان القطار قد اختصر زمن الرحلة إلى الصعيد وتكلفتها اختصارًا كبيرًا. فبعد أن وصل الخط الحديدي إلى المنيا عام ١٨٦٧م وإلى أسيوط عام ١٨٧٤م توقَّف مدُّ الخطوط الحديدية جنوبًا مدة عقدين من الزمان، ورغم أن الهدف من الخط هو توفير وسيلة نقل للسكر المنتَج هناك، فإن السياح كان باستطاعتهم السفر بالقطار حتى أسيوط، حيث يستأجرون دهبية أو باخرة لإكمال الرحلة جنوبًا، والعودة إلى أسيوط لمتابعة السفر إلى القاهرة بالقطار، وأدت حملة استرداد السودان بقيادة كتشنر إلى مد الخط الحديدي إلى أسوان عام ١٨٩٨م، وأصبح باستطاعة السائح أن يتجه بالباخرة من أسوان إلى وادي حلفا حيث مد كتشنر خطًّا حديديًّا من أبو حمد إلى الخرطوم.[٧٣] وفي عام ١٩٠٨م كانت رحلة القطار بعربات النوم تستغرق ١٤ ساعة من القاهرة إلى الأقصر، تضاف إليها ست ساعات ونصف للوصول إلى أسوان، وبذلك أمكن ضغط الرحلة السياحية القاهرة-الأقصر لتستغرق بضعة أيام.[٧٤] وبذلك اختصر القطار زمن الرحلة بالباخرة إلى النصف أو الثلث، تمامًا كما فعلت الباخرة مع الدهبية من قبل. وانقرضت سياحة الدهبية، أما الباخرة التي عانت من مشكلة الوقت والتكلفة فقد ظل استخدامها دليلًا على الفخامة والمتعة مقارنة بالقطار.

وفي نفس الوقت، صحب البرق الكهربي (التلغراف) الخطوط الحديدية في العالم كله، وتجاوزها أحيانًا إلى أصقاع لا تصل إليها. وقد ربط أول خط دولي للبرق بين بريطانيا وفرنسا عام ١٨٥١م في وقت معاصر للمعرض الكبير، وفتح خط البرق بين كلكتا وبومباي عام ١٨٥٤م مما ساعد البريطانيين على قمع «التمرد» بعد ذلك بثلاث سنوات، ولكن أخبار الثورة لم تصل إلى لندن إلا بعد أربعين يومًا. وقد مدت العديد من الكابلات لربط لندن بالهند عبر الدولة العثمانية وروسيا عام ١٨٦٥م، وذلك قبل عام من مد الكابل البحري عبر الأطلنطي بنجاح، وخلال أزمة فاشودة عام ١٨٩٨م، كان كتشنر على اتصال دائم بلندن بفضل خط البرق أم درمان-القاهرة، أما غريمه جان باتست مارشان فقد كان محرومًا من تلك الميزة معزولًا عن باريس.[٧٥]

[٧٣] Winer, Egypte, 90–122.

[٧٤] Baedeker 1908, 197–98.

[٧٥] Headrick, Tentacles, 97–116; Headrick, Invisible Weapon, 1–92.

وفي عام ١٨٨٠م، كانت رحلة الباخرة العادية التي تحمل ما بين ٢٥ و٣٠ سائحًا، معهم طبيب وترجمان، تتوقف ثلاثة أيام في الأقصر ويوم واحد في أسوان. وفي ١٨٧٣م عقد دليل موراي مقارنة بين متعة الرحلة بالدهبية والرحلة بالباخرة الأرخص سعرًا، على النحو التالي:

«باستطاعة من يريدون زيارة مصر في أقصر وقت ممكن ... التوجه من لندن إلى الشلال الثاني والعودة في ستة أسابيع ... إن السفر بالقارب الخاص بك يجعلك سيد نفسك؛ لأنه إلى جانب وجودك وسط مجموعة من الناس الذين لا تعرفهم، فإن عليك أن تفعل كل شيء في وقت محدد، ولا يُترك لك إلا وقت معلوم من الساعات أو الدقائق لزيارة المواقع الأثرية. إن الميزة الوحيدة للباخرة هي اقتصاد الوقت والمال ... أما كل من لديهم الوقت والمال فنقول لهم: اختر الدهبية، وإياك والباخرة.»

وكتب جابرييل شارمز: «طالما كنت محشورًا على ظهر باخرة مع مائة من الإنجليز رجالًا ونساءً، علينا أن نغادر الباخرة معًا في كل مكان نتوقف فيه، ونصعد معًا في وقت واحد، ولا تتاح لنا رؤية الأثر الذي يعجبنا سوى دقائق معدودات، وشعورنا بأننا جميعًا نمثل شحنة واحدة، لم يجعلني أشعر بالرضا لحظة واحدة.»[٧٦]

وعلى حين عبَّر الدليل السياحي لموراي عن تقديره للرحلة بالباخرة، يفترض دليل بايدكر عام ١٩٠٨م أن «السائح العادي» قد يستخدم الباخرة أو القطار — أما السياح الذين لا يحسبون للوقت والمال حسابًا، فإن استئجار الدهبية يبدو ممتعًا. كان توماس كوك — عندئذٍ — قد توسَّع في سوق النقل السياحي الفاخر بامتلاك سبع بواخر و١٣ دهبية شراعية، وكانت الدهبية «نيتوكريس» أرقاها من حيث الفخامة تؤجر شهريًّا بمبلغ ٤٠٠ جنيه إسترليني لأربعة أفراد، وبذلك يتكلف الفرد ضعف ما يكلفه السفر في رحلة بالباخرة: القاهرة-أسوان والعودة لمدة عشرين يومًا، إذ كانت الأجرة للفرد ٥٠ جنيهًا.[٧٧]

وقد أدى استخدام الدهبيات والبواخر كأماكن للإقامة، أدى إلى تأخير الطلب على الفنادق السياحية بالأقصر وأسوان. وأوصت الطبعات الأولى من دليل ويلكنسون السائح بأن يحمل فراشًا معه، ومقشة ليكنس الأرض عند مقابر الجيزة والإيوان الأول بالكرنك

---

[٧٦] Murr. 1873, xiv, 318; Gabriel Charmes, Cinq Mois au Caire et dans la Basse-Égypte (Cairo, 1880), 221–22.

[٧٧] Baedeker 1908, 196, 200.

حتى يجهز مكانًا لفراشه. ولكن اللورد ليندساي لاحظ في ١٨٣٦–١٨٣٧م أن «ما يمنع النساء الإنجليزيات من قضاء الشتاء في طيبة كما يفعلن الآن في باريس وروما، هو عدم وجود فندق في مدينة سيزوستريس، ولو أقيم فندق هناك لحقق أرباحًا كبيرة.»[٧٨] وفي عام ١٨٧٧م أقدم توماس كوك على خطوة جديدة فافتتح «فندق الأقصر» — الذي امتلكته شركته — وذلك بدلًا من تزويد السياح بقسائم للإقامة في الفنادق الأخرى هناك، وفيما بعد، باعت الشركة الفندق لمديره بانون الذي كوَّن إمبراطورية خاصة به في مجال الفندقة شملت «جراند هوتيل» و«كتراكت هوتيل» بأسوان، وكذلك فندق «ونتر بالاس بالأقصر».[٧٩]

الرسم وقصص الرحالة، والصور، وبطاقات البريد

تفقد السياحة الخارجية نصف متعتها، ما لم تتح للأهل في الوطن فرصة التعرف على ما حققه السائح في رحلته، فيرمقونه بالإعجاب والحسد معًا. وكان سياح العصر الفيكتوري من البريطانيين ينقلون تجاربهم إلى الأهل من خلال ما كانوا يرسلونه من خطابات، وكتب الرحلات، والكتب العلمية، والرسم، والصور الفوتوغرافية، وبطاقات البريد.

لقد دفعت أحلام الاستشراق الرومانسية بالكثير من الرحالة صوب الشرق، كان الكثير منهم ينشد التخلص من قبح المدن الصناعية في بلادهم، ولكن الثروة والقوة التي حققتها الثورة الصناعية هي التي أتاحت لشرائح واسعة من الطبقة الوسطى القدرة على السفر. وكان باستطاعة الارستقراط الذين يبحثون عن «البدو المتوحشين النبلاء» أن يتصوروا أن الزمن قد عاد بهم إلى الوراء إلى مجتمع يختلف نظامه الفطري عن نظامهم «الأفضل».

أما زبائن سياحة الشرق، فكانوا ينشدون اقتفاء آثار الأبطال الحقيقيين أو الخياليين، فنشر جون موراي الثاني أعمال بايرون، ووالتر سكوت، ونشر جون موراي الثالث كتب الدليل السياحي التي أوردت اقتباسات من تلك الأعمال الرومانسية،[٨٠] «كان كل رجل إنجليزي يحمل دليل موراي ليستقي منه المعلومات، وبايرون ليتزود منه بشحنة عاطفية،

[٧٨] Wilk. 1842, 1: 319, 2: 134; Lindsay, Letters, 1: 39–40.

[٧٩] Murr. 1880, 2: 450; Brendon, Cook, 136–37, 231–32.

[٨٠] Buzard, Beaten Path, 123.

وعن طريقهما يهتدي إلى ما يجب أن يعرفه ويحسه في كل خطوة يخطوها.»[٨١] ورغم أن شيلي لم يتجاوز حدود إيطاليا إلا أننا لا يمكن أن ننسى السطور التي كتبها عن مصر: «التقيت مسافرًا من بلاد عتيقة ... اسمي أوزيما ندياس ملك الملوك، انظر إلى أعمالي، يا صاحب العظمة، والبأس»، وأضافت زيارات ألكسندر كينجليك، ووليم ثاكيراي، وأنتوني ترولوب لمصر إضافات إلى أدب الرحلات المصرية، تمامًا كما فعل الكتاب الفرنسيون: شاتوبريان، وألفونس-ماري-لوي دي لامارتان، وجيرار دي ترفال، وفلوبير، ويتوفيل جوتييه، وانفرد من بين الكتَّاب الأمريكان: هيرمان ملفيل، ومارك توين، ورالف والدو إمرسون، بمد نطاق رحلاتهم الأوروبية لتستوعب مصر.

ولما كانت كتب الدليل السياحي، وكتيبات المتخصصين قد توزعت بين وظيفة قصص الرحلات ذات الطابع الخيالي، ووصف الآثار، فقد تحرر أدب الرحلات — أو أُجبر على التحرر — ليتخذ لنفسه وجهات جديدة. فقد خرج كتاب ألكسندر كينجليك (Euthen) الذي نشر عام ١٨٤٤م على التقليد الوصفي لكتب الرحلات، حيث عبر عن عدم اهتمامه «بالخرائب» الأثرية التي لا نرى لها وجودًا عنده.[٨٢] وابتدع جيرار دي نرفال الرحلة الشرقية الممتعة مركِّزًا على القاهرة، متجاهلًا آثار الصعيد، مبررًا ذلك بقوله: «إن عادات المدن الحية أكثر اجتذابًا للمراقب من خرائب المدن الميتة.»[٨٣] وعبَّر فلوبير عن مخاوف سائح متأخر عندما كتب لصديقه جوتييه: «عليك بالإسراع، فلم يمر وقت طويل حتى يختفي الشرق من الوجود، ولعلنا نكون آخر المستمتعين به.»[٨٤]

وعبَّر وليم ثوكيراي ومارك توين عن لوعة الحاج الورع عند المشاهد التي لا بد أن يراها، فقد ركبت المجموعة السياحية التي ضمت ثاكيراي القارب البخاري في رحلة نيلية، وما كادت تبدو لهم الأهرام «حتى حاول بعضنا أن يعبِّر عن انبهاره، ولكن بدأت خدمة الإفطار فاندفع الجميع نحو القهوة والفطائر ... ثم نظرت إلى جاري عساه أن يكون أكثر تحمسًا مني، ولكن خريج كلية ترنتي بجامعة أكسفورد كان مشغولًا باللحوم

---

[٨١] William Wetmore Story, Roba di Roma, 2nd. ed. (London 1863), 1: 7 as quoted in Buzard, Beaten Path, 120.

[٨٢] Robin Fedden, English Travellers in the Near East (London 1958), 16.

[٨٣] Carré, Voyageuers, 2: 13.

[٨٤] Behdad, Belated Travellers, 92, 53–72.

الباردة، والسياسي البريطاني كان مهتمًّا بعناقيد العنب ... والحقيقة أن أحدًا منهم لم يتأثر بمشاهدة منظر الأهرام.»[٨٥] وما يورده ثاكيراي وتوين عن مشهد الأهرام يؤكد أن الاختلاط بالناس تجاوز الاهتمام بالآثار ذاتها.

أما من كانت لهم موهبة الرسم، فقد حملوا معهم إلى بلادهم لوحات ظلت موضوعًا للدراسة لزمن طويل، من حيث موضوعها وليس أسلوبها، وتحديد نوعها: الكلاسيكية الجديدة، والرومانسية، والواقعية، والانطباعية، وما بعد الانطباعية، وغيرها، فقد جرت أيدي هؤلاء برسم «الشرق». وكان بعضهم لم يزُر أيًّا من بلاده، وبعضهم الآخر — مثل يوجين ديلاكروا — زار بلادًا كثيرة ليس من بينها مصر. ومن بين رسامي الشرق الذين استمدوا إلهامهم من مصر: برز البريطانيان دافيد روبرتس، وجون فردريك، والفرنسيان جيروم، ويوجين فورمانتان. وقد استخدمت ليندا نوكلين منهج إدوارد سعيد في تحليل الرسم الاستشراقي ولكن جون ماكنزي يحذر من التوسع في إدانة الفنانين المستشرقين.[٨٦]

وبعد منتصف القرن التاسع عشر، بدأ التصوير الفوتوغرافي يتحدى الرسم كوسيلة من وسائل نقل المشاهد التي يراها السائح إلى الوطن. وعندما أعلن لوي داجير في باريس عام ١٨٣٩م عن طريقته لالتقاط الصور على ألواح نحاسية مكسوَّة بالفضة، وردَت مصر على الفور في ذهن العلماء: «لو كانت لدينا هذه الطريقة عام ١٧٩٨م، لكنا نضع أيدينا اليوم على سجلات مصورة دقيقة مما حُرم منه الوسط العلمي العالمي نتيجة طمع العرب وعدوان بعض السياح ... ولاستطعنا أن نصور الملايين من النصوص الهيروغليفية التي تغطي فقط واجهات المعابد في طيبة ومنف والكرنك التي يحتاج تسجيلها إلى عشرين عامًا ومجموعات عديدة من الرسامين، وهو عمل يستطيع القيام به الآن رجل واحد ... وسوف تتفوق الصور الجديدة والألوان المحلية على عمل أكثر الفنانين مهارة.»[٨٧]

---

[٨٥] Thackeray, Notes, 717; Thackeray, Innocents Abroad or the New Pilgrim's Progress (New York, 1929), 509–17.

[٨٦] Linda Nochlin "The Imaginary Orient", Art in America (May 1983), 118–31, 187–91; John MacKenzie, Orientalism: History, Theory, and the Arts (Manchester, 1995), 43–70.

[٨٧] Kathleen Stewart Howe, ed., Excursions along the Nile: The Photographic Discovery of Ancient Egypt (Santa Barbara Museum of Art, 1993), 22–23; see also Deborah Bull and Donald Lorimer, Up the Nile: A Photographic Excursion: Egypt 1839–1898 (New York, 1979); Carney E. E. Gavin, The Image of the East: Nineteenth-Century Near Eastern Photographs by Bonfils from the Collections of Harvard Semitic Museum (Chicago, 1982).

وفي خريف نفس العام (١٨٣٩م) جاء إلى مصر فردريك جروبل فسكوبه وبصحبته رسامه هوراسفينيه، وانضم فسكوبه إلى السويسري بيير جولي ديلو بتنييه حيث قاما باستخدام طريقة داجير في التقاط الصور الفوتوغرافية بمصر وفلسطين، ونتج عن ذلك نسخة موجبة محفورة. ونشر نيقولا ليريبور كتاب «رحلات مصورة بطريقة داجير (١٨٤٠–١٨٤٤م)»، واعتمد هيكتور — هورو في كتابه «بانوراما مصر والنوبة» (١٨٤١م) على مصورات جولي بطريقة داجير.

كما أعلن عام ١٨٣٩م — أيضًا — عن الطبع الحراري الذي أنتج عدة نسخ موجبة من ورق سالب مبلل، أمام «الجمعية الملكية» بلندن. وأوفدت الحكومة الفرنسية — فيما بعد — ماكسيم دي كامب الذي قام برحلة بصحبة صديقه جوستاف فلوبير لالتقاط صور حرارية نشرها عام ١٨٥٢م في كتابه «مصر والنوبة وفلسطين وسوريا». وقدَّم المصور الحراري فليكس تينار كتابه «مصر والنوبة» (١٨٥٤–١٨٥٨م) باعتباره تحية فوتوغرافية لكتاب «وصف مصر».

وأدى اختراع عملية الكولوديون المبلل على الزجاج (عام ١٨٥١م) إلى تشجيع المحترفين على إنتاج صور فوتوغرافية في متناول القدرة الشرائية لأبناء الطبقة الوسطى، واستخدم فرانسس فربث هذه الطريقة الجديدة في ثلاث رحلات قام بها إلى الصعيد في أواخر الخمسينيات. وفي عام ١٨٦٢م، اصطحب ولي عهد إنجلترا — أمير ويلز — معه في رحلته النيلية المصور فرانسس بيدفورد، وافتتح أنطونيو بيتو استوديو بالأقصر لبيع الصور للسياح، وبدأت عائلة بونفيل بيع الصور المصرية عام ١٨٧٠م. ولم يرِد بدليل موراي عام ١٨٥٨م أي ذكر لمصورين أو محلات لبيع الكتب بمصر، ولكن طبعة عام ١٨٧٣م تذكر أوتو شوفت وهيبوليت دي ليل كمصورين بالقاهرة، وتزكِّي شركة باسكال سيبا ومحلين لآخرين لبيع الكتب باعتبارها أماكن لتوزيع مطبوعات فريت.

وجلبت التسعينيات معها بطاقة البريد التي تباع ببنس واحد بعد أن كانت تباع بشلن واحد، كما جلبت آلة تصوير كوداك المحمولة باليد وأفلامها الحرارية، وأصبح باستطاعة أيٍّ هاوٍ يحمل تلك الآلة أن يلتقط صورًا، يحمِّضها ويطبعها فيما بعد عودته لبلاده.[٨٨]

---

[٨٨] John M. MacKenzie, Propaganda and Empire: The Manipulation of Public Opinion, 1880–1960 (Manchester, 1984) 19–21; see also Frank Staff, Picture Postcards and Travel: A Collector's Guide (Guideford, England, 1979), 44.

وقد تعددت استخدامات التصوير الفوتوغرافي — بالطبع — خارج مجال صناعة السياحة. وقبل نهاية القرن بسنوات، بدأ علماء المصريات والآثار في استخدامه في عملهم، وأصبح التصوير الفوتوغرافي أداة أساسية للتنقيب العلمي عن الآثار في أوائل القرن العشرين.

صناعة السياحة، توماس كوك وولده

«السلطان صاحب السيادة الإسمية على مصر، أما السيادة الحقيقية فللُّورد كرومر، والخديو هو الحاكم الاسمي للبلاد، أما حاكمها الحقيقي في نهاية الأوبرا الهزلية فهو توماس كوك وولده.»

(اقتباس من ستيفنس،
أورده جون بادني في كتابه: توماس وولده)

جاء مولد جون موراي الثالث، وتوماس كوك (١٨٠٨–١٨٩٢م) في العام ١٨٠٨م، ليجعل من ذلك العام عامًا ميمونًا بالنسبة لمستقبل السياحة.[٨٩] عاش كوك طفولةً شقيةً صعبة، ولم ينل سوى تعليم عامٍّ محدود. وفي العام ١٨٤١م، افتتح مطبعة في ليستر لطباعة بعض كتيبات النصائح الخلقية الدينية، وقاد رحلته الأولى بالقطار لمجموعة من أصحاب ذلك الاتجاه الديني لحضور سباق كان يجرى على بعد ١١ ميلًا من ليستر. وشهد نفس العام ظهور طبعة برادشو لجداول مواعيد القطارات وتأسيس شركات سوف يقدر لها أن تنمو لتصبح «شركة خط كونارد»، وشركة الأمير كان إكسبريس (شركة ويلز فارجو).[٩٠]

وحمل كوك عقيدته الإنجيلية المعمدانية معه إلى مجال السياحة محاولًا أن ينظم رحلات للتهذيب الخلقي تضم عملاء من مختلف الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعي قدر الإمكان، فنظم رحلة لعمال وسط إنجلترا لزيارة «المعرض الكبير» بلندن ١٨٥١م وبعد ذلك بأربع سنوات عبَرت رحلاته القنال الإنجليزي لزيارة معرض باريس. وفي عام

[٨٩] G. W. Steeven quoted in John Pudney, The Thomas Cook Story (London, 1953), 212.

[٩٠] Brendon, Cook, 12.

١٨٦٤م قاد أول مجموعة سياحية عبر الألب إلى إيطاليا، ونقل مقر نشاطه إلى «فليت ستريت» بلندن. وفي الستينيات شملت رحلات كوك إلى سويسرا رجال دين، وأطباء، ومصرفيين، وموظفين، وتجارًا، ورجال صناعة من ذوي الدخول المتوسطة التي تراوحت بين ٣٠٠–٦٠٠ جنيه في العام. وما كادت الحرب الأهلية الأمريكية تضع أوزارها، حتى شرع توماس كوك يستكشف السوق السياحية عبر الأطلنطي. وفي العام ١٨٦٩م نظَّم أول رحلة إلى مصر وفلسطين، ضمَّنها مشاهدة حفلات افتتاح قناة السويس. وتبع بمجموعته من السياح أمير ويلز في رحلته إلى الصعيد، وذلك في باخرتين قام بتأجيرهما لهذا الغرض. وباستكمال مد السكك الحديدية عبر أمريكا في نفس العام، ومد الخط الحديدي بومباي — كلكتا بعد ذلك بقليل هيأ الفرصة لكوك لتنظيم رحلة حول العالم في ٢٢٢ يومًا عام ١٨٧٢-١٨٧٣م، وربما كانت هذه الرحلة مصدر إلهام للكاتب الفرنسي جول فيرن، الذي كان كتابه «حول العالم في ثمانين يومًا» يُنشر منجَّمًا على صفحات جريدة «الطان Temps».

كانت الرحلات الطويلة في القرن الثامن عشر قاصرة على الرجال وحدهم، وضمَّت المجموعات في رحلات توماس كوك العائلات؛ معلنًا نفسه «وصيفة السفر للنساء اللاتي يفتقرن إلى الحماية». (كانت المجموعة التي ورد ذكرها في القصة القصيرة لأنتوني ترولوب «أنثى بلا حماية في الأهرامات» قد وصلت قبل أن تصبح خدمات كوك متاحة بعدة سنوات).[٩١] وقد أطلق دليل ويلكنسون تحذيرًا عام ١٨٤٣م «عندما تكون هناك نساء في الرحلات النيلية، لا بد أن يرتدي المراكبية سراويل طويلة، ويؤمرون بألا يخلعوها عند النزول في الماء.» وقد صُدمت مجموعة كوك الأولى في الرحلة النيلية عندما شاهدوا رهبان أحد الأديرة يستحمون في النيل عرايا، وطُلب من النساء أن يمكثن في داخل الباخرة حتى يتم عبور تلك المنطقة.[٩٢]

وبدأ جون ماسون كوك (١٨٣٤–١٨٩٩م) مساعدة أبيه توماس في عمله منذ صباه، ولم يتجاوز في تعليمه المرحلة الابتدائية، وقد آمن جون بأن يكون العمل بالسياحة من أجلها وحدها دون أن يتضمن غرضًا دينيًّا، وقد اصطدم بوالده صدامًا عنيفًا،

---

٩١ Brendon, Cook; and Anthony Trollope, "An Unprotected Female at the Pyramids", The Complete Shorter Fiction, ed. Julian Thompson (New York, 1992), 82–103.

٩٢ Wilk. 1843, 1: iv; Brendon, Cook, 124; Buzard, Beaten Track, 148–50.

وأجبره على التقاعد غير الرسمي عام ١٨٧٨م، وأدى ذلك إلى إطلاق يد الشركة في تنظيم رحلات للأثرياء والأرستقراطيين، والأمراء من أعضاء الأسرة المالكة، الذين كانوا يتندَّرون ويسخرون من مجموعات كوك التي ضمت محدودي الدخل. وفي العام ١٨٨٥م أقام كوك فرعًا للنشاط في مجال مربح آخر هو فرع «الحج» لتنظيم رحلات الحج للهنود المسلمين إلى مكة.

وعلى صعيد السياحة البريطانية في إقليم البحر المتوسط، جاءت مصر في المركز الثالث بعد فرنسا وإيطاليا — قياسًا بعدد طبعات كتب الدليل السياحي — ولكنها سبقت اليونان وفلسطين وإسبانيا والجزائر. وفي عام ١٨٥٨م كان دليل ويلكنسون/موراي يُطبع للمرة الرابعة عندما أصدر موراي دليل فلسطين وسوريا. وعند قيام الحرب العالمية الأولى كان موراي وبايدكر معًا قد أصدرا إحدى عشرة طبعة من كتب الدليل السياحي عن اليونان، واثنتي عشرة طبعة عن إسبانيا ولم ينشر كوك شيئًا. وأصدرت الشركات الثلاث معًا ١٦ طبعة عن فلسطين قبل الحرب، وهي قليلة قياسًا بمصر التي صدر من كتب الدليل السياحي عنها ٢٥ طبعة، وعن إيطاليا ١٠٦ طبعة.[٩٣]

وحققت رحلات كوك الشتوية في شرقي المتوسط توازنًا مع رحلاته الصيفية إلى أوروبا. وفي عام ١٨٩٢م، بدأ جون ماسون كوك يزود عملاءه بدليله السياحي للبحر المتوسط بما في ذلك مصر.[٩٤] وقد ذكرنا — فيما سبق — أن كوك كلَّف بادج عالم المصريات بإعداد دليل سياحي لمصر، وافتتح كوك مكاتب له في فندق شيبرد بالقاهرة، وفي يافا عام ١٨٧٣م، ولكن رحلات فلسطين وسوريا كانت لا تزال تتم في مخيمات، وكان الانتقال بالجياد؛ ولذلك كانت متخلفة كثيرًا عن مصر.

وفي العام ١٨٧٠م — الذي حصل فيه كوك من الخديو إسماعيل على امتياز النقل النيلي — قام كوك بتشغيل باخرة و١٣٦ دهبية في رحلات الصعيد، وبعد عشرين عامًا أصبح عدد البواخر ١٥ باخرة، وعدد الدهبيات ٣٠ دهبية.

وفي العام ١٨٨٠م، وقَّع علي مبارك — ناظر الأشغال العمومية — على امتياز قصري يعطي كوك الانفراد بنقل الركاب بالبواخر على خط القاهرة-أسوان-وادي حلفا في

٩٣ Brendon, Cook, 120; Pemble, Mediterranean, 49.

٩٤ Rev. J. Burns, Helpbook for Travellers to the East including Egypt, Palestine, Turkey, Greece and Italy, with tourist arrangements by Th. Cook (London, 1872).

الموسم السياحي (نوفمبر–مارس)، وبموجب هذا الامتياز التزمت الحكومة بتوفير البحارة والصيانة لسبع بواخر، والتزم كوك بتقديم ١٥٠ راكبًا من القاهرة إلى أسوان، و٦٠ راكبًا من أسوان إلى وادي حلفا في كل موسم، فإذا لم يوفِّ بذلك تعرَّض للغرامة.[٩٥]

وقد برهن امتياز كوك على أنه كان نذيرًا بوقوع الاحتلال البريطاني بعد ذلك بعامين. فبعد هزيمة عرابي في معركة التل الكبير بسبعة أسابيع، قام جون ماسون كوك بزيارة موقع المعركة مباركًا للضباط الإنجليز. واعتبارًا من العام ١٨٨٥م، كان يقضي جانبًا كبيرًا من الشتاء بمصر، وتحوَّل من تأجير البواخر والدهبيات إلى امتلاك أسطوله الخاص منها، فاشترى أربعًا من بواخر الدرجة الأولى في ١٨٨٦–١٨٨٧م، وفي العام التالي أنشأ ترسانة للصيانة ببولاق. وأدى ذلك إلى إفلاس شركة النقل النيلي السياحية المنافسة «هنري جيز» بعد وفاة صاحبها عام ١٨٩٠م بوقت قليل، وضمن كوك في الموسم السياحي المنتهي في مارس ١٨٩٥م «٧٤٢ سائحًا» حجزوا أماكنهم على بواخره النيلية.[٩٦]

وقد أطلق كوك اسم الفرعون «رمسيس» على واحدة من بواخره الجديدة الأربع، أما الأخريات فسماهن: «توفيق» و«البرنس عباس»، و«البرنس محمد علي»،[٩٧] وفي العام ١٨٩١م نظَّم كوك رحلة نيلية للخديو توفيق من أسيوط إلى الشلال الثاني ذهابًا وإيابًا. وعند وصوله إلى الأقصر قام توفيق بافتتاح مستشفى الأقصر الخيري لعلاج أبناء الأقصر الذي أقامته الشركة.[٩٨]

وعندما مات توفيق عام ١٨٩٢م، سار بحارة كوك في جنازته، ونعتْه صحيفة الشركة (الرحالة) «لتحرره من التدخل، وولائه لأعز أصدقائه؛ بريطانيا». وعلَّقت الصحيفة الآمال على ولده عباس الثاني الذي قضى خمس سنوات بأوروبا، ونُشرت صورة له وأخيه مع توماس كوك عندما قاما بزيارة إنجلترا عام ١٨٨٦م.[٩٩]

وقامت بواخر كوك بنقل شارلز جوردون من نهاية الخط الحديدي عند أسيوط، في رحلته المصيرية إلى الخرطوم، ونقلت ولسلي في مهمته الفاشلة لنجدة جوردون، ووضعت

[٩٥] Thomas Cook Archives, Egypt (General), Nile Fleet, Nile Hotels, Boulac, 9 July 1880.

[٩٦] Swinglehurst, Cook’s Tours, 97.

[٩٧] Thomas Cook Archives, The Excursionist, 12 Sep. 1887, 3; and 1 February 1888.

[٩٨] Luxor Hospital For Natives in Upper Egypt, Leaflet.

[٩٩] The Excursionist, 12 Sep. 1887; and, February 1892, 7.

كل إمكانات النقل النهري لديها في خدمة حملة كتشنر لاسترداد السودان. وفي العام ١٨٩٨م، أرهق جون ماسون كوك نفسه في قيادة رحلة القيصر فيلهلم الثاني (حفيد الملكة فيكتوريا) إلى الأراضي المقدسة. ومات سيد السياحة الذي كان يعمل فوق طاقته بعد عودته من تلك الرحلة إلى إنجلترا. وقام فرانك وإرنست كوك، ولدا جون كوك، بإدارة أعمال الشركة التي ظلت بيد العائلة لجيلٍ آخر قبل أن تنتقل ملكيتها عام ١٩٢٨م إلى شركة عربات النوم الدولية البلجيكية.

ويرى أحد المؤرخين أن «تأثير كوك في مصر كان خيرًا خالصًا، فقد جلب لمصر مجالًا جديدًا، وأتاح فرصة العمل لعدد كبير من المصريين.» ولا يتفق هذا مع رأي المويلحي في «حديث عيسى بن هشام» الذي أوردناه في بداية هذا الفصل. ويستخلص بيمبل رؤيته لسياحة البحر المتوسط في العصرين الفيكتوري والإدواردي: «من المؤسف أن نقر بأن مستوى حسن النوايا والتفاهم الدولي ما كان ليهبط إلى هذا الحد، وربما ارتفع، لو بقي الإنجليز في بلادهم يزرعون حدائقهم.»[١٠٠] وسواء كان ما فعله توماس كوك نافعًا أو خبيثًا، فإن صناعة السياحة التي أقامها كوك بمصر جاءت لتبقى، وليكون لها دور كبير في حياة مصر في القرن العشرين، حتى إن البطريرك القبطي كيرلس السادس بدأ حياته العملية كاتبًا بشركة كوك.[١٠١]

واعتبر أوجست مارييت السياح الأوروبيين الذين تدفقوا على مصر بأعداد متزايدة، اعتبرهم جمهوره. ويعالج الفصل الثالث إنجاز مارييت في تأسيس مصلحة الأنتكخانة والمتحف المصري. وبدأ المصريون أيضًا يُبدون اهتمامًا بالحضارة الفرعونية التي خلبت لب الأوروبيين، ويعالج الفصل أيضًا محاولات الطهطاوي وعلي مبارك وعالم المصريات الألماني هنريش بروجش لجعل دراسة المصريات وتاريخ مصر القديم متاحة للمصريين.

١٠٠ Pundey, Cook, 212; Buzard, Beaten Path, 335; Pemble, Mediterranean, 274.

١٠١ Otto Meinardus, Two Thousand Years of Coptic Christianity (Cairo, 1999).

الفصل الثالث

علم المصريات في عصر إسماعيل مارييت والطهطاوي وبروجش (١٨٥٠–١٨٨٢م)

«وعلى تلك الأحجار كتابة بخط المعبد القديم الذي لا يستطيع المصري قراءته، ولكن بعض الفرنجة حل ألغازه في القرن «الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي» إلى حد ما.»

(الطهطاوي: أنوار توفيق الجليل
في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل)

بعد أقل من عامين من كتابة الطهطاوي لتلك العبارات، قرَّت عينه بمشاهدة افتتاح مدرسة بالقاهرة لتعليم المصريين قراءة اللغة المصرية القديمة (مدرسة اللسان المصري القديم)، وأسندت نظارتها إلى عالم المصريات الألماني المرموق هنريش بروجش. ولكن عداء مارييت للمدرسة كان السبب الرئيسي وراء إغلاقها بعد خمس سنوات من افتتاحها، ولكن بعد أن تمكنت المدرسة من وضع أحمد كمال وزميل أو زميلين بعده، على طريق المصريات.

وخلال تلك السنوات من عهدَي سعيد وإسماعيل، كان مارييت يقيم أركان مصلحة الأنتكخانة والمتحف المصري، ولكن الإشادة به كمؤسس لهما، تُغفل المحاولة التي ارتبطت بمحمد علي والطهطاوي عام ١٨٣٥م، وهي محاولة لم يقدَّر لها النجاح.[١] وعلى كلٍّ، فقد

---

[١] Mohamed Saleh and Hourig Sourouzian, The Egyptian Museum Cairo: Official Catalogue (Cairo, 1987), 9.

وعلى كلٍّ، أشار هذا الكتالوج إلى الجهود الأسبق.

كان على ماريت أن يبدأ من جديد عام ١٨٥٨م. ويشكِّل جهد ماريت الإطار الزمني لهذا الفصل، فقد وصل إلى مصر عام ١٨٥٠م، وتوفي بها في يناير ١٨٨١م، قبل وقوع مصر تحت الاحتلال البريطاني بعام ونصف العام. ويبين الجدول ٣-١ علماء المصريات الأوروبيين في ذلك العصر ومقابلهم من المصريين:

جدول ٣-١: علماء المصريات الناشطون فيما بين ١٨٥٠م و١٨٨٢م

الأوروبيون	المصريون	الحكام ومدة حكمهم
ويلكنسون ١٧٩٧–١٨٧٥م	رفاعة الطهطاوي ١٨٠١–١٨٧٣م	عباس الأول ١٨٤٨–١٨٥٤م
ليمانز ١٨٠٩–١٨٩٣م	يوسف حككيان ١٨٠٧–١٨٧٥م	سعيد ١٨٥٤–١٨٦٣م
دي روجيه ١٨١١–١٨٧٢م	محمود الفلكي ١٨١٥–١٨٨٥م	
ماريت ١٨٢١–١٨٨١م	علي مبارك ١٨٢٣–١٨٩٣م	
بروجش ١٨٢٧–١٨٩٤م		إسماعيل ١٨٦٣–١٨٧٩م
إميليا إدواردز ١٨٣١–١٨٩٢م		
دويمشن ١٨٣٣–١٨٩٤م		
إيبرز ١٨٣٧–١٨٩٨م		
نافيل ١٨٤٤–١٩٢٦م		
جريبو ١٨٤٦–١٩١٥م	أحمد نجيب ١٨٤٧–١٩١٠م	توفيق ١٨٧٩–١٨٩٢م
ماسبيرو ١٨٤٦–١٩١٦م	أحمد كمال ١٨٥١–١٩٢٣م	

وخلال تلك السنوات، كانت الأمَّتان القديمتان الجديدتان: اليونان وإيطاليا، قد وضعتا الحفائر الأثرية تحت رقابة الدولة، وقامتا ببناء متاحفهما الوطنية. وعلى نقيض ذلك، كانت مصر الواقعة على الجانب الآخر الإسلامي من البحر المتوسط مهيأة للوقوع في براثن الهيمنة الأوروبية، وكان ماريت — شأنه في ذلك شأن غيره من الموظفين الأوروبيين — يعمل في خدمة حكومة الخديو، وهو أيضًا مواطن مخلص لدولة إمبريالية تسعى باطراد لتقويض دعائم الاستقلال الذاتي الذي تمتعت به مصر.

وفي نفس الوقت، قامت المتاحف الوطنية في باريس، ولندن، وبرلين، ونيويورك، تعبيرًا وتجسيدًا للرأسمالية الصناعية، والقومية، والديمقراطية. وفي مصر — كما في المستعمرات — كان تأسيس مصلحة الآثار (الأنتكخانة) والمتحف أداة للاختراق والسيطرة الأوروبية، وإن كانت هناك أدوات أكثر وضوحًا، لذلك الاختراق والسيطرة تمثلت في السكك الحديدية والبواخر، وقناة السويس، وخطوط البرق، وتجارة القطن، والديون الدولية، والسياحة، والنشاط التبشيري، والامتيازات الأجنبية، والمحاكم المختلطة، والقوة العسكرية الغربية، غير أن المتاحف في البلاد المستعمرة أو شبه المستعمرة مثل مصر لم تكن — بصورة قطعية– «أداة استعمارية». فقد شجع الأوروبيون على إقامتها وزيارتها لدوافع متعددة، وكذلك فعل المصريون.

وقد نضجت الأسواق الدولية التي تقدم ساحات أرحب للعرض مما يتاح في المتاحف، بعد «معرض لندن الكبير» عام ١٨٥١م بعقد من الزمان، فتناقضت أجور السفر نتيجة ابتداع سياحة المجموعات على يد توماس كوك، وتم تمثيل مصر بعصورها الفرعونية والإسلامية والحديثة في كل الأسواق والمعارض الدولية على مدى العقود الستة التالية. ولكن، تُرى، من مثَّل مصر في تلك المعارض التي تعبر عن احتفاء الغرب بالقومية، والإمبريالية، والرأسمالية الصناعية، والنزعة الاستهلاكية، وماذا كان الغرض من تمثيلهم لها، وما ترتب على ذلك من نتائج؟ نظَّم مارييت جناح مصر في معرضين دوليين بباريس، وقام بإرسال المعروضات إلى معارض لندن، وفيينا، وفيلادلفيا وساعد في توجيه الاحتفالات الكبرى الفخمة بافتتاح قناة السويس. وبعد الاحتلال البريطاني لمصر أصبحت مصر تمثل في المعارض والأسواق الدولية من خلال منظمين ووكلاء أوروبيين وشوام ممن يعملون على تسويق «الشرق» للمستهلكين في الغرب.

وحتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت الجمعيات العلمية والمتاحف، ودوائر الأثرياء المنتفعين هم الذين يوفرون الرعاية لعلماء المصريات بأوروبا. وفي النصف الثاني من القرن أصبحت «المصريات» تخصصًا أكاديميًّا بفضل ريادة الجامعات الألمانية في هذا المجال. وفي مصر — التي لم تقم بها جامعة على الطراز الغربي إلا بعدما يزيد على نصف القرن — أقام الخديو، وناظر المدارس علي باشا مبارك مدرسة متخصصة في علم المصريات (مدرسة اللسان المصري القديم)، وكتب الطهطاوي كتابًا بالعربية في تاريخ مصر القديم، واهتم علي مبارك في موسوعته «الخطط التوفيقية» بلفت الأنظار إلى المواقع الأثرية الفرعونية. واتخذت جريدة «الأهرام» — كبرى الجرائد العربية حتى اليوم —

اسمها وشعارها، وحمل كل طابع بريد صدر فيما بين ١٨٦٧ و١٩١٤م الهرم وبجواره أبي الهول رمزًا لمصر.

وظهرت في مصر جمعيتان علميتان هيمن عليهما الأوروبيون، هما: «المجمع العلمي المصري» الذي تأسس بالإسكندرية عام ١٨٥٩م، و«الجمعية الجغرافية الخديوية» التي تأسست بالقاهرة في ١٨٧٥م لدعم نشاط إسماعيل التوسعي في أفريقيا، وإن كانت الهيمنة الأوروبية في الجمعية الأخيرة أقل وطأة، وقد لعبت الجمعيتان دورًا في تعزيز دور المتحف ومصلحة الآثار في نشر ثمار علم المصريات، وشارك أعضاء الجمعيتين في مؤتمرات الاستشراق والجغرافيا التي بدأت تُعقد في أوروبا — بانتظام — منذ السبعينيات. وكان الكثير من المصريين يصرفون جُلَّ اهتمامهم إلى الثقافة العربية الإسلامية، ولكن رفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك، ومحمود الفلكي شجعوا مواطنيهم على ولوج باب هذه الجمعيات ذات الطابع العلمي رغم سيطرة الغربيين عليها، لكونها قنوات ضرورية لنشر المعرفة.

النهضة المبتسرة في عهد إسماعيل

بلغت الرعاية الرسمية للنهضة العربية ذروتها في عصر إسماعيل (١٨٦٣–١٨٧٩م)، وقد أدت الكوارث المالية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية التي حاقت بمصر في السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل إلى خلعه، وجاءت الثورة العرابية والاحتلال البريطاني، فحجبت تلك الأحداث الإنجازات الثقافية التي حققتها نخبة صغيرة. لقد ارتكب إسماعيل العديد من الأخطاء، ولكن إذا وضعنا في اعتبارنا أن الإمبراطوريات الأوروبية كانت تضم إلى حظيرتها بلادًا في كل عام — فيما بين ١٨٧١ و١٩١٤م — تبلغ مساحة كل منها ما يعادل مساحة فرنسا،[٢] فإن إلقاء مسئولية الكارثة التي حدثت على عاتق إسماعيل وحده يصبح نوعًا من التضليل.

---

[٢] Michael Adas, Machines as the Measure of Men: Science, Technology and Ideologies of Western Dominance (Ithaca, N.Y. 1989); see also F. Robert Hunter, Egypt under the Khedives: From Household to Modern Bureaucracy (Pittsburgh, 1984):

انظر أيضًا: عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، ط ٢ (القاهرة ١٩٤٨م).

بدأ سعيد السير على طريق الاستدانة من أوروبا — المحفوف بالمخاطر — شأنه في ذلك شأن الحكام من معاصريه في إستانبول وتونس. وأدى حصار الشمال لموانئ الجنوب في الحرب الأهلية الأمريكية إلى الارتفاع الكبير في أسعار القطن المصري عند بداية عهد إسماعيل؛ مما أدى إلى وجود شعور وهمي بالرخاء. ولما كان إسماعيل شديد الميل للظهور بمظهر الحاكم المستنير الذي يسير على النهج الأوروبي، فقد أراد أن يحقق كل شيء دفعة واحدة: يقيم إمبراطورية أفريقية، ويستكمل مشروع قناة السويس، ويقيم قاهرة على النمط الباريسي، ويبني قصر عابدين وغيره من القصور، ويشق الترع للري، ويمد الخطوط الحديدية، وينظم المدارس الحكومية، ويبسط سيطرته على المحاكم. وبرهن الموظفون الأوروبيون الذين استخدمهم إسماعيل للاستفادة بخبرتهم في المصالح الخاصة بالشرطة (الضبطية)، والبريد، والسكك الحديدية، والبرق، والمحاكم المختلطة، والجيش؛ برهنوا على أنهم كانوا ركائز مهدت الطريق للإمبريالية. وعندما حان موعد سداد الاستحقاقات، لم يجد إسماعيل مفرًّا من بيع حصة مصر في أسهم شركة قناة السويس — التي كلفتها غاليًا — إلى بريطانيا؛ تلك الصفقة التي أوقفت — إلى حينٍ — التدهور نحو الإفلاس.

إن البحث عن جذور النهضة في القرن التاسع عشر في أعمال علماء الأزهر مثل حسن العطار،[٣] وربما الجبرتي، يعد تصحيحًا للفكرة الشائعة عن دور الغرب الحركي في إيقاظ الشرق الراكد. ولكن مع تعاقب عقود القرن، لم تزدهر النهضة في الأزهر، ولكنها ازدهرت في المجالات الجديدة أو القديمة التي تم إصلاحها مثل الصحافة، والمدارس الأميرية، ومدارس الإرساليات التبشيرية والبعثات التعليمية التي أوفدت إلى أوروبا، ومكاتب البرق، وقلم الترجمة، والقضاء، والمحاماة، وتجارة التصدير. فالطهطاوي، وعلي مبارك، ومحمود الفلكي كانوا نتاجًا لإصلاحات محمد علي التعليمية، كما كانوا وراء ما تحقق بعد ذلك من تغيير.

إن التحرك الذي قادته بريطانيا في ١٨٤٠–١٨٤١م لِطَيِّ بساط سيطرة محمد علي على الشام، دشن عصر الانكماش الذي استمر طوال عهد عباس الأول، ثم جاء سعيد ليعكس الاتجاه، ويفتح الباب على مصراعيه أمام طلاب الثراء من الأوروبيين، وكان ديليسبس أول من دخل الباب حاملًا مشروع قناة السويس. وجاء المجمع «المجمع

[٣] Peter Gran, Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760–1840 (Austin, Tex., 1979).

العلمي المصري»، ومصلحة الأنتكخانة والمتحف المصري، نتاجًا لتدفق الأوروبيين على مصر، وأصدر إسماعيل أوامره بإقامة المؤسسة الثقافية تلو الأخرى: الكبتخانة الخديوية، والجمعية الجغرافية الخديوية، ودار الأوبرا الخديوية، ومدرسة دار العلوم، وغيرها من المدارس على اختلاف مستوياتها، وقامت محاولة لإصلاح الأزهر، ووجهت بمقاومة من علمائه جعلت إسماعيل، وعلي مبارك يُسقطانه من اعتبارهما في لائحة المدارس التي صدرت عام ١٨٦٧م، والتي كانت حجر الزاوية في النشاط الثقافي في عهده. وحلَّت اللغة العربية محل التركية كلغة رسمية للبلاد، ووصلت الصحافة العربية والأوروبية في مصر إلى درجة من النضج.

وعند نهاية حكم إسماعيل، عبَّرت الصحافة وأعضاء مجلس شورى النواب عن أفكارهم المستقلة. وقام المصلح جمال الدين الأفغاني بالتدريس على هامش الأزهر؛ فالتف حوله الشبان المسلمون من أمثال محمد عبده وسعد زغلول، وكذلك المسيحيون الشوام من الصحافيين. وحملت صحيفة «الجوائب» — التي كان يحررها أحمد فارس الشدياق بإستانبول — إلى مصر أخبار الغليان السياسي في إستانبول الذي أدى إلى صدور الدستور العثماني عام ١٨٧٦م، وقيام التجربة البرلمانية التي امتدت حتى ١٨٧٨م.

وكان الطهطاوي، وعلي مبارك، وأحمد كمال، يمثِّلون أجيالًا مختلفة، ولهم اهتمامهم بعلم المصريات في عهد إسماعيل. فقد تعلَّم من استفادوا بالإصلاح التعليمي في عهد محمد علي؛ تعلَّموا لغة أجنبية واحدة على الأقل؛ لأنها كانت مفتاح الترقي في وظائف الحكومة. وأصبح هؤلاء لا يفكرون في إطار الانتماء الإسلامي فحسب، بل فكروا أيضًا في أمة مصرية تمتد جذورها الفرعونية في أعماق التاريخ.

كان الطهطاوي قد بلغ الثانية والستين من عمره عندما تولَّى إسماعيل الحكم، وكان علي مبارك في الأربعين، بينما كان أحمد كمال تلميذًا في الثانية عشرة من عمره. وكان التعليم المتاح في صبا الطهطاوي هو «الكُتَّاب» والأزهر، ولكن تعيينه واعظًا للبعثة الموفدة إلى باريس عام ١٨٢٦م — كما رأينا — ساعده على أن يضيف إلى ثقافته بعدًا جديدًا مما تعلمه في فرنسا.

وكان والد مبارك — الشيخ الأزهري — يتمنى أن يحذو ولده حذوه، ولكن الصبي علي مبارك فرَّ من أسرته ليلتحق بالمدارس الجديدة بعدما رأى ضابطًا كبيرًا أسمر البشرة مثله، فأدرك أن الوظائف المهمة لم تعد للترك وحدهم. وهكذا شق طريقه في مجال التعليم الحديث: من المرحلة الابتدائية (المبتديان) إلى الثانوية (التجهيزية)، إلى مدرسة

المهندسخانة، إلى المدرسة المصرية بباريس؛ فالأكاديمية العسكرية الفرنسية في متز، ثم قضى عامًا في الخدمة بالجيش الفرنسي.[٤]

اتجهت الحياة العملية لكلٍّ من الطهطاوي وعلي مبارك وجهة مختلفة لبضع سنوات، فقد نفى عباس الأول رفاعة الطهطاوي إلى الخرطوم، وكافأ علي مبارك لقيامه بتقليص نظام التعليم الذي أسهم الطهطاوي في بنائه. وفقد مبارك الحظوة عند سعيد فأرسله للمشاركة في حرب القرم ثم تولَّى مناصب متواضعة تخللتها فترات استيداع قصيرة، بينما أنقذ سعيد رفاعة الطهطاوي وأعاده من منفاه بالخرطوم، وجعله ناظرًا للمدرسة الحربية، ولكن الطهطاوي عانى أيضًا من تقلبات سعيد. وفي عهد إسماعيل لمع نجما علي مبارك والطهطاوي مع اختلاف في الدرجة، فلما كان مبارك صديقًا لإسماعيل منذ أيام الدراسة في باريس، فقد أصبح باشا ووزيرًا (ناظرًا) للأشغال العمومية، والمدارس، والأوقاف، والمواصلات والسكك الحديدية، أما الطهطاوي فلم يتجاوز رتبة البكوية، ولكنه جعل العقد الأخير من عمره منتجًا من خلال إدارته لقلم الترجمة (الذي بعث من جديد)، وتأليفه الكتب الدراسية، والإشراف على تعليم اللغة العربية بالمدارس، وتحرير مجلة «روضة المدارس».

كان رفاعة وعلي مبارك رجلَي النهضة، تحتل «المصريات» عندهما موضع الأهمية وسط العديد من الاهتمامات الأخرى، وقد استطاعا أن يستخدما المدارس لتكوين الجيل الجديد الذي انتمى إليه أحمد كمال ممن أتيحت لهم فرصة التخصص في «المصريات». وقد تعرَّف أحمد كمال على كتب الطهطاوي من خلال دراسته بالمدارس، وكان لمدرسة اللسان المصري القديم الفضل في تخصصه بهذا المجال، وهي المدرسة التي أسسها مبارك في عهد إسماعيل. وعلى عكس هذين الرائدين، تعرَّف أحمد كمال على الغرب من قراءاته ومن الأوروبيين المقيمين في زيارة عابرة. وإذا كانت فرصة اللقاء قد أتيحت للطهطاوي

---

[٤] حول رفاعة الطهطاوي، انظر: صالح مجدي، حلية الزمن في مناقب خادم الوطن: سيرة رفاعة بك رافع الطهطاوي، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٨م)؛ أحمد بدوي؛ رفاعة رافع الطهطاوي، ط ٢، (القاهرة ١٩٥٩م). وحول على مبارك، راجع سيرته الذاتية في موسوعته: الخطط التوفيقية الجديدة، ٢٠ مجلدًا (القاهرة ١٣٠٥هـ/١٨٨٦–١٨٨٧م)، ٩: ٣٧–٦١. وانظر أيضًا: Anouar Louca, Voyageurs et écrivains وكذلك: Gilbert Delanoue, Moralistes et Politiques Musulmans dan l’Egypte.

وكمال لكان مثل هذا اللقاء جسرًا يربط قرنًا يبدأ بانتباه الطهطاوي إلى أهمية الآثار في العشرينيات، وإعادة تأسيس مدرسة المصريات المصرية عام ١٩٢٣م، وهو العام الذي شهد وفاة أحمد كمال. وعاش كمال حياته العملية في عهد الاحتلال البريطاني،[٥] وهو ما سنتناوله في الفصل الخامس.

إعادة تأسيس مصلحة الآثار (الأنتكخانة)

وُلد مارييت في بولون-سير-مير عام ١٨٢١م، بعد مولد مبارك بعامين، وعندما بلغ الحادية عشر من عمره مات شامبليون. وقام جاك-جوزيف شامبليون فيجي بنشر العمل المتميز وغير المكتمل الذي تركه أخوه الأصغر دون أن يحقق تقدمًا في دراسة فقه اللغة المصرية القديمة، ومات كل من نستورلوت وروسيلِّيني في أعقاب وفاة شامبليون. وقام ليون دوبوا — خليفة شامبليون في اللوفر — بقطع الصور الملونة للآلهة من إحدى البرديات وقام بتأطيرها، مهملًا النص باعتباره نفاية لا لزوم لها. ولكن إيمانويل دي روجيه — الذي أصبح أمينًا للقسم المصري باللوفر عام ١٨٤٩م — ومارييت، استطاعا عند منتصف القرن أن يعيدا الفرنسيين إلى مكانهم في علم «المصريات».[٦]

حصل مارييت على شهادة الثانوية (البكالوريا) الأدبية، وعمل بالتدريس، والصحافة، ولكن وراثته لأوراق قريبه نستور لوت حولت اتجاهه نحو «المصريات»، فصرف سبع سنوات في كفاح متصل لدراسة القبطية والهيروغليفية بشكل إقليمي منعزل حتى نال وظيفة متواضعة باللوفر عام ١٨٤٩م. ولما كان متحف اللوفر ينظر بعين الحسد إلى مجموعة المخطوطات القبطية التي جلبها — في الثلاثينيات — روبرت كيروزون وهنري تاتام إلى المتحف البريطاني، فقد أوفد مارييت إلى القاهرة عام ١٨٥٠م للبحث عن

[٥] حول سيرة أحمد كمال، راجع: المقتطف، العدد ٦٣ (نوفمبر ١٩٢٣م)، ص٢٧٣–٢٧٧؛ وتوفيق حبيب، «تاريخ الكشف عن الآثار المصرية وأعمال المرحوم أحمد كمال باشا»، الهلال، ٣٢ (نوفمبر ١٩٢٣م)، ص١٣٥–١٤١؛ وزكي فهمي، صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير الرجال في مصر، مجلدان، (القاهرة ١٩٢٦م)، ج ١، ٣٣١–٣٣٦.

[٦] On L’Hôte, Rosellini, Dubois and de Rougé, see Who Was Who, 3: 253–254, 362–63, 130–31, 365–66.

المخطوطات القبطية القديمة، ولكن البطريرك القبطي كان ما زال يتذكر ما فعله كيروزون وتاتام، فرفض التعاون مع مارييت.[٧]

فقامر مارييت بما كان معه من مخصصات مالية، كما قامر بمستقبله، بحثًا عن السرابيوم الذي وصفه الرحالة اليوناني إسترابو، فراح يقتفي أثر تماثيل أبي الهول التي عثر عليها في سقارة، والتي شاهدها في الحدائق الأوروبية بالإسكندرية والقاهرة، وقام بالتنقيب في طريق أبي الهول الذي يقود إلى مقبرة عجول أبيس. وبلغ حماس الغرفة الفرنسية بباريس حد الموافقة على المخصصات اللازمة لنقل ما تم العثور عليه من آثار إلى اللوفر قبل أن يحصلوا على موافقة عباس الأول على تصديرها. وقد ثارت ثائرة عباس، وأرسل الحراس إلى سقارة لوقف عمليات التنقيب التي يقوم بها مارييت، ويرجع ذلك إلى تحريض القنصل العام البريطاني شالز موراي، والمبشر الإنجليكاني البارون دي هربر، وهم جميعًا من جامعي الآثار. فكلف مارييت أحد مساعديه بصناعة لوحات قرابين مقلدة لإقناع عباس بتنفيذ أوامره، واستمر في التنقيب سرًّا في الليل. وأخيرًا استطاع أرنو ليموين القنصل الفرنسي العام أن يصل مع الباشا إلى حل وسط، يستطيع مارييت بموجبه أن يرسل إلى اللوفر ٥١٥ قطعة أثرية، ويستمر في التنقيب، وما يتم العثور عليه مستقبلًا يبقى في مصر.[٨] وقبل أن تنفد مخصصاته المالية عاد مارييت إلى بلاده، ولكنه كان قد اكتشف معبد الوادي الخاص بخفرع بالقرب من تمثال أبي الهول بالجيزة.

وكافأ اللوفر مارييت على جهوده بترقيته إلى وظيفة أمين مساعد بالمتحف، وكان رئيسه دي روجيه في مطلع الأربعينيات من عمره، مما يعني استحالة وصوله إلى منصب الأمين. كان مارييت يعيش أحلام اليقظة مع مغامراته، وقرر تفضيل دراسة الفن على دراسة فقه اللغة. وفي عام ١٨٥٧م انتهز الفرصة ليقوم بالتنقيب عن الآثار لحساب سعيد باشا الذي تولَّى الحكم خلفًا لعباس الأول؛ وذلك حتى يقوم سعيد بإهدائها إلى الأمير نابليون عند زيارته التي يعتزم القيام بها لمصر. وكان سعيد قد أهدى كل ما بقي لدى

[٧] Elisabeth David, Mariette Pacha 1821–1881 (Paris, 1994); Edouard Mariette, Mariette Pacha (Paris, 1904); Auguste Mariette Pach, Le Sérapeum de Memphis (Paris, 1882); On Curzon and Tattam, See Who Was Who, 3: 113, 410–11.

[٨] دار الوثائق القديمة، محافظ الأبحاث، ١١٨ ب آثار، وتتضمن رسائل من لوموين إلى إسطفان بك بهذا الشأن فيما بين ١٨٥١ و١٨٥٢م.

الدولة من قطع أثرية إلى الأرشيدوق ماكسمليان — ولي عهد النمسا — عام ١٨٥٥م «وهي مودعة الآن بمتحف التاريخ القديم بفيينا».[٩] فقد أقنع ديليسبس، والقنصل الفرنسي العام ريمون ساباتييه سعيدًا بأنه يجب ألا يقل كرمه مع فرنسا عما فعله سلفه مع النمسا. وقام سعيد بتجهيز مارييت بباخرة وفريق من عمال السخرة، مما أسعد مارييت، وجعله يقسم العاملين معه إلى فرق قامت بالحفر في الجيزة، وسقارة، وأبيدوس، وطيبة، وإلفنتين في وقت واحد. ووقعت زيارة الأمير نابليون خلال عمليات التنقيب، ولكن سعيد استمر في متابعة العمل، وأهدى كل ما تم اكتشافه من آثار إلى اللوفر.

وبدعم من الإمبراطور نابليون الثالث، ومساندة من جانب ديليسبس وساباتييه، حث نوبار باشا سعيدًا على تكليف مارييت بإعادة تأسيس مصلحة الآثار المصرية، وتولى كوينج بك — الإلزاسي، سكرتير سعيد ومعلمه السابق — تولَّى أمر التفاصيل. ففي أول يونيو ١٨٥٨م، أصبح مارييت «مأمور الأنتيكات» براتب سنوي قدره ثمانية عشر ألف فرنك (أي ما يوازي ٧٢٠ جنيهًا إسترلينيًّا)،[١٠] وذلك قبل عام من قيام ألكسندر كاننجهام بتأسيس الإدارة الخاصة بالآثار في الهند.[١١] وقد تنوعت الأسماء التي أُطلقت على مصلحة الآثار المصرية فهي: مصلحة الأنتيكات، ومصلحة الأنتكخانة، ومصلحة الآثار. وأنعم الوالي على مارييت برتبة البكوية من الدرجة الثانية، وأعطاه حق الانفراد بإجراء الحفائر الأثرية، وخصص له باخرة نيلية، ومنحه سلطة تسخير كل ما يحتاج إليه من الأيدي العاملة، وعلق ماسبيرو على ذلك ساخرًا:

«إن هذا بمثابة استحواذ على مصر بحجة خدمة البحث العلمي.»[١٢]

وقام الفرنسيان بونفري وجابيه بالعمل كمساعدَين لمارييت، وأعار اللوفر الرسام تيودور ديفريا ليقوم بنسخ النقوش، كما عمل لويجي فاسالي مع مارييت زمنًا طويلًا، وبدأ إميل — الأخ الأصغر لهنريش بروجش — حياته العملية في مصلحة الآثار المصرية.[١٣]

---

[٩] Gaston Maspero, Guide du visiteur au Musée du Caire, 4th ed., (Cairo, 1915), x; Abou-Ghazi, “Egyptian Museum” ASAE 67 (1991), 9.

[١٠] دار الوثائق، محافظ الأبحاث، ١١٨ ب، آثار، رسائل متنوعة من مارييت.

[١١] Bernard S. Cohen, Colonialism and Froms of Knowledge: The British in India (Princeton, 1966), 9.

[١٢] Maspero, “Mariette”, xcvi.

[١٣] Maspero, “Mariette”, xcvi.

وكون مارييت فرقًا للتنقيب في ستة مواقع مختلفة من الجيزة إلى أسوان. وجاء أول ذكر لهذا النشاط في مجلة المتاحف Journal d’éntrée في يونيو ١٨٥٨م.[١٤] وقد اقترح مارييت — في بداية الأمر — قوة عمل تتكون من ٢٣٨٠ رجلًا، يعمل ٢٠٠ منهم بالكرنك، وما بين ٥٠٠ و١٠٠٠ في إدفو، و٧٥٠ في إسنا، و٤٠٠ بالجيزة، ولكنه تلقَّى نصيحة بالاقتصاد في قوة العمل لأن التنقيب عن الآثار يختلف عن حفر القنوات.[١٥] وفي وقت من الأوقات كان لديه تفويض بتجنيد سبعة آلاف عامل.[١٦]

ولعل ضحايا السخرة الذين عملوا في حفائر مارييت ربطوا بين العمل في الآثار، والعمل الذي كان جاريًا في شق قناة السويس. فكلاهما كان شقاءً وبؤسًا مصدره الأوروبيون، وسعيد، وإسماعيل، دون أن يفيد العمال المسخرين شيئًا. وتولى العمال تجميع المسخرين للعمل بين القرى، وتقاضوا رشاوى من الفلاحين الميسورين لإعفائهم من السخرة التي كان الفقراء وحدهم ضحاياها.[١٧]

وكما فعل بول إميل بوتا وأوستن هنري لايارد في بلاد الرافدين قبل ذلك بسنوات، قام مارييت باستخدام مجموعات عمل كبيرة للتنقيب عن القطع الفنية والنقوش. ولم يكن قد ظهر بعدُ الاهتمام بالجسات الأرضية، وتجميع الملاحظات عن ميدان العمل، وإعداد التقارير العلمية التفصيلية. ولم يكن عمل هنريش شليمان في اصطياد كنوز طروادة وميسيناي في السبعينيات، أفضل من ذلك. وفي عام ١٨٦٤م استخدم مارييت ألف عامل لتنظيف حوائط المعبد حتى تتاح لدى روجيه فرصة إبراز النقوش أمام زائر مرتقب.[١٨] وعبَّر فليندر بتري عن شكواه من أن مارييت ترك مساعديه الأوروبيين ورؤساء العمال من المصريين يحفرون لحسابهم لمدة شهور في كل مكان ما عدا الجيزة وسقارة. وتسربت الآثار التي عثر عليها مارييت إلى السوق لأنه كان لا يدفع مكافأة لمن يعثر عليها، وكان رؤساء العمال يجذبون إنتباه مارييت إلى المواقع غير المهمة بوضع قطع فيها مشتراة من السوق.[١٩] وفي إيطاليا كان جيسيب فيوريلِّي وبيتروروسا يقومان في الستينيات بحفائر

---

[١٤] May Trad, “Journal d’entrée et catalogue général”, ASAE 70 (1984–85), 253–57.

[١٥] دار الوثائق، محافظ الأبحاث، ١١٨ ب، آثار، من مارييت إلى كونج بك في ١٨ أبريل ١٨٥٨م.

[١٦] Who Was Who 3: 276.

[١٧] W. M. F. Petrie, Seventy Years in Archaeology, (London, 1931), 46.

[١٨] Maspero, “Mariette”, cxliv.

[١٩] Petrie, Seventy Years, 52–53.

علمية في بومبي وروما، كما قام ألكسندر كونز النمساوي وإرنست كرونيوس الألماني — في السبعينيات — بحفائر في اليونان طوروا فيها أسلوب التنقيب، مما جعل مارييت على درجة كبيرة من التخلف.

وعندما مارس مارييت سلطته، توقفت الحفائر التي كان يقوم بها في مصر أوروبيون آخرون، وتم حظر تصدير الآثار دون ترخيص. وصدرت أوامر دورية إلى موظفي مصلحة الآثار بتطبيق الحظر على التنقيب عن الآثار، ولكن المصريين استمروا في استخراج «السباخ» وبيع الآثار، وحرق حجارة المعابد لإنتاج الجير. ورفض مارييت طلبًا تقدم به فلاح عام ١٨٨٠م للترخيص له باستخدام حجارة الأهرام في بناء بيت.[٢٠]

وفي عام ١٨٦١م، بلغت ديون سعيد ثمانية ملايين جنيه إسترليني مما اضطره إلى الاختباء في يخته هربًا من الدائنين، وكان قد رهن موارد الدولة مقدمًا، وأحال الكثير من الموظفين إلى الاستيداع أو فصلهم من وظائفهم، وأنقص عدد الجيش إلى ٢٥٠٠ جندي، وباع المعدات العسكرية، فحث مارييت باريس على التغلب على لندن بتقديم قرض جديد لسعيد قائلًا: «إن من يقدم القرض لسعيد سوف يلف الحبل حول رقبته (وكانت تلك كلمات الوالي نفسه)، وبعبارة أخرى، سوف يصبح سيد مصر.»[٢١] وانتهز نابليون الثالث الفرصة للضغط على مارييت حتى يحصل من سعيد على مساعدة للبحث عن مصادر لسيرة يوليوس قيصر — التي كان يكتبها — وعلى مخطوطات قبطية من الأديرة المصرية، وتجاهل مارييت الملاحظة التي أبداها نابليون الثالث عندما قال له إن الآثار التي يكدسها في بولاق سوف تكون في وضعٍ أحسن لو حصل عليها اللوفر. ورغم أن المولين البريطانيين والألمان — وليس الفرنسيين — قدموا القرض لسعيد، عبَّر الأخير عن ارتياحه بمنح مارييت البكوية من الدرجة الأولى، ووعده بدعم مطبوعاته، وتقديم المعونات للمتحف، ومنحه معاشًا، وجعله مفوضًا عامًّا لدى «معرض لندن الدولي» عام ١٨٦٢م.

على الرغم من نجاح مارييت في الحد من تدفق الآثار المصرية على أوروبا، لم يستطع أن يحول دون خسارة مسلتين أخريين. ففي العشرينيات، أهدى محمد علي لكلٍّ من

---

[٢٠] Garnot, Mélanges, 1–2.

[٢١] Maritte, Oeuvres, cxxxi; For this paragraph see cxxiii–cxxxi; and Landes, Bankers, 108–9.

بريطانيا وفرنسا واحدة من المسلتين القائمتين بالإسكندرية، واستبدل الفرنسيون بالمسلة المهداة لهم أخرى أفضل حالًا انتُزعت من معبد الأقصر حصلوا عليها في ١٨٣١-١٨٣٢م، ونصبت بميدان الكونكورد. وحذر ويلكنسون بلاده من الإهانة التي قد تلحق بها إذا حصل الفرنسيون على مسلَّتهم قبلهم، ولكن صديقه روبرت هاي رأى أن المهانة تتحقق بقبول بريطانيا للمسلة المعروضة عليها، في حين أن فرنسا حصلت على مسلة أفضل. وعارض ويلكسنون — فيما بعد — في نقل المسلة إلى لندن على أساس أن الغرض الأصلي لها كان مجهولًا — وسخر ثاكراي من المشروع ككل قائلًا:

«ذهبنا لمشاهدة المسلة الشهيرة التي أهداها محمد علي للحكومة البريطانية التي لم تبدِ قبولها للهدية صراحة … وإذا كانت حكومتنا تتعامل مع الموضوع ببرود، فإن تحمسنا له يعدُّ من قبيل عدم الولاء لحكومتنا. أتمنى أن تقدم حكومتنا للمصريين عمود الطرف الأغرِّ حتى يرقد هذان العملاقان القبيحان في التراب جنبًا إلى جنب.»[٢٢]

ولم يتم نقل المسلة إلا عام ١٨٧٧م عندما قام الطبيب البريطاني إرازمس ولسون بتمويل عملية النقل، وتم نصب المسلة على كورنيش نهر التيمز في السنة التالية.

وأدى ذلك إلى حفز الأمريكان على الحصول — بدورهم — على مسلة، فأهداهم إسماعيل المسلة الباقية بالإسكندرية تقديرًا لما أداه الضباط الأمريكان السابقون (الذين خدموا في الحرب الأهلية) من خدمات خلال عملهم في جيشه. وأثار ذلك ثائرة مارييت الذي احتج على هذا التفريط الذي لم يترك لمصر سوى خمس مسلات، ورغم أن بمصر الآن «متحفين، أحدهما متحف بولاق، والآخر هو جميع أراضي مصر … زد على ذلك أن هناك مبدأً عالميًّا معمول به في جميع المتاحف، هو أن ما تحصل عليه المتاحف لا تستطيع أبدًا التنازل عنه، وأن على مصر أن تطالب اللوفر بتمثال فينوس دي ميلو، وتطالب المتحف البريطاني بإعادة حجر رشيد إليها، وتطالب متحف نيويورك بأحد آثار مجموعة أبوت؛ لأن شيئًا في الدنيا لا يعادل هذه الهدية من حيث القيمة. فلماذا تعامل مصر معاملة مختلفة؟ … لقد انتهى الزمن الذي استطاع فيه اللورد إيلجن أن يحمل معه لوحات

[٢٢] William Makepeace Thackeray, The Paris Sketch Book of M. A. Titmarsh: The Irish Sketchbook and Notes of a Journey From Cornhill to Grand Cairo (New York, n.d.), 714; Jason Thompson, Sir John Gardner Wilkinson and His Circle (Austin, Tex. 1992), 192–93.

الأجرام السماوية، فمصر لديها أقدم أرشيفات مماثلة للعيان في التاريخ الإنساني، وهي وثائق تشهد بمجدها القديم وهي تعتزم الاحتفاظ بها.»[٢٣]

وقد صدق مجلس النظار (الوزراء) على المنحة التي قدمها إسماعيل لأمريكا بعد تردد، رغم أن الخديو فقد عرشه قبل أن تقوم الحكومة الأمريكية بنقل المسلة في أواخر ١٨٧٩م. وقد تم نصب المسلة في سنترال بارك بنيويورك في يناير ١٨٨١م، وهو الشهر الذي فارق فيه مارييت الحياة. وقد نجح مارييت — على الأقل — في استصدار قرار من مجلس النظار نص على أنه «من الآن فصاعدًا لا يتم إهداء أثر مصري لأي دولة أو أي مدينة خارج الديار المصرية.»[٢٤]

المتحف المصري – مارييت في بولاق

على مرِّ قرنٍ من الزمان قامت ثلاث من بلاد البحر المتوسط المتباينة — هي: اليونان، والدولة العثمانية، ومصر — بتأسيس مصالح خاصة بالآثار، وإقامة متاحف أثرية، وكان لشمال غرب أوروبا أثر كبير في تلك الحالات الثلاث، ولكن المتاحف كانت بمثابة المسرح الذي بلور أبناء تلك البلاد هويتهم القومية من خلاله.

وأحرزت اليونان قصب السبق بإقامتها لمتحف أيجينا الوطني عام ١٨٢٩م، حتى قبل أن تنجز القوى الكبرى مهمتها بإجبار الدولة العثمانية على قبول استقلال اليونان، فقد فرضت الدول أوتو الأول البافاري ملكًا على ذلك البلد الصغير المشتت، وجاء أوتو الأول من ميونيخ حيث كانت الكلاسيكية الجديدة في أوجها. وكان مؤسسو مصلحة الآثار اليونانية (١٨٣٣م)، والمتحف الوطني للآثار (١٨٣٤م) من الألمان أيضًا. وقد اتخذ المتحف الوطني للآثار من الهيفايستيون مقرًّا له حتى عام ١٨٧٤م عندما انتقل إلى المبنى الجديد

[٢٣] حرصت على إيراد هذا الاقتباس، مخالفًا بذلك العرف الأكاديمي، وقد تاهت البطاقة التي كتبته عليها بين أوراقي فلم أستطع تحديد مصدرها، ولعله من وثائق الخارجية الفرنسية بأرشيف نانت.

[٢٤] دار الوثائق القومية، محفوظات مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار ١ / ٤: متاحف ١٨٧٩–١٩١٤م، ملف الحكومات الأجنبية والآثار المصرية، طلب دولة أمريكا لمسلة، ٢٠ أكتوبر ١٨٧٩م، ويحتوي على مراسلات متبادلة بين شريف باشا — رئيس مجلس النظار — والقنصل الأمريكي العام فارمان.

الذي صممه الألمان على الطراز الكلاسيكي الجديد. لقد كان معظم اليونانيين يستمدون هويتهم من بيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بقدر أكبر من ذلك الماضي القديم الذي بعثه أهل غرب أوروبا والأمريكيون. وكان التوافق بين التراثين (الوسيط والقديم) يحتل مركز الجدل في الهوية القومية اليونانية الحديثة.[٢٥]

لقد تنقَّل متحف الآثار القديمة في كل من إستانبول والقاهرة من مكان لآخر، ولكنهما بدآ بداية ملائمة تمامًا. فلم تكن مجموعة القاهرة التي بدأ تكوينها عام ١٨٣٥م، أو مجموعة إستانبول التي بدأت في كنيسة القديسة إيرين البيزنطية عام ١٨٤٥م، متاحة للجمهور. ولم يعمر المتحف السلطاني العثماني الذي أُسِّس عام ١٨٦٩م طويلًا، وكان مديره بريطانيًّا يدعى جولد؛ فما لبث أن ألغي ليعاد تأسيسه بعد ثلاث سنوات وتُسند إدارته إلى ألماني يدعى ديتير، قام بنقل المجموعة إلى جنلي كشك بطوب قابي سراي؛ ووضع مشروع قانون للآثار، وبدأ فتح المتحف للجمهور يوميًّا عام ١٨٧٥م، وخصص يوم الأربعاء لزيارة النساء.

واستطاع متحفا القاهرة وإستانبول أن ينجوا من الإفلاس في أواخر السبعينيات عام ١٨٨٢م الذي شهد وفاة المدير الأوروبي لكلٍّ منهما، وتفرقت بهما السبل بعد هذا التاريخ. فقد استطاعت الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني أن تسند إدارة الآثار لأحد أبنائها وهو الرسام التركي عثمان حمدي. أما مصر التي وقعت بين براثن الاحتلال البريطاني، فقد استمرت مصلحة الآثار والمتحف فيها في قبضة الفرنسيين.[٢٦]

قام ماريت بتكديس مجموعة بولاق في المقر القديم لشركة النقل البري التي أنهى الخط الحديدي وجودها. وكان المقر الذي يقع على شاطئ النيل (بالقرب من مبنى التليفزيون ومبنى وزارة الخارجية الآن) مناسب تمامًا لتفريغ القطع الأثرية الثقيلة التي تنقل من الصعيد بالمراكب على صفحة النيل.

---

[٢٥] Maria Avgouli, "The First Greek Museums and National Identity", in Museums and the Making of "Ourselves": The Role of Objects in the National Identity, ed., Flora E. S. Kaplan (London, 1994).

[٢٦] استمر عثمان حمدي مديرًا لمتحف إستانبول حتى وفاته عام ١٩١٠م، انظر: Tülay Ergil, Museums of Istanbul (Istanbul, 1993).

وفكر مارييت — في البداية — أن يتخذ من الإسكندرية مقرًّا للمتحف الذي يعتزم بناءه لهذا الغرض مستقبلًا،[٢٧] ولكن خط سكك حديد الإسكندرية–القاهرة هبط بزمن الرحلة إلى بضعة ساعات، وجعل من السهل على القادمين بالبحر التوجه إلى العاصمة. وبدأ مارييت يتخير موقعًا بالأزبكية حيث فندق شيبرد وغيره من الفنادق والمحلات والمقاهي التي تجتذب العديد من الأوروبيين.

غير أن وفاة سعيد المفاجئة في يناير ١٨٦٣م وهو في الحادية والأربعين من عمره، أزعجت مارييت، ولكن سرعان ما بعث الطمأنينة في نفسه. وعلى حد تعبير ماسبيرو شعر مارييت بالغبطة عندما وجد في إسماعيل «إنسانًا له تطلعات خيالية مبهرة تفوق تطلعات مارييت نفسه ....[٢٨] وفكر في مشروعات أكبر بعدما أسكرته كلمات إسماعيل.» فقد تحدث إسماعيل عن مجمع ضخم يقام بالأزبكية يضم متاحف للآثار اليونانية، والعربية، والفرعونية، فإذا أضيف إليه المجمع العلمي المصري مع تعيين مدير متفرغ له وأمين لمكتبته، وإقامة مكتبة عامة، كل ذلك يحوِّل المجمع «إلى مركز علمي مصري حقيقي». وأدت إقامة حي الإسماعيلية في غضون احتفالات افتتاح قناة السويس، إلى جذب حركة بناء المساكن الحديثة غربًا نحو النيل، وغير مارييت رأيه في الموقع الملائم لإقامة المتحف المصري، فاختار الطرف الجنوبي من الجزيرة[٢٩] المواجهة لبولاق ومعسكرات قصر النيل (انظر الخريطة ٢).

وفي الوقت نفسه، هيأ مارييت مبنى بولاق ليكون متواضعًا بصفة مؤقتة، وتم وضع أساس المتحف الجديد في صيف ١٨٦٠م، وكان من المتوقع أن تفرغ من بنائه شركة إيطالية خلال عام ووصلت بالفعل إلى الإسكندرية المشغولات الزخرفية الحديدية الخاصة بالواجهة «ذات الطراز العربي الجميل» قادمة من باريس. وفيما بعد، كتب مارييت:

«لم يعد باستطاعتك أن تميز مقرنا القديم في بولاق؛ ففي وسطه الآن مبنًى كبير على الطراز الفرعوني يضم ١٢ غرفة بنيت وفق خطتي. هذا هو متحفنا المؤقت، لا أستطيع

[٢٧] دائرة الوثائق القومية، محافظ الأبحاث، ١١٨ ب آثار، خطابات من مارييت إلى كونج في أبريل ١٨٥٨م.

[٢٨] هذا الاقتباس والاقتباسان التاليان له من: Maspero, “Mariette”, cxxiv, cxxv.

[٢٩] Maspero, “Mariette”, cxcii.

القول إننا سنقيم هناك مثل الملوك، ولكن لدينا على الأقل مجموعتان من صالات العرض انتظارًا للمتحف الفعلي. وقد اتخذت الزخرفة الخارجية والداخلية الطابع المصري القديم، وسوف تتخذ القطع الأثرية مواقعها قريبًا ... وسوف يتم افتتاح المنشآت الجديدة في الأول من أكتوبر.»[٣٠] وذهب منتقدو مارييت إلى تقدير تكلفة تلك المنشآت بمئات الألوف من الفرنكات، ولكن ماسبيرو يقدرها بستين ألفًا، تحمل مارييت جانبًا منها من جيبه الخاص.[٣١]

وقام إسماعيل بافتتاح متحف بولاق في ١٦ أكتوبر ١٨٦٣م بحضور أمين المتحف الفرنسي وأحد الشيوخ المقربين إلى نابليون الثالث، ولعله كان أول مبنى يقام في مصر على الطراز الفرعوني، وكان يتكون من مبنيين: أحدهما للمتحف، والآخر لإقامة مارييت، وكانت له حديقة يمرح فيها غزاله الأليف. وفيما بعد أقنع مارييت إسماعيل بإضافة قاعتين أخريين للعرض لإبهار الضيوف الأوروبيين المدعوين لحضور احتفالات قناة السويس.[٣٢]

وقد رتب مارييت المعروضات على النسق الذي اتبعه روجيه في الجناح المصري باللوفر، مع تخصيص أقسام للديانة والآثار الجنائزية، وأدوات الحياة العادية، والآثار التاريخية. (وقام — فيما بعد — بتخصيص القسم الخامس لعرض آثار يونانية ورومانية، وقبطية). وقد اتبع ليبسيوس نظامًا مشابهًا للعرض في متحف برلين تضمن الآثار التاريخية وأدوات الحياة اليومية، والأساطير. وكان مارييت يفخر بأن مجموعة بولاق — على نقيض المجموعات المصرية في أوروبا — مسجل على كل منها مصدره الأصلي.

وأقر مارييت باعتماده — أحيانًا — الناحية الجمالية في العرض أكثر من اهتمامه بالناحية «العلمية»، ودافع عن نفسه بالقول بأن هدفه من ذلك اجتذاب المصريين لزيارة المتحف (انظر الشكل ٢٠):

---

[٣٠] فيما يتعلق بمتحف بولاق عامة راجع: Auguste Mariette Bey, Notice des Principaux monuments exposés dans les galeries provisoires du musée d'antiquités égyptiennes de S. A. le Vice-Roi à Boulaq, 1st–5th eds., (Alexandria/Cairo 1864–74).

[٣١] Maspero, "Mariette", cxxxix.

[٣٢] F. de Saulcy. "Musée du Cairo", Revue archéologique, n.s. (May 1864) 9: 313–22; Maspero, "Mariette", cxxxix–cxl.

«إنني مطالب كأثري — طبعًا — أن أتجنب طريقة العرض التي لا تفيد من الناحية العلمية، ولكن المتحف على النحو الذي نظمت به معروضاته يرضي أولئك الذين أقيم من أجلهم، فهم إذ يترددون عليه تدفعهم الرغبة في المعرفة التي لا تتخذ طابع الدراسة، وإنني أقول دائمًا أن غرس محبة الآثار المصرية (عند الزوار) يعني أن هدفي قد تحقق.»[٣٣]

واستطرد مارييت شارحًا أن «متحف القاهرة لم ينشأ من أجل السياح وحدهم، فقد قصد الوالي من إنشائه أن يكون متاحًا لأبناء البلاد — حتى يتعلموا تاريخ بلادهم. ولا يعني ذلك الإنقاص من قدر الحضارة التي أدخلتها أسرة محمد علي إلى بلاد النيل، قائلًا أن مصر ما زالت في بداية الطريق وأن الأمر يتطلب وقتًا حتى يستوعب الجمهور المصري الآثار والفنون. ففيما مضى دمرت مصر آثارها، ولكنها تحترم اليوم تلك الآثار، وغدًا ستعشقها.»[٣٤]

قام عبد الله أبو السعود — تلميذ الطهطاوي — بترجمة دليل المتحف الذي أعده مارييت إلى اللغة العربية، وهو يبدأ بالبسملة والصلاة على النبي، ثم يذكر الهدف من الدليل وهو شرح محتويات المتحف الذي أنشأه مارييت للمصريين حتى يعلموا ما كان عليه أجدادهم.[٣٥] ولا تتوفر لدينا معلومات كافية عن مدى استفادة المصريين بالمتحف، فهناك صورة رسمها فنان ألماني تظهر فيها نساء منتقبات مع بناتهن، ونساء أوروبيات في الفناء الأمامي للمتحف (انظر الشكل ٢١).

وقد وضع مارييت الزوار والمصريين في اعتباره عندما أكد أن قدماء المصريين لم يكونوا وثنيين مشركين، بل كانوا يؤمنون «بإله واحد، حي لا يموت، خالق لا مخلوق، لا يرى، ولكنه موجود في أعماق خلقه، فهو خالق كل شيء في الوجود ...»[٣٦] وكان اعتقادهم بآلهة أقل شأنًا بمثابة تجسيد لقدرات الخالق.

ويظل الموقف الشخصي لكلٍّ من سعيد وإسماعيل تجاه الآثار محيرًا، فقد صحب سعيد مارييت معه على باخرته وسأله عن الموقع الذي يمكن أن يؤدي الحفر فيه إلى

---

[٣٣] Mariette, Notice, 1868, 10–11.

[٣٤] Mariette, Notice, 1868, 10.

[٣٥] أوجست مارييت بك، وصف نخبة الآثار القديمة المصرية الموضوعة في أنتكخانة التحف العلمية المصرية (القاهرة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م).

[٣٦] Mariette, Notice, 1868, 20–21.

العثور على الآثار، لاستيائه لعدم العثور عليها. ولم يزر سعيد المتحف سوى مرة واحدة بصحبة الكونت دي شامبور المطالب الشرعي بالعرش الفرنسي، وقضى الزيارة التي استغرقت ٤٥ دقيقة في خيمة حريرية بفناء المتحف مستغرقًا في التدخين والحديث إلى القنصل الفرنسي، ولم يهتم بمصاحبة الكونت أثناء تفقده للمعروضات.[٣٧]

ووفقًا لما يذكره ماسبيرو لم يدخل إسماعيل المتحف مع ضيوفه الفرنسيين عند افتتاحه «فهو كشرقي أصيل يخيفه ويفزعه الموت ولذلك يبتعد عن المكان الذي تُعرض فيه المومياوات. وقد ظل بحديقة المتحف — بينما كان المحتفلون بداخله — يتسلى بالفرجة على القردة، وقفزات «فينت» غزالة مارييت»[٣٨] وتكشف هذه الطُّرف التي يرويها المستشرقون الكثير عن ماريت وماسبيرو وقرائهما الغربيين، بقدر ما تفعل بالنسبة لسعيد وإسماعيل.

تاريخ الطهطاوي عن مصر قبل الإسلام

اعتمد الطهطاوي على أعمال ماريت اعتمادًا تامًا في حملته لجذب أنظار المصريين نحو مصر القديمة. فقد أعاد إسماعيل رفاعة الطهطاوي إلى موقعه السابق ناظرًا لقلم الترجمة، عشية توليه الحكم، وأسندت إليه فيما بعد مهمة الإشراف على تدريس اللغة العربية بالمدارس، ورئاسة تحرير مجلة «روضة المدارس».

وكان ثلاثة من تلاميذ الطهطاوي (أحدهم عبد الله أبو السعود)، قد ترجموا في ١٨٣٨-١٨٣٩م كتابًا فرنسيًّا عن مصر القديمة، نشر بالعربية تحت عنوان «بداية القدماء وبداية الحكماء» وتولى الطهطاوي مراجعة الترجمة والتقديم لها.[٣٩] وعاد أبو السعود إلى الموضوع مرة أخرى في ١٨٦٤-١٨٦٥م بترجمة لكتاب ماريت «نظرة على تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي»، ونشرت الترجمة العربية بعنوان

---

٣٧ Maspero, “Mariette”, cxxvii–cxxviii.

٣٨ Maspero, “Mariette”, cxl.

٣٩ بداية القدماء وبداية الحكماء، ترجمة مصطفى الظواربي، ومحمد عبد الرازق، وعبد الله أبو السعود (بولاق ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م)؛ أبو الفتوح رضوان، تاريخ مطبعة بولاق (القاهرة ١٩٥٣م) ٤٦٨، يورد ذكر تاريخ المصريين أو تاريخ قدماء المصريين بين كتب الطهطاوي (١٨٣٩م)؛ عايدة إبراهيم نصير: كتب عربية منشورة في مصر في القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٩٠م) ٢٥٢.

«كتاب قدماء المصريين»، وقد طلب إسماعيل ترجمة هذا الكتاب — كما يقول أبو السعود — لأن «الخديو يريد أن يوقظنا من سباتنا العميق بدراسة تاريخ أجدادنا، حتى نستعيد مجدهم الغابر، ونهتدي بسنتهم، فنعمل معًا كمصريين أصلاء، ووطنيين حقيقيين من أجل نهضة مصر.»[٤٠]

وذهب عبد الله أبو السعود إلى أن حب الوطن يعني العمل معًا لتحقيق صالح أبناء الوطن دون النظر إلى الأصل أو العرق. ولم يقبل أبو السعود بالشلال الأول كمعلم لحدود مصر الجنوبية مدافعًا بذلك عن حركة التوسع التي قام بها إسماعيل؛ لأن مهمة تحضير «المتوحشين الوثنيين» في أقصى جنوب حوض النيل تقع على عاتق مصر.[٤١] وحملت الصحيفة التي أصدرها عن عبد الله أبو السعود عام ١٨٦٧م — بدعم من إسماعيل — عنوان «وادي النيل» الذي يعكس الوعي المصري الذي جمع بين الاعتزاز بالفراعنة والإمبراطورية السودانية الجديدة. وبالإضافة إلى ذلك، تولَّى أبو السعود التدريس بدار العلوم، والكتابة في «روضة المدارس»، وترجم دليل المتحف الذي وضعه مارييت إلى العربية.

وكتب رفاعة الطهطاوي أول كتاب قدم مسحًا مستفيضًا لتاريخ مصر القديم، نشر بعنوان: «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل»، ويتناول تاريخ مصر في العصور الفرعونية، واليونانية-الرومانية، والبيزنطية، وصولًا إلى الفتح الإسلامي، وبعد وفاة رفاعة (عام ١٨٧٣م) بعام واحد، قام ابنه علي فهمي رفاعة بنشر العمل الذي لم يكمله والده، وهو كتاب «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» الذي تناول سيرة النبي محمد حتى البعثة.[٤٢]

وتمامًا كما فعل في كتابه «تخليص الإبريز» قبل ذلك بثلاثة عقود، صدَّر الطهطاوي كتاب «أنوار توفيق» بمقدمة يدفع بها عن نفسه هجمات المحافظين. وقد أشاد الشيخ مصطفى العروسي — شيخ الأزهر — ببراعة الطهطاوي في الفنون التاريخية، ولكن

---

[٤٠] مقتبس من كتاب: Arthur Rhoné, L'Égypte à petites journées: Le Caire d'autrefois newed. (Paris, 1910), 3.

[٤١] يقدم الشيال عناوين مختلفة لهذه الترجمات، انظر: Shayyal, History, 41–43.

[٤٢] رفاعة الطهطاوي، أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل، في الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، تحقيق محمد عمارة، المجلد ٣، تاريخ مصر والعرب قبل الإسلام (بيروت ١٩٧٤م).

الشيخ محمد الدمنهوري — أحد علماء الأزهر — امتدح الكتاب لاحتوائه على أمثلة لفضلاء الرجال الذين خدموا الوطن منذ آلاف السنين. وذهب أحمد خيري — السكرتير الخاص للخديو — إلى أن معرفة الأوروبيين للهيروغليفية جعلت بالإمكان أن يتخلص المرء — غير ملوم — من المصادر العربية المليئة بالإسرائيليات. وامتدح علي مبارك الكتاب لاستناده إلى الشواهد المستمدة من علم الآثار الأوروبي والدراسات اللغوية بدلًا من تكرار الحكايات الخيالية القديمة. واستهل الطهطاوي كتابه بآية قرآنية تعظم من شأن العقل الإنساني، وامتدح الخديو «حامي حما الوطن، الذي أعاد لمصر مجدها التليد، وجدد حاضرها الإسلامي».[٤٣]

وضع الطهطاوي التاريخ الوارد «بالكتب السماوية» جانبًا، وقسم تاريخ البشرية إلى تاريخ عام يعالج كل الأمم، وتاريخ خاص تناول أمة واحدة مثل مصر، والعراق القديم، والأكراد، والفينيقيين، وفارس، والهند، واليونان. ورأى أن مصر ليست كغيرها من الأمم التي يتألق نجمها في عصر من العصور ثم يأفل تمامًا، فقد احتفظت مصر بحيويتها عبر سبعين قرنًا، وكانت في عصر الفراعنة بمثابة الأم لجميع أمم العالم الأخرى، وذاعت شهرتها في عهد الإسكندر والبطالمة والرومان كمصدر للعلم والحكمة. وأصبحت مصر بعد ذلك مركز الحضارة الإسلامية، فهزمت ممالك الفرنجة، واستردت منهم بيت المقدس، وأوقعت ملك فرنسا في الأسر. ولعبت مصر دورًا أساسيًّا في نشر الحضارة في الغرب، وهزمت الغزاة الفرنسيين في بداية القرن الحالي (التاسع عشر)، وهي تستعيد الآن مجدها بفضل أسرة محمد علي .[٤٤]

وتضمَّن الكتاب نحو ١٢ فصلًا تمهيديًّا تناولت جغرافية مصر، ومصادر مياه النيل، والفيضان، ومقاييس النيل، والزراعة في مصر القديمة، والترع، والبحيرات، والزهور، والنباتات، والمعادن، والمركز الإقليمي لمصر. وتناول في فصل من ثلاث صفحات الآثار مؤكدًا على تفرد الأهرام، والمسلات، وأبي الهول والنقوش الهيروغليفية، والعمود الأثري بالإسكندرية.[٤٥] وأشار الطهطاوي إلى المسلة التي حصلت عليها فرنسا من مصر ونقلتها

[٤٣] Youssef M. Choueiri, Arab History and the Nation-State: A Study in Modern Arab Historiography 1820–1880 (London, 1989), 9–11.

[٤٤] الطهطاوي، أنوار توفيق، ١٤–١٥، ١٨–١٩.

[٤٥] الطهطاوي، أنوار توفيق، ٣٣–٧٠، والفصل الخاص بالآثار ٦٣–٦٦.

إلى باريس، ورغم انتمائه إلى الصعيد، لم يشر إلى آثاره العظيمة في أكثر من ثلاثة سطور. وأشار إلى الأمر الذي أصدره محمد علي عام ١٨٣٥م لجمع الآثار، ملتمسًا تبريرًا له بإحدى الآيات القرآنية.

وقد مزج الطهطاوي بين ما جاء بالقرآن والكتاب المقدس ولوحة الأسرات التي أعدها مانيتو للبطالمة حكام مصر الذين يتحدثون اليونانية، فاعتبر الملك الأسطوري مينا هو حفيد نوح مصرايم بن سام. وسار الطهطاوي على نهج ماربيت من حيث التحديد الزمني للملك مينا بالعام ٥٦٢٦ قبل الهجرة (الموافق للعام ٥٠٠٤ قبل الميلاد)، رغم إشارته إلى أن بعض العلماء الأوروبيين قد يهبطون بهذا التقدير ألفين أو ثلاثة آلاف عام.[٤٦]

وتتبع الطهطاوي حكم كل ملك من ملوك الثلاثين أسرة التي أوردها مانيتو، ولاحظ أن حل رموز الهيروغليفية على يد الأوروبيين ساعد على قراءة أسماء بناة الأهرام الثلاثة بالجيزة قراءة صحيحة، وإن كان لم يتم التحقق مما إذا كانوا قد عاشوا قبل إبراهيم أو بعده.[٤٧] ومن المفترض أن تكون إشارة الطهطاوي إلى هيرودوت، وسترابو، وديودور الصقلي مستقاة من شامبليون، وماربيت، وغيرهما من الأوروبيين المحدثين، واقتفى الطهطاوي أثر ماربيت في تأكيد المعلومات من خلال الشواهد الأثرية لدعم أو نفي ما جاء بالمصادر الأدبية اليونانية، وحاد عن ماربيت بأسلوبه الأدبي الزخرفي، وبالدروس الأخلاقية التي قدمها استنادًا إلى القرآن، وبالرجوع إلى مصادر عربية كالمسعودي، والمقريزي، وابن عبد الحكم، والسيوطي.

ويعكس كتاب «أنوار توفيق» محدودية المعرفة الأوروبية بتاريخ مصر القديم عندئذٍ، فلم تكن هناك شواهد أثرية متاحة عن الأسرتين الأولى والثانية، والأسرة الخامسة، وأوائل الفترة الوسطى التي أعقبت «الدولة القديمة»، واعتبر الطهطاوي الهكسوس «رعاة الأغنام» عربًا، وكانت معلوماته عن حتشبسوت وآمونحتب الرابع وثورته الدينية ونقله العاصمة إلى تل العمارنة، معلومات محدودة، وتبع ماربيت في اعتبار رمسيس الثاني، سيزوستريس اليونانيين، وقبل بروايات هيرودوت الباهتة عن فتوحاته. ولاحظ الطهطاوي أن البعض يرى أن رمسيس — سيزوستريس يعادل هيرميس تريسمجستس وإدريس الذي يرد

[٤٦] الطهطاوي، أنوار توفيق، ٧٠.

[٤٧] الطهطاوي، أنوار توفيق، ٦٤، ٧٤.

ذكره في القرآن. وقدم عرضًا للجدل حول تحديد فرعون موسى، مزكيًا مرنيتاح أحد ملوك الأسرة التاسعة عشر.[٤٨]

ولم يهتم الطهطاوي بتقديم المقابل (بالتقويم الجريجوري) لما أورده من تواريخ قبل الهجرة، فلم تهتم المطبوعات العربية بذكر المقابل للتاريخ الهجري بالتقويم الجريجوري (الميلادي) إلا نحو العام ١٩٠٠م، وقد تبع الطهطاوي نهج ماربيت في كتابه «نظرة على تاريخ مصر» في الإشارة إلى تواريخ ما قبل الهجرة بدلًا من قبل الميلاد وأوائل التقويم الميلادي، ولكنه أشار إلى أن حساب السنين قد تم حسب السنوات الشمسية، وبذلك يصبح عام ٢٣١٤م قبل الهجرة موافقًا للعام ٢٣١٤م بالسنوات الشمسية، رغم أن التقويم الهجري تقويم قمري. وقد أضاف محقق طبعة «أنوار توفيق الجليل وتوثيق بني إسماعيل» التي ظهرت في القرن العشرين، المقابل الميلادي للتاريخ الهجري، وأشار إلى أن تداخل سنوات حكم الأسرات التي وردت بقائمة مانيتو زاد من المدى الزمني للعصر الفرعوني ألفي عام.[٤٩]

وأورد الطهطاوي نصوص بعض نقوش أهرام سقارة مستنتجًا منها أن قدماء المصريين كانوا من الصابئة. ويشير محقق «أنوار توفيق» إلى أن الصابئة قوم من حران بالعراق، اعتنقوا دينًا سابقًا على الإسلام، يقدس الكواكب. ويستخدم المصطلح أيضًا للدلالة على جماعتين في صدر الإسلام إحداهما مسيحية والأخرى وثنية، لا تتوفر عنهما معلومات كافية.[٥٠] ولما كان القرآن يعتبر الصابئة شأنهم شأن المسيحيين واليهود «من أهل الكتاب»، فقد كانت نسبة قدماء المصريين إلى الصابئة تقرب الأمور إلى أذهان المسلمين من المصريين المحدثين — وربما الأقباط أيضًا — لتحقيق التواصل مع التراث الفرعوني.

وجاءت نهاية الكتاب بالفتح الإسلامي لمصر عام ١٨ هـ/٦٤٠ م لتعكس رؤية المسلمين لرسالة النبي محمد باعتبارها حدًا فاصلًا بين عهدين. غير أن الطهطاوي لم يشعر بالتناقض الذي وقع فيه عندما تبع ماربيت في الحديث عن عصرين رئيسيين في مصر ما قبل الإسلام: عصر وثني (جاهلي) انتهى بصدور مرسوم تسودوريوس عام ٢٤١

[٤٨] الطهطاوي، أنوار توفيق، ٧٣، ٧٤، ٨٠، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ١٠٠–١٠٥، ١١٠–١١٣.

[٤٩] الطهطاوي، أنوار توفيق، ٧٣.

[٥٠] ت. فهد، مادة «لصابئة» دائرة المعارف الإسلامية، ٨: ٦٧٥–٧٨.

هـ/٣٩١ م بتحريم العبادات الوثنية وإغلاق المعابد؛ والعصر المسيحي (القبطي) الذي استمر ٢٥٩ عامًا حتى وقوع الفتح الإسلامي. وكان هذا مناسبًا لماربيت، ولكنه قد يعني بالنسبة للمسلمين أن العصر المسيحي لم يكن من الجاهلية، وعندما يتحدث الطهطاوي عن «القرون الوسطى» التي تبدأ بالفتح الإسلامي، نجده يتبنى — ربما دون وعي — التقسيم الغربي للعصور إلى ثلاثة: قديم، وسيط، وحديث دون أن يضع في حسبانه المشكلات المتصلة بتطبيق هذا التقسيم على التاريخ الإسلامي.[٥١]

أتاح نشر كتاب «أنوار توفيق وتوثيق بني إسماعيل» للقارئ العربي مرجعًا في تاريخ مصر الفرعوني، ولكن نصيبه من الكتاب لم يتجاوز الخُمس، فقد خصص الطهطاوي صفحات كثيرة للعصور التالية: الإسكندر، والبطالمة، والرومان حتى عهد تيودوريوس، والبيزنطيين من عهد تيودوريوس حتى الفتح الإسلامي، ثم حول بؤرة اهتمامه إلى الجزيرة العربية ليتحدث عن العرب قبل الإسلام، وبذلك حظي الألف عام من تاريخ مصر اليوناني الروماني والبيزنطي بما يوازي ثلاثة أضعاف ما خصصه الطهطاوي للعصر الفرعوني.

وفي العام ١٨٦٥م، تلقت مطبعة بولاق أمرًا بطباعة خمسمائة نسخة من كتاب الطهطاوي «تاريخ مصر» للمدارس. ولما كان كتاب «أنوار توفيق» قد نشر عام ١٨٦٨م، ربما كان الأمر يخص إعادة طبع كتاب «بداية القدماء». وقد رشح الشيخ محمد عبده كتاب «أنوار توفيق» ككتاب دراسي للشباب المصريين، ولكن لا تتوفر لدينا معلومات عن كيفية تلقيهم للكتاب.[٥٢] ولم يعد نشر الكتاب إلا عام ١٩٧٧م.

وفي ظل رئاسة الطهطاوي لتحرير مجلة «روضة المدارس» كان من بين كتابها أربعة — على الأقل — من العلماء المعنيين بنشر التراث الفرعوني بين المصريين المحدثين، هم: الطهطاوي، وعلي مبارك، وعبد الله أبو السعود، وهنريش بروجش. وكان مجلس تحرير المجلة يضم ستة من المصريين إضافة إلى بروجش.[٥٣] وكان مبارك وأبو السعود من

[٥١] الطهطاوي، أنوار توفيق، ٢٠–٢١.

[٥٢] خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، ط ٢ (القاهرة، ١٩٦٦م).

[٥٣] محمد عبد الغني حسن، وعبد العزيز الدسوقي، روضة المدارس، نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية، (القاهرة ١٩٧٥م) ٤٤-٤٥.

كتاب المجلة، وتولى علي فهمي رفاعة مساعدة والده في تحريرها. وكانت للطهطاوي خبرة سابقة بالصحافة منذ توليه رئاسة تحرير «الوقائع المصرية». واتخذت «روضة المدارس» من المجلتين الفرنسيتين: «المجلة الموسوعية» و«المجلة الآسيوية» نموذجًا فضفاضًا لها،[٥٤] فتنوعت موضوعاتها من الإنسانيات إلى العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية. وكان يطبع منها في البداية ٣٥٠ نسخة زيدت فيما بعد لتصبح ٧٠٠ نسخة.

وبافتتاح «مدرسة اللسان المصري القديم» قبل صدور «روضة المدارس» ببضعة شهور، أتيح لهنريش بروجش أن يشهد مولدها، فنشر بها دراسة في تاريخ النقود مترجمة إلى العربية، ونصوص المحاضرات التي ألقاها بدار العلوم.[٥٥] وقام تلميذ له يدعى محمد علي بنشر ترجمة بعض النصوص الهيروغليفية، وقدم الصحفي القبطي ميخائيل عبد السيد دراسة في «عادات قدماء المصريين».[٥٦]

التنافس في حقل «المصريات» بالقاهرة – الفرنسيون، والألمان، وغيرهم

كان عقد الستينيات بمثابة «عقد فرنسا» تحت سماء مصر بفضل ميل سعيد وإسماعيل إلى الثقافة الفرنسية، وقناة السويس، وإنجازات مارييت، ومكانة نابليون الثالث. ودخلت كلمة «الإمبريالية imperialism» اللغة الإنجليزية في الخمسينيات، وارتبطت غالبًا بالإمبراطورية الفرنسية الثانية.[٥٧] فقد أدت مواقف نابليون الثالث في حرب القرم، والمكسيك، والهند الصينية، ومصر إلى الربط بين هذا المصطلح والتوسع فيما وراء البحار. وشهد عقد الستينيات عددًا أكبر من كتب الدليل السياحي لمصر بالفرنسية فاق عدد ما نشر منها بالإنجليزية.[٥٨] وكانت الإمبراطورة أوجيني نجمة احتفالات قناة السويس في نوفمبر ١٨٦٩م، فجاء ذلك تعبيرًا عن المكانة التي اكتسبتها فرنسا على ضفاف النيل.

---

[٥٤] Louca, Voyageurs, 73.

[٥٥] حسن، والدسوقي، روضة المدارس، ٢١٩–٢٢٠، ٣٦٣–٣٦٥.

[٥٦] حسن، والدسوقي، روضة المدارس، ٢٢٢، ٢٢٧، ٣٦٣–٣٦٥، ٣٨١.

[٥٧] Oxford English Dictionary, 2nd ed. (1989); Grand Larousse de la langue française (Paris, 1971–1978).

[٥٨] انظر الجدول رقم ١ بالملاحق.

وبعد ذلك الحدث بعشرة شهور، مزقت بروسيا الجيش الفرنسي ومعه الإمبراطورية الثانية في موقعة سيدان، وفتحت بذلك الطريق أمام بسمارك لتوحيد ألمانيا، وقيام الرايخ الثاني بقيادة بروسيا. وأدى الحصار الألماني إلى احتجاز مارييت في باريس لعدة شهور، وعندما استطاع السفر، هرع إلى بولاق ليقف في وجه أي تحد من جانب الألمان لصدارة فرنسا في مجال الآثار هناك.[٥٩]

ولم يكن البريطانيون يثيرون قلق مارييت في مجال «المصريات»، فقد كانت اللغة الفرنسية أول اللغات الأوروبية التي صاغت مصطلحات هذا الحقل المعرفي الجديد؛ وبدأ مصطلح «مصرياتي Egyptologue» (أي المشتغل بالآثار المصرية) يظهر عام ١٨٢٧م الذي شهد افتتاح شامبليون للقسم المصري باللوفر، ولحق به مصطلح «المصريات Égyptologîe» حوالي عام ١٨٥٠م. ولم يستخدم مصطلح «مصرياتي» بهجائه الفرنسي ككلمة مستعارة في الإنجليزية إلا على يد كاتب إنجليزي عام ١٨٥٦م، وبدأ استخدام الإنجليزية لكلمة «مصريات» (بهجائها الإنجليزي) عام ١٨٥٩م، لينتشر بعد ذلك استخدامها في الستينيات. وقد مثل الإنجليز في هذا المجال — دون أن يحمل اسمًا ما — كل من سولت وويلكنسون وهاي ولين، في مصر في العشرينيات والثلاثينيات. وفي أيام مارييت كان صامويل بيرش أبرز عالم مصريات بريطاني، واحتل مكانه في التكريم بين رواد علم المصريات على واجهة المتحف المصري الذي أقيم عام ١٩٠٢م، إلى جانب شامبليون، وليبسيوس، وروسيلِّيني رغم أنه لم يزر مصر مطلقًا. وكاد البريطانيون من الدبلوماسيين والتجار والمولين أن يكونوا سلبيين. وكان من سوء طالع فرنسا — ومصر — أن ٦٦٪ من البضائع التي تمر عبر قناة السويس — التي رعاها الفرنسيون — في السنة التالية لافتتاح القناة، بضائع بريطانية، وبحلول عام ١٨٨٠م وصلت النسبة إلى ٨٠٪، كما بلغت نسبة وارداتها إلى مصر ٤٤٪.[٦٠]

---

٥٩ Maspero, “Mariette”, cixxx–xlxxxii.

٦٠ D. A. Farnie, East and West of Suez 1854–1956. (Oxford, 1969), 751–52; A. G. Hopkins, “The Victorians and Africa: Reconsideration of the Occupation of Egypt, 1882”, Journal of African History, 27 (1986), 379.

فيما يتعلق بمصطلح «المصريات» راجع: Dectionnaire de la langue française (Paris, 1988), vol. 5: 97.

وشغلت «المشكلة الألمانية» الفرنسيين الوطنيين بعد عام ١٨٧٠م، ولكن لم يستقر الرأي بينهم على كيفية مواجهة التحدي الألماني، فكان جورج كليمنصو يعتبر التوسع الإمبريالي فيما وراء البحار نوعًا من الإلهاء عن مسألة الحدود الألمانية وإعادة بناء الوطن، وكان جول فيري ومجالس الوزراء الجمهورية من الانتهازيين — في بداية الثمانينيات — والحزب الاستعماري (الذي كان يمثل ائتلافًا من الموانئ، والعسكريين والمعمرين، والمبشرين والجمعية الجغرافية) تمسكوا بالتوسع الخارجي فيما وراء البحار كمقوي ضروري لتفجير طاقة التقدم في فرنسا ذاتها.[٦١]

واتخذت «الرسالة الحضارية» لفرنسا طابع العجلة من جديد بعد عام ١٨٧٠م مع وجود ماريت في المقدمة، ولا بد أن يكون قد استاء من سماع الشائعة التي رددها الألمان دائمًا من أنهم سيسعون لجعل زميله القديم هنريش بروجش خلفًا له في إدارة مصلحة الآثار والمتحف. فقد كان لدى بروجش خبرة بالعمل في القنصلية البروسية بالقاهرة، كما كان يتولى نظارة «مدرسة اللسان المصري القديم» بالقاهرة، ووفرت كفاءته العلمية لعلم المصريات الألماني مكانة في القاهرة لم تعرفها بلاده منذ أيام ليبسيوس.

وبعد عودة ليبسيوس إلى برلين عام ١٨٤٦م، ما لبث الألمان أن أصبحوا في وضع يسمح لهم بمنافسة الفرنسيين في قيادة علم المصريات. واتخذ ليبسيوس من المتحف المصري ببرلين وجامعة برلين قاعدتين لتكوين وتدريب الجيل الثاني من الألمان المتخصصين في المصريات. وكرمه القيصر فيلهلم الأول بدعوته لتناول الشاي معه، واجتذبت دائرة تألق ليبسيوس المستشرق ماكس مولر، والأخوان جريم، والجغرافي كارل بيتر، والمؤرخ ليوبولدفون رانكه، والفيلسوف فردريش شيلنج، ومؤرخ الرومان تيودور مومسن.[٦٢] حتى ماسبيرو أشاد به واعتبروه «معلمنا جميعًا».[٦٣]

---

[٦١] Cristopher M. Andrew and A. S. Kanya-Forstner, The Climax of French Imperial Expansion 1914–1924 (Stanford, 1981); Mathew Burrows, "'Mission civilisatrice': French Cultural Policy in the Middle East 1860–1914", Historical Journal 29 (1986), 109–35.

[٦٢] George Ebers, Richard Lepsius, A Biography, trans. Z. D. Underhill (New York, 1887), 275–76; Suzanne L. Marchand, Down from Olympus: Archaeology and Philhellenism in Germany 1750–1970 (Princeton, N.J., 1996) 49, 108.

[٦٣] Ebers, Lepsius, 300.

وبينما كان بسمارك يقوم بتوحيد ألمانيا بزعامة بروسيا، وبلغت حلقات الأبحاث والمعامل الألمانية درجة جعلتها موضع حسد العالم، كان مجال المصريات يبني نفسه كتخصص أكاديمي، فأنشئت كراسي الأستاذية في مختلف أنحاء ألمانيا: جامعة جوتنجن (١٨٦٨م، وشغله هنريش بروجش)، وجامعة ستراسبورج (١٨٧٢م، وشغله يوهان دوميشن)، وجامعة هايدلبورج (١٨٧٢م، وشغله أوجست إيسنلور)، وانضمت أسماء بروجش ودوميشن وإيبرس إلى جانب اسم ليبسيوس على اللوحة التي حملت أسماء رواد المصريات على واجهة المتحف المصري بالقاهرة.[٦٤] وحمل بروجش هذه الإشراقات الألمانية في مجال المصريات معه إلى القاهرة، وكان يصغر ليبسيوس بسبعة عشر عامًا، ولم يتعامل معه ليبسيوس كأحد حوارييه بل عده منافسًا له، فقد حصل بروجش على الدكتوراه من برلين، ولكنه علم نفسه بنفسه أكثر مما تعلمه من ليبسيوس، وبعد أن قام بروجش بعدة دراسات في باريس، حصل على منحة زمالة بروسية للبحث في مصر، فأجرى حفائر في سقارة بجوار حفائر مارييت لمدة ثمانية شهور، وبعد أن قام ببعثة دبلوماسية في بروسيا، وأسس أول مجلة ألمانية في المصريات عام ١٨٦٣م، عاد إلى القاهرة قنصلًا عامًّا لبروسيا، وأخيرًا أسس كرسي للمصريات بجامعة جوتنجن عام ١٨٦٧م من أجله، ولكنه عاد إلى القاهرة بعد عامين ليتولى نظارة «مدرسة اللسان المصري القديم».[٦٥]

وشهد عام ١٨٦٤م حادثًا أدى إلى إساءة علاقة مارييت مع الألمان، فقد نسخ دوميشن لوحة الملوك التي اكتشفها عمال مارييت في أبيدوس، وأرسل النسخة إلى ليبسيوس الذي نشرها دون أن ينوِّه بجهد مارييت. واعتبر ذلك ماسًا بالشرف الوطني وسط الصخب الذي أثير حول هذه المسألة، حتى إن دوميشن وصل إلى درجة تحدي مارييت لمبارزته.[٦٦]

ولكن صداقة ماريت وبروجش ساعدت على تهدئة العاصفة، وفي أواخر يونيو ١٨٧٠م استقلَّا باخرة واحدة من الإسكندرية إلى مارسيليا لقضاء إجازة الصيف. وعندما وصل مارييت إلى باريس في ٦ يوليو، كان لوي أدولف تير يبذل آخر محاولة يائسة لمنع الجمعية الفرنسية من إعلان الحرب على بروسيا، ومع تردد أصداء الحرب الفرنسية

---

[٦٤] حول تواريخ كراسي الأستاذية، انظر تحت أسماء هؤلاء موسوعة Who Was Who 3.

[٦٥] Louis Keimer, “Le Musée égyptologique de Berlin” Cahiers d’histoire égyptienne, ser. 3, fasc. 1 (Nov. 1950), 30–36.

[٦٦] Maspero, “Mariette”, cxlvi–cli.

— البروسية كان هناك شيخ سوداني يرقبها من بعيد، ويزعم أنه «يعلم جيدًا أن ملك الألمان قد توفرت لديه الموارد التي تجعله قادرًا على سحق الفرنسيين بفضل الكنوز التي عثر عليها الخواجة ليبسيوس في مرو وأرسلها إلى بلاده».[٦٧] وحشد أعداء مارييت جهودهم أثناء غيابه بباريس بسبب الحصار، داعين إسماعيل أن يستبدل به بروجش، ولكن بروجش نأى بنفسه عن تلك المؤامرات، ورد عليه مارييت قائلًا:

«إنك بالنسبة لي لست ألمانيًّا، إنك بروجش وحسب، ولست بحاجة لشرح موقفك من تلك الأحداث. لقد أثرت على مشاعري كمواطن فرنسي، ولكنها لم تبدل من مشاعري كإنسان، وخاصة نحوك. إنني أحبك كصديق حق، وقد أحببتك دائمًا بحماس طبيعي لا يقضي عليه شيء ولن يقضي عليه شيء.»[٦٨]

وبعد ذلك بعامين قام مارييت بتوظيف إميل شقيق بروجش الأصغر مصورًا بمصلحة الآثار، وقدر له أن يخدم بمصلحة الآثار سنوات طوال.

وأدت وفاة دي روجيه عام ١٨٧٣م إلى خلو مكانه في كلية فرنسا ومتحف اللوفر، ولكن مارييت لم يهتم بالسعي لنيل أي من الوظيفتين وتركهما لماسبيرو وفرانسوا شابان وقال إن الواجب يدعوه إلى التمسك بموقعه «في مصر في مواجهة النفوذ الألماني الذي يضغط بمختلف الوسائل».[٦٩]

وعندما قام جورج بانكروفت «مؤلف تاريخ الولايات المتحدة، ثوكيديدس أمريكا» بزيارة مصر، وجده مارييت منحازًا للألمان إلى حد نكران مساعدة فرنسا للأمريكان في الحصول على الاستقلال.[٧٠] وعندما أصبح بانكروفت سفيرًا في برلين — فيما بعد — انضم إلى دائرة ليبسيوس، وكانت تلك الروابط «الأنجلو سكسونية» التي تجذب الأمريكان إلى أبناء عمومتهم الألمان أمرًا طبيعيًّا، فقد انضم بريطانيان هما النحات جوزيف بونومي، والمعماري جيمس وايلد إلى بعثة ليبسيوس ... وكان الدبلوماسي البروسي البارون فون بونس — عاشق المصريات — ميالًا للإنجليز ومتزوجًا من إنجليزية، وأصبح سفيرًا لبروسيا في لندن.[٧١]

---

[٦٧] Ebers, Lepsius, 157.

[٦٨] Maspero, “Mariette”, clxxxii.

[٦٩] Maspero, “Mariette”, cxc.

[٧٠] Mariette, Mariette, 117–119.

[٧١] On Bonomi Wild, and Bunson, see Who Was Who 3, 53–54, 442, 73.

ولم يكن واردًا أن يسعى الطليان لإدارة مصلحة الآثار بالقاهرة، لقد كانت اللغة الإيطالية هي الأكثر شيوعًا في البحر المتوسط في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وفي عام ١٨٤٥م كانت أول صحيفة La Spettatore Egiziano (المشهد المصري) أول صحيفة ذات شأن في مصر بعد صحف الحملة الفرنسية التي انتهى أمرها، وصحيفة «الوقائع المصرية»، وقد صدرت ثلاث صحف إيطالية أخرى بمصر في الخمسينيات.[٧٢] وفي نفس الوقت الذي صدرت فيه ثلاث صحف فرنسية أيضًا، وحتى الستينيات كان الفرنسيون يعتبرون اللغة الإيطالية هي لغة التجارة والإرساليات التبشيرية في شرق البحر المتوسط.[٧٣] وتولت شركة إيطالية إدارة البريد في مصر، وتولى إيطاليان إدارة الخدمة الصحية، والإحصاء. ولكن اعتبارًا من ١٨٦٧م، حلت الفرنسية محل الإيطالية كلغة ثانية على طوابع البريد المصرية، وفي السبعينيات أصبحت الفرنسية لغة المحاكم المختلطة، ولغة «الرقابة الثنائية» الأنجلو-فرنسية على المالية المصرية، وكذلك لغة الطبقات العليا من الأجانب في مصر.

وأضفت أسماء روسيلِّيني، ولوجي فاسالي، وأماديو بيرون مسحة إيطالية على لوحة التكريم بواجهة المتحف المصري بالقاهرة. فقد نشر بيرون قاموسًا للقبطية عام ١٨٣٥م قبل أن يركز جهوده في الدراسات اليونانية. وجاءت وفاة روسيلِّيني المبكرة لتنهي عمله الذي كان واعدًا. وعمل فاسالي (١٨١٢–١٨٨٧م) مساعدًا لماريت بالمتحف المصري، وكان أكبر منه سنًّا، ولا يصلح لخلافته في منصبه.[٧٤] أما النجم الحقيقي الإيطالي في علم المصريات فكان جيسب بوتِّي الذي عين عام ١٨٩٢م مديرًا للمتحف اليوناني-الروماني بالإسكندرية، الذي أصبح مركزًا للثقافة الإيطالية.

علم «المصريات» للمصريين – بروجش ومدرسة اللسان المصري القديم

أراد إسماعيل وعلي مبارك أن يكونا فريقًا من الشباب المصري المتخصص في الآثار المصرية القديمة للعمل إلى جانب الأوروبيين بمصلحة الأنتيكات (الآثار) والمتحف المصري.

---

[٧٢] Angelo Sammarco, Gli Italiani in Egitto (Alexandria 1937) 151–53.

[٧٣] Jean-Jacques Luthi, Le Français en Egypte (Beirut, 1981).

[٧٤] L'Egittologo Luigi Vassalli (1812–1887), Disegni e documenti nei Civici Istituti Culturali Milanesi (Milan, 1994).

وعارض مارييت هذه الفكرة خوفًا على منصبه، ولكن التنافس الفرنسي — الألماني في حقل الآثار المصرية أوجد ثغرة في صفوف الأوروبيين هيأ للمصريين فرصة إيجاد موقع لقدمهم في مجال «المصريات». وفي خريف ١٨٦٩م تعاقد علي مبارك مع هنريش بروجش للعمل لمدة خمس سنوات ناظرًا «لمدرسة اللسان المصري القديم» براتب قدره خمسمائة فرنك شهريًّا.[٧٥] وتضمنت ميزانية عام ١٨٧١-١٨٧٢م تخصيص ١٠٠٩ جنيهات مصرية لثلاثة أساتذة، و١١٢ جنيهًا مصريًّا للمنح الدراسية للطلاب.[٧٦]

ورحب إسماعيل بعودة بروجش إلى مصر، وكان ذلك بحضور علي مبارك، حيث تذكرا أيام الدراسة في باريس، وتحدث مبارك عما حققه من تقدم في إعداد موسوعته «الخطط التوفيقية». ولا بد أن يكون بروجش على صلة بالطهطاوي بحكم كونه عضوًا بمجلس تحرير «روضة المدارس» التي تولَّى رفاعة الطهطاوي رئاسة تحريرها ولعلهما تعاونا معًا في «المجمع العلمي المصري».

افتتح بروجش المدرسة في بيت كان مهجورًا، بالقرب من متحف بولاق، وبدأت المدرسة بعشرة طلاب تم اختيارهم من بين طلاب المدارس الأخرى من بين أصحاب أعلى الدرجات في اللغة الفرنسية.[٧٧] ومن الغريب أن يتضمن الأمر الخاص باختيار الطلاب شرط أن تكون بشرتهم سمراء كأبناء الصعيد والسودان،[٧٨] فهو يعيد إلى الأذهان المحاولة الفاشلة التي قام بها محمد علي لتزويد جيشه بالسودانيين. وعلق بروجش على ميل بشرة بعض الطلاب إلى البياض بأنهم ربما كانت أمهاتهم من التركيات. ورغم أن الفرنسية كانت لغة التدريس بالمدرسة، فقد عيَّن بروجش أخاه إميل لتدريس الألمانية بالمدرسة،

---

[٧٥] دار الوثائق القومية، فهرست بطاقات الدار، درج ١ آثار، أمر صادر إلى ديوان المالية، دفتر ١٩٣٩م، رقم ١٤٠، ص١٤٥ بتاريخ ١٥ صفر ١٢٨٩هـ، وأفضل مصدر ثانوي هو كتاب أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في مصر من نهاية حكم محمد علي إلى أوائل حكم توفيق ١٨٤٨–١٨٨٢م، ٣ أجزاء، (القاهرة، ١٩٤٥م).

[٧٦] Amal Hilal, "Les premiers égyptologues égyptiens et la réforme", in Entre réforme sociale et mouvement nationall: Identité et modernisation en Égypte (1882–1962) ed. Alain Roussillon (Cairo, 1995).

[٧٧] أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم، ٢: ٥٧٠-٥٧١ يذكر أسماء الطلاب الذين برز من بينهم أحمد كمال وأحمد نجيب.

[٧٨] ورد في أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم، ٢: ٥٦٩.

وتولى بروجش تدريس اللغة المصرية القديمة، وأرسل البطريرك القبطي من تولَّى تدريس القبطية للطلاب،[٧٩] كما تولَّى أحد الأزهريين تدريس اللغة العربية، وكان بروجش يأخذ الطلاب معه في رحلات ميدانية إلى الصعيد من حين لآخر. واصطحب معه — في رحلة علاج إلى أوروبا — طالبَين من طلاب المدرسة بهدف توسيع أفقهما، تاركًا الآخرين يتابعون الجدول المقرر للدراسة. ولما كانت الرطوبة تمثل إحدى سوءات مبنى المدرسة، فقد تم نقلها إلى مجمع المدارس بدرب الجماميز.

ونهج بروجش نهج ماربيت والطهطاوي في محاولة جعل العقيدة المصرية القديمة تبدو في صورة مقبولة أمام المسلمين. وعندما اكتشف أن بعض صفات آمون إله طيبة، وبتاح إله منف، وغيرهما من المعبودات تتفق تمامًا مع التسعة والتسعين اسمًا من أسماء الله الحسنى في الإسلام، أكد أن قدماء المصريين عبدوا إلهًا واحدًا، وأن صفات الرب الواحد تكمن تحت سطح التعددية التي تبدو في الديانة المصرية القديمة.[٨٠]

ولجأ إسماعيل وعلي مبارك إلى ألماني ليتولى إدارة «الكتبخانة الخديوية» التي أقيمت عام ١٨٧٠م، قبل الحرب الفرنسية — البروسية ببضعة شهور، وهي الحرب التي دعمت مكانة الألمان بالقاهرة.

ففي عام ١٨٧٢م، أصبح لودفيج شتيرن — التلميذ السابق لبروجش، ناظرًا للكتبخانة الخديوية. وقد درس شتيرن علم المصريات بجامعة جوتنجن، كما درس اللغات العبرية والعربية، والحبشية وختم حياته العلمية خبيرًا بالسلتية، وأمينًا للمخطوطات بالمكتبة الملكية في برلين.[٨١] وأعقب شتيرن أربعة من المستشرقين الألمان في إدارة دار الكتب المصرية (الكتبخانة الخديوية) على التوالي، فأصبحت الدار — بذلك — مركزًا للنفوذ الثقافي الألماني حتى عام ١٩١٤م.

وتسبب تعيين بروجش مفوضًا عامًّا لتمثيل مصر في «معرض فيينا» عام ١٨٧٣م إلى التأثير على طاقة عمله في مدرسة اللسان المصري القديم. وفي ١٨٧٦م، أصبح — مرة أخرى — مفوضًا لمصر في «معرض فيلادلفيا الدولي». وأثر قرار الحكومة المصرية

---

[٧٩] يذكر أحمد عزت عبد الكريم أن ميخائيل جرجس كان يدرس الحبشية بالمدرسة، تاريخ التعليم، ٢: ٥٦٩.

[٨٠] Brugsch, Leben, 299.

[٨١] Who Was Who 3, 404.

بإدخال تدريس الألمانية ضمن برامج الدراسة بالمدارس المصرية في أعقاب حرب السبعين على طلاب «مدرسة اللسان المصرية القديم» الذي وقع عليهم عبء القيام بتدريس الألمانية بالمدارس بحكم كونهم من أوائل من درسها من المصريين، واقترح أن يختار بروجش خمسة من الطلاب يوفدون إلى بروسيا أو النمسا ليتم إعدادهم لتدريس الألمانية، ولكن الاقتراح لم ينفذ، غير أن أحمد كمال وستة من زملائه طلاب «مدرسة اللسان المصري القديم» عينوا مترجمين ومعاونين بديوان المدارس عام ١٨٧٢م. وأغلقت المدرسة عام ١٨٧٤م أثناء وجود بروجش بالخارج، وتم نقل ما تبقى من طلابها، وكانوا خمسة أفراد، إلى وظائف بمصلحة السكك الحديد ونظارة الجهادية.[٨٢]

واتخذ من غياب بروجش لتمثيل مصر بمعرض فيينا ذريعة لإغلاق المدرسة،[٨٣] ولعل عداء مارييت للمدرسة منذ نشأتها كان من بين أسباب إغلاقها. ويثير تقرير بروجش التساؤل حول مدى التزام مارييت بجذب اهتمام المصريين إلى تاريخهم القديم:

«كان الخديو راضيًا تمامًا عن عملي، كذلك كان وزير التعليم سعيدًا بعملي، مما جعلني موضع حسد نظار المدارس ... وشعر صديقي القديم مارييت بالقلق من أن يشمر الخديو عن ساعده ويعين خريجي المدرسة في متحفه، وعبثًا حاولت تبديد مخاوفه، فقد استمرت هواجسه حتى إنه أمر موظفيه بمنع أي مصري من نسخ النقوش الهيروغليفية، وكان مثل هؤلاء يطردون ببساطة من المعبد.»[٨٤]

وقد قرر مفتش سويسري أن خريجي مدرسة اللسان المصري القديم ضعاف في اللغة والتاريخ، وينقصهم «التوافق العلمي»، وأن ما يناسبهم العمل في الوظائف الدنيا بالمتحف ومصلحة الآثار،[٨٥] وجاء رفض مارييت قبولهم للعمل بمصلحته ليقضي على مبرر وجود المدرسة. وبعد ذلك بسنوات، التقى بتري أحد خريجي المدرسة ببنها، كان «يتكلم الإنجليزية بمستوى متوسط»، وكان يعمل سكرتيرًا لمهندس إنجليزي ثم لمدير

---

[٨٢] أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم، ٢: ٥٧٢، ويذكر أن أمين سامي أخطأ في كتابه «التعليم في مصر» (القاهرة ١٩١٧م) عندما ذكر أن المدرسة استمرت حتى ديسمبر ١٨٧٦م.

[٨٣] أحمد عزت عبد الكريم، ٢: ٥٧٢؛ Maspero, “Mariette”, clxxvi, clxxxvi.

[٨٤] Brugsch, Leben, 282.

[٨٥] J. Heyworth-Dunne, Introduction to the History of Education in Modern Egypt (London, 1968), 355.

المديرية التي تقع فيها منف، ولكنه كان عاطلًا عن العمل،[٨٦] وقد نجح أحمد كمال وأحمد نجيب في العودة إلى العمل في مجال الآثار المصرية القديمة غير أن مارييت نجح — إلى حين — في إحباط أول محاولة قامت بها الحكومة المصرية لتكوين فريق من المصريين في مجال «المصريات».

مصر القديمة والجمهور المصري

كانت هناك مؤشرات تدل على أن اهتمامًا متواضعًا مطردًا، أخذ يظهر عند المصريين، بتاريخ مصر القديمة، وذلك خارج إطار مصلحة الآثار والمتحف المصري ومدرسة اللسان المصري القديم؛ ففي أغسطس ١٨٦٧م صدرت جريدة «الأهرام» وقد اتخذت من هرمين وأبي الهول شعارًا لها في قمة صفحتها الأولى، وكان محرراها سليم وبشارة تقلا من الشوام المسيحيين المهاجرين إلى مصر ويميلان لفرنسا. وقدمت الأعداد الأولى للجريدة تاريخًا مشوهًا لأهرام الجيزة، فذكرت ما يقال من أنها شيدت لحفظ المعرفة من الفيضان، أو لخزن الغلال، أو مراقبة النجوم، وأنه يقال إن خفرع ابن خوفو الأول وضع حجر الأساس للهرم الأكبر الذي تم بناؤه في عهد خفرع الثاني.[٨٧]

وفي عام ١٨٦٧م استبدل بالطغراء والزخرفة العربية الإسلامية رسمًا لهرم وأبي الهول على طوابع البريد المصرية التي صدرت قبل ذلك بعام واحد. ولعل الهرم وأبي الهول كانا يعكسان أفكار الأوروبيين عنهما باعتبارهما رمزًا قوميًّا لمصر، ولكن كان الأمر يتطلب موافقة الخديو على هذا الاختيار. وكانت هناك شركة إيطالية للبريد تعمل في مصر قبل تأسيس مصلحة البريد عام ١٨٦٥م التي تولَّى إدارتها موتزي مدير شركة البريد الخاصة القديمة. وكانت الخطابات الواردة من مصر إلى الغرب حاملة الهرم وأبي الهول فيما بين ١٨٦٧ و١٩١٤م تؤكد الصفة القومية لتلك الرموز. وقد حملت تلك الطوابع اسم السلطان العثماني — صاحب السيادة الشرعية — حتى عام ١٩١٤م عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، وقطعت بذلك روابطها الإسمية بالدولة العثمانية.[٨٨]

---

[٨٦] Petrie, Seventy Years, 64.

[٨٧] يونان لبيب رزق، الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، ١٢–١٨ أغسطس ١٩٩٣م. وإبراهيم عبده، جريدة الأهرام، تاريخ وفن ١٨٧٥–١٩٦٤م (القاهرة ١٩٦٤م).

[٨٨] حول طوابع البريد، انظر مادة Egypt في: Scott 2000 Standard Postage Stamp Catalogue, Countries of the World, vol. 2: Countries C–F (Sidney, Ohio, 2000).

وحتى جمال الدين الأفغاني — الفارسي المولد — داعية الجامعة الإسلامية استخدم أحيانًا الفخر بمصر القديمة في إثارة المشاعر الوطنية عند المصريين، إذ يقول: «انظروا إلى أهرام مصر، ومعابد منف، وخرائب طيبة، وهياكل سيوة، وقلاع دمياط، كلها تشهد بصلابة آباءكم، وعظمة أجدادكم.»[٨٩] وكتب تلميذه الشيخ محمد عبده سلسلة من المقالات عام ١٨٧٦م يربط فيها بين عظمة مصر القديمة ونهضة مصر في عهد الخديو إسماعيل.[٩٠]

وفي العام ١٨٦٢م، كتب أحد كبار الملاك المصريين ذوي الجذور التركية — الشركسية، نصيحة لولده باللغة العربية، أبدى فيها استياءه من استخدام الزي، والعادات، والطب، والأفكار الغربية. وحبذ ارتداء الزي الوطني التقليدي إلا إذا دعت الخدمة في الحكومة إلى ارتداء الأفندية الزي الغربي، وفضل استخدام التقويم الإسلامي الهجري، ونصح بدراسة اللغات الإسلامية قبل دراسة اللغات الأوروبية. غير أن قائمة حكام مصر التي أوردها لم تبدأ بالفتح الإسلامي، ولكنها تبدأ بالفراعنة.[٩١] فحتى هذا الرجل المحافظ الذي ينتمي إلى نخبة كبار الملاك استوعب بالفعل أن مصر القديمة مكون أساسي من مكونات التراث القومي.

علم «المصريات» في المجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية الخديو

بتأسيس «المجمع العلمي المصري» عام ١٨٥٩م، أقام الأوروبيون المقيمون بمصر جمعية علمية على الطراز الغربي على أرض مصر. وكان المجمع على مدى أربعة عقود منبرًا للحديث عن مصر القديمة، واستمر بعدها في ذلك بتركيز أقل.

وكانت مثل هذه المحافل العلمية في أوروبا ذات طابع وطني ودولي معًا. واعتقد فلاسفة القرن الثامن عشر بوجود جامعة أوروبية يطلق عليها «جمهورية الأدب» وهي — عند فولتير «جمهورية عظمى».[٩٢] وفي القرن التاسع عشر، ناضلت الأوساط الغربية

[٨٩] Charles Wendell, The Evolution of the Egyptian National Image From Its Origins to Ahmed Lutfi al-Sayyid, (Berkley, Calif., 1972), 169.

[٩٠] Angelo Sammarco, Histoire de l'Égypte modern depuis Mohammed Ali jusqua'à l'occupation britannique 1801–1882 (Cairo, 1937), 324.

[٩١] مخطوط «إرشاد الولد»، لكاشف زاده محمد عقيل بهارالي، ويحمل أيضًا اسم محمد عقيل بن محمد كاشف، دار الكتب المصرية.

[٩٢] David C. Gordon, Images of the West: Third World Perspectives (n.p. 1989), 15.

الاشتراكية والدينية والعلمية من أجل إبقاء جسور الصلات الدولية مفتوحة عبر ساحة القوميات المتصارعة. ونظر دعاة النزعة الدولية إلى مجتمعاتهم — غالبًا — على أنها «غربية» وحسب.

وقد أدى وضع مصر كبلد شبه مستعمر إلى تعقيد الصورة داخل «المجمع العلمي المصري»، فقد كان المجمع تحت رعاية الخديو، ولكن الأجانب يسيطرون عليه سيطرتهم على البلاد، وهنا كان على الأوروبيين أن يتواصلوا مع الجاليات الأوروبية الأخرى أكثر مما يفعل زملاؤهم في أوروبا في الجمعيات ذات الطابع القومي. كان الأعضاء يعملون «للعلم ذاته»، ولكن أنظارهم لم تتحول عن موضع كل فرد في التنافس الأنجلو-فرنسي، أو الفرنسي-الألماني، وغيرها من المنافسات الأوروبية التي ازدحمت بها الساحة.

وراء تلك المنافسات الأوروبية، قبعت موضوعات الإمبريالية والعنصرية. فقد أدى افتتاح قناة السويس إلى تدفق الأوروبيين على مصر، ونتج عن ذلك تزايد أعداد كنائسهم، ومدارسهم، ومستشفياتهم وصحفهم، ونواديهم، وجمعياتهم الخيرية. وقد جرب الأوروبيون الأقل التزامًا باتجاه جالياتهم — حدود نزعتهم الدولية في المجمع العلمي المصري، ومصلحة الآثار، والمتحف المصري، والكتبخانة الخديوية، والجمعية الجغرافية الخديوية، والمصالح الحكومية الأخرى، ولكن خطوط المثالب القومية والأوروبية — المصرية لم تكن بعيدة تمامًا عن السطح.

لقد نظر مؤسسو «المجمع العلمي المصري» عام ١٨٥٩م إلى المجمع الذي أسسه نابليون بمصر (على نسق المجمع العلمي الفرنسي بباريس) كإطار مرجعي لهم، وبدرجة أقل وضوحًا إلى «الجمعية المصرية» التي أُسِّست عام ١٨٣٦م. كان المجمع العلمي الفرنسي يضم عددًا من الأكاديميات بكل منها عدد محدد من المقاعد. وكان الالتحاق به يتم بالانتخاب، غالبًا عند خلو مقعد لوفاة شاغله. وكانت غالبية أعضاء «الجمعية المصرية» من البريطانيين، ولكن عضويتها كانت مفتوحة على الأقل للغربيين. وكان جومار — الذي بلغ الثالثة والثمانين من عمره — هو الصلة الوحيدة بين «المجمع العلمي المصري» الذي اختفى من القاهرة عام ١٨٠١م، و«المجمع المصري» الجديد.[٩٣]

[٩٣] كان جومار في الحادية والعشرين من عمره عام ١٧٩٨م، ولم يكن عضوًا بالمجمع العلمي المصري، ولكنه كان وثيق الصلة به، انظر: J. E. Gorby, “Travaux de premier Institut d’Égypte (1798–1801)”, Bulletin de la Société Française d’égypto logie, 66 (March, 1973), 36.

فقد كتب من باريس موافقته على قبول العضوية الفخرية. وفي عام ١٨٦١م أصبح رئيسًا فخريًّا للمجمع. ولعل لينان دي بلفون كان الوحيد من بين أعضاء «الجمعية المصرية» السابقين، الذي انضم إلى المجمع الجديد.[٩٤]

ورغم رعاية الحكومة المصرية للمجمع العلمي الثاني، ونزعته الدولية، فإن قائمة العضوية تكشف عن تفرد الفرنسيين وتهميش الوجود المصري لعدة عقود من الزمان. واحتل الأمير نابليون رأس قائمة الأعضاء الفخريين عام ١٨٥٩م. وتعاقب على الرئاسة الشرفية للمجمع أربعة من الفرنسيين يليهم الأرمني المتمصر (يعقوب أرتين) فيما بين ١٨٦١ و١٩١٧م، كما تولَّى الفرنسيون الرئاسة الفعلية ومنصب نائب الرئيس طوال الأعوام الثلاثين الأولى من عمر المجمع، وكانت الفرنسية هي لغة التعامل والعمل بالمجمع، مع قبول الإنجليزية، والإيطالية والألمانية.

ويشير الجدول رقم ٥ (انظر الملاحق) إلى أنه في عام ١٨٥٩م، بلغت نسبة العضوية الشرفية للفرنسيين ٦٠٪، ونسبتهم بين الأعضاء المقيمين ٤٣٪، والمراسلين من خارج الشرق الأوسط ٣٨٪. وجاء بعدهم الإيطاليون — عشية توحيد إيطاليا — بمسافة كبيرة. وشغل أنطونيو كولو تشي — طبيب العائلة الخديوية — مركز نائب الرئيس لخمس سنوات، وتولى الرئاسة لمدة عشر سنوات. وكان اختيار كونج بك — سكرتير سعيد ومعلمه السابق الألزاسي المولد — أول رئيس للمجمع تأكيد لرعاية الوالي له. فقد زار سعيد المجمع، وامتدحه لأنه «بعث المعرفة على ضفاف النيل التي يكمن فيها سر عظمة مصرنا القديمة، مهد الآداب والعلوم والفنون».[٩٥] وكان مارييت أحد أول نائبين للرئيس، أما الآخر فكان بريطانيًّا.

واتخذ المجمع مقره الأول بالإسكندرية، الميناء الرئيسي للبلاد، حيث تقيم جاليات أوروبية كبيرة، وكان الثغر قد تطور في عهد محمد علي، وأعادت قناة السويس البحر المتوسط إلى المجرى الرئيسي للتجارة الدولية. ويسر خط القاهرة–الإسكندرية الحديدي لرجل يقيم بالقاهرة مثل مارييت أن يصبح من الأعضاء المقيمين. وكان وراء اختيار الإسكندرية مقرًّا للمجمع — بالطبع — ذكريات مكتبة الإسكندرية القديمة ومتحفها.

[٩٤] Jacques Ellul, Index des Communications et mémoires publiés par l'Institut d'Egypte (1859–1952), (Cairo: IFAO, 1952).

[٩٥] Bulletin de l'Institut d'Egypte, I (1859), 2.

وأعلن المجمع أن عضويته متاحة للجميع بغض النظر عن الأصل العرقي والاجتماعي — دون أن يشمل ذلك النوع — كما أنه مفتوح لكل الحقول المعرفية. وتعهد المجمع بتقديم النصائح العلمية للحكومة فيما يتعلق بالمحاصيل، والماشية، والأمراض التي تصيب الإنسان، شأنه في ذلك شأن المجمع الأول، والسان سيمونيين الذين أرادوا استعمار مصر في الثلاثينيات.[٩٦] وعقد المجمع اجتماعًا شهريًّا من الخريف إلى الربيع، وهو الوقت الذي يسافر فيه الأثرياء من الأجانب المقيمين في البلاد لقضاء الصيف في أوروبا.

واستطاع المجمع أن ينجو بنفسه خلال الأزمة المالية والسياسية التي عانتها مصر فيما بين ١٨٧٥ و١٨٨٢م، بصعوبة بالغة. وفي عام ١٨٨٠م عدل المجمع لائحته، وانتقل إلى القاهرة في موقعه الحالي بالطرف الشمالي من شارع القصر العيني في مواجهة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكان يضم خمسين عضوًا من المقيمين ونحو المائة من الأعضاء الفخريين، وعدد غير محدود من الأعضاء المراسلين. وجأر مارييت — رئيس المجمع عندئذٍ — بالشكوى لأن إفلاس الدولة حرم المجمع من الإعانة السنوية التي كانت تبلغ ١٥٠٠ فرنك منذ عام ١٨٧٥م. وبمجرد استقرار الاحتلال البريطاني في مصر قام نائب الرئيس إدوارد روجرز — الذي كان موظفًا بالحكومة المصرية — بحثِّ المستشار المالي أوكلاند كالفن على مضاعفة قيمة الإعانة السنوية.[٩٧]

ولكن ماذا عن الأعضاء المصريين؟ كان من بين الأعضاء المقيمين المؤسسين سبعة من المصريين (١٤٪) منهم نوبار باشا الذي أصبح — فيما بعد — رئيسًا للوزراء، ومحمود الفلكي، ورفاعة الطهطاوي.[٩٨] وكان محمود الفلكي هو العضو المصري الوحيد بمجلس الإدارة المكون من ١٨ عضوًا، وخدم الطهطاوي في لجنة النشر مع عضوين آخرَين من الأوروبيين، وهو الموقع الذي خلفه فيه محمود الفلكي، وانضم علي مبارك إلى المجمع فيما بعد، ولكنه لم يلعب دورًا فعالًا.[٩٩]

---

[٩٦] Livre d’or de l’Institut égyptien 1859–1899 (Cairo, 1899), 3.

[٩٧] دار الوثائق القومية، محافظ الأبحاث، ١٣٢ ب، المجمع العلمي المصري.

[٩٨] وكان الآخرون: يوسف حزان حاخام الإسكندرية، والطبيب شافعي بك، ومحمد علي، وعبد الله أفندي سعيد مأمور مصلحة التجارة بالإسكندرية.

[٩٩] Bulletin de l’institut, ser. 2, 5 (1884–85), 167.

ومن الغريب أن «الرجل الأمريكي المقيم بالقاهرة الذي يرد ذكره في كل كتاب عن المدينة» في الستينيات، لم ينتم إلى المجمع.[١٠٠] أما يوسف حككيان فقد كان فريدًا بصحبة الأعضاء الغربيين «بالجمعية المصرية»، مغتربًا عن مصر، البلد الذي تبناه، وكان حريصًا على كشف مستوره أمام أصدقائه الأوروبيين. وعندما وقع «التمرد» في الهند (ثورة ١٨٥٩م)، كتب حككيان إلى صديق بريطاني: «لا بد أن تعملوا على نزع سلاح الهنود، وتجبروا الأهالي على العمل في مد الخطوط الحديدية، وإقامة خطوط البرق، وشق القنوات المحلية في كل اتجاه، واملئوا الأنهار بالبواخر، إنني لا أقبل أن يكون أبناء البلاد جنودًا، عليكم حشد مائة ألف جندي بريطاني بالجبال على أهبة الاستعداد للتحرك بالقطارات إلى الوادي كما تنهمر السيول من الجبال …»[١٠١] وقد صادق حككيان مارييت عندما كان ينقب عن الآثار في منف، وقام بتقديم إدوارد نافي، وبروجش لفردنان ديلسبس، وتبادل الرسائل مع السير شارلز لايل عن الجيولوجيا، وأرسل إلى لوسي دف جوردون قاموسًا عربيًّا، والتقى أمير ويلز عند زيارته لمصر، وحتى المستكشف هنري ستانلي استعان بحكيان للاستعلام عن أحوال أسرة امرأة يونانية كان يأمل الزواج بها. وقد لعب قريبه يعقوب أرتين — فيما بعد — دورًا مشابهًا، وكذلك فعل مرقص سميكة.

وقد بدأ تركيز المجمع العلمي المصري على مصر القديمة منذ كان مارييت نائبًا للرئيس بقراءة تقارير الآثار في الموسم الأول، وتولى مارييت رئاسة المجمع لمدة سبع من سنواته الإحدى والعشرين الأولى، وكان رئيسًا فخريًّا لمدة أحد عشر عامًا أخرى، واستخدم مارييت المجمع للإعلان عن الكشوف الأثرية التي تقوم بها مصلحة الآثار، وحذا حذوه من خلفوه في إدارة المصلحة. وقد ألقى بروجش بحثًا بالمجمع كما ألقى ليبسيوس ثلاثة بحوث، وتولى رئاسة المجمع واحد من غير العاملين في مجال المصريات، خلفًا لمارييت بعد وفاته لفترة قصيرة، ثم تولَّى ماسبيرو الرئاسة حتى عودته لفرنسا عام ١٨٨٦م.

وكانت اثنتان من الأوراق الخمسة التي ألقاها محمود الفلكي بالمجمع تتصل بالمصريات، إحداهما عن أحد الفروع القديمة للنيل، والأخرى عن الإسكندرية القديمة، وتولى محمود الفلكي مهام نائب الرئيس لمدة اثني عشر عامًا. وقد حصل محمود الفلكي

---

[١٠٠] المتحف البريطاني، أوراق حككيان، ٣٧، ٤٦٣ وغيرها.

[١٠١] المتحف البريطاني، أوراق حككيان ٣٤، ٤٦٣، ١٦، ٦٧.

على فرصة متأخرة للدراسة بفرنسا عندما رشحه تلميذه السابق بالمهندسخانة، علي مبارك لعباس الأول لدراسة الفلك. ومكث محمود الفلكي بأوروبا تسع سنوات، وعاد إلى مصر في نفس السنة التي شهدت تأسيس المجمع العلمي المصري. وأبحاث الفلكي التي نشرها بالفرنسية مبعثرة في عدد من المجلات الأوروبية، ومن بينها بحث عن التقويم عند العرب قبل الإسلام، والموازين والمكاييل في مصر الإسلامية، وحفائر وخريطة الإسكندرية القديمة، والجدول الزمني للهرم وعلاقته بالشعرى اليمانية. وتولى نظارة المعارف في الوزارة التي شارك فيها عرابي عام ١٨٨٢م، ولكنه نجا بنفسه سياسيًّا عند وقوع الاحتلال البريطاني، وعاد لتولي نفس المنصب في وزارة نوبار ١٨٨٤–١٨٨٥م، ومات خلالها في مكتبه. وامتدح أرتين — رئيس المجمع — محمود الفلكي إلى جانب ماريت، وماسبيرو وجورج شفاينفورت باعتبارهم من أعضاء المجمع الذين يستحقون خلافة مونج وجاك ليبير، وكلود برتوليه أعضاء المجمع الذي أقامه نابليون في مصر.[١٠٢] وبعد وفاة الفلكي لم يقم المصريون بالمساهمة في الحديث عن المصريات بالمجمع حتى تم انتخاب أحمد كمال عام ١٩٠٤م.

وتم تهميش «المصريات» بصورة أكبر في الجمعية العلمية الرئيسية في ذلك العصر، وهي «الجمعية الجغرافية الخديوية»، غير أن هذه الجمعية جديرة بالذكر لكونها كانت تمثل ملمحًا بارزًا من المشهد الثقافي، وتلعب دور المنبر الأصغر لعلم المصريات. وقد أسسها إسماعيل عام ١٨٧٥م لإضفاء الشرعية على توسعه في أفريقيا، وبث الدعاية له. وكان أول رئيس لها المستكشف الألماني جورج شفاينفورت عالم التاريخ الطبيعي. وقد تولَّى أيضًا رئاسة المجمع العلمي المصري، وكتب فصلًا عن «أصول الأوضاع الحالية للمصريين» نشر بدليل بايدكر.[١٠٣]

وقد اختلف الأعضاء الأُول للجمعية الجغرافية الخديوية عن المجمع العلمي المصري في أمرين: غلبة الإيطاليين، والوجود الأمريكي لأول مرة. وكما يتضح من الجدول رقم ٥

---

[١٠٢] Livre d'or, 9; On al-Falaki see Pascal Crozet, "La Trajectoire d'un scientifique égyptien au XIXe siècle: Mahmoud al-Falaki (1815–1885), in Entre Réforme Sociale, ed. Roussillon, 285–310.

[١٠٣] Donald M. Reid, "The Egyptian Geographical Society: From Laymen's Society to Indigenous Professional Association" Poetics Today 14 (1993) 539–72.

(بالملاحق) فقد فاق عدد الإيطاليين عدد الفرنسيين الذين احتلوا المركز الثاني بين المؤسسين، واحتكر إيطاليان رئاسة الجمعية لفترة طويلة، فتولى الرئاسة الدكتور أونوفريو أباتي (١٨٩٠–١٩١٥م)، وفردريكو بونولا (١٨٨١–١٩١٢م)، فقد كان المستشارون الإيطاليون أصحاب حظوة عند الأسرة الحاكمة طوال تاريخها، وكان أباتي طبيب الأسرة الحاكمة منذ عهد سعيد، وكان أيضًا واحدًا من نائبي رئيس المجمع العلمي المصري من ١٨٨٢م حتى ١٩١٠م.[١٠٤]

وإذا كان المجمع العلمي قد خلا من الأمريكان، فإن الضباط الأمريكيين الذين خدموا في جيش إسماعيل كان لهم حضور بارز في السنوات الثماني الأولى من عمر الجمعية. فقد ساعد هؤلاء الضباط في اكتشاف السودان ورسم خريطته، وأصبح الجنرال تشارلز ستون رئيسًا لأركان الجيش المصري. وقد أجبرت الأزمة المالية إسماعيل على الاستغناء عن الضباط الأمريكان، ولكن ستون استمر موجودًا، ورأس الجمعية الجغرافية من ١٨٧٩م حتى ١٨٨٣م، ولم يعد إلى بلاده إلا عندما أبلغته سلطات الاحتلال البريطاني أنه لم يعد له مكان بالجيش المصري.[١٠٥]

وكان عدد المصريين ٢٥ عضوًا من بين مؤسسي الجمعية البالغ عددهم ١٤٠ عضوًا. ويشير فهرس مجلة المجمع العلمي المصري (١٨٨١–١٨٨٧م) إلى أن المصريين قدموا أربعة بحوث من مجمل ما قدم من البحوث التي بلغ عددها ٣٢ بحثًا. وحضر محمود الفلكي المؤتمر الجغرافي الدولي بفيينا عام ١٨٨١م، وكان نائبًا لرئيس الجمعية الجغرافية مرتين، وتولى رئاستها خلفًا للجنرال ستون.

وقد بدأت «الجمعية الجغرافية الخديوية» بمجموعة من الهواة مع القليل من المتخصصين في مختلف المجالات الأخرى، شأنها في ذلك شأن الجمعيات الجغرافية التي نشأت بالغرب. وكانت تُلقى بها أحيانًا بحوثًا في الآثار، فقد تحدث بروجش أمامها عن اللغة النوبية، وعن المحاجر الفرعونية بوادي الحمامات. وقد منحت الجمعية عضويتها

١٠٤ On Abbate and Bonola, see L. A. Balboni, Gl'Italiani nella Civiltà Egiziana del secolo XIX, 3 vols. (Alexandria, 1906) 3: 28–30, 30–34.

١٠٥ David Shavit, The United States in the Middle East: A Historical Dictionary (New York, 1988), 337.

الشرفية لمارييت قبل وفاته بشهور، كما منحتها لديلسبس وآخرين.[١٠٦] وتضمَّن فهرس مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (١٨٨٨–١٨٩٣م) قائمة بخمسة بحوث عن مصر في العصر الفرعوني، والعصر البطلمي ضمن البحوث التي شملتها القائمة وعددها ٣٢ بحثًا.[١٠٧]

وعلى عكس المجمع العلمي المصري الذي كان عملًا أوروبيًّا، كان تأسيس الجمعية الجغرافية الخديوية «وجمعية المعارف» — التي أنشئت بمباركة من إسماعيل — نابعًا من مبادرات محلية، ولم تكن معنية بالآثار والمصريات. واعتمدت «جمعية المعارف» على اشتراكات الأعضاء، واشترت مطبعة، ونشرت كتب التراث العربي والإسلامي، وقد انهارت الجمعية عندما حصل إسماعيل على فرمان توريث العرش لأبنائه، وعندما فر بعض أفراد الأسرة والحاشية إلى إستانبول ممن كانوا يدعمونها ماديًّا.[١٠٨]

تمثيل مصر في المعارض الدولية، روائع الفراعنة

كون الكثير من الغربيين انطباعهم المباشر عن مصر من خلال المعارض الدولية التي أقيمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولعب ماربيت وهنريش بروجش الدور الرئيسي في تنظيم المعروضات المصرية في عدد من تلك المعارض التي كان الغرض من إقامتها خدمة التقدم الصناعي، والرأسمالية، وتنمية النزعة الاستهلاكية. وكان «معرض لندن الكبير للصناعات الدولية» الذي عقد عام ١٨٥١م الأول في ذلك المجال الذي اختار له الإنجليز والفرنسيون اسم «المعارض الدولية»، وسماه الأمريكان «الأسواق الدولية» وكانت تلك المعارض مفتوحة أمام الجمهور العريض الذي يتجاوز حدود الجمعيات العلمية والمتاحف؛ ولذلك جمعت تلك المعارض بين مجالات مختلفة، فهي تتضمن بعضًا من صفات المتحف، والسوق، كما تتضمن حديقة للملاهي، كذلك لعبت تلك المعارض دورًا تمهيديًّا للسياحة الخارجية.

---

[١٠٦] Bulletin de la Société Khédivial géographique, 8 (May 1880), 34.

[١٠٧] Bulletin de la Société Khédivial géographique, 6 (Nov. 1879) 5; 8 (May 1880), 34; 12 (July 1893), 847–49.

[١٠٨] عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، مجلدان، (القاهرة ١٤٨)، ١: ٢٤٢-٢٤٣.

وكانت «الجمعية الملكية للفنون» في بريطانيا تعرِض المصنوعات في معارض محلية منذ العام ١٧٥٦م، كذلك يرجع تاريخ المعارض المحلية الفرنسية إلى العام ١٧٩٧م. واتجه الأمير ألبرت — رئيس الجمعية الملكية للفنون — وهنري كول، الكاتب والموظف الحكومي، إلى التحرك نحو الساحة الدولية بإقامة «معرض لندن الكبير» عام ١٨٥١م. كان شأن مدرسة مانشستر للعمل الحر مرتفعًا، وتمت تغطية معظم تكاليف المعرض من التبرعات والشركات الخاصة، ورسوم الدخول. وخشي المحافظون من سوء تصرف جمهور العامة، ولكن الطبقة العاملة، أو من كانوا يسمون «أهل الشلن» حضروا المعرض في جماعات التزمت الهدوء. وأقيم حفلا الافتتاح والختام بقصر «جوزيف باكستون كريستال بالاس» المقام من الصلب والزجاج، وحضرت الملكة فيكتوريا في مقصورتها الخاصة عند نهاية المحور الرئيسي للمعرض لتتلقى التقدير الإمبراطوري الرمزي عند الجناح الهندي الذي اختير له موقع إستراتيجي عند ملتقى المحاور، وانتشرت المعروضات البريطانية في مختلف أرجاء المعرض، وكان لكل دولة غربية أخرى جناحها الخاص بها. وتردد على المعرض ستة ملايين زائر على مدى ١٤٠ يومًا، وعندما نقل المعرض إلى سيدينام بقيت معروضات كريستال بالاس حتى احتراق المبنى عام ١٩٣٦م. وتفيض كتب التاريخ في وصف الزينات التي شهدتها سيدينام في الأجنحة اليونانية، والرومانية، والبومبية، والبيزنطية، والرومانسيكية، والقوطية، وفنون عصر النهضة، والصينية، والمغربية، والمصرية.[١٠٩]

وقد أرسلت تونس و«تركيا» — وهوما اصطلح الأوروبيون على إطلاقه على الدولة العثمانية — مفوضًا عن كل منها للمعرض الكبير،[١١٠] وحضر شاه فارس المعرض بنفسه، ولم يكن الجناح المصري رسميًّا؛ لأن الدولة العثمانية اعترضت على المشاركة المصرية المستقلة، كما أن عباس الأول لم يكن في موضع يجعله مضطرًا إلى إبهار الغرب

---

[١٠٩] هناك العديد من الكتب حول هذا المعرض وغيره من المعارض الدولية نشرت بالإنجليزية والفرنسية، ولكن فيما يخص مشاركة مصر راجع:
Timothy Mitchell, Colonising Egypt (Cambridge, 1988); Zeynep Çelik, Displaying the Orient, Architecture of Islam at Nineteenth-Century World’s Fairs (Berkeley, Calif. 1992); Owen Jones and Joseph Bonomi, Description of the Egyptian Court (London, 1854).

[١١٠] History and Description of the Great Exhibition, 1: 46.

بالآثار والفنون المصرية كدليل على التقدم. واختار الدليل الرسمي للمعرض فاتحة له التحنيط والنماذج الإثنولوجية مع صورة «القائمين بالتحنيط من المصريين». واحتوى الجناح المصري على مطبوعات بولاق، وملابس، وسروج، ومحاصيل غذائية، وشرائح من «المرمر الشرقي» وذكر الدليل أن «الطبيعة حبت مصر بالزراعة والتجارة وليس الصناعة، في إطار تقسيم منطقي للعمل».[١١١] وبرزت الآثار الفرعونية وحدها مع انتقال المعروضات إلى سيدينام، فهناك طريق للأسود يقود إلى واجهة معبد على الطراز البطلمي، كتب عليه بالهيروغليفية: «في العام السابع عشر من حكم فيكتوريا، ملكة الأمواج (البحار) أقيم هذا القصر الذي زود بألف تمثال، وألف من النباتات، وغيرها، ليكون بمثابة كتاب يطلع عليه أهل جميع البلاد.»[١١٢] وأقام جوزيف بونومي نسخة من التمثال المزدوج بأبي سمبل توسط الجناح المصري (انظر الشكلين ٢٤ و٢٥).

وجاءت الاستجابة الفرنسية لتحدي «المعرض الكبير» في عهد نابليون الثالث عندما أقيم «المعرض الدولي» في شامب دي مارس عام ١٨٥٥م، حيث قام السان سيموني فردريك لوبلاي بتقديم مشروع سوسيولوجي لعرض المصنوعات البشرية. ألقت وفاة الأمير ألبرت بظلالها على معرض لندن الدولي الثاني الذي أقيم عام ١٨٦٢م، عندما أرسلت كل من مصر واليابان معروضاتها رسميًّا لأول مرة، ولما كان مارييت مفوضًا رسميًّا من قبل سعيد بذلك المعرض، فقد أرسل إلى لندن قطعًا أثرية من المجموعة التي كونها ببولاق من أجل المتحف الذي لم يكن قد افتُتح بعد، ورافق مارييت سعيدًا في زيارته لباريس، وأقام معه بقصر التويلري، ثم صحبه إلى لندن لمشاهدة المعرض.[١١٣]

وحقق معرض باريس الدولي عام ١٨٦٧م، انتصارًا لكلٍّ من نابليون الثالث، ورائد التجديد الحضري البارون هاوسمان، والخديو إسماعيل، ومارييت، وفي تلك المرة أقام لوبلاي دائرة عرض خارجية بالمبنى الرئيسي خصصت للآلات، وأخرى داخلية تستعرض تطور التقدم الحضاري من العصر الحجري حتى ذلك الوقت، وجمع القسم «الشرقي»

[١١١] History and Description of the Great Exhibtion, 3: 150, 147–52, 257.

[١١٢] Nicholas Warner, ed., An Egyptian Panorama: Reports From the 19th Century British Press (Cairo, 1994), 190.

[١١٣] David, Mariette, 144–46.

بين الجناح المصري، وحرملك باي تونس، والحمامات التركية، والكشك العثماني، وبيت الشاي الصيني، في مكان واحد.[١١٤]

ولما كان إسماعيل حريصًا على ذيوع لقب الخديو الجديد الذي حصل عليه، وتأكيد استقلاله عن إستانبول، فقد أوكل إلى مارييت مهمة تقديم معروضات تحقق الإبهار، فخصص قسمًا محددًا من الجناح المصري لكلٍّ من مصر القديمة والوسيطة، والحديثة، كما عرض ديليسبس ما أحرزه العمل في قناة السويس من تقدم متسارع. وصمم مارييت القسم الفرعوني على طراز مقصورة الإمبراطور تراجان بجزيرة فيلة، مع إضفاء لمسات عليه من الدولة القديمة والدولة الحديثة وعصر البطالمة. وقام طريق أبي الهول ليقود الزائر إلى ذلك القسم الذي توسطه تمثال خفرع الشهير المصنوع من الديوريت والتمثال الخشبي «شيخ البلد» من متحف بولاق.

وزين السلاملك الإسلامي، أو حجرة استقبال الرجال بمشكاوات يعلوها هلال ذهبي، ووضعت به تماثيل نصفية لإسماعيل. وقدم محمود الفلكي لوحات الخرائط الخاصة بالإسكندرية قديمًا وحديثًا، وخرائط بينت الجيولوجيا والصناعة والتجارة والري، كما تضمن الجناح المطبوعات العربية والتركية التي صدرت من مطبعة بولاق تعبيرًا عن التنوير والصحوة الثقافية في ظل الأسرة الحاكمة. أما القسم الثالث فاتخذ شكل الوكالة ذات المشربيات التي تميز بيوت القاهرة. ووضعت عشر لوحات مصورة لمناظر لرجال ونساء يعملون بالزراعة والصناعة. واحتوى قسم السويس الفرعوني الحديث على نموذج مجسم للبرزخ ولوحات للخرائط مبين عليها مدن القناة.

ولكن، ما الذي كان معبرًا عن الحقيقة، وما الذي كان شكليًّا؟ ضمت الوكالة بعض الحرفيين وزوج من الجمال، وآخر من الحمير. وشارك الخديو إسماعيل وديليسبس في العرض، فقد وقف ديليسبس في القسم الخاص بالسويس، واستقبل الخديو إسماعيل نابليون الثالث وأوجيني في السلاملك.

واعتذرت الإمبراطورة عن عدم قبول دهبية فخمة حملت اسم «بنت النيل»، هدية من إسماعيل، وانتهى بها المطاف إلى أن تهدى للأمير نابليون، ورغم أن الكاتب

---

[١١٤] Auguste Mariette, Description du parc égyptien: Exposition universelle de 1867, (Paris, 1867); Charles Edmond, L'Égypte à l'exposition universelle de 1867 (Paris, 1867); Mitchell, Colonising, 17.

الرومانسي تيوفيل جويتييه حضر افتتاح قناة السويس فيما بعد، إلا أنه أعلن أن زيارته للجناح المصري كانت رحلته الحقيقية إلى مصر. وفي باريس، شاهد جوتييه فتح إحدى المومياوات، كما شاهد خمسمائة جمجمة انتزعت من المومياوات ورتبت زمنيًّا حسب النظرية الأنثروبولوجية الشائعة عندئذٍ!

وعندما أبدت الإمبراطورة أوجيني ميلها إلى أخذ مجوهرات إحدى الملكات الفرعونيات وبعض التماثيل الفرعونية، أحالها إسماعيل إلى ماربيت، فعرضت عليه إدارة المطبعة الإمبراطورية الفرنسية أو المكتبة الوطنية، أو مقعد بمجلس الشيوخ، أو إدارة اللوفر أو أن يلعب دورًا في مساعدة زوجها في كتابة سيرة قيصر. ولكن ماربيت رفض صراحة أن يعطيها أي من آثار مجموعة بولاق، مضحيًا بما قدمته له من عروض مؤقتة. وقد عاد إسماعيل وديليسبس، وماربيت، وعلي مبارك من باريس بأفكار حول تنظيم احتفالات افتتاح قناة السويس التي أقيمت بعد ذلك بعامين.

وكانت احتفالات قناة السويس التي أقامها إسماعيل وديليسبس، وماربيت، وعلي مبارك في خريف عام ١٨٦٩م، بمثابة رد مصري على المعارض الكبرى، فقد حشدت الاحتفالات موارد الدولة والموارد الخاصة من أجل إبهار العالم، تضمن إقامة أجنحة مؤقتة، وجذب مجموعة من النجوم الدولية. وأعد ماربيت دليلًا بهذه المناسبة، وصحب ملوك وأمراء أوروبا — بنفسه — في جولتهم بصعيد مصر. كما اقترح الإطار لما أصبح يعرف فيما بعد بأوبرا عايدة لفردي، فرسم الحوادث منذ عهد رمسيس الثالث، وصمم الملابس على ضوء المناظر التي جاءت بالمقابر الفرعونية، ورسم بنفسه، بالألوان المائية، الستائر الخلفية للعرض الدولي الأول بدار الأوبرا بالقاهرة في ديسمبر ١٨٧١م.[١١٥]

وفي عام ١٨٧٣م، أقامت فيينا أول معرض دولي في البلاد المتحدثة بالألمانية، فاختار إسماعيل هنريش بروجش — الذي عمل مساعدًا لماربيت في باريس ١٨٦٧م — مفوضًا عامًّا لمصر في ذلك المعرض، وكان ماربيت مرتاحًا تمامًا وهو يرافق أوجستا — إمبراطورة الهبسبورج — في زيارتها للجناح المصري، بعدما احتاط للأمر، فلم يرسل إلى فيينا سوى نماذج مقلدة للآثار والقليل من القطع ذات القيمة المحدودة، ولكن انتشار وباء الكوليرا أدى إلى إلحاق الفشل بذلك المعرض الدولي.

---

[١١٥] فيما يتعلق بأوبرا عايدة، انظر: David, Mariette, 201–4.

وعبر الولع بالمعارض المحيط الأطلنطي، فأقيم معرض مئوية فيلادلفيا عام ١٨٧٦م، وتولى الأنثروبولوجيون من معهد سميثونيان تنظيم معروضات المبنى الرئيسي على أساس عرقي، فوضعوا في المركز الأول الأنجلو سكسون (الإنجليز والأمريكان)، واللاتين (وخاصة فرنسا)، والتيوتون. وظهر الأمريكان السود بصورة مهينة يؤدون دورهم في الجنوب. وقامت حشود من الأوغاد البيض بمضايقة الزوار الأتراك، والمصريين والإسبان، واليابانيين، والصينيين.[١١٦] ورغم معاناة الأزمة المالية، حرصت مصر، وتونس والدولة العثمانية على المشاركة في المعرض، ونظم بروجش الجناح المصري تحت شعار «من أقدم الشعوب إلى أحدثها». وكان للجناح المصري واجهة معبد فرعوني، وقدمت مطبوعات بولاق — مرة أخرى — الدليل على التقدم الحديث.

وجاء معرض باريس الدولي عام ١٨٧٨م استمرارًا لدائرة من المعارض الفرنسية على مدى أحد عشر عامًا، بلغت ذروتها عام ١٩٠٠م. وفي محاولة لنسيان كابوس الحرب البروسية الفرنسية، وكوميونة باريس، والانقلاب الذي دبره الرئيس ماكماهون عام ١٨٧٧م، قامت فرنسا بإنشاء بناء ضخم في شامب دي مارس، على مساحة ٤٤ إكر. وقامت الأجنحة مختلفة الطرز بجوار بعضها البعض على «طريق الأمم Avenue des Nations» لمسافة تقرب من نصف الميل، وبلغ عدد زوار المعرض ١٣ مليونًا.[١١٧]

وكاد إسماعيل أن ينسحب — تقريبًا — من المعرض بسبب الحرب التركية — الروسية التي أرهقت ميزانيته المتداعية أصلًا، وتبددت أحلام مارييت في إقامة أقسام مصر القديمة والوسيطة والحديثة، ولكن ديليسبس وشركة قناة السويس شاركا بجناح على الطراز الفرعوني الحديث، واقتصر وجود مصر على مساحة محدودة بسراي تروكاديرو، فتم عرض مستنسخات من مناظر مقابر بني حسن، ورأس خفرع ونموذج لبيوت الحرفيين القديمة، وواجهة منزل بالمشربيات، وبعض الخزف، والسيوف والدروع التي صنعت على أنها تمثل العصور الوسطى، وقدمت المجوهرات، والسجاد، والمطرزات على أنها تمثل

---

١١٦ Robert Rydel, All the World’s a Fair: Visions of Empire at American International Expositions 1876–1916 (Chicago, 1984), 9–32; Ibrahim el-Mouelhy, “L’Égypte à l’exposition de Philadelphie (1876)” Cahiers d’histoire égyptienne 1 (1948), 316–26.

١١٧ Auguste Mariette-Bey, Exposition Universelle de Paris 1879: La Galerie de l’Égypte ancienne (Paris, 1878); Louca, Voyageurs, 190–92.

العصر الحديث. وجاء بدليل المتحف «يمكن القول إن البلاد تخلو تمامًا من الصناعة»،[١١٨] وعكست الخرائط التي علقت بالجناح ضم مصر للأراضي السودانية عند خط الاستواء، في وقت كانت فيه مصر ذاتها على وشك التعرض للغزو الغربي.

تقديم «المصريات»، المؤتمر الدولي للمستشرقين

ساعدت الثورة التي حدثت في مجال النقل والمواصلات، على جعل إقامة المعارض الدولية، والرحلات السياحية التي نظمها كوك، أمرًا ممكنًا. ولكنها أطلقت — أيضًا — حركة المؤتمرات الدولية التي بلغت النضج في السبعينيات، وكان المتطلب الآخر لنجاح تلك الحركة هو وجود شبكة من المنظمات الوطنية — وهي هنا الجمعيات الآسيوية، والشرقية، والجغرافية — وقد ظهرت تلك المنظمات منذ العشرينيات. وبحلول عام ١٨٧٠م كانت الجمعيات الاستشراقية قد تم تأسيسها جميعًا؛ فقد أنشئت الجمعيات الجغرافية القومية، والجمعيات الآسيوية بباريس (عام ١٨٢٢م)، وفي بريطانيا العظمى وأيرلندا (عام ١٨٢٣م)، وفي أمريكا (عام ١٨٤٢م)، وفي ألمانيا (عام ١٨٤٥م). وبوجود مصلحة الآثار، والمتحف المصري والمجمع المصري والجمعية الجغرافية الخديوية، أصبح إسماعيل مستعدًا — أو على الأقل الأوروبيون في مصر — للمشاركة في حركة المؤتمرات الدولية.

وتبلورت فكرة عقد مؤتمر دولي للمستشرقين في الجمعية الإثنوجرافية بباريس،[١١٩] وشهدت تلك المدينة عقد أول مؤتمر عام ١٨٧٣م، وشكلت «المصريات» قسمًا مهمًّا من اجتماعات المؤتمر لمدة قرن من الزمان من تأسيسه، وإن كان الشائع في القرن العشرين الفصل بين «المصريات» والاستشراق ولكن مؤسَّسات مثل «الجمعية الشرقية الأمريكية» و«المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة»، و«المعهد الشرقي بجامعة شيكاجو» أبقت على التداخل بين المجالين. وفي عام ١٩٧٣م انفصل علماء المصريات عن «المؤتمر الدولي للمستشرقين» الذي اضطر لمجاراة الظروف المتغيرة، فحول اسمه إلى «المؤتمر الدولي للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية».

---

[١١٨] Mitchell, Colonising Egypt, 8–9.

[١١٩] K. Vollers, “Le IXme congrès international des Orientalistes tenu à Londres du 5 au 12 Septembre 1892”, Bulletin d’Institut égyptien, ser. 3, 3 (November 1892), 193.

وقد ظهرت كلمة «مستشرق» بمعنى المتخصص في اللغات والآداب الشرقية ظهرت في اللغة الإنجليزية عام ١٧٨١م، ولم تظهر كلمة «مصرياتي» حتى عام ١٨٥٩م، ولم يشع استخدامها إلا في السبعينيات عندما بدأت «المصريات» تقف على أقدامها كتخصص مستقل.[١٢٠]

وبدأ الأوروبيون المشتغلون بالآثار المصرية في مصر يغيرون من عادات لباسهم حوالي منتصف القرن التاسع عشر، فقد كان الرواد من المستشرقين الآثاريين: شامبليون، وروسيلِّيني، وويلكنسون، ولين، وبريس دافين يطلقون لحاهم، ويرتدون الملابس التركية. وكان ذلك المظهر مفيدًا وموفرًا للأمن في أيامهم، رغم أنهم عندما كانوا يعرضون هذا الزي في بلادهم تبرز دائمًا تساؤلات حول الهوية، والتخفي، وادعاء الخبرة بالثقافات الأجنبية. وعندما أصبحت «المصريات» تخصصًا محددًا، وزاد قدوم الغربيين إلى مصر، ولم يعد علماء المصريات من أمثال ماسبيرو وبتري يظهرون بالزي «الشرقي». ولم يكن المشتغلون بالمصريات بحاجة إلى اللغة العربية حتى يثبتوا كفاءتهم. غير أن المستشرقين الذين اختبروا أنفسهم بالاندماج مؤقتًا داخل المجتمع «الآخر» الذي ما زال موجودًا، استمروا في التخفي في الزي المحلي لفترة أطول.

وثمة ملاحظة لا تبعث على الارتياح بالنسبة لمسألة التعريف: فالمصريات كانت ولا تزال تعني دراسة مصر القديمة، والمصطلح يعني بوضوح استبعاد مصر الإسلامية ومصر الحديثة من دائرة الدراسة، وهناك فكرة غربية أخرى تؤكد الاستمرارية في تاريخ مصر وتعارض الانقطاع، وهي بدورها لا تبعث على الارتياح، فهي تفترض أن جوهر الفلاح المصري لم يتغير منذ العصور القديمة. فهذه الفرضية تصب في فكرة الشرق الراكد غير المتغير الذي يعد نقيض الغرب الحركي المتغير. ويبدو أن هذا ما كان يعنيه أحد المستشرقين عندما التقط صورة لفلاح مسترخي الرأس ليؤكد التشابه بينه وبين مومياء تم اكتشافها في طيبة (انظر الشكل ٢٥).

وتضمنت أعمال «مؤتمر المستشرقين الدولي الأول» الذي عقد بباريس عام ١٨٧٣م سبعة أوراق بحثية في المصريات، وواحدة في الدراسات القبطية؛ وكان من بين الثمانية أصحاب تلك الأوراق سبعة من الفرنسيين منهم ماسبيرو وشاباس، أما الثامن فكان صامويل بيرش. وكانت القوات الألمانية ما زالت تحتل الأراضي الفرنسية حتى ١٦ سبتمبر

---

[١٢٠] Oxford English Dictionary, 2nd ed., (1989) vol. 10: 931, vol. 5: 97.

١٨٧٣م؛ ولذلك لم يكن منظمو المؤتمر في حالة مزاجية تسمح لهم بدعوة الألمان للمشاركة. ورغم ذلك سدد ٣٥ ألمانيًّا اشتراك المؤتمر (لم يحضر المؤتمر كل المشتركين الذين بلغ عددهم ١٠٦٤ مشتركًا)، واشترك ليبسيوس في المناقشات وهو جالس بين صفوف الحضور. وكان الخديو إسماعيل، ومحمود الفلكي، ويعقوب أرتين وستة آخرون من المصريين، ضمن قائمة المشتركين من مصر الذين بلغ عددهم عشرين مشتركًا، وكان من بين الأحد عشر الآخرين مارييت، وهنريش بروجش، وألبرت دانينوس. ويلفت النظر أن اسم شفاينفورت ورد كممثل للجمعية الجغرافية التي لم تكن قد تأسست بعد.[١٢١]

ويختلف الباحثون حول رد فعل المصريين على تمثيل بلادهم في المعارض الدولية و«مؤتمر المستشرقين الدولي» فيذهب تيموثي ميتشل — الذي استخدم مدخلًا صعيديًّا أو ما بعد الحداثة — إلى تأكيد عدم ارتياح المصريين وإحساسهم بالحرج، بينما يرى كارتر فيندلي أن رد فعل المصريين والعثمانيين كان إيجابيًّا وباهتًا. ويستقي كل من ميتشل وفيندلي أدلتهما من مؤتمر المستشرقين الدولي الذي عقد في ستوكهلم وكريستيانا (أوسلو الآن) والمعرض الدولي بباريس عام ١٨٨٩م الذي يقع في الفترة التي يعالجها الفصل السادس من هذا الكتاب.[١٢٢]

وكان باحث ياباني نشيط، شارك في مؤتمر المستشرقين الدولي قد دحض الفكرة القائلة بأن المستشرقين الغربيين وحدهم هم القادرون على مناقشة «الشرقيات»، وأشاد الجنرال نزار أغا — السفير الفارسي — بالمستشرقين لاكتشافهم أن لغة الفردوسي ودارا وكسرى تنتمي إلى عائلة اللغات الأوروبية، قائلًا: «بفضل تقدم فقه اللغة المقارن أصبح باستطاعة الفرس اليوم أن يفصحوا عما كانوا يوقنون به من قبل، وهو أنهم ينتمون إلى نفس العنصر الذي ينتمي إليه الأوروبيون، وأنهم أشقاء الأمة النبيلة التي افتتحت هذا العام الأعمال الدولية الكبيرة العظيمة لمؤتمر المستشرقين.»[١٢٣]

---

١٢١ Mémoires du Congrès international des Orientalistes, 1 re Session, 3 vols. (Paris, 1873) 1: 114–115, 3: cvii, cxxxvii, 42–43.

١٢٢ Louca, Voyageurs, 181–208; Mitchell, Colonising, 1–2, 180–81; Findley "Ottoman Occidentalist" American History Review 103 (1998): 15–49.

١٢٣ Mémoire du Congrès international, 2: 315, 111 ff.

وقد تولَّى صامويل بيرش — عالم المصريات — رئاسة مؤتمر المستشرقين الدولي الثاني الذي عقد بلندن عام ١٨٧٤م (انظر الجدول ٦ بالملاحق، وانظر أيضًا الشكل ٢٦)، ومزج في كلمته بين الزهو الإمبريالي ودولية العلم عند حديثه عن لندن قائلًا:

«إنها متميزة لتوسعها ولانكبابها على دراسة الشرق الذي تربطها به آلاف الروابط: المصالح التجارية، ونشر الحضارة، وأعمال التبشير، وواجب حكم البلاد الشرقية التابعة لها ذات اللغات المتعددة والمواقع المتباينة في الشرق …

والمستشرقون أيضًا جميعهم رجال ينتمون إلى عائلة واحدة … طلاب علم، تختفي وتُنسى عندهم كل أنواع التمييز على أساس العرق والدين والجنسية. وحتى النقد لا يجب أن يكون أو أن يصبح ذاتيًّا، طالما كان غرض العلم توسيع آفاق العقل، والتماس الحقيقة التي يصعب الوصول إليها في معظم الأحوال، ولا لوم إن أخطأ الطريق إليها.»[١٢٤]

وقد عكست أقسام المؤتمر التصنيف السائد على أساس لغوي عرقي، فإلى جانب قسمي الآثار والإثنولوجي، هناك الأقسام السامية، والحامية، والطورانية، والآرية. وأعلن بيرش أن «قسم الحامية سوف يمثل التقدم الذي أحرزه علم المصريات منذ تم اكتشاف طريقة حل وقراءة اللغة التصويرية لمصر القديمة عام ١٨١٧م».[١٢٥] ويعني هذا التاريخ اعترافًا بجهد توماس يانج، وإغفالًا لشامبليون، ولكن لم يكن هناك فرنسي بين الحضور حتى يعلن احتجاجه على ذلك. واستحوذ ليبسيوس وخمسة من الألمان الآخرين، على قسم المصريات، تمامًا كما فعل الفرنسيون في الدورة الأولى للمؤتمر في العام السابق. وكان بروجش يمثل مصر رسميًّا بالمؤتمر، بينما كان بيرش لا يزال عالم المصريات البريطاني الوحيد بالمؤتمر وقد دعا زملاءه السبعة إلى ورشة عمل بمنزله.[١٢٦] وانتقل مؤتمر المستشرقين الدولي الثالث إلى سان بطرسبورج عام ١٨٧٦م، ومثل مصر فيه مارييت كعضو مراسل في اللجنة التنظيمية للمؤتمر، وفي المؤتمر الرابع الذي عقد في فلورنسا عام ١٨٧٨م انتهى التنافس الفرنسي — الألماني، وتولى مارييت رئاسة «قسم المصريات واللغات الأفريقية» الذي اختص بمصر وحدها من الناحية العلمية. وكان

---

[١٢٤] Samuel Birch, “Inaugural Address”, International Congress 2 London.

[١٢٥] Birch, “Inaugural Address”, 13.

[١٢٦] كان الشخص الثامن نرويجي يدعى جينس ليبلين Jens Lieblein.

أصحاب الأوراق البحثية التي ألقيت هم ألماني، وسويسري (نافي)، وإيطاليان (أحدهما أرنستوشيا باريلي)، ولم يكن بينهم مصري أو أوروبي مقيم بمصر.[١٢٧]

هكذا وفر «مؤتمر المستشرقين الدولي» — منذ بدايته حتى الاحتلال البريطاني في عام ١٨٨٢م — منبرًا مهمًّا لتخصص المصريات حديث النشأة. فإلى جانب كبار المتخصصين من أمثال ماسبيرو، وبيرش، وليبسيوس، وبروجش الذين وضعوا أصوله، غامر القليل من الهواة بتقديم أوراق بحثية، وكان التنافس الفرنسي — الألماني ماثلًا على مسرح المؤتمر وخارجه، بينما افتقر المصريون إلى من يوصل صوتهم إلى قسم المصريات بالمؤتمر، فلم يكن قد ظهر بعد متخصص مصري في ذلك العلم.

نذر العاصفة، إسماعيل وماربيت في السبعينيات

حقق إسماعيل وماربيت انتصارات في أول الأمر، ثم منيا بالنكبات فيما بعد. كيف يستطيع شخص واحد أن يكتشف السرابيوم ويؤسس مصلحة الآثار والمتحف المصري، ويرتب العروض المصرية في المعارض الدولية، ويضع ترتيبات احتفالات افتتاح قناة السويس؟ كانت المآسي في حياة الرجل تترى، أزهقت الكوليرا روح زوجته، ومات ستة من بين أولاده العشرة في حياته، وعانى من مرض السكر عدة سنوات حتى قضى نحبه.[١٢٨]

ولم يكن ماربيت يحظى بالأمان في وظيفته، فكما قال أحد الفرنسيين: «ماربيت بك جزء من الأسرة الخديوية في السراء والضراء، في نفس مستوى ناظر الإسطبلات وكبير الأغوات. كان عالم مصريات يقف في طريق يحتاج إلى منجم منظم استعراضات بارع، وجد نفسه في موقع بين الأحمق والطبيب.»[١٢٩] وبعد وفاة ماربيت، فقدت مصلحة الآثار وضعها الخاص تحت جناح الخديو، ففي عام ١٨٨٣م أصبحت تابعة لنظارة الأشغال العمومية.

وكان خصوم ماربيت يرددون — همسًا — أن ماربيت عميل للرقيب الفرنسي، يبيع الآثار سرًّا، وأنه كان يكدس الآثار في بولاق ليزيد من ثروته الشخصية. وتأثر

---

[١٢٧] Saint Petersburg, Travaux, 2: vi.

[١٢٨] انظر شجرة العائلة في David, Mariette, 274.

[١٢٩] David, Mariette 233–34.

إسماعيل بذلك، فانتزع الباخرة من مارييت وألغى صلاحياته في تسخير العمال.[١٣٠] وفي عام ١٨٦٧م كانت لديه مخصصات مالية لا تكفي إلا لاستئجار بضع مئات من العمال.

وفي عام ١٨٧٣م، لم يكن هناك مال يكفي للحفائر، والمطبوعات وتوسعات المتحف، وتأخر صرف راتبه زمنًا طويلًا، إضافة إلى فقده للباخرة، فألف كتابًا حقق رواجًا، عنوانه «رحلة في صعيد مصر» يقع في مجلدين (١٨٧٨–١٨٨٠م) استخدم عائده في سداد ديونه — وفي عام ١٨٧٨م قام وزير الأشغال الفرنسي بوزارة نوبار بتوفير ألف جنيه لينفقها مارييت على أهم الحفائر التي كان بحاجة لاستكمالها، وقدمت له وزارة التعليم العام الفرنسية معونة قدرها عشرة آلاف فرنك.[١٣١]

كانت أحلام مارييت في النشر عظيمة مثل حفائره الأولى بمصلحة الآثار، ولكنها جميعًا تحطمت على صخرة التمويل والوقت. فالحفائر وأعمال المتحف، والأسفار، والتخطيط للمعارض الدولية، والمغامرات الدبلوماسية، كل ذلك لم يترك له وقتًا كافيًا للعمل العلمي. وحرمته وفاة ديفريا المبكرة من العون الذي كان في أمس الحاجة إليه لطباعة النقوش.

وأعلنت الحكومة عن عطاءات في مارس ١٨٧٣م لتشييد متحف كبير بالجيزة، متجاهلة نذر الإفلاس التي لاحت في الأفق. وكان من المقرر أن يتم البناء في أول أكتوبر بتكلفة قدرها ١٨٦ ألف فرنك. وخصصت أكاديمية النقوش والفنون بباريس جائزة قدرها عشرين ألف فرنك لتصميم واجهة المتحف. ولكن بعد إعلان حقيقة الحالة المالية لمصر في صيف ذلك العام خلال معرض فيينا، اختفى مشروع المتحف المقترح مثلما اختفت مدرسة اللسان المصري القديم من الوجود.[١٣٢]

ووفقًا لما يذكره كرومر: «بلغت الفوضى المالية وبؤس الناس الذروة في صيف وخريف عام ١٨٧٨م.»[١٣٣] وقامت بريطانيا وفرنسا بتجريد إسماعيل من أملاك عائلته، وأجبرته على تعيين نوبار رئيسًا للوزراء مع تولي بريطاني وزارة المالية وفرنسي وزارة الأشغال العمومية، وغمر الفيضان متحف بولاق ومقر إقامة مارييت في أكتوبر ١٨٧٨م مما أدى إلى دمار الكتب والمخطوطات والآثار. ولم يتحقق اقتراح نقل المتحف إلى مدرسة البنات

---

١٣٠ .Maspero, “Mariette”, xcliii

١٣١ .Maspero, “Mariette”, ccii, ccxiii

١٣٢ .Maspero, Mariette, cxccvi–vii

١٣٣ .Cromer, Modern Egypt (New York, 1908), 28

— التي لم يكتمل بناؤها — بمجمع وزارة الأشغال العمومية، وهو — على ما يبدو — المكان الذي حصل عليه المجمع العلمي المصري عام ١٨٨٠م.

وفي صيف ١٨٧٩م، أجبرت بريطانيا وفرنسا السلطان عبد الحميد الثاني على خلع إسماعيل وتولية ولده توفيق حكم مصر. وبذل مارييت جهودًا في إصلاح وتنظيف المتحف الذي أعيد افتتاحه عام ١٨٨٠م. ولم يكن قد بلغ الستين عندما مات في يناير ١٨٨١م بسبب السكر، وذلك قبل عام ونصف العام من قيام ثورة عرابي، ووقوع الاحتلال البريطاني. وشهدت سنى عمره الأخيرة بعض النقاط المضيئة، فقد انتخب عام ١٨٧٨م عضوًا بأكاديمية النقوش والفنون الجميلة بباريس، ومنح رتبة الباشوية في ٥ يونيو ١٨٧٩م قبل خلع إسماعيل ببضعة أسابيع، وأخبره الأخوان بروجش — وهو على سرير الموت — بنصوص الأهرام العجيبة التي عثر عليها بهرم أوناس بسقارة.

انتهى عصر إسماعيل ومارييت الذي كان متوهجًا. وبعد العام الذي شهد الثورة العرابية والغزو البريطاني، جاء كرومر وماسبيرو وإلى جانبهما بتري — صاحب الفكر المستقل — ليضعوا مسارًا جديدًا للآثار المصرية في ظل الحكم الاستعماري. ودخل التنافس الأنجلو-فرنسي في مصر مرحلة جديدة، دافعت فيه فرنسا عن وجودها في ميدان الآثار وفي غيره من الميادين … ومع غياب الطهطاوي أخذ أحمد كمال وبعض زملائه على عاتقهم خوض المعركة لتأسيس علم مصريات مصري.

الباب الثاني

ظهور الإمبريالية وفجر الوطنية
١٨٨٢–١٩١٤م

الفصل الرابع

كرومر والكلاسيكيات

التوظيف الأيديولوجي للتاريخ اليوناني-الروماني

يبدأ هذا الكتاب بمشهد احتلال نابليون بونابرت مصر، وقد تجسدت في وعيه صورة الإسكندرية وقيصر، ويختتم الكتاب باللورد كرومر متقاعدًا يتحدث عن حكمه لمصر، مقارنًا بحكم نائب القنصل (الحاكم العسكري) في روما القديمة، وجاء — بين المشهدين — القنصل هنري سولت الذي وزع وقت فراغه بين قراءة المخطوطات اليونانية والآثار المصرية، وكان فلوبير يقرأ الأوديسة باليونانية بينما كان مسترخيًا على صفحة النيل في طريقه من الصعيد إلى القاهرة، ووقف الموظفون الإنجليز الذين تخرجوا لتوهم من أكسفورد وكامبردج على ضفاف النيل يسترجعون هيرودوت.[١] وأسس الأوروبيون المتحف اليوناني الروماني والجمعية الأثرية عام ١٨٩٢م، ونظموا الاجتماع الثاني للمؤتمر الدولي للآثار الكلاسيكية بالقاهرة عام ١٩٠٩م.

وعنوان هذا الفصل غربي الميل؛ لأن أحدًا من المصريين لم يحاول — حتى ١٩١٤م — أن يجعل التراث اليوناني-الروماني أساسيًّا في تكوين الهوية القومية المصرية. وأعار المصريون، الذين عاشوا في مطلع القرن، آذانًا صماء للجدل الأوروبي حول الكلاسيكيات، تمامًا كما فعل الأوروبيون بالنسبة لاعتبار عمرو بن العاص فاتحًا عظيمًا أو أبي نواس شاعرًا خالدًا. فقد صاغ المسلمون المتدينون أفكارهم في إطار النبي محمد والخلفاء الراشدين، بينما كان العالم يبدي اندهاشه لعظمة بغداد أيام هارون الرشيد، والقاهرة

---

[١] J. J. Halls, The Life and Correspondence of Henry Salt, 2 vols. (London, 1834) 2: 196; Francis Steegmuller, Flaubert in Egypt: A Sensibility on Tour (Boston, 1972), 33.

زمن المماليك. ولم تكن المسحة الكلاسيكية عند بونابرت تعني شيئًا عند الجبرتي. وفي الثمانيات كان هناك حديثان ذاتيان على طرفي نقيض، فقد لعب كرومر دور نائب القنصل في القاهرة، واستدعى محمد أحمد المهدي سيرة النبي محمد في الخرطوم. ولعل شارلز جوردون — الذي كان يفضل استخدام الشواهد الإنجيلية وليس الكلاسيكية — كان أقدر على فهم المهدي من كرومر.[٢]

ولم تخرج الدراسات الكلاسيكية (اليونانية-اللاتينية القديمة) مصريًّا يتطلع لأن يكون أمينًا للمتحف اليوناني-الروماني بالإسكندرية حتى العام ١٩١٤م، فلم يكن هناك — في هذا المجال — أي مصري يناظر أحمد كمال، أو علي بهجت أو مرقص سميكة، غير أن بعض كبار الموظفين، والكتاب والسياسيين الذين لهم شهرة وتنوع اهتمامات الطهطاوي، قدموا إشارات عن التراث اليوناني الروماني منهم الطهطاوي ذاته، ومحمود الفلكي، وعلي مبارك، وجرجي زيدان، وقاسم أمين، وأحمد لطفي السيد، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، ومهد ذلك الطريق لما شهدته العشرينيات من القرن العشرين عندما أضاف طه حسين وأحمد لطفي السيد الدراسات اليونانية-اللاتينية القديمة باعتبارها أحد المكونات الحيوية للهوية القومية المصرية.

ومع استثناء المغرب — جزئيًّا — لم يدرك أهل الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر التعبير المجازي الكلاسيكي الذي استخدمه الأوروبيون عند الحديث عن الشرق الأوسط، إلا إدراكًا محدودًا، ونادرًا ما تذكر كتب التاريخ العامة عن مصر الأفكار المصرية الحديثة عن التراث اليوناني-الروماني الذي كان أقل جاذبية من الحديث عن التراث الإسلامي أو العربي أو الفرعوني.

الخطاب الكلاسيكي في الهوية الغربية

منذ أيام بترارك حتى سارتر، نافست الكلاسيكيات حتى الإنجيل من حيث الانتشار، باعتبارها أداة مرنة للفكر الغربي.[٣] كانت تقرأ أعمال اليونان باعتبارها محافظة وليبرالية،

[٢] The Journals of major-General C. G. Gordon, C. B., at Kartoum, ed., Egmont Hake, 2 vols. (London, 1885).

[٣] Hugh Lloyd-Jones, Blood for the Ghosts: Classical Influences in the Nineteenth and Twentieth Centuries, (London, 1982).

راديكالية ورجعية، متدينة وملحدة، عقلانية ورومانسية. ودخلت الجمهورية الرومانية في مواجهة مع الإمبراطورية، كذلك اليونان مع الرومان، وأثينا مع إسبرطة، أفلاطون مع أرسطو، وحتى الأرسطيين ضد بعضهم البعض.[٤] واتخذت الثورتان الفرنسية والأمريكية رموزًا رومانية، وامتدح ماركس إنكار بروميثيوس للآلهة حتى إنه أعاد قراءة إيخليوس كل عام باليونانية.[٥]

غير أن بقاء الكلاسيكيات كمحور للتعليم الليبرالي الغربي في مطلع القرن التاسع عشر، يعود إلى الاتجاه المحافظ وليس الراديكالي. ففي مواجهة التحديات الديمقراطية والاستحقاقية التي جاءت من الطبقة الوسطى، رفعت المدارس البريطانية العامة من مستويات التدريس بها، ووضعت وزارتا الداخلية، والهند، أسسًا للامتحانات.[٦] وفي إطار الحصار الذي ضرب حول المحسوبية والامتياز الطبقي، أصبحت اليونانية واللاتينية بمثابة مفتاح الوصول إلى مستوى الطبقة العليا.

ولم تكن الكلاسيكيات موضع تقدير كل المتعلمين في بريطانيا، فقد شعر تشرشل بالأسى عندما حال جهله باليونانية بينه وبين الالتحاق بأكسفورد. وكان تعلُّم الكلاسيكيات عند ثاكيراي يذكره بزيت الخروع، وسبق ذلك سياحة مارك توين المبتذلة في اليونان، عندما قال ساخرًا في أثينا: «إنني أفضل أن أكسب مائتي جنيه في السنة في فليت ستريت، على أن أصبح ملكًا لليونانيين، تسبق اسمي كلمة باسيليوس حول عملتهم التعسة ... إن رثاثة هذا المكان غلبت أيرلندا، وكلمة (رثاثة) أقوى من الواقع.»[٧]

ومنذ العصور الوسطى حتى الثورة الفرنسية، حدد الغربيون هويتهم في إطار روما وليس اليونان، وقد أطلق الآثاري البروسي يوهان فنكلمان حركة جمالية ثقافية عظمت من شأن المجتمع اليوناني باعتباره مجتمعًا حيويًّا وشابًّا، على نقيض روما التي أضناها التمزق والإرهاق. وأصدر فنكلمان كتابًا عام ١٧٦٤م بعنوان «تاريخ الفن القديم» جعل

---

٤ Turner, Greek Heritage in Victorian Britain (New Haven, 1981) François Hartog, The Mirror of Herodotus: The Writing of History, trans. Janet Lloyd (Berkeley, Calif. 1988).

٥ Lloyd-Jones, Blood for the Ghosts, 144.

٦ Turner, Greek Heritage, 5.

٧ William Makepeace Thackeray, The Paris Sketch Book of Mr. M. A. Titmarsh, The Paris Sketch Book and Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo (New York, n.d.) 630, 626; C. M. Bowra, Memoires 1898–1939 (London, 1966), 331.

منه مؤسسًا لتاريخ الفن الحديث، ورائدًا لعلم الآثار الكلاسيكية، وغالبًا ما خدم اتخاذ اليونان مثالًا، أهداف دعاة القضايا البورجوازية والليبرالية.

وفعل كل من جوته، ووزير التعليم البروسي المصلح ألكسندر فون همبولد الكثير لنشر هذا التحمس لليونان القديمة في ألمانيا.[٨] ووعى الفرنسيون عظمة اليونان القديمة، ولكن لغتهم ذات الأصل اللاتيني وإحساسهم بأنهم ورثة التاريخ الروماني، أبقاهم بعيدًا عن طريق التحمس لليونان القديمة الذي اتجه إليه الألمان.[٩]

وأصيب البريطانيون أيضًا بحمَّى اليونان القديمة، يندفعون لمشاهدة مجموعة إيلجن بالمتحف البريطاني، ويقيمون مباني تبعث الطراز اليوناني من جديد، وتسعدهم أشعار بايرون في عشق اليونان، وكتب جون ستيورات مل «إن معركة الماراثون كحدث في التاريخ الإنجليزي تفوق معركة هاستنجز أهمية.»[١٠] واعتبر البريطانيون الإمبراطور أغسطس مستبدًا مولعًا بالمكائد، وفيرجيل مجرد أحد أفراد حاشية الإمبراطور. وجاء هوميروس وأفلاطون في بؤرة الضوء، ورفع أصحاب الفكر الإصلاحي ديمقراطية أثينا إلى مرتبة أعلى من سلطوية إسبرطة. وعلى كلٍّ، أظهرت دراسة حديثة تأثير روما القديمة في مختلف دوائر الثقافة البريطانية حتى القرن التاسع عشر.[١١] وإن كانت الإمبراطورية الرومانية قد استعادت رونقها في أعين الكثير من البريطانيين مع تصاعد «الإمبريالية الجديدة» في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر.

مصر من خلال عدسات الأوروبيين الكلاسيكية

تعكس صفحة العنوان في «وصف مصر» صورًا كلاسيكية قوية، فنابليون في عربته الحربية مثل أبولُّو والإسكندر؛ فالإلهام والفنون والعلوم عائدة إلى مصر، والنسر على رايات المعركة. وفي إشارة حافلة بالرموز، يحمل سقف قسم المصريات باللوفر اللوحة التي رسمها

[٨] Donald Preziosi, The Art of Art History: A Critical Anthology (Oxford, 1998), 21–30; L. Marchand, Down from Olympus: Archaeology and Philhellenism in Germany 1750–1970 (Princeton. N.J., 1996).

[٩] Fritz Ringer, Fields of Knowledge: French Academic Culture in Comparative Perspective 1890–1920 (Cambridge, 1992), 144.

[١٠] ورد الاقتباس في Turner, Greek Heritage, 188.

[١١] Norman Vance, The Victorians and Ancient Rome (Oxford, 1997).

فرانسوا-إدوارد بيكو تحت اسم «دراسة وإلهامات الفنون تكشف أسرار مصر القديمة لأثينا» (انظر الشكل ٢٧).[١٢] حيث تبدو أثينا امرأة ترتدي ثوبًا ملكيًّا كلاسيكيًّا، ومصر امرأة ترتدي ثوبًا مثيرًا يكاد ينزلق من على جسدها، وهي تشم باسترخاء زهرة اللوتس.

وحمل نابليون معه في حملته إلى مصر نسخة من الإلياذة (تمامًا كما فعل الإسكندر)، ونسخة من أناباسس (حكاية الأبطال الإغريق الذين شقوا طريقهم بالقوة وسط حشود الآسيويين للعودة إلى بلادهم)، كما حمل معه نسخة من كتاب بلوتارخ «حياة متوازية».[١٣] وقال بونابرت لجنوده: «إن المدينة الأولى التي سوف نراها بناها الإسكندر، وسنرى في كل خطوة نخطوها آثار أعمال علينا نحن الفرنسيين أن نحذو حذوها.»[١٤] ولما كانت الهيروغليفية لا تزال مجهولة، فقد رأى علماء مصر بعيون هيرودوت، وإسترابو، وديودور الصقلي، وبليني العجوز، فاقتبسوا منهم على التوازي بين اليونانية واللاتينية التي ترد نصوصها في «وصف مصر». وحتى الفنانون الذين رسموا الآثار الفرعونية كان اتجاههم كلاسيكيًّا. فالميدالية التي سُكّت عام ١٨٢٦م بمناسبة صدور الطبعة الثانية من «وصف مصر» تصور محاربًا غاليًا — رومانيًّا يعري امرأة مغرية تمثل مصر (انظر الشكل ٢٨).

وبعد استكمال نشر «وصف مصر» عام ١٨٢٨م بعامين، غزت فرنسا الجزائر. وقيل إن ورثة روما القديمة عادوا إلى شمال أفريقيا لنشر الحضارة فيها، بعد «فترة عربية» مدمرة. وقيل للضباط الفرنسيين في مراكش (المغرب) «دعوا السكان المحليين يعلمون أننا الرومان كنا هنا قبل العرب.»[١٥] وعلى مدى ما يزيد على القرن من الوجود الفرنسي في الجزائر، عكست التماثيل، والعمارة، والمتاحف، وأسماء الشوارع، والأدب، وطوابع البريد، وبطاقات البريد؛ تلك النظرة.[١٦]

---

[١٢] Description, vol. 1, Antiquités Planches (Paris, 1809), Frontispiece; D'un Orient l'autre, 2 vols. (Paris, 1991).

[١٣] مارتن برنال، أثينا السوداء، المجلد الأول.

[١٤] الاقتباس ورد في J. C. Herold, Bonaparte in Egypt, 26.

[١٥] Paul MacKendrick, The North African Stones Speak, (Chapel Hill, N.C., 1980), 319.

[١٦] Abdallah Laroui, The History of the Maghrib: An Interpretation (Princeton, N.J., 1977); Jean-Claude Vatin., ed., Connaissances du Maghreb: Sciences sociales et colonisation (Paris, 1984); David Prochaska, Making Algeria French: Colonialism in Bone 1870–1920 (Cambridge, 1990).

وبعد أن فتح شامبليون الطريق المباشر للتعرف على الفراعنة من النصوص الهيروغليفية، بوقت طويل، كان الأوروبيون المشتغلون بالمصريات ما زالوا يتمسكون بالكلاسيكيات. ففي برلين، درجت مجموعة ليبسيوس على قراءة الأعمال اليونانية المهمة في لغتها الأصلية في مساء كل جمعة. وكان من بين من يداومون على الحضور: تيودور مومسن المتخصص في اللاتينية، واللورد راسل السفير البريطاني، ورانجاب السفير اليوناني. وفي عام ١٩٠٣م حصل ألكسندر موريه على الدكتوراه في المصريات وكانت تلك آخر رسالة قدمت في فرنسا مكتوبة باللاتينية.[١٧]

ولا يستطيع المرء أن يقرر — أحيانًا — ما إذا كانت الكلاسيكيات قد وضعت رؤية الأوروبيين لمصر الحديثة في إطار مشوه، أم أن الأمر كان عكس ذلك تمامًا؟ يقول القس سايس:

«يتم تدريس جميع العلوم المحمدية بالأزهر على أساس القرآن، تمامًا كما يحدث في القاهرة الحالية، وكذلك كانت الحال في عين شمس عندما زارها هيرودوت، فكانت كل ألوان المعرفة المصرية تدرس هناك ... ولا شك أن نظرة الرحالة اليوناني إلى الأساتذة وتلاميذهم تماثل نفس النظرة عند السائح الإنجليزي الذي يمر عبر الجامع الأزهر.»[١٨]

وهكذا تتداخل المرايا، مع تداخل الخطابين الاستشراقي والكلاسيكي.

ولم يكن جميع المتخصصين في المصريات يتأثرون فكريًّا بالكلاسيكيات، فقد كان اهتمام مارييت بالمواقع الأثرية اليونانية والرومانية محدودًا، وقد استنكر مقولات هيرودوت:

«عجبًا لذلك الرحالة الذي جاء إلى مصر في زمن كان الناس فيه يتحدثون اللغة المصرية، ورأى بعينيه كل المعابد قائمة في أماكنها، وكان باستطاعته أن يسأل أول من يقابله عن اسم الملك الذي يحكم البلاد، واسم الملك الذي سبقه، والذي كان عليه أن يشير إلى أول معبد من أجل التاريخ والدين، وكل ما هو مهم في ذلك البلد المبهر للعالم. ولكنه بدلًا من ذلك كله يخبرنا — بكل أسف — أن خوفو بنى الهرم من ثمار الدعارة.»[١٩]

---

[١٧] George Ebers, Richard Lepsius, A Biography, trans. Z. D. Underhill (New York, 1987) .274–75

[١٨] .Rev. A. H. Sayce, The Egypt of the Hebrews and Herodotus (London, 1897), 242

[١٩] .H. V. F. Winstone, Uncovering the Ancient World (New York, 1986), 121

ولم يتقن بتري الكلاسيكيات مطلقًا. ويقول إن أمه ظنت أن «من الطبيعي أن تحشو ذهنه بقواعد اللغات الإنجليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية معًا، وهو في سن الثامنة من عمره»، وبلغت محاولاته في اللاتينية عشر محاولات، وفي اليونانية ست محاولات، باءت جميعًا بالفشل عندما بلغ العاشرة من عمره، فترك الدراسة ليتولى أمر تعليم نفسه.[٢٠]

وكان ماسبيرو عكس ذلك تمامًا، فبعد بونابرت بقرن من الزمان، أعطاه العثور على لوحة لاتينية في فيله دفعة من الحماس الوطني، ويذكر النص كيف أن كورنيليوس حاكم مصر في عهد أغسطس، أخضع وادي النيل للحكم الروماني حتى جزيرة فيله — وعندما لاحظ ماسبيرو أن كورنيليوس وُلد على أرض غالية:

«تذكر على الفور النصوص الأخرى الأحدث التي نجدها على الجهة الداخلية من بوابة فيله الكبيرة، فبعد مرور ١٨ قرنًا على الغالي كورنيليوس، جاء غاليون آخرون إلى النوبة صدفة، وحاولوا أن يتركوا تذكارًا لوجودهم هناك، فنقشوا على الصخر كيف أنه في العام السادس للجمهورية يوم ١٢ ميسيدور، نزل الجيش الفرنسي إلى الإسكندرية بقيادة بونابرت، وبعد ذلك بعشرين يومًا حارب المماليك عند الأهرام، وقام ديزيه — قائد الفيلق الأول — بدفعهم جنوبًا إلى ما وراء الشلال الذي بلغه في ١٨ من نيفوس، العام السابع للجمهورية.

ويجب أن يرى المرء في رحلة دينون، ومجلدات وصف مصر كيف أكسبتهم ذكريات الماضي القديم حيوية وقوة، والاعتزاز والفخر الذي شعروا به وهم يرفعون أعلامهم فوق الصخور التي قامت عندها الفرق الرومانية بإنجاز ما كان من قبيل المستحيلات …»[٢١]

آراء المسلمين عن الإغريق والرومان قبل الطهطاوي

لم يكن الأدب اليوناني واللاتيني القديم يمثل «الكلاسيكيات» عند مسلمي العصور الوسطى، وكان بونابرت يعلم جيدًا أكثر من علمه عن الظهور أمام المصريين بمظهر الإسكندر أو قيصر، فبدلًا من ذلك جعلته دعايته العربية — دون نجاح — يبدو كمسلم

٢٠ W. M. F. Petrie, Seventy Years in Archaeology (London, 1931), 6–7.

٢١ Maspero, “Une Inscription trilingue de C. Cornelius”, in his Causeries d’Égypte, 2nd ed. (Paris, 1907), 95–101.

معاد للكهنوت، هاجم البابا العدو اللدود للإسلام، وأنه صديق للسلطان العثماني، وأن هدفه الوحيد تحرير مصر من طغيان المماليك.

ولم يكن ذلك يرجع إلى جهل الجبرتي ورفاقه من علماء الأزهر بالحضارة اليونانية-الرومانية. فقد كانت الترجمات العربية الأولى من الفلسفة اليونانية، والعلوم، والرياضيات أساسية في تحقيق التقدم الإسلامي في تلك الميادين، وأصبح المنطق الأرسطي أداة ضرورية للفقه الإسلامي.[٢٢] ونسج الأدب الإسلامي روايته الخاصة لأسطورة الإسكندر. ولكن مسلمي العصور الوسطى لم يرثوا الدراما أو الأساطير اليونانية (الميثولوجيا)، كما لم يهتموا بالتاريخ الباكر لليونان، فقبل الفتوح الإسلامية كانت المدارس المسيحية قد أهملت هذه الجوانب باعتبارها وثنية. وعلى أي حال، جلب العرب معهم من الجزيرة العربية تراثهم الشعبي وأشعارهم، والدين الجديد. ولذلك لم تظهر ترجمة الإلياذة إلى العربية في بغداد على عهد هارون الرشيد عام ٨٠٤، ولكنها ظهرت في القاهرة أيام كرومر عام ١٩٠٤م.[٢٣]

ولم يشعر المسلمون الأوائل بتهديد من جانب الوثنية اليونانية-الرومانية، فقد انقضى أجلها قبل زمانهم. وفي القرن الحادي عشر، ذكر البيروني في كتابه عن الهند آلهة اليونان والهنود. وهكذا استطاع المسلمون أن يرشدوا ما أخذوه عن اليونان الوثنية، فأهملوا الفكر الديني المشرك لعدم قدرة الناس على التفكير فيه بشكل مجرد بحيث يضمون اليونان إلى فئة الصابئة التي ورد نص قرآني بشأنها وضعها في عداد المؤمنين بالله، أو النظر إلى الأفلاطونيين الجدد على أنهم موحدون على نمط التراث اليهودي.[٢٤]

ويعد مؤرخو العصور الوسطى من المسلمين بتواريخهم عن عصور ما قبل الإسلام عن اليهود، والنصارى، والوثنيين العرب والتراث الفارسي. ولم يكن الطبري يعرف شيئًا عن تاريخ اليونان قبل فيليب ملك مقدونيا، واكتفى بذكر البطالمة في قائمته، وبدأت معرفته بالتاريخ الروماني بيوليوس قيصر الذي جاء بالرومان إلى مصر. وقطع استرسال

---

[٢٢] Dimitri Gutas, Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early Abbasid Society (London, 1998).

[٢٣] Albert Hourani, Islam in European Thought, (Cambridge, 1991), 174–87.

[٢٤] John Walbridge, “Explaining away the Greek Goods in Islam” unpublished, MESA, Washington, D.C. December 1995.

الطبري في سرد قائمة الملوك من هرقل؛ فالمسيح وُلد في عهد أغسطس، ونيرون قام بذبح بطرس وبولس، وقام تيتيوس بسحق ثورة اليهود وتحطيم بيت المقدس.[٢٥]

ولم يكن للاتينية جذور — على الإطلاق — في شرق البحر المتوسط الذي صارع المسلمون البيزنطيين للسيطرة عليه، وليس ثمة استثناء واحد لنصوص لاتينية تمت ترجمتها إلى العربية في العصور الوسطى.[٢٦] وعند معظم المسلمين كانت «الروم» و«قيصر» ترتبط بالبيزنطيين، وليس بالرومان الذين اختفوا من الوجود في الغرب.

اليونان وروما القديمة عند الطهطاوي

أبدى الجبرتي إعجابه بمكتبة «المجمع العلمي المصري»، ولكن مر جيل قبل أن يصبح شيخ أزهري آخر في وضع يمكنه من أن يقدم لأبناء بلاده اللمحات الأولى عما كان يعنيه اليونان والرومان عند الأوروبيين، ونتيجة انكبابه على الكتب التي أوصاه معلمه الفرنسي بقراءتها في العشرينيات من القرن التاسع عشر، التقى رفاعة الطهطاوي باليونان والرومان عند كل منعطف. فقرأ كتابًا عن فلاسفة الإغريق، وتاريخًا يتضمن فصولًا عن الأساطير اليونانية «زمن جاهليتهم»، وكتاب مونتسكيو «ملاحظات حول أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم»، وكتاب فينلون «مغامرات تليما خوس»، وكانت الكتب التي اختار الطهطاوي قراءتها: راسين، وروح القوانين لمونتسكيو، والقاموس الفلسفي لفولتير، والعقد الاجتماعي لروسو، كانت جميعًا تتناول تلميحات كلاسيكية.[٢٧]

وقدم العلماء الفرنسيون هدية لتلميذهم اللامع، كتاب جان جاك بارثلمي «رحلات الشاب أناخارسيس في بلاد اليونان في منتصف القرن الرابع قبل العصر المسيحي» ويقع في خمسة مجلدات (باريس ١٧٨٨م)، وكان هذا الكتاب المعبِّر عن الميل إلى اليونان، والذي طواه النسيان رغم أنه كان واسع الانتشار في زمانه، كان يروي قصة خيالية لرحلة في بلاد اليونان قام بها شاب من ثسيا (عند بحر الأدرياتيك)، يلتقي خلالها أفلاطون

---

[٢٥] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، المجلد الرابع.

[٢٦] Charles Issawi, “Ibn Khaldoun on Ancient History: A Study in Sources”, Princeton Papers in Near Eastern Studies, no. 3 (1994), 127–50.

[٢٧] Gilbert Delanoue, Moralistes et politiques musulmans dans l’Egypte du XIXe siècle (1798–1882), 2 vols. (Cairo, 1982) 2: 619–20.

جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي (القاهرة ١٩٥١م)، ١٢٥.

وأرسطو وغيرهما من حكماء اليونان، وقام الطهطاوي — فيما بعد — بتوزيع الكتاب على تلاميذه لترجمته إلى العربية، ولكن المشروع لم يقدر له التنفيذ.[٢٨]

وعندما تولَّى الطهطاوي نظارة قلم الترجمة في عهد محمد علي، ثم في عهد إسماعيل، اختار من الكتب التي تترجم إلى العربية تاريخ الفلسفة اليونانية، وكتاب مونتسكيو عن أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم، وكتاب في تاريخ الشرق الأدنى القديم، واليونان والرومان.[٢٩]

لقد لفت كتاب الطهطاوي «أنوار توفيق الجليل» الذي نشر عام ١٨٦٨م، الأنظار إلى مصر الفرعونية.[٣٠] ولكنه خصص للعصور اليونانية والرومانية والبيزنطية ضعف ما خصصه للعصر الفرعوني من صفحات الكتاب. واتخذ الطهطاوي موقفًا متعاطفًا مع اليونان منذ أيام الأسرة السادسة والعشرين، عندما جاءوا إلى مصر كجند مرتزقة. ورأى أن بلاد اليونان تعكس كل الحضارات القديمة — بابل، وآشور، وفينيقيا، وفارس، والهند — ما عدا الحضارة المصرية. واتخذ موقفًا مماثلًا للكتاب الأوروبيين في القرن التاسع عشر عندما نقل حكاية هيرودوت عن سيزوستريس (رمسيس الثاني) وغزواته الواسعة في أوروبا وآسيا، كذلك الحكايات الإغريقية عن وجود جاليات مصرية في عصر ما قبل التاريخ ببلاد اليونان، وأعلن الطهطاوي — ببساطة– «إن اليونان شقيقة لمصر».[٣١]

وسار الطهطاوي على نهج الإغريق في الهجوم على فرس الأسرة السابعة والعشرين باعتبارهم طغاة، هاجموا الكهنة والمعابد المصرية. ذكر أن الأسرات من الثامنة والعشرين حتى الثلاثين حكمت «الوطن» المصري مستقلة، ثم ما لبثت مصر أن وقعت — مرة أخرى — في يد الفرس، ومهد ذلك السبيل للإسكندر والبطالمة ليلعبوا دور المحررين، واستقبل كهنة سيوة الإسكندر باعتباره ابنًا لآمون رع. وامتدح الطهطاوي الإسكندر والبطالمة لبنائهم المعابد للمصريين ولآلهة اليونان، وبنائهم الإسكندرية كمركز اتصال

---

[٢٨] Elie Kedourie, ed., Nationalism in Asia and Africa (New York, 1970) intro., 39–40.

[٢٩] Ibrahim Abu-Lughod, The Arab Rediscovery of Europe, A Study in Cultural Encounters (Princeton, N.J., 1963) 50–51.

[٣٠] Jack Crabbs, The Writing of History in Nineteenth Century Egypt: A Study in National Transformation (Cairo, 1984). 79.

[٣١] رفاعة الطهطاوي، أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل (الأعمال الكاملة، تحقيق عمارة، بيروت ١٩٧٤م) ١٥، ١٠٥.

يربط أفريقيا وآسيا وأوروبا. وذكر أنه خلال عصر الإسكندر الأكبر والبطالمة وأيام الحكم الروماني السوداء، كانت مصر تحظى بالاحترام لتأثيرها المعنوي والثقافي. وكانت الإسكندرية مقرًّا للكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة الذين برعوا في مختلف العلوم. وخاصة في دراسة العادات والتقاليد، ونشرت ثقافتها بين جميع الأمم، وكانت معارفها نافعة للمقيمين فيها والوافدين إليها.[٣٢]

ويشير الطهطاوي إلى أن مصر ازدهرت — خاصة — في عهد أول ملكين من ملوك البطالمة. وقد كتب مانيتو تاريخ مصر القديم باليونانية، وترجم اليهود التوراة إلى اليونانية، وأعيد شق القناة التي ربطت النيل بالبحر الأحمر، وأقيمت المنارات والمدارس ومكتبة الإسكندرية. وعندما ذكر حجر رشيد الذي يحمل أمرًا أصدره بطليموس الرابع، عرج الطهطاوي على شامبليون وفك رموز الهيروغليفية، وعندما تناول فكرة كلوديوس بطليموس عن مركزية الأرض للكون، أرجع الطهطاوي مركزية الشمس إلى فيثاغورس وكوبرنيكس والأوروبيين المحدثين، ولكن حذر من أن ذلك يتناقض مع ما جاء بالقرآن.[٣٣] وذكر أن صراعات البطالمة المتأخرين أضرت بمصر، وإن كانت نخبة من الإغريق كانت تفرض حكمها على المصريين.

ومر الطهطاوي على التاريخ الروماني من رومولوس وريموس إلى يوليوس قيصر في صفحة واحدة، ولا يكاد يذكر الحروب البونية. ولم يبدِ الطهطاوي أي عطف على آخر ملوك البطالمة، على عكس الشاعر أحمد شوقي الذي صور كليوباترا في روايته الشعرية «مصرع كليوباترا» (عام ١٩٢٨م) على أنها كانت وطنية مصرية تعمل على تخليص بلادها من السيطرة الرومانية. وبذل جهدًا في تبرئة الخليفة عمر بن الخطاب من تهمة حرق مكتبة الإسكندرية، فذكر أنها أحرقت فعلًا عند حصار يوليوس قيصر للثغر.[٣٤] ورغم التسامح الديني الذي اتبعه الرومان وبنائهم المعابد حتى النوبة جنوبًا، اعتبرهم الطهطاوي مستغلين ينشدون الاستيلاء على ثروة مصر. وعلى كلٍّ، لم يسر الطهطاوي على نهج الغرب — بشكل نمطي — في تقدير الأباطرة؛ فالإمبراطور هادريان — مثلًا — كان جيدًا، وشهدت مصر الرخاء في عهده.[٣٥]

---

[٣٢] أورده الشيال في دراسته The Egyptian Historiography.

[٣٣] الطهطاوي، أنوار توفيق الجليل ١٨٥–٨٦ و٢١٥–٢٢٣ و٢٧٤–٧٩.

[٣٤] الطهطاوي، أنوار توفيق، ٢٧٣ و٢٤٧–٢٧٢.

[٣٥] الطهطاوي، أنوار توفيق، ٢٩٠–٢٩١، ٣٤٣–٣٤٥، ٤٧٣–٤٧٤.

ويذكر الطهطاوي مولد عيسى بن مريم في عهد الإمبراطور أغسطس، ولجوء العائلة المقدسة إلى مصر، ونفي القرآن لما يعتقده المسيحيون من موت المسيح وقيامته، وبين كيف أن المسيحية حلت تدريجيًّا محل ديانة «الصابئة» المصرية القديمة. ويشير إلى اضطهاد الرومان للمسيحيين، وتحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية، وبداية الأسرة الخامسة والثلاثين التي حكمت الإمبراطورية من القسطنطينية حتى الفتح الإسلامي، مع تولي ثيودوسيوس الحكم وتحريمه عبادة الآلهة القديمة.[٣٦]

كان كتاب «أنوار توفيق» وكتاب «نهاية الإيجاز» الذي أعقبه يغطيان مقرر التاريخ في السبعينيات من القرن التاسع عشر الذي كان يتعلمه طلاب المدرستين التحضيريتين — رأس التين بالإسكندرية، ودرب الجماميز بالقاهرة — بالفرقة الثالثة. وكان مقرر الفرقة الأولى يغطي تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم، والفرقة الثانية يغطي تاريخ اليونان والعصر الهلِّينستي وعصر الجمهورية الرومانية ثم أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية. وكان مقرر الفرقة الثالثة يتناول تاريخ الإمبراطورية الرومانية حتى اعتلاء ثيودوسيوس العرش، وغزو البرابرة، وتاريخ ما قبل الإسلام، وتاريخ أوائل العصر الإسلامي، كذلك يتضمن تاريخ الأندلس وصقلية الإسلامية. أما الفرقة الرابعة فكانت تدرس التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى والحروب الصليبية، والدولة العباسية، والمماليك حتى الغزو العثماني.[٣٧] ورغم أن مقررات التاريخ أسقطت مصر بعد عام ١٥١٧م، ومعظم آسيا، والتاريخ الأفريقي والأمريكي، فقد فتح مجالًا واسعًا للرؤية أمام المصريين المحدثين.

وكان مقرر التاريخ في السنوات الأربع بدار العلوم يعطي اهتمامًا بعصر ما قبل الإسلام، واهتمامًا أكبر بالتاريخ العثماني بعد عام ١٥١٧م، وتاريخ أوروبا الحديث. وفي تقرير عن عام ١٩١١م، وجه اللوم إلى دار العلوم لتركيزها على التاريخ الأوروبي على حساب التاريخ الإسلامي.[٣٨]

وقد تناول الطهطاوي اليونان وروما القديمة في أعمال أخرى غير كتابه «أنوار توفيق الجليل»؛ ففي مقال نشر في «روضة المدارس» عن عادات اليونان والرومان، قرر

---

[٣٦] الطهطاوي، أنوار توفيق، ٢٩١–٢٩٣، ٢٩٨–٢٩٩، ٣٣٤.

[٣٧] أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في مصر (القاهرة ١٩٤٥م)، ٢: ٤٣١.

[٣٨] Lois Aroian, The Nationalization of Arabic and Islamic Education in Egypt: Dar al ‘Ulum and al-Azhar, Cairo Papers in Social Science, vol. 6, Monograph 4 (Cairo, 1983), 44–48, 54.

الطهطاوي أن معاملة النساء هي معيار تقدم المجتمع.[٣٩] وفي عام ١٨٦٩م كلف الخديو إسماعيل الطهطاوي بالإشراف على ترجمة رواية أوفنباخ «هيلانة الجميلة» ليتم تمثيلها على المسرح الكوميدي بالقاهرة.[٤٠]

وفي كتابه «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» مزج الطهطاوي بين معرفته باليونان والرومان والفراعنة، بما استمده من القرآن والحديث والمصادر الإسلامية الأخرى، فأشار إلى سولون والإسكندر والبطالمة، وامتدح وطنية البطالمة، والرومان، وأبطال الإسلام، وذكر الحديث القائل: «حب الوطن من الإيمان» ليربط بين الإسلام والوطنية عند مواطنيه، كما أورد المثل القائل: «مصر أم الدنيا.»[٤١]

ورغم تبريره لإقدام محمد علي على سحق ثورة اليونان من أجل الاستقلال، على أساس أن اليونانيين هاجموا المسلمين والمساجد، اعتقد أن هجرة اليونانيين إلى مصر سوف تؤدي إلى رخائها كما حدث في الماضي، وربط بين محمد علي والإسكندر، فكلاهما وُلد خارج مصر، وجاء إليها ليحكمها حكمًا يقوم على التسامح والعدل.[٤٢] وبعد أن تناول حكم أسرة الإسكندر الثانية والثلاثين، أو «الأسرة المقدونية الأولى» قال إن الله أكرم مصر بفاتح مقدوني آخر هو محمد علي باشا.[٤٣] وربما كان عليه أن يذكر أن (بلَّا) — بلدة الإسكندر — كانت تقع على بعد مائة ميل فقط من قولة التي جاء منها محمد علي.

اليونان والإيطاليون ونهضة الإسكندرية في القرن التاسع عشر

كانت الخبرة المقدونية — العثمانية التي اكتسبها محمد علي في شبابه — في بلاده الأصلية — قد جعلته على دراية بعالم التجارة والسياسة في البحر المتوسط. لقد نقل البطالمة والرومان عاصمة مصر نحو ساحل البحر إلى ثغر الإسكندرية، ولكن الحكام العرب أعادوها إلى الداخل في الفسطاط (قرب القاهرة)، التي وقعت فيما بين منف وعين شمس.

---

[٣٩] روضة المدارس، ٤، عدد ١٠، ٩.

[٤٠] Philip Sadgrove, The Egyptian Theatre in the 19th century (1799–1882) (Reading, Berkshire, 1996) 47–48, 61.

[٤١] See, Crabbs, Writings, 74–79.

[٤٢] Crabbs, Writings, 77; Wendell, The Evolution of the Egyptian National Image, 128–130.

[٤٣] الطهطاوي، أنوار توفيق الجليل، ١٩٤–١٩٥.

وعندما وصلت حملة بونابرت إلى الإسكندرية كانت قد اضمحلت، وهبط سكانها إلى ٨٠٠٠ نسمة. وعمل محمد علي على إحياء الثغر باعتباره بوابة مصر إلى الاقتصاد العالمي الذي تتحكم فيه أوروبا، وذلك مع الإبقاء على القاهرة عاصمة للبلاد. وبنى «المقدوني الثاني» قصرًا في رأس التين، كان يقضي فيه جانبًا من وقته، وسخَّر الفلاحين في حفر ترعة المحمودية لمد الإسكندرية بالماء العذب من النيل، وإقامة خط اتصال نهري يربطها بالنيل، كما بنى أسطولًا بحريًّا في الترسانة التي أقامها هناك، وأرسل منها قواته لإخماد الثورة في بلاد اليونان التي قامت ضد الحكم العثماني، وبدأ الاهتمام بزراعة القطن باعتباره محصولًا نقديًّا يمكن استخدامه في سداد قيمة الواردات الأوروبية.

وفي العام ١٨٢١م، كانت الإسكندرية لا تزال مدينة صغيرة، يتراوح تعداد سكانها بين ١٢ و١٣ ألف نسمة، وعند نهاية حكم محمد علي — عام ١٨٤٨م — وصل تعدادها إلى ١٠٤ ألف نسمة، وعند وقوع الاحتلال البريطاني — عام ١٨٨٢م — كان قد بلغ ٢٣١ ألف نسمة، وعند استقالة كرومر عام ١٩٠٧م، كان التعداد قد وصل إلى ٤٠٣ ألف نسمة. وتغيرت تبعًا لذلك نسبة الأوروبيين والمتمتعين بحمايتهم بين سكان المدينة، من أقل من ٥٪ عام ١٨٤٨م إلى ٢٥٪ عام ١٨٨٢م.[٤٤] واستمدت النخبة التجارية، التي اجتذبها الاقتصاد المزدهر، شرعيتها بالإسكندرية من الماضي اليوناني-الروماني، تمامًا كما حدث في إيطاليا عصر النهضة، وعلى كلٍّ، كانت غالبية ملوك التجارة بالإسكندرية من الأجانب تقريبًا، وكان هؤلاء هم الذين يعتبرون أنفسهم استمرارًا للماضي القديم للإسكندرية، وليس المصريين.

وكان اسم الإسكندرية ذاته يبقي على ذكرى مؤسسها حية في الأذهان، ومع وجود الآثار اليونانية-الرومانية مطمورة هناك، كان التراث الكلاسيكي أكبر حجمًا منه بالقاهرة. وعلى كل فقد كانت الفسطاط والقاهرة الفاطمية إسلاميتين من حيث النشأة، وكان الأوروبيون يمثلون ٥٪ من سكانها عام ١٨٩٧م،[٤٥] وهي نسبة لا تقارن بالوجود الأوروبي بالإسكندرية. وحجبت الآثار الإسلامية بالقاهرة، والآثار الفرعونية بالجيزة على مقربة منها، الأثر الروماني المتمثل في حصن بابليون بمصر القديمة.

[٤٤] عن الإسكندرية في القرن التاسع عشر راجع كتاب:
Michael Reimer, Colonial Bridgehead: Government and Society in Alexandria. Egypt .1907–1882 (Boulder, Colo.; 1997)

[٤٥] .Janet Abu Lughod, 1001 Years of the City Victorious (Princeton, N.J. 1971), 98, 115

وكان اليونانيون يمثلون أكبر الجاليات الأوروبية بالإسكندرية، فبلغت نسبتهم إلى الرقم الإجمالي للأجانب ٣٣٪ عام ١٨٩٧م، و٤١٪ عام ١٩٠٧م.[٤٦] وفي الإسكندرية — كما في غيرها من المدن المصرية — أصبح اليونانيون منتشرين في تجارة البقالة، والحانات، وعملوا كمرابين يقرضون الأموال للفلاحين، ووسطاء في تجارة القطن. وجاء نمو الوجود اليوناني وانتعاش أحوال الجالية اليونانية تحت مظلة الحماية التي وفرتها لهم أسرة محمد علي، والقناصل الأوروبيين، ثم الاحتلال البريطاني، في حين كانت اليونان المستقلة تعاني الضعف والانقسام، مشغولة بالبلقان وبحر إيجة والأناضول، عن التفكير في إحياء ادعاءاتها الإمبريالية في مصر، مكتفية بالحصول على حقوق الامتيازات الأجنبية عام ١٨٥٤م، وعلى مقعد بمحكمة الاستئناف المختلطة عام ١٨٨٩م.

ووجد اليونانيون في مصر أنه من الصعوبة بمكان تخليص تراثهم القومي من الأرثوذكسية، وتراثهم الكلاسيكي من الحنين إلى بيزنطة، تمامًا كما حدث لمواطنيهم في اليونان المستقلة حتى القرن العشرين.[٤٧] فقد كان اليونانيون المقيمون بمصر في القرن الثامن عشر يرون أنفسهم — ببساطة — كأفراد ينتمون إلى «الملة» الأرثوذكسية اليونانية، التي كان لها بالإسكندرية بطريركية، وكنيسة، ودير، وتكية، وخان للمسافرين.

وأصبحت الهوية اليونانية أكثر تعقيدًا مع استقلال اليونان عام ١٨٣٠م، وفتحت اليونان قنصلية لها بالإسكندرية عام ١٨٣٣م. وبعد ذلك بعشر سنوات تكونت الجالية اليونانية الأرثوذكسية بصفة رسمية، وتم انتخاب مسئوليها، وإقامة مدرسة، ومستشفى. وعبثًا حاول البطريرك اليوناني الاحتجاج خشية أن يؤدي ذلك إلى تناقص سلطته. وجاء اختيار الطراز القوطي الحديث — وليس البيزنطي — لكنيسة إيفانجليموس التي بدأ العمل بها عام ١٨٤٤م بالإسكندرية وتم عام ١٨٥٦م، جاء ذلك الاختيار ليعكس الاتجاه نحو الغرب. وفي العام ١٨٨٧م، غيرت الجالية اسمها إلى «الجالية الهلِّينية» لتميز نفسها عن غيرها من رعايا الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية من العرب. وسارت الجالية اليونانية

[٤٦] Robert Ilbert, Alexandrie 1830–1930: Histoire d’une communauté citadine, 2 vols. (Cairo, 1996) 1: 395, 2: 609–15; Alexander Kitroeff, The Greeks in Egypt 1919–1937: Ethnicity and Class (London, 1989) First Chapter.

[٤٧] Gerasimos Augustinos, Consciousness and History: Nationalist Critics of Greek Society 1897–1914 (Boulder, Colo. 1997); G. P. Henderson, The Revival of Greek Thought 1620–1830 (Albany, N.Y., 1970).

بالقاهرة على نفس الدرب، ولكن بخطى أبطأ فكونوا الجالية الأرثوذكسية اليونانية عام ١٨٥٦م ثم أعادوا تسميتها بالجالية «الهلِّينية» عام ١٩٠٤م.

وحتى قيام الأتراك بطرد اليونانيين من الأناضول عام ١٩٢٣م، كان اليونانيون السكندريون — مثلهم في ذلك مثل مواطنيهم ببحر إيجة — تداعبهم أحلام إقامة (إيديا الكبرى) أي إعادة تكوين الإمبراطورية البيزنطية بشرق البحر المتوسط والبلقان. أما سكان بلاد اليونان أنفسهم، فكانوا منقسمين من بين من أضناهم الحنين إلى الماضي البيزنطي، ومن يحلمون بالعصر الذهبي لليونان القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد الذي خلب لب أهل الغرب. ولكن اليونان السكندريون — مثل الشاعر قسطنطين كفافي — كانوا يحنون إلى العصر البطلمي الهلِّينستي[٤٨]

وكان من بين اليونان السكندريين المهتمين بالآثار الطبيب تاسوس ديمتريوس نيروتسوس (١٨٢٦–١٨٩٢م)، والتاجران الكبيران الكونت إستيفان زيزنيا (١٧٩٤–١٨٦٨م)، والسير جون أنطونيادس (١٨١٨–١٨٩٥م). درس نيروتسوس الطب بجامعة ميونخ، ولكنه — أيضًا — أعد رسالة عن أسماء آلهة الرومان، وألقى أوراقًا بحثية عن الإسكندرية القديمة أمام «المجمع العلمي المصري»، وأهدى إلى المجمع مجموعة الآثار الخاصة به. ولكن انتقال المجمع إلى القاهرة أدى إلى ضعف مشاركة اليونانيين فيه بعد وفاة نيروتسوس.[٤٩] وتمثلت في زيزنيا الهوية القومية المركبة عند بعض السكندريين المنفحتين على العالم. وُلد زيزنيا بجزيرة خيوس، وحصل على الجنسية الفرنسية أثناء عمله في مارسيليا، ولكنه أصبح رئيسًا للجالية اليونانية بالإسكندرية، وقنصلًا عامًّا لبلجيكا. ومنحت الملكة فيكتوريا وسام الفارس لأنطونيادس — الراعي الرئيسي للمتحف اليوناني-الروماني — الذي ترك قصره وحديقته لبلدية الإسكندرية.[٥٠]

وكانت الإسكندرية قد فقدت بعض المجموعات الرائعة من آثارها اليونانية-الرومانية التي ذهبت إلى أثينا وإلى غيرها من البلاد، ولكن جليمونوبولو أعلن عام ١٩٠٧م أن

---

٤٨ On Cavafy, see John Rodenbeck, “Alexandrian Literature”, the American Research Center in Egypt, nos. 156–57 (Winter/Spring 1992) 7–10.

٤٩ Athanase G. Politis, L’Hellénisme et l’Égypte moderne, 2 vols., (Paris, 1929–1930), 2: 405–6.

٥٠ Who Was Who 3, 457, 18.

مجموعته «تخص — من ناحية الحق — متحف الإسكندرية؛ لأنه تم العثور عليها في مصر، وتم الحصول عليها لأغراض علمية بأموال اكتسبت من نفس البلد الكريم المضياف، ولهذا السبب أرسلها إلى مستقرها، ولا أعد ذلك هبة مني، ولكنه ببساطة ردها لأصلها.»[٥١]

وأسست بالإسكندرية عام ١٩٠٩م «جمعية رجال علم الهلِّينية بالإسكندرية بطليموس الأول»، لتخليد ذكرى مؤسس الأسرة البطلمية، كان أعضاؤها من الأطباء. وفي القاهرة أُسِّست «جمعية هللنيون» — التي لم تعمر طويلًا — وحملت اسم معبد قديم أقيم في نوكراتيس بالدلتا حيث جاء مستوطنوها من ست مدن يونانية جمعتهم أرومة واحدة.[٥٢]

واتجه نستور جناكليس — ملك تجارة وصناعة التبغ — إلى محاولة استرجاع حضارة شمال أفريقيا اليونانية التي قرأ عنها في النصوص القديمة. وما زالت مزرعة كروم جناكليس قرب الإسكندرية — التي أممها عبد الناصر وتم تخصيصها أخيرًا — تنتج نوعان من النبيذ أحدهما: فيض البطالمة، والآخر الملكة كليوباترا. وقد أنقذ غياب الزراعة المعتمدة على المطر مصر من التعرض للخسارة الفادحة — مثلما فعل الفرنسيون — جريًا وراء وهم أن شمال أفريقيا كان مصدر إمداد روما بالغلال، فقد فشل الفرنسيون في تحويل المغرب إلى مصدر رئيسي للغلال.[٥٣]

وكان للإيطاليين حضور قوي في المركز الثاني بعد اليونانيين بين المقيمين الأجانب بالإسكندرية (إذ بلغت نسبتهم ٢٥٪ من إجمالي المقيمين الأجانب عام ١٨٩٧م).[٥٤] وكان الإيطاليون يعملون بالبناء، والحرف اليدوية، وإصلاح الآلات الميكانيكية، وكانت الأسرة الحاكمة — من إسماعيل حتى فؤاد — تتخذ مستشاريها من الإيطاليين الذين كانوا يحتلون مكانهم بين رجال الحاشية. ولما كانت إيطاليا ضعيفة، تحتل المركز السادس بين دول أوروبا فلم يكن لديها أمل في التطلع لإشباع ميولها الإمبريالية في مصر. وبعد أن أزاحتها فرنسا من تونس، ولحقت بها هزيمة منكرة في عدوا بالحبشة عام ١٨٩٦م،

---

[٥١] Ilbert, Alexandrie, 2: 679.

[٥٢] Politis, L'Hellénisme, 2: 420–24.

[٥٣] J. Dean O'Donnell Jr., Lavigerie in Tunisia: The Interplay of Imperialist and Missonary (Athens, Ga., 1979), 169; Kitroeff, The Greeks, 114.

[٥٤] عن الإيطاليين في مصر، انظر Ilbert, Alexandrie, 2: 616–23.

لم يبق أمام إمبراطورية روما الجديدة التي تحلم بها إيطاليا سوى ليبيا وإرتريا — التي قامت بإحياء أسماءها القديمة — وكذلك جزء من الصومال. وقام موسوليني وحده بإرساء نظامه الفاشي على رموز رومانية، وحلم — فيما بعد — بغزو مصر.[٥٥]

وأكدت إدارة المتحف اليوناني-الروماني — التي ظلت بيد الإيطاليين لمدة نصف قرن — الادعاءات الإيطالية الحديثة بنسبة تراث الإسكندرية القديم إليها. فقام عدد من أعيان الجالية الإيطالية السكندرية بجمع الآثار اليونانية-الرومانية والفرعونية، تداعب أحلامهم ذكريات يوليوس قيصر، ومارك أنطونيو، وأغسطس، وهادريان. وعلى سبيل المثال، قام بيترو يوجيولي (١٨٣١–١٩٠٢م) بتكوين مجموعة، بعثرت فيما بعد بين متاحف القاهرة، وبولونا، وفيينا، ونيويورك.[٥٦]

وجاءت الجاليتان البريطانية والفرنسية في المركزين الثالث والرابع — بعد اليونان والإيطاليين بفارق كبير — بالإسكندرية عند نهاية القرن.[٥٧] (وكان الكثير ممن ذكروا بالتعداد كبريطانيين في حقيقة الأمر مالطيين، كما كان الكثير ممن ذكروا كفرنسيين من التوانسة والجزائريين). ولكن الاحتلال البريطاني لمصر، والمكانة الثقافية لفرنسا، وهيمنة الفرنسيين على مصلحة الآثار، أعطى لآراء رعاياهما في مجال الآثار وزنًا لا يستهان به.

محمود الفلكي، حفائر وخرائط الإسكندرية القديمة

كان محمود الفلكي (١٨١٥–١٨٨٥م) المصري الوحيد الذي حظي باعتراف الأوروبيين بعلمه — قبل الحرب العالمية الأولى — في مجال الكلاسيكيات، رغم أنه لم يتخصص — مثلهم — في اليونانية واللاتينية. وكان محمود الفلكي عالمًا تتسع دائرة اهتمامه اتساعًا كبيرًا، شأنه في ذلك شأن الطهطاوي وعلي مبارك.

لقد كان محمود أحمد حمدي الفلكي مصريًّا كعلي مبارك، صعد من أصوله الريفية عن طريق المدارس الحديثة التي أقامتها الدولة حتى وصل إلى الوزارة، في وقت كانت فيه النخبة التركية — الشركسية تحتكر السلطة. ترك قريته بالدقهلية ليلتحق بالمدرسة

---

٥٥ Claudio Segrè, Fourth Shore, The Italian Colonization of Libya. (Chicago, 1974).

٥٦ Who Was Who 3: 345.

٥٧ Ilbert, Alexandrie, 1: 395.

البحرية التي أقامها محمد علي بالإسكندرية، ثم بمدرسة المهندسخانة بالقاهرة، وبدأ عمله بالتدريس بالمدرسة الأخيرة عام ١٨٣٩م، الذي شهد التحاق علي مبارك بها طالبًا، فتعلم الأخير على يديه (ولم يكن قد أضيفت صفة الفلكي إلى اسمه بعد)، وذهب علي مبارك إلى فرنسا ليكمل دراسته هناك، وعاد ليكسب ثقة عباس الأول. ويعزي إلى مبارك فضل إقناع عباس بإيفاد معلمه السابق محمود أحمد حمدي إلى فرنسا لدراسة الفلك، وكان — عندئذٍ — في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان إسماعيل مصطفى — واحد من اثنين أوفدا معه في هذه البعثة — حريصًا على إضافة صفة «الفلكي» مثله بعد العودة من فرنسا، وقد قضى محمود أحمد حمدي أربع سنوات بمرصد باريس، وخمسًا أخرى تنقل فيها بين مراصد أدنبره، وبرلين، وفيينا، ودابلن، وبروكسل، قبل أن يعود إلى مصر، وهو في منتصف الأربعينيات من عمره ليصبح مسئولًا عن مرصد العباسية.[٥٨]

وانفرد محمود الفلكي بين العلماء المصريين في عصره بنشر بحوثه في مجموعة متنوعة من المجلات العلمية الأوروبية، ومثل مصر في المؤتمر الجغرافي الدولي المنعقد بباريس عام ١٨٧٥م، وفي البندقية (فينسيا) عام ١٨٨١م. ويبدو أن محمود الفلكي قُبل بالإجماع الأوروبي الواضح الذي يذهب إلى أن أوروبا كانت المركز العالمي «للعلوم البحتة»، وأن على علماء بلاد الأطراف أن يركزوا جهودهم على الأعمال الثانوية مثل جمع المادة، وحل المسائل التطبيقية. فكانت مساهماته لا تتصل بالفلك تحديدًا، ولكنها تتعلق بمجالات عملية مثل: الطقس، الجيوديسيا (دراسة شكل وسطح الأرض)، المغناطيسية الأرضية، الكرونولوجيا (التحقيب الزمني)، وعلم الخرائط، والآثار. وناقش تثليث الهرم مع فلندر بتري، ونشر بحثًا حول الموضوع. وقام بإجراء حفائر بالإسكندرية، ورسم خريطة للمدينة في العصور القديمة، واهتم المستشرقون بدراسته للتقويم الإسلامي.

ولم ينافسه أحد من معاصريه المصريين في الأنشطة التي قام بها في «المجمع العلمي المصري» الذي يهيمن عليه الأوروبيون، أو في «الجمعية الجغرافية الخديوية»، أو «لجنة حفظ آثار الفن العربي»، فكان نائبًا للرئيس في المجمع، ورئيسًا للجمعية الجغرافية، التي ألقى بها محاضرات، على عكس غيره من قيادات الجمعية. وعكف محمود الفلكي على رسم خريطة للدلتا لمدة عشر سنوات، طبعت بمطبعة بولاق عام ١٨٧١م.

---

[٥٨] هذه المعلومات مستقاة من: Pascal Crozet, “La Trajectoire d’un scientifique égyptien au XIXe siècle: Mahmoud al-Falaki (1815–1885)”, in Entre Réforme social et mouvement national, ed. Alain Roussillon (Cairo, 1995), 285–310.

وأجرى حفائر بالإسكندرية في موسم ١٨٦٥–١٨٦٦م في محاولة للكشف وإيضاح نقاط لتحديد خريطة المدينة في العصور القديمة، ونشر النتائج التي توصل إليها بمجلة المجمع العلمي المصري، وفي كوبنهاجن.[٥٩] ولم يهتم بذلك إلا القليل من المصريين، ولكن المشتغلين بالآثار الكلاسيكية استخدموا عمله — منذئذٍ — كأساس لمعرفة الطبوغرافية القديمة للمدينة.[٦٠]

جلادستون وكرومر والإمبريالية قديمًا وحديثًا

لولا الكلاسيكيات لكان رئيس الوزراء البريطاني الذي أمر باحتلال مصر عام ١٨٨٢م، والقنصل البريطاني العام بالقاهرة، يفتقران إلى الفصاحة، فقد ألف وليم جلادستون سبعة مجلدات عن هوميروس، وكان يلقي محاضرات عنه كلما التمس إلى ذلك سبيلًا.[٦١] وانتخبه مؤتمر المستشرقين الدولي التاسع، المنعقد بلندن عام ١٨٩٢م، رئيسًا لقسم العلاقات بين الشرق والأرخبيل اليوناني.[٦٢] وكان سبعة من بين أعضاء أول وزارة شكلها جلادستون من البارزين في دراسة الكلاسيكيات بأكسفورد وكامبردج، وكانت الاقتباسات من اللاتينية شائعة في مجلس العموم في زمانه. وكان جلادستون، وسولسبري، ووزير الخارجية جرانفيل قد تلقوا الدرس الأولى في الكلاسيكيات بمدرسة إيتون ثم في كريست تشيرش كولدج بأكسفورد. وفي الجيل الثاني تأكدت سمعة أوكسفورد كمهد للإمبراطورية على يد رئيس الوزراء أسكوبث، وحاكم جنوب أفريقيا ألفرد ملنر، ونائب الملك في الهند جورج كيرزون.[٦٣]

ويذكر جلادستون الآن كمؤمن بالهيمنة الإمبريالية غير الرسمية، بسبب حديثه المضاد للإمبريالية. فقد كان نموذجًا لرجال منتصف العصر الفيكتوري في تعظيمه

---

[٥٩] Crozet “Trajectoire”, 21.

[٦٠] على سبيل المثال: Christopher Haas, Alexandria in the late Antiquity: Topography and Social Conflict, (Baltimore, 1997), 360.

[٦١] Kenneth Rose, Superior Person: A Portrait of Curzon and his Circle (New York, 1969), 55.

[٦٢] K. Vollers, “Le IXme congrès international des orientalistes tenu à Londres”, Bulletin de l’Institut Egyptien, ser. 3, no. 3 (November 1892): 200.

[٦٣] Richard Symonds, Oxford and Empire: The Last Lost Cause? (New York, 1986).

لهوميروس وتحقيره من شأن فرجيل — شاعر الإمبراطورية الرومانية — ومن شأن سيده أغسطس. ولكن فرجيل، وأغسطس، والإمبراطورية الرسمية عادت من جديد مع «الإمبريالية الجديدة» في أواخر القرن التاسع عشر، وبدا جلادستون العجوز بعيدًا عن الإدراك. فقد لمست نبوءة أنخيسس بأن العظمة الثقافية من نصيب اليونان والإمبراطورية من نصيب روما، لمست وترًا حساسًا: «فعندما كان يقرأ ذلك رجل إنجليزي ممن عاشوا في القرن الماضي، فكيف لا ينصرف تفكيره إلى بلده؟ إلى حظ بريطانيا، أو كما اعتقد الفيكتوريون المتأخرون — على نحو متزايد — أن القدر قد خص بريطانيا بعظمة وأعباء الإمبراطورية.»[٦٤]

وكتب جون سيلي الأستاذ بجامعة كامبردج: «لا شك أنه كان ينظر في وقت ما بعدم اكتراث إلى الإمبراطورية الرومانية لاتسامها بالطغيان، ولأنها كانت — أحيانًا — كئيبة ونصف بربرية ... (ولكن) هناك أشياء أخرى في السياسة إلى جانب الحرية، فهناك مثلًا الجنسية، وهناك الحضارة.»[٦٥] وكلمات مثل: مستعمرة Colony واستعمار Colonialism وسيادة Dominion وإمبراطورية Empire وإمبريالية Imperialism كلها مشتقة من جذور لاتينية.[٦٦]

وبدت بريطانيا مرتدية رداءها الكلاسيكي، مدعمة بالمعرفة والقوة، تستعرض إمبراطوريتها من فوق وزارة المستعمرات في هوايتهول.[٦٧] ولم يكن باستطاعة فوكو أن يشرح ذلك بصورة أوضح مما فعلته مجلة بانش عندما رسمت بريطانيا في صورة أثينا وقد ارتدت خوذة مقاتل — التي أصبحت صورة نمطية لبريطانيا [٦٨] — في (كارتون) بمناسبة تكريم كتشنر كغازٍ للخرطوم عام ١٨٩٨م (انظر الشكل ٢٩).

أصاب جلادستون الإجهاد من صقور الحرب — داخل وخارج وزارته — خلال الأزمة المصرية عام ١٨٨٢م، ولعله أقنع نفسه بأن الاحتلال المؤقت ممكن، ولكنه عندما

---

[٦٤] Richard Jenkyns, The Victorians and Ancient Greece (Cambridge, Mass., 1980), 331.

[٦٥] J. R. Seeley, The Expansion of England (Chicago, 1971), 187–88.

[٦٦] Vance, Victorians, 222.

[٦٧] Thomas R. Metcalf, An Imperial Vision: Indian Architecture and Britain's Raj (Berkeley, Calif., 1989), 5, 176 ff.

[٦٨] Raphael Samuel, ed., Patriotism: Making and Unmaking of British National Identity, vol. 3 (London, 1989), 26–49.

أرسل القوات البريطانية إلى مصر، كان يقرأ كتاب توماس ماكولاي «خطط روما القديمة» (نشر عام ١٨٤٢م).[٦٩] واستعاد كرومر معارضة سكبيو وكاتو للغزو التوسعي خشية أن يؤدي ذلك إلى إفساد المجتمع «ولذلك ناضل الرومان، أو ناضل بعض عقلائهم بشرف ورجولة لضبط شهوة تعظيم الذات، كما فعل السيد جلادستون، واللورد جرانفيل اللذان كافحا من أجل إزاحة العبء المصري عام ١٨٨٢م.»[٧٠] وقبل ذلك بعام واحد، اتهم صحافي بريطاني فرنسا بشن «آخر الحروب البونية» باحتلالها لتونس.[٧١] والآن وقد أصبحت هناك حامية بريطانية على ضفاف النيل، تتحدى بريطانيا ادعاء فرنسا أنها الوريث الوحيد للإمبراطورية الرومانية في شمال أفريقيا. وبأسلوب مجلة «بانش» المعهود، قدمت رسمًا لكليوباترا تقف أمام قيصر الذي يحمل ملامح جلادستون يتحير عما يفعل، بينما الجنرال ولسلي يقدم له مصر عارية الصدر. (انظر الشكل ٣٠).

كان من الممكن أن تنسب إلى كرومر مقولة سيسل رودس المفضلة «تذكر دائمًا أنك روماني».[٧٢] وُلد كرومر في عائلة تشتغل بالمصارف — هي عائلة بيرنج — باسم إيفلن بيرنج، وتلقى تعليمًا عسكريًّا في مدرسة وولوتيش. ومن بين خلفاء كرومر في مصر لورد كيتشنر وريجنالد ونجت تخرجا أيضًا في وولوتيش (وكذلك شارلز جوردون)، بينما درس كل من هنري ماكماهون والفيلد مارشال اللنبي في سائد هيرست. وقد أحس كرومر دائمًا بالأسى لعدم تلقيه تعليمًا كلاسيكيًّا، فعلم نفسه بنفسه اليونانية واللاتينية، وتشهد اليونانية واللاتينية التي أوردها — دون ترجمة — بكتابه «مصر الحديثة» بانضمامه إلى زمرة من يتقنون الكلاسيكيات، وقد انتقد الرق في الإسلام بنص يوناني، واستنكر معاملة المسلمين للنساء بنص لاتيني، وأبدى اشمئزازه من تيجران باشا — ناظر الخارجية المصري — لأن عقليته «فرانكو — بيزنطية»، ولأنه محدود الثقافة.[٧٣]

تلقَّى كرومر تدريبه الإمبريالي بالهند في الأطراف البعيدة عن العالم الكلاسيكي، وحتى هناك كان البريطانيون يلجئون إلى التراث الكلاسيكي ليعينهم على فهم كيفية حكم

[٦٩] H. C. G. Matthew, ed., The Gladstone Diaries, vol. 10 (January 1881–June 1883) Oxford, 1990, lxxii.

[٧٠] The Earl of Cromer, Ancient and Modern Imperialism (New York, 1910), 22.

[٧١] A. M. Broadley, Tunis Past and Present: The Last Punic War, 2 vols. (London, 1882).

[٧٢] Jenkyns, The Victorians, 333.

[٧٣] Cromer, Modern Egypt, 566, 633–34.

الهند.[٧٤] وبعد ذلك بسنوات «في الجو الحار ولياليه الخانقة في صيف مصر، عندما كان كل فرد يبذل ما في وسعه لالتماس نسمات الهواء البارد في أي مكان، كان كرومر وهاري بويل (السكرتير الشرقي) يجلسان بعد تناول العشاء في شرفة القنصلية البريطانية بالقاهرة، يقرآن بصوت عال — بالتناوب — فقرات من الإلياذة.»[٧٥]

وتولى كرومر — بعد تقاعده — رئاسة الجمعية الكلاسيكية بلندن، حيث امتدح بأنه «شخص تجمعت فيه صفات الذكاء اليوناني ممتزجًا بالقدرة الرومانية على الإدارة البناءة.»[٧٦] والكتيب الذي نشره بعنوان «الإمبريالية قديمًا وحديثًا»، يمثل نص الخطاب الذي ألقاه بالجمعية عند توليه رئاستها. وكتب اثنان من معاصري كرومر — أيضًا — كتبًا قارنوا فيها بين الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الرومانية، وكان ناقده في البرلمان — النائب جون روبرتسون — يصر على أن الإمبراطورية أفسدت بريطانيا تمامًا كما فعلت في روما.[٧٧]

ورفض كرومر كل موازنات غير سوية بين اليونان والإمبريالية البريطانية، ونفر من الإسكندر لأنه «لم يكن يونانيًّا حقيقيًّا ... وكان غازيًا أكثر منه مؤسسًا للإمبراطورية»، ورأى أن «الإمبرياليين البريطانيين يجدون نوعًا من السلوى في أن ما تعكسه تجربة أثينا لا يمكن استخدامه في الجدل الذي يهدف إلى تأكيد أن المؤسَّسات الديموقراطية لا تتوافق بالضرورة مع أي سياسة إمبريالية عاقلة، ولكنها تبين الآثار الفادحة التي تترتب على ديمقراطية أصابها الجنون.»[٧٨] وقد رجع إلى الكلاسيكيات ليؤكد الفكرة الشائعة عن فقدان الشرق الإحساس بالزمن، وتقديم دروس أخلاقية عامة: «يؤكد لنا الرومان أن المصريين يفخرون بالعلامات الغامضة التي ساعدتهم على التدليس في الضرائب. وكما كانت الحال في زمن أغسطس كانت كذلك في عهد إسماعيل، وقد وقع إسماعيل ضحية الغش والرعونة في استخدام القوة، فحاقت اللعنة بالطاغوت المصري.»[٧٩]

---

[٧٤] J. W. McCrindle, Ancient India as Described in Classical Literature (Westminster, 1901).

[٧٥] Zetland, Lord Cromer (London, 1932), 287.

[٧٦] J. W. Mackail, Classical Studies (London, 1825), 12.

[٧٧] C. P. Lucas, Greater Rome and Greater Britain (Oxford, 1912).

[٧٨] Cromer, Imperialism, 7–8, 10–11.

[٧٩] Cromer, Modern Egypt, 586. 112.

ولعب ألفرد ملنر — الذي خدم مع كرومر — بالعبارات الكلاسيكية عند وصفه لظاهرة التناقض في مصر: «ما زالت مصر كما هي، مصر التي عرفها هيرودوت، المواطن المختار لكل ما هو غريب، غير قابل للتفسير، ومتناقض.» وبعد بضع سنوات يسأل القارئ أن «يتخيل شعبًا من أكثر الشعوب في العالم رقة وطيبة في قبضة أكثر الأديان عزوفًا عن التسامح وتعصبًا.»[٨٠]

ولاحظ كرومر أن كلًا من بريطانيا وروما توسعتا بحثًا عن حدود طبيعية، وحققتا الانتصار على صعاب كبيرة، وجندتا قوات من الشعوب المغلوبة، وأسبغتا السلام على رعاياهما. وسار على نهج توماس أرنولد في القول بأن ما كان يعيب الرومان هو كونهم غير مسيحيين، فقد كانت بيزنطة خارجة عن نطاق اهتمامه. ولذلك رأى الرومان أقل منزلة من بريطانيا الحديثة في مسألة الرق والنزعة الإنسانية، ولم يشارك كرومر إدوارد جيبون انبهاره بالموضوع الممل الخاص بسقوط الإمبراطورية الرومانية.

وذهب كرومر إلى أن روما استوعبت رعاياها شرق اليونان، بينما عجزت بريطانيا عن استيعاب رعاياها الآسيويين والأفارقة، ورأى أن مرد ذلك أن روما واجهت قبائل، ولم تواجه أممًا لديها وعي ذاتي، وأن الديانة الرومانية أفسحت مكانًا لمعبودات الشعوب المغلوبة، بينما عجزت المسيحية عن تحقيق ذلك، كما أن الرومان واليونان لم يعرفوا أبدًا مشكلة التحيز للون (التمييز العرقي)، وطمأن نفسه بالقول أن أيًّا من الدول الأوروبية لم تنجح فيما فشلت فيه بريطانيا، وأنه حتى اليونانيين المحدثين لم يتزاوجوا مع المصريين إلا نادرًا.[٨١]

وأشار إلى أن «العالم لم يتغير كثيرًا في ألفي عام، ... وعندما أقرأ في تاريخ الدكتور أدولف هولم الشهير أن اليونانيين بالإسكندرية حصلوا في العهد البطلمي على امتياز

[٨٠] Milner, England in Egypt (New York, 1970) reprint of 1920 edition, 2, 4.

[٨١] يقرن شارل عيساوى بين نظرة الفرنسيين لأنفسهم كمتابعة لرسالة الرومان الحضارية «بالسيف والمحراث»، ونظرة الإنجليز إلى الهند ومصر من حيث عدم إقامة استيطان بريطاني مع فرض «سلام روماني» جديد.
Charles Issawi, "Empire Builders, Culture Makers and Cultural Imprinters", Journal of Interdisciplinary History 20 (1989), 189.

الضرب بالعصى بدلًا من الضرب بالسياط، ذكرني ذلك بأن أحفادهم، شأنهم شأن غيرهم من الرعايا الأجانب، يتمتعون بامتيازات ذات أهمية بالغة.»[٨٢]

وعندما بدأ رونالد ستورس العمل في دار المقيم البريطاني قبيل نهاية عهد كرومر، كان يستيقظ في السادسة والنصف صباحًا ليقرأ هوميروس قبل الإفطار، ويذكر أن «الليدي كرومر سلمتني دعوة باللاتينية تلقاها اللورد من جامعة أبردين ... وطلب مني أن أعد ردًّا على الدعوة بنفس اللغة، وتعهدت بإنجازها وأنا أشعر بالغبطة، ولم يكن لدي كتب من أي نوع، ولكني أعددت ردًّا رومانيًّا جيدًا، وسلمته لها عندما حان وقت تناولها الشاي. ولم تغب سوى أقل من ساعة بعد تسلمها الرد، وجاءت لتدعوني لتناول الغداء وأخبرتني أن اللورد رأى الرد بالغ الجودة، وقد وجدت الرجل العجوز بالغ السرور بها، وقال إنه أحس بشعور المنافق عند توقيعه لها ... وقدم لي ترجمة مختارات يونانية، وتمنى الإبقاء على اليونانية.»[٨٣]

وعندما استقال كرومر أمام الضغوط الهائلة، وعاد إلى بلاده، رد على منتقديه بمقولة يوريبيدس: «ألا ترى كيف أن البلاد، عندما تلام على رغبتها في التروي، تنظر بحدَّة إلى من يهاجمها؟ لأنها تحقق العظمة من خلال الكدح» وحتى لا تغيب وجهة نظره عن أحد، أضاف ترجمة إنجليزية إلى النص اليوناني الأصلي.[٨٤]

وكان كرومر فخورًا كأي روماني عندما يتفوق على قصيدة يونانية، ولكن منطلقاته الكلاسيكية ضيقت مجال الرؤية عنده. ولم يحاول الرومان تعلُّم لغات الشعوب المغلوبة فيما عدا اليونانية، وكذلك فعل كرومر الذي كان يفخر دائمًا بأنه يعرف عن مصر كل صغيرة وكبيرة، ولكنه لم يحاول أن يتعلم العربية.

وكغيره من الكثيرين الذين عشقوا اليونان القديمة، وجد كرومر أنه من الصعب التسامح مع اليونانيين المعاصرين، فبعد أن أكد مرارًا أن «الكثيرين من اليونانيين ذوي النفوذ والاعتبار» جلبوا لمصر منافع عدة، ألقى خطبة عصماء ضد: «الطبقة الدنيا من اليونانيين التي تمارس الربا، وبيع الخمور ... فاليوناني من هذه الطبقة يضحي بحياته من أجل كسب ضئيل، فلا ينتشر المرابون والبقالون اليونان في كل قرية مصرية تقريبًا

[٨٢] Cromer, Imperialism, 3–4.

[٨٣] Ronald Storrs, The Memoirs of Sir Ronald Storrs (New York, 1937), 43.

[٨٤] Cromer, Imperialism, 7–11.

فحسب، بل يشقُّون طريقهم في مناطق نائية كالسودان والحبشة ... لقد زرت سراس جنوب وادي حلفا عام ١٨٨٩م، وكانت عندئذٍ آخر نقاط تواجد الجيش المصري، وتقع وسط منطقة واسعة قفرة، ولم يكن قد مضى أكثر من بضعة أيام على إقامة تلك النقطة، ورغم ذلك وجدت هناك يونانيًّا يبيع السردين والبقسماط ... في حفرة داخل الصخور اتخذ منها محلًا مؤقتًا.»[٨٥]

وأعلن أن أولئك المرابين اليونانيين الذين ينتمون إلى الطبقة الدنيا «يغرون الفلاح المصري حتى يقترض منهم بفائدة باهظة، ثم يحكمون — بعدئذٍ — قبضة القانون عليه، ويحولونه من مالك إلى وضع القن ... وبسبب أعمال اليونانيين وبتأثيرهم أقبل الفلاحون المصريون على شرب الخمر ... لقد قال السيد جلادستون ذات مرة أنه من الأفضل للترك أن يجمعوا أغراضهم ويغادروا أوروبا ... ولكنه قد يكون من الأفضل لتركيا والولايات التابعة لها لو جمع بعض من ينتسبون إلى الطبقة الدنيا من اليونان أغراضهم وغادروا الأراضي التركية (العثمانية).»

المتحف اليوناني-الروماني وجمعية آثار الإسكندرية

كتب فورستر: «الإسكندرية الحديثة تكاد تكون مدينة بلا روح، فهي تعتمد على القطن والبصل والبيض.»[٨٦] فليس بالإسكندرية جامع له مكانة الأزهر، ولم تنشأ بها جامعة إلا عام ١٩٤٠م، كما أن جريدة «الأهرام» تركتها إلى القاهرة عام ١٨٩٨م.

وفيما بين ١٨٥٩ و١٨٨٠م قدم «المجمع العلمي المصري» للسكندريين — وخاصة الأوروبيين — منبرًا جاهزًا للحوار في الكلاسيكيات. وغالبًا ما كان المتحدثون يقدمون أوراقًا في موضوعات يونانية-رومانية، ينشرها المجمع في مجلته، وفي الستينيات أشار المجمع إلى حاجة الإسكندرية إلى متحف، وأسس «اللجنة الدائمة للآثار» لحماية الآثار من الدمار الذي تتعرض له، ومن نهب الرحالة والسياح (ولكن ما لبثت اللجنة أن أثبتت أنها أقل من أن تكون دائمة). وحصل المجمع على مجموعة متواضعة من الآثار. ورغم

---

[٨٥] هذا الاقتباس والذي يليه من: Cromer, Modern Egypt, 654–55.

[٨٦] E. M. Forster, Alexandria: A History and a Guide, (New York, 1961).

أن المجمع لم يحتك إلا بقطاع صغير من النخبة الأوروبية وبعض المصريين، فإن انتقاله للقاهرة مع مكتبته ومجموعة الآثار ترك فراغًا في الحياة الثقافية السكندرية.[٨٧]

وعندما كان القس سايس في زيارة للقنصل البريطاني السير شارلز كوكسن عام ١٨٨٩م، التقى جيسب بوتِّي مدير المدرسة الإيطالية بالإسكندرية. وكان بوتِّي منذ وصوله قبل خمس سنوات، يقضي وقت فراغه في مطابقة الأوصاف الواردة بالمصادر الكلاسيكية على ما بقي من آثار المدينة القديمة. وتحدث ثلاثتهم حول حاجة الإسكندرية إلى متحف. وبعد ذلك اللقاء بعامين، أسس كوكسون — عام ١٨٩١م — بالاشتراك مع مجموعة من الأفراد «الجمعية الأثينية» التي نجحت في حشد مجموعة من المجلس البلدي وراء فكرة إقامة متحف يوناني روماني.[٨٨]

وفي عام ١٨٩٢م عملت مجموعة من أعيان الأوروبيين والمهنيين من خلال البلدية الجديدة لإقامة المتحف اليوناني-الروماني، ومكتبة بلدية الإسكندرية. واعترضت الحكومة على فكرة إقامة متحف بديره «هواه»، وربما كان يوجين جريبو ومصلحة الآثار وراء ذلك الاعتراض، ولكن الحكومة تراجعت عن موقفها في إطار تعويض الإسكندرية عن الأضرار التي لحقت بالمدينة نتيجة مد الخط الحديدي، الإسماعيلية-بورسعيد الذي أدى إلى تحول جانب من التجارة عن ميناء الإسكندرية، وأصدرت قرارها بالموافقة على المتحف،[٨٩] على أن تتولى مصلحة الآثار الإشراف على المتحف، وتتحمل بلدية الإسكندرية جميع تكاليفه. وأصبح بوتِّي أول مدير للمتحف.

وكانت البلدية — التي تأسست عام ١٨٩٠م — تقع تحت سيطرة النخبة التجارية الأوروبية، وكان نصف أعضاء المجلس الذي كان يتكون من ٢٨ عضوًا يحتلون مقاعدهم بصفتهم الرسمية أو بالتعيين من الحكومة. وتولى التجار وأصحاب الأملاك من الأجانب انتخاب النصف الآخر وكان ثلاثة أرباع الناخبين من الأوروبيين، وقامت البلدية بفرض رسوم أنفقتها على البنية الأساسية للمدينة.[٩٠]

---

٨٧ Alan Rowe, “Le Cinquantenaire de la Société royale d’Archéologie 1893–1943” Bulletin de la Société archéologique d’Alexandrie, 36. (1946), 108–9.

٨٨ Rev. A. H. Sayce, Reminiscences (London, 1923), 274–75.

٨٩ G. Botti, Catalogue des monuments exposés au Musée gréco-romain d’Alexandrie (Alexandria, 1900) iii–xiii.

٩٠ Ilbert, Alexandrie, 1: 278–300.

وكان من الطبيعي أن يلعب مؤسسو مكتبة البلدية والمتحف اليوناني-الروماني بمشاعر الحنين إلى الماضي القديم للإسكندرية ومكتبتها. وقام كل من المتحف الحديث وجمعية الآثار ببناء مكتبتها العلمية الخاصة، وتركوا لمكتبة البلدية مهمة خدمة القراء العاديين للكتب بمختلف اللغات الأوروبية. إضافة إلى اللغة العربية. وتعاقب المديرون السويسريون على إدارة القسم الإفرنجي من المكتبة الذي كان يفوق القسم العربي من حيث الأهمية مدة خمسين عامًا (١٨٩٢–١٩٤٣م).[٩١]

وكان لأعضاء «الجمعية الأثينية» دور بارز إلى جانب اثني عشر متحمسًا، في إنشاء «جمعية آثار الإسكندرية» عام ١٨٩٣م لتوفير الدعم للمتحف الجديد. وكانت عضوية الجمعية تعبر عن الطابع المختلط للمدينة (الكوزموبوليتانى) وإن خلت الجمعية من المصريين، أقباطًا كانوا أم مسلمين. وكان البريطانيون يمثلون الجانب الأكبر من الأعضاء: القنصل كوكسون، والأميرال بلومفيلد (مأمور الميناء)، وموظفان بريطانيان آخران، والمصرفي جون ريفز. ومن الإيطاليين بوتِّي والمعماري مانوساردي، والسويسري نوريسون، والمصرفي اليوناني جورج جوسيو، وجاك دي منشه اليهودي المصري الذي يحمل جنسية النمسا والمجر، وعالم المصريات ألبرت دانينوس الذي كان يونانيًّا ذا خلقية جزائرية-فرنسية.[٩٢] وفي العام ١٨٩٧م أقامت الجمعية حفل تأبين لرئيسها جوسيو الذي مات في الحرب العثمانية-اليونانية، ولكن عزاءهم أنه عاش ليرى «حلمًا يتحقق، فقد اتصلت إسكندرية الخديويين الجديدة بإسكندرية البطالمة، وقد شعر بالسعادة لتحقيق هذا الحلم.»[٩٣]

كان المتحف اليوناني-الروماني فريدًا في نوعه بين متاحف الآثار المصرية الأخرى من حيث تمتعه بدعم جماعة منظمة، فقد رعت «جمعية الآثار» المحاضرات والرحلات، وبدأت عام ١٨٩٨م نشر مجلتها العلمية التي احتوت على مقالات بالفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية، ولكن العربية واليونانية لم تلقيا قبولًا عند الأوروبيين كلغتين للبحوث العلمية، كذلك كانت رئاسة الجمعية للأوروبيين وحدهم: بريطاني، وفرنسي،

---

[٩١] Municipalité d'Alexandrie, Catalogue de la Bibliothèque municipale (section européen 1892–1926), vol. 1, (Alexandria, 1926), vii–ix.

[٩٢] Bulletin de la Société archéologique d'Alexandrie, 4 (1902), 3, lists of the Founders.

[٩٣] Bulletin de la Société archéologique d'Alexandrie, 1 (1898), 5.

وإيطالي، ويوناني، وإسباني، وأمريكي، وذلك من تأسسها حتى ١٩٥٢م، فلم يُنتخب أي مصري رئيسًا لها، وإن كان الأمير عمر طوسون قد اختير رئيسًا فخريًّا للجمعية.

واتخذ المتحف اليوناني-الروماني لنفسه مقرًّا له في أحد أركان مبنى البلدية الذي كان يقع شرقي وسط القسم الحديث من المدينة. وافتتح الخديو عباس حلمي الثاني المتحف في ١٧ أكتوبر ١٨٩٢م، وعاد بعد ثلاث سنوات ليفتتح مبناه الجديد. وجاءت واجهة المبنى الجديد على الطراز الدوري (الإغريقي) الكلاسيكي الحديث لتلائم الفكرة الغربية الخاصة بالطراز المعماري الملائم للمتحف، والوسط السكندري، والآثار المحفوظة بالمتحف (انظر الشكل ٣١)،[٩٤] وامتلأ المتحف الجديد تدريجيًّا بالآثار التي جاءت من الحفائر التي قام بها المتحف بالإسكندرية الكبرى، والهبات التي قدمها المواطنون ذوو العقلية الحضارية، وما تم نقله من المتحف المصري من الآثار اليونانية-الرومانية.

وتولى بوتِّي إدارة المتحف حتى وفاته عام ١٩٠٣م، قام خلالها بحفائر حول الإسكندرية الكبرى، ونشر العديد من المطبوعات. وجاء اختيار إيفاريستو بريشيا (١٨٧٦–١٩٦٧م) خلفًا له ليجعل من المتحف جيبًا ثقافيًّا لإيطاليا في مصر الخاضعة للاستعمار. وقد درس بريشيا التاريخ القديم بجامعة روما، وعاون عالم المصريات إرنستو شياباريللي في حفائره بالأشمونيين (عين شمس الكبرى)، وسار في إدارته للمتحف (١٩٠٤–١٩٣١م) على نهج بوتِّي في القيام بحفائر من حين لآخر، وفي إصدار المطبوعات. وعندما انتقل بريشيا أستاذًا لكرسي الآثار الكلاسيكية بجامعة بيزا عام ١٩٣١م، أبقى اختيار أخيل أدرياني (١٩٨٢–١٩٠٥م) مديرًا للمتحف، إدارته في أيدي الإيطاليين.[٩٥]

ولم تكن الخبرة بالآثار الكلاسيكية قاصرة على المتحف اليوناني-الروماني وحده، فقد كان هناك متخصصون بهذا المجال في كل من المتحف المصري، والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، وفي العام ١٨٩٤م، بدأ عالم الهلِّينيات بيير جوجيه العمل على البرديات اليونانية، واستمر ناشطًا في هذا الحقل لنصف قرن من الزمان.[٩٦]

[٩٤] Botti, Catalogue, viii–xiii.

[٩٥] On Botti, see Who Was Who 3: 75–83; on Breccia, Who Was Who 3: 63; On Adriani, Who Was Who 3: 6.

[٩٦] كان من بين المتخصصين في الكلاسيكيات بمصلحة الآثار إدجار، وجوستاف ليفيفز، انظر: Who Was Who وعن جوجيه نفس الموسوعة ٣: ٢٢١.

وكان «صندوق الكشوف المصري Egypt Exploration Fund» يتزعم العمل في استكشاف كنوز البرديات اليونانية التي حفظتها رمال مصر الجافة من عاديات الزمان، ووضعت لائحة الصندوق الآثار اليونانية في المرتبة التالية للعبرانية فيما يتم البحث عنه من أغراض. فقد بدأ الصندوق حفائره في «أرض جوشن» شرق الدلتا، اهتداء بالكتاب المقدس، ولكن العثور على المدينة اليونانية نوكراتيس — التي تلقي الضوء على فترة غامضة من تاريخ الفن اليوناني — جاء في المرتبة الثانية من حيث الأهمية.[٩٧] وقام بتري باكتشاف نوكراتيس لحساب «صندوق الكشوف المصرية» عام ١٨٨٤–١٨٨٥م، وتابع حفائره — مستقلًّا — على مدى عقد من الزمان، فاستخرج لفافة بردية هوميروس في هوارة، وصناديق مومياوات بطلمية مصنوعة من البردي المغطى بالنقوش في جروب. ودخل إرنست بادج السباق للحصول على البرديات للمتحف البريطاني، فاشترى برديات تحتوي على دستور أثينا المفقود.[٩٨]

وأصبح كل من برنارد جرينفل وآرثر هانت — اللذان درسا الكلاسيكيات في كوينز كوليدج بأكسفورد — من أبرز صيادي البرديات لحساب «صندوق الآثار المصرية»؛ ففي ١٨٩٥–١٨٩٦م عثرا في البهنسا بالفيوم على ما يزيد على ثلاثة آلاف بردية كان أغلبها برديات يونانية متنوعة، وكان القليل منها برديات لاتينية، وقبطية، وعربية، واستجاب الصندوق لهذا النشاط فخصص له «حساب البحوث اليونانية-الرومانية» (الفرع اليوناني-الروماني الآن) الذي ساند حفائرها ماليًّا لما يزيد على اثني عشر عامًا، ورتب أمر نشر ما تم العثور عليه.

وخلال فترة الحرب العالمية الأولى التي توقفت خلالها الحفائر، نشر جرينفل وهانت اكتشافاتهما الغنية. وما زال «مشروع نشر برديات أوكسيرنخوس» (البهنسا) — الذي قاده إدجار لوبل — مستمرًّا حتى اليوم.

واتهم جرينفل وهانت بأن همهما الأول كان اصطياد البرديات على حساب أي شيء آخر، فلم ينشرا خرائط المواقع التي تم العثور فيها على البرديات. ويشير من تصدوا للدفاع عنهما أن البرديات في البهنسا كانت في أكوام من القمامة لم يبقَ فيها حجر في موضعه، وأنه كانت لهما أولوياتهما في وقت كان فيه الحفر العشوائي يلتهم المواقع بسرعة.

---

٩٧ T. G. H. James, ed., Excavating in Egypt: The Egypt Exploration Society 1882–1982 (London, 1982), 9.

٩٨ On Grenfell and Hunt, see, James, ed., Excavating, 161–76.

المهاجرون الشوام المسيحيون والكلاسيكيات اليونانية-الرومانية

في العام ١٩٠٢م، كان هناك أربعة مصريين فقط من بين أعضاء «جمعية الآثار» بالإسكندرية البالغ عددهم ١٠٢ عضوًا، وكان بعض أولئك المصريين (مثل إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء فيما بعد) أعضاء بحكم وظائفهم. وكان الأمير عمر طوسون المصري الوحيد من تسعة من أعضاء الشرف.[٩٩] ولم تكن اللاتينية أو اليونانية تدرس بأي مدرسة مصرية حكومية،[١٠٠] كما أن المصريين وجدوا صعوبة في الانتساب إلى الحقبة اليونانية-الرومانية من تاريخهم قياسًا إلى العصور التاريخية الأخرى.

وساعد الشوام المسيحيون — حينًا من الزمان — على تقديم التراث اليوناني الروماني للمصريين، فقد عمل هؤلاء في مجالات الترجمة، والمسرح، والصحافة، والتجارة منذ السبعينيات من القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى، كانت الفرص في مصر متاحة، كما أن صرامة الرقابة في بلاد الشام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني أجبرت بعضهم على الرحيل إلى مصر، وكان الشوام محل ترحيب إسماعيل ثم الاحتلال البريطاني، فراحت أحوالهم في مصر، سواء من كان منهم مدافعًا عن الاحتلال مثل فارس نمر وجريدته «المقطم»، أو كان معارضًا له مثل أصحاب «الأهرام» أو من كان ميالًا لفرنسا، أو من وقف بحذر على الحياد مثل جرجي زيدان صاحب «الهلال»، وبلغ صعود نجم الشوام المسيحيين مداه حتى العام ١٩٠٠م عندما دخل الكثير من المصريين الميادين التي كانت مرتعًا لهم.[١٠١]

قام الشوام المسيحيون بترجمة، وتعريب وإخراج المسرحيات الفرنسية التي تتناول موضوعات يونانية-رومانية. فقد جاء سليم النقاش وأديب إسحاق من لبنان منتصف السبعينيات، وكوَّنا فرقة مسرحية بدعم من إسماعيل، وارتبطا بمجموعة جمال الدين الأفغاني، واتجها لإصدار صحف عربية. وقام سليم النقاش بتعريب رواية لكورنيل بعنوان «مي وهراس» تضمنت إيحاءات عن آلهة الرومان، وعندما ترجم إلى العربية الأغنية التي

---

[٩٩] Bulletin de la Société archéologique, 4 (1902), 3–8.

[١٠٠] انظر قوائم المواد الدراسية في كتاب: أمين سامي، التعليم في مصر في سنتي ١٩١٤م و١٩١٥م (القاهرة ١٩١٧م)، وكانت هناك مدرستان أجنبيتان (عام ١٨٧٥م) تدرسان اللاتينية، وثمان مدارس تدرس اليونانية انظر: Heyworth-Dunne, Introduction, 423.

[١٠١] Thomas Philipp, Syrians in Egypt 1775–1975 (Stuttgart, 1985).

كتبها أنطونيو جيلا نزوى لأوبرا عايدة لفردي، أخذ النقاش حذره بإسقاط الإشارة إلى إيزيس وأوزيريس من الترجمة العربية، وأعلن النقاش في إهدائه العمل أن أعمال الخديو إسماعيل فاقت أعمال الإسكندر، وخسرو، وقيصر، كما قدم شكره لأنطونيادس الثري اليوناني على رعايته.[١٠٢]

وقبل قدوم أديب إسحاق من بيروت إلى القاهرة، قام بترجمة «أندروماك» لراسين إلى العربية في نثر مسجوع بتكليف من القنصل الفرنسي، وتعالج قصة أندروماك أرملة هيكتور الذي قُتل أثناء دفاعه عن طروادة، ووقعت في يد بيروس ضمن سبي الحرب، ثم قتل بيروس فيما بعد على يد أورستس. كما قام أديب إسحاق بتعريب رواية راسين «الطيبي أو الإخوة الأعداء» لإخراجها كمسرحية عربية تم عرضها بالإسكندرية والقاهرة عام ١٨٧٨م، وفيها يلقى أبناء أورستس حتفهم أثناء الصراع على عرش طيبة اليونانية.

وأخذ آل البستاني — البيروتيون — على عاتقهم مشروعين طموحين يتصلان بالتراث اليوناني-الروماني هما: دائرة المعارف (ونشرت في ١١ مجلدًا بين عامَي ١٨٧٦–١٩٠٠م)، وترجمة الإلياذة إلى اللغة العربية، وكانت مصر حاضرة في المشروعين.[١٠٣]

كان بطرس البستاني (١٨١٩–١٨٨٣م) من الجيل الذي انتمى إليه علي مبارك، وكتب — مثله — دائرة معارف تكشف عن اتساع نطاق المعرفة عنده، وقد وُلد بطرس البستاني لأسرة مارونية لبنانية، وتعلَّم في معهد لاهوتي ماروني في عين ورقة، وتميز عن معاصره مبارك بدراسته للاتينية، وعمل بالقنصليتين البريطانية والأمريكية في بيروت ثم تحول إلى البروتستانتية، وقام بالتدريس في مدارس الإرسالية التبشيرية الأمريكية، وساعد المبشرين في ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، وتولى — أيضًا — تحرير مجلات عربية، ثم أسس مدرسة خاصة به في بيروت سماها «المدرسة الوطنية»، ووضع قاموسًا عربيًّا.

عاش بطرس البستاني حياته كلها في لبنان، ولكن مشروع دائرة المعارف الذي بدأه، كان من بدايته حتى نهايته مشمولًا بالرعاية المصرية. فقد اعتذر اثنان من أعيان العثمانيين عن دعم المشروع مقدمًا، ولكن الخديو إسماعيل وعد بشراء ألف نسخة من

---

[١٠٢] Sadgrove, Egyptian Theatre, 130–31, 140–41.

[١٠٣] التحليل التالي يعتمد على ما كتبه ألبرت حوراني عن موسوعة البستاني وعن سليمان البستاني والإلياذة في كتابه: Albert Hourani, Islam in European Thought (Cambridge, 1991) 164–73, 174–87.

دائرة المعارف، وأضاف ولي عهده توفيق، والوزير المصري مصطفى رياض باشا دعمهما للمشروع. وجاء العنوان الفرنسي للموسوعة تاليًا للعنوان العربي «دائرة المعارف» على صفحة الغلاف ليكشف عن المصادر الغربية التي استلهمها محرر هذا العمل، وقد أصدر البستاني ستة مجلدات ببيروت، ولكنه مات عام ١٨٨٣م، فتولى ابنه سليم تحرير مجلدين آخرين، ثم أدركته الوفاة في العام التالي، فتولى متابعة العمل اثنان من إخوة سليم هما نجيب وأمين البستاني، وعاونهما قريبهما سليمان البستاني. وظهر المجلد التاسع عام ١٨٩٨م، والحادي عشر عام ١٩٠٠م، وقام جرجي زيدان بطباعة المجلدين الأخيرين بمطبعة «الهلال» بالقاهرة. وهنا توقف المشروع بعد أن غطى ثلثي حروف الأبجدية العربية.

وركزت «دائرة المعارف» على العلوم الحديثة، والتكنولوجيا والتاريخ الأوروبي والتاريخ العربي، وتبدأ مادة «التاريخ» بهيرودوت واليونانيين، وبذلك نقلت التاريخ الإسلامي من مركز التميز، لتجعل منه أحد مكونات تاريخ العالم. وكان البستاني مشايعًا للمركزية الأوروبية، فوصف أوروبا بأنها: «من أصغر القارات، ولكنها أكثرها أهمية في تاريخ الحضارة.»[١٠٤]

وكما قال ألبرت حوراني، ربما كان كاتبًا مسلمًا ممن عاشوا في العصور الوسطى يعيد ترتيب ثيودوسيوس بين ستة مداخل وثيقة الصلة ببعضها البعض من العالم الكلاسيكي في مجلد واحد، ويجعل المداخل الخمسة الأخرى لكلٍّ من ثيمستوكليس، وثوكيديدس، وثسييوس، وثيوفراستوس، وثيوكريتوس.

ودعا بطرس البستاني إلى ترجمة هوميروس وفرجيل إلى العربية في وقت مبكر (عام ١٨٥٩م)، وقدم في مادة «هوميروس» بدائرة المعارف الجدل الذي دار بين الأوروبيين حول أصالة الشاعر وتاريخيته. واستجاب سليمان البستاني (١٨٥٦–١٩٢٥م) — قريب بطرس — للدعوة عام ١٨٨٦م، وخلال السنوات الثماني عشر التالية أنجز ترجمة الإلياذة إلى العربية شعرًا.

وفي جولات جديرة بالأوديسة، بدأ سليمان البستاني في مدرسة البستاني «المدرسة الوطنية» ببيروت، وعمل ترجمانًا بالقنصلية الأمريكية، وطوف بالعراق وإيران والهند مشتغلًا بالتجارة، وألقى عصا الترحال في التسعينيات في إستانبول. وفي عام ١٨٩٣م

---

[١٠٤] دائرة المعارف، مادة «أوروبا»، ٤: ١٧٢–١٧٣.

أصبح مفوضًا عثمانيًّا لمعرض كولومبيا بشيكاجو، وقضى بالقاهرة السنوات العشر السابقة على الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨م، وعاد إلى بلاده ليتم انتخابه ممثلًا لبيروت في مجلس المبعوثين العثماني. وفي إستانبول أصبح عضوًا بمجلس النواب ثم بمجلس الشيوخ، فوزيرًا للتجارة والغابات، قبل أن يستقبل احتجاجًا على الانقلاب المشئوم الذي وضع العثمانيين في جانب الألمان في الحرب العالمية الأولى، وفضل سليمان أن يقضي فترة الحرب في سويسرا، ثم عاد إلى مصر، وأخيرًا ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وبالإضافة إلى نشر المجلدين الأخيرين من دائرة المعارف قام جرجي زيدان بنشر الترجمة العربية للإلياذة في مطبعة «الهلال» بالقاهرة، وكان زيدان شاميًّا مسيحيًّا آخر له اهتمامات موسوعية، وأسس مجلة «الهلال» الأدبية الرصينة بالقاهرة وفي عام ١٨٩٩م نشر كتابه «تاريخ اليونان والرومان» بالعربية.[١٠٥]

وتعرض المقدمة التي تقع في ٢٠٠ صفحة من مجلد «الإلياذة» ترجمة البستاني الذي يقع في ١٢٦٠ صفحة، والجدل الأوروبي حول «المسألة الهوميرية»، وانتهى إلى تغليب الرأي القائل بأن هوميروس كان شاعرًا فردًا، وقال إن الإلياذة عند الإغريق لها ما للشعر الجاهلي من مكانة عند العرب، وذكر أنه بدأ الترجمة من الطبعتين الإنجليزية والفرنسية قبل أن يقرر العودة إلى الأصل اليوناني.

شارك المسلمون المصريون إخوانهم الشوام في الاحتفال الذي أقيم بفندق شيبرد بمناسبة الترجمة العربية للإلياذة وكان من بين الحضور من الشوام: زيدان، وفارس نمر، ويعقوب صروف (محرر المقتطف)، وجبرائيل تقلا (محرر الأهرام)، والشاعر خليل مطران، وإبراهيم اليازجي. أما المصريون المسلمون فكانوا: الشاعرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، ورئيسَي الوزراء — فيما بعد — سعد زغلول وعبد الخالق ثروت، واعتذر محمد عبده عن عدم الحضور، ولكن تلميذه رشيد رضا — وهو مسلم شامي — ألقى كلمة احتفالية طويلة.

التجريب المصري للكلاسيكيات اليونانية الرومانية

أدرك الطهطاوي ورفاقه ما تعلقه أوروبا على الكلاسيكيات من أهمية، وجاء هذا الإدراك مستقلًّا عن الشوام، وكان باستطاعة المصريين المضي قدمًا في استكشافهم للكلاسيكيات

---

[١٠٥] Thomas Philipp, Gurgi Zaidan: His Life and Thought (Beirut 1979), 237.

— ربما بإيقاع أبطأ — دون حاجة إلى وساطة الشوام. فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من أعمال مدرسة الطهطاوي، قام تلميذه عثمان جلال بترجمة عمل عن الإسكندر الأكبر لراسين إلى العربية، نشره في كتاب من تحريره عام ١٨٩٣–١٨٩٤م.[١٠٦]

وأورد علي مبارك معلومات عن العصر اليوناني-الروماني جاءت مبعثرة في الخطط التوفيقية. فعند حديثه عن «أخميم» مثلًا، يعرف المدينة بأنها «بانوبولس» الإغريقية، ويسير على نهج تقي الدين المقريزي فيما ذكره عن المعبد الذي كان قائمًا هناك في العهد اليوناني الروماني حتى القرن الرابع عشر، وهنا يقحم أسطورة كادموس — الفينيقي — الذي جلب الحضارة إلى اليونان عصر ما قبل التاريخ، ويذكر مبارك الزيارات التي قام بها لمصر هوميروس، وهيرودوت، وأفلاطون، وليكورجوس، وقد جره ذلك إلى الخوض في مناقشة حول سقراط وأفلاطون ومدرسته، وحول فيثاغورث وأناكساغورث.[١٠٧]

وقدم مبارك أكثر معلوماته عن العصر اليوناني تفصيلًا في المجلد السابع من الخطط التوفيقية الخاص بالإسكندرية، وأورد تاريخ مصر منذ الإسكندر حتى الفتح العربي في عشر صفحات، تناول فيها حكم كل ملك بطلمي انتهاءً بكليوباترا، ثم الغزو الروماني، وبواكير العصر المسيحي. وفي القسم الطبوغرافي الذي تلاه، اعتمد علي مبارك على المقريزي، والمصادر الفرنسية، ومحمود الفلكي في معالجة الشكل القديم للمدينة، والمواقع المميزة لها مثل: الميناء، والمنارة، والمسلات، وقبر الإسكندر، والمتحف، والمكتبات.[١٠٨]

كذلك تعرف المصريون على التراث الكلاسيكي الغربي من خلال القانون الروماني الذي جاء من خلال قوانين نابليون، والذي كان يدرس بمدرسة الحقوق المصرية الحكومية، وبمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة، ومن خلال ممارسة العمل القانوني بالمحاكم المختلطة والقضاء الأهلي؛ فالقاضي قاسم أمين — تلميذ محمد عبده الذي اشتهر عند مطلع القرن العشرين بكتابيه عن تحرير المرأة — ضمن في دفاعه عن الإسلام في مواجهة منتقديه الإشارة إلى الكلاسيكيات. وقد رفض قاسم أمين القصة القائلة بأن

[١٠٦] Sadgrove, Egyptian Theatre, 102–4.

[١٠٧] علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، ٢٠ مجلدًا (القاهرة ١٨٨٦–١٨٨٩م) ٨: ٣٥–٣٧.

[١٠٨] مبارك، الخطط، ٧: خاصة ٢–١٣.

الخليفة عمر بن الخطاب أمر بحرق مكتبة الإسكندرية،[١٠٩] تمامًا كما فعل الطهطاوي من قبل.

ومثلما فعل الأوروبيون منذ عصر النهضة، لعب الزعماء السياسيون المصريون بفكرة الماضي اليوناني-الروماني كوسيلة لتأصيل تراثهم وسندًا للشرعية. فنجد صورة فوتوغرافية لمحمد شريف باشا وخلفه تمثال نصفي من العصر الكلاسيكي، ولعله من ترتيب المصور ذاته، ولكنه لا يخلو من دلالة (انظر الشكل ٣١).

وجرب المحامون الذين تزعموا الحزب الوطني استخدام الخطاب الكلاسيكي في مواجهة الغرب، فقد قام مصطفى كامل — الذي أصدر «اللواء» عام ١٩٠٠م، وأسس الحزب الوطني عام ١٩٠٨م — بعقد مقارنة بين الرق في الإسلام، والرق عند الرومان. وألف محمد فريد — خليفة مصطفى كامل — كتابًا بالعربية عن «تاريخ الرومانيين» استخدم فيه تاريخ الغرب القديم سلاحًا ضد المحتل البريطاني، ومن اللافت للنظر أن محمد فريد قام بتغطية تاريخ الجمهورية بالكتاب حتى نهاية الحرب اليونانية، مسقطًا بذلك عهد الجمهورية المتأخرة وعهد الإمبراطورية (وهي الفترة التي وقعت فيها مصر تحت نير الحكم الروماني) التي يراها كرومر غنية بالدروس. ودعا محمد فريد قراءه إلى الاقتداء بما تميز به الرومان من «حب الوطن» والاتحاد ضد الغزاة الأجانب.[١١٠]

وفي عرضه الساخر لكتاب محمد فريد «تاريخ الرومان» على صفحات جريدة «المقطم» المؤيدة للإنجليز، ذكر فارس نمر أن الكتاب يوضح السبب الذي جعل رجال الحزب الوطني يهاجمون في مصر المسيحيين الشوام باعتبارهم «دخلاء». ترى من هم المعتدون الأجانب المعاصرون الذين يعنيهم محمد فريد؟ — كتب نمو متسائلًا — هل هم العائلة الخديوية؟ أم العثمانيون؟ أم الأمة العربية التي غزت بلاد الأقباط؟ أم أنه — ببساطة — كل أجنبي اتخذ من مصر موطنًا له؟

وكما ذكرنا من قبل، شهد عام ١٩٠٢م حدثًا يسجل الاختلاف بين الأوروبيين والمصريين من حيث علاقة كل منهم بالتراث اليوناني-الروماني. فقد افتتح الخديو

[١٠٩] Kassem-Amin, Les Égyptiens: Résponse à M. le Duc d’Harcourt (Cairo, 1894) 69, 60, 240.

[١١٠] عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل (القاهرة ١٩٦٢م)، ٣٦؛ محمد فريد (القاهرة ١٩٦٢م) ٣٠–٣٢. نشر عرض كتاب محمد فريد «تاريخ الرومانيين» بمجلة المقتطف ٢٧ (أول أغسطس ١٩٠٢م) ٨٠٥–٨٠٦.

عباس حلمي الثاني المتحف المصري بحضور كرومر وماسبيرو. ولم يشغل بال كل من كرومر وماسبيرو تلك الكتابات التي جاءت على واجهة المتحف؛ لأنهما لم يشعرا بغربة وهم يشاهدون الكتابة اللاتينية التي درج الغرب على أن يستخدمها في العمائر ذات الدلالة التاريخية، وربما استطاع عباس الثاني أن يقرأ اسمه مكتوبًا باللاتينية، فقد درس بمدرسة تريزيانم بفيينا حيث لم يكن التلاميذ يتعلمون الكتابة والقراءة باللاتينية وحسب، بل كان عليهم الحديث بها (انظر الشكل ٥).[١١١] ولكن نفرًا قليلًا من المثقفين المصريين قد عرفوها، فلم تكن تدرس بأي مدرسة حكومية مصرية.

المؤتمر الدولي للآثار الكلاسيكية في القاهرة

وجاء انعقاد «المؤتمر الدولي الثاني للآثار الكلاسيكية» بالقاهرة عام ١٩٠٩م اعترافًا ببروز مصر في الخطاب الكلاسيكي الغربي. واحتلت مصر مكانًا رمزيًّا شرفيًّا بين اليونان وروما كبلد قديم، فقد عقد المؤتمر الأول في أثينا عام ١٩٠٥م، ثم عقد المؤتمر الثالث بروما عام ١٩١١م. ولكن أعمال المؤتمر بالقاهرة عكست هامشية المصريين بالنسبة للدراسات القديمة اليونانية-الرومانية عند الغرب.

وعند انعقاد المؤتمر الأول، قامت «المدارس الأثرية» الألمانية والنمساوية، والبريطانية، والفرنسية، والأمريكية في أثينا بمعاونة الحكومة اليونانية على استضافة المؤتمر، وتولى ماسبيرو رئاسة قسم عن آثار ما قبل التاريخ والآثار الشرقية. وكان من علماء المصريات الآخرين بين الحضور بتري ولودفيج بوركارد. كما حضر المؤتمر كل من بيير جوجيه وألان ويس، عالما الكلاسيكيات اللذان عملا طويلًا في مصر. ومثلت بالمؤتمر مؤسَّسات علمية من ١٦ دولة أوروبية، والولايات المتحدة، وتركيا. وكان السفير العثماني بأثينا وقرينته هما التركيان الوحيدان بين الحضور بينما لم يكن هناك مصريٌّ واحد.[١١٢]

تولَّى ماسبيرو رئاسة اللجنة التنفيذية للمؤتمر التي خططت لعقد المؤتمر الثاني بالقاهرة. وكان معه باللجنة بيير لاكاو من مصلحة الآثار المصرية، ومديرو المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة (إميل شاسينا)، والمعهد الألماني للآثار الذي أنشئ حديثًا

---

[١١١] رسالة شخصية تلقاها المؤلف من جون رودنبك.

[١١٢] Congrès international d’archéologie: Première session, Athens, 1905, 5, 7, 12, 24, 43, 46–49, 238–41.

بالقاهرة (بوركارد)، وكذلك إيفارستو بريشيا مدير المتحف اليوناني-الروماني، وموظف بريطاني. وبذلك كانت اللجنة تتكون من ثلاثة فرنسيين، وبريطاني، وألماني، وإيطالي. وقدمت بلدية الإسكندرية وجمعية الآثار بالإسكندرية مساعدتهما للجنة. وتضمن جدول المؤتمر ثلاثة أيام لجلسات العمل ألقيت فيها الأوراق البحثية، وجولة بالإسكندرية، وستة أيام بالقاهرة، ثم أربعة أيام في زيارة للأقصر، ووعدت الحكومة المصرية بدعم المؤتمر بمبلغ يتراوح بين ألف وألفي جنيه مصري، وقدمت شركة كوك باخرة لرحلة الأعضاء بالصعيد وتخفيضات بالفنادق.[١١٣]

وشكل قسم الآثار السابقة على العصر الكلاسيكي نوعًا من الالتفات نحو الآثار الفرعونية، وجاءت الآثار البيزنطية لتمثل ما بعد العصر الكلاسيكي، أما الأقسام الأخرى فكانت: الآثار الكلاسيكية، وعلم البرديات، والنقوش، الآثار الدينية، والنميات (العملة)، والجغرافيا. وقدمت الأوراق البحثية بالفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية، ولم تكن اليونانية أو العربية من بين لغات المؤتمر.

وقد ترأس عباس حلمي الثاني لجنة التنظيم، وألقى خطاب الافتتاح بدار الأوبرا الخديوية. وكان من بين أعضاء اللجنة رئيس النظار (الوزراء) بطرس غالي باشا، ورئيس النظار الأسبق مصطفى فهمي باشا، والناظران سعد زغلول وإسماعيل سري، وأحمد زكي (سكرتير مجلس النظار)، ويعقوب أرتين الذي تولَّى الترحيب بالضيوف بحكم موقعه كنائب لرئيس «المجمع العلمي المصري». وكان من بين أعضاء لجنة التنظيم أيضًا المستشارون الإنجليز الأربعة بالوزارات المصرية، وماكس هرتز ممثلًا للجنة حفظ الآثار ومتحف الفن العربي، وبرنارد مورتز مدير الكتبخانة الخديوية.[١١٤]

ولم يكن لدى مصر متخصصون من أبنائها في الكلاسيكيات، ولم يتقدم بورقة إلى المؤتمر سوى مصري واحد هو عطية وهبي الذي قدم تفسيرًا وطنيًّا للفن القبطي، مؤكدًا على عمق جذوره في الفن الفرعوني وليس البيزنطي،[١١٥] وكان من بين من سجلوا من حضور المؤتمر البالغ عددهم ٩٠٦ شخصًا، كان هناك ٢١ مصريًّا فقط، كان من

---

[١١٣] Comptes rendus du Congrès international d'archéologie classique: 2me session—Le Caire (1909), 7, 53–57, 60–61, 74–77, 93–97.

[١١٤] Congrès, 1909, 58–60, 156–58, 172.

[١١٥] Congrès, 1909, 262–63.

بينهم علي بهجت من متحف الفن العربي، وخمسة من المتخصصين في المصريات منهم أحمد كمال ومحمد شعبان. وكان الأرمني البارز بوغوص نوبار (نجل رئيس الوزراء الأسبق) حاضرًا، كما حضر ثلاثة من الأقباط على الأقل هم: عطية وهبي، وكلوديوس لبيب، ومرقص حنا المحامي الوطني الذي أصبح وزيرًا فيما بعد. واستضافت الجامعة المصرية الجديدة بعض الجلسات وترأس مديرها الأمير أحمد فؤاد (الملك فيما بعد) حفل الختام.[١١٦] وبعد الحرب العالمية الأولى، سيعمل فؤاد على تلميع صورته باستضافة العديد من المؤتمرات الدولية في مصر.

التراث اليوناني-الروماني عشية الحرب العالمية الأولى

بعد المؤتمر الدولي الثاني للآثار الكلاسيكية، نشر محمود فهمي — خريج المدرسة التوفيقية للمعلمين، والمدرس بمدرسة القضاء الشرعي — كتابه «تاريخ اليونان». وسوف يتولى تدريس تاريخ الشرق القديم بالجامعة المصرية من ١٩١٣م حتى وفاته عام ١٩١٦م. وكان الغرض الذي دفع محمود فهمي لتأليف الكتاب هو تعريف القارئ العربي بتاريخ البلاد التي بدأت فيها الحضارة الغربية والأدب الغربي. وقال: إننا أخذنا عنهم الكثير زمن هارون الرشيد والمأمون، ولكننا لا نعرف إلا القليل عن تاريخهم. وقد اعتمد فهمي على الكتب المدرسية التي ألفها مدير المدرسة اليونانية بالقاهرة ومدرسو التاريخ بالمدرسة، وقد بدأ الكتاب بالجغرافيا، وتحدث عن هوميروس، ثم تتبع تاريخ اليونان حتى هيرودوت «أبو التاريخ» وسقراط «سيد الفلسفة»، وختم الكتاب بتقسيم إمبراطورية الإسكندر بين ورثته من قادة جيوشه.[١١٧]

ومن بين المقررات الأخرى بالجامعة المصرية، قدم طه حسين للطلاب لمحات من تاريخ العالم الكلاسيكي، وقام بيرس وايت بتدريس مسرحية شكسبير «أنطونيو وكليوباترا» في إطار دراسة الأدب الإنجليزي، ومن المفترض أن تكون دروس الأدب الفرنسي قد أسهمت أيضًا في إبراز الأدب الكلاسيكي.[١١٨]

[١١٦] Congrès, 1909, 9–52, 262–63, 294.

[١١٧] محمد فهمي، تاريخ اليونان (القاهرة ١٩١٠م) ٣-٤. وأحمد عبد الفتاح بدر، الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية (القاهرة ١٩٥٠م) ١٣١، ١٥٣، ١٥٥.

[١١٨] أرشيف جامعة القاهرة، محفظة ١٤، ملف ١٧٠، قسم الأدب، ٢٥ أكتوبر ١٩١٠م.

وكان أحمد لطفي السيد — محرر «الجريدة» وعضو مجلس الجامعة عام ١٩١٥م والذي تولَّى إدارة الجامعة بعد تحولها لجامعة حكومية عام ١٩٢٥م، كان يرتاد — بدوره — التراث اليوناني؛ ففي مقال نشره بالجريدة عام ١٩١٣م، دعا إلى الاقتداء باليونانيين الذين لم ينسوا هويتهم القومية خلال القرون التي خضعوا فيها للحكم العثماني، وقادهم ذلك إلى تحقيق الاستقلال الوطني. وكانت ملاحظته جديرة بالنظر في وقت كانت فيه مصر خاضعة اسميًّا للسيادة العثمانية. فقد رأى معظم المصريين والعثمانيين في ثورة اليونان في العشرينيات من القرن التاسع عشر ضربة للدولة العثمانية وللدولة الإسلامية.[١١٩] وفي العشرينيات من القرن العشرين ركز أحمد لطفي السيد جهوده على ترجمة أرسطو.

وفي عام ١٩١٢م، نشر محمد لطفي جمعة ترجمة عربية لكتاب مكيافلِّي «الأمير» الذي يتضمن الكثير من الإشارات الكلاسيكية. بعدما أوقف محمد علي ترجمته ببضعة عقود على أساس أن أهل فلورنسا ليس لديهم ما يمكن أن يتعلمه منهم.[١٢٠]

ومع وجود السكرتير الشرقي لدار المعتمد البريطاني رونالد ستورس في هذا الموقع عام ١٩١٤م بما عرف عنه من اهتمام بالكلاسيكيات، أصبح استخدام التراث اليوناني-الروماني لإضفاء الشرعية على سيطرة الغرب على مصر منذ بونابرت إلى كرومر في أيدٍ أمينة. تُرى، من كان يتخيل ما حدث في أعقاب الحرب العالمية الأولى، عندما قامت أوكسفورد وكامبردج بإسقاط اليونانية كمتطلب أساسي للدراسة، أو يصدِّق أن اثنين من علماء الكلاسيكيات مثل فورستر وروبرت جريفز يدعوان إلى إرخاء بريطانيا لقبضتها الإمبريالية فيما وراء البحار؟ تُرى، من كان يتوقع أن يتجه طه حسين النجم الصاعد في سماء الأدب العربي، بعد عودته من باريس عام ١٩١٩م، إلى إدخال الدراسات اليونانية-اللاتينية القديمة في التعليم المصري، وأن الجامعة المصرية الحكومية عام ١٩٢٥م سوف تفتح قسمًا للدراسات الكلاسيكية؟[١٢١]

[١١٩] Wendell, Evolution, 258–59.

[١٢٠] إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة (القاهرة ١٩٢٨م) ١٦٩٢. والشيال، تاريخ الترجمة ٧٩–٨١.

[١٢١] طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر (القاهرة ١٩٣٧م).

الفصل الخامس

علم المصريات في عهد ماسبيرو وأحمد كمال

في عام ١٩٢٣م، اقترح أحمد كمال أن تتاح للمصريين فرصة التدريب على فهم آثار بلادهم والاشتغال بها تمهيدًا لتوليهم إدارة شئونها، ولكن المدير العام لمصلحة الآثار لاحظ أنه — باستثناء أحمد بك — لم يبدِ إلا القليل من المصريين اهتمامهم بالآثار، فردَّ أحمد كمال قائلًا: «نعم يا مسيو لاكاو، خلال السنوات الخمس والستين التي أدار فيها الفرنسيون المصلحة، ما هي الفرص التي أتحتموها لنا؟!»

John A. Wilson, Signs and Wonders upon Pharoh

قبل هذه المحادثة باثنين وأربعين عامًا، أتاح موت مارييت عام ١٨٨١م وتولي ماسبيرو — الأكثر مرونة — إدارة مصلحة الآثار خلفًا له، أتاح الفرصة لأحمد كمال ليجد لقدمه موضعًا في علم المصريات. هذا التغير في الأجيال كان حادًّا على غير العادة على نحو ما نرى في الجدول رقم ٥-١.

فقد لاحظ ماسبيرو أنه بعد وفاة مارييت، أصبح شابا Chabas الآن «آخر الأحياء (من الفرنسيين في حقل المصريات) من أبناء عصرنا البطولي».[١] ومات شابا خلال عام، ثم لحق به ليبسيوس في ألمانيا عام ١٨٨٤م، وبيرش في بريطانيا عام ١٨٨٥م.

[١] أرشيف الخارجية الفرنسية بنانت، ملف IFAO رسالة من ماسبيرو بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٨٨١م.

وإلى جانب ماسبيرو وأحمد كمال، ضم الجيل الجديد من المشتغلين بالمصريات فلندز بتري، الذي بدأ عمله في منطقة الأهرام بالجيزة عام ١٨٨٠م، وأدولف إرمان الذي بدأ الاشتغال بالتدريس في برلين عام ١٨٨١م، وإرنست بادج الذي خلف بيرش في المتحف البريطاني. وفي العام ١٨٨٢م الذي شهد الاحتلال البريطاني وتأسيس «صندوق الكشوف المصرية»، بلغ ماسبيرو السادسة والثلاثين من عمره، بينما كان أحمد كمال في الحادية والثلاثين، وبتري في السابعة والعشرين، وإرمان في الثامنة والعشرين، وبادج في الخامسة والعشرين، وفي الحقل السياسي كان إيفلن بيرنج (لورد كرومر فيما بعد) وأحمد عرابي في الحادية والأربعين، بينما بلغ الخديو توفيق الثلاثين من عمره.

ومن منظور هذه الدراسة، كان إرمان خارج المسرح في برلين، وكانت غزوات بادج الطائشة في مصر قصيرة الأمد، أما بتري فكان يقوم بالتنقيب كل شتاء تقريبًا في مصر لمدة أربعين عامًا، وأوجد ثورة في الأسلوب العلمي للتنقيب، ودرَّب الكثير من العاملين في حقل المصريات من المصريين، كما درب عمال الآثار، ولكنه أقل ظهورًا في المركز من ماسبيرو بالنسبة لهذا الفصل. فقد تولَّى ماسبيرو منصب المدير العام لمصلحة الآثار لما يقرب من العشرين عامًا، ومن أحمد كمال الذي ناضل بلا كلل لإرساء دعائم الوجود المصري في علم المصريات، وإقناع أبناء بلاده بأهمية هذا المجال.

وانتهت هذه الحقبة فجأة عام ١٩١٤م، عندما تقاعد كل من ماسبيرو وأحمد كمال، وهرع كتشنر إلى بلاده ليدير المجهود الحربي البريطاني. واستبدل الإنجليز بعباس الثاني عمه حسين كامل، ليِّن العريكة، وقطعوا الروابط الاسمية التي كانت تربط مصر بالدولة العثمانية، وأعلنوا الحماية على مصر، ومات كل من كتشنر وماسبيرو عام ١٩١٦م، ولحق بهما كرومر عام ١٩١٧م، وأحمد كمال عام ١٩٢٣م، بينما عُمِّر بتري حتى عام ١٩٤٢م، ولكنه لم يعد بين طليعة علماء المصريات، واتجه للتنقيب في فلسطين.

ماسبيرو والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ومصلحة الآثار حتى ١٨٨٦م

كان ماسبيرو المتميز النابه في الثامنة والعشرين عندما وصل إلى مركز الأستاذية في فقه اللغة المصرية والآثار في الكوليج دي فرانس. وُلد بباريس، وشق طريقه صعودًا في سلم التعليم من ليسيه لوي لوجران إلى مدرسة المعلمين العليا، ثم السوربون، فمدرسة الدراسات العليا. وعندما بلغ الثامنة والعشرين، كان سلفه في إدارة مصلحة الآثار ماريت — الذي تلقَّى تعليمًا متوسطًا — قد أصبح مساعدًا مؤقتًا في متحف اللوفر، بينما كان أحمد كمال ما زال يبحث عن عمل يتصل بالآثار.

وأهمل ماريبت اقتراحًا تقدم به ماسبيرو لإقامة «مدرسة» فرنسية للآثار بالقاهرة، خشية أن يؤثِّر تأسيسها على وضعه ومكانته. ولكن عندما كان ماريبت على سرير الموت تأثرًا بمرض السكر في أواخر عام ١٨٨٠م، بعث مسئولو التعليم في فرنسا الاقتراح من مرقده. وكان ماسبيرو قد أشار إلى المدرسة الفرنسية بأثينا (تأسست ١٨٤٦م)، والمدرسة الفرنسية بروما (تأسست ١٨٧٥م) كنموذج يحتذى، وحذر من أن المنافسين الأجانب يتجاوزون الفرنسيين في حقل الآثار بالشرق الأوسط. فقد قام بوتا في الأربعينيات بإثراء اللوفر بالتماثيل والألواح الأشورية، ولكن نشاط الفرنسيين توقف في العراق، بينما استمر المتحف البريطاني في إثراء مقتنياته من آثار العراق القديم، وفي فلسطين يتقدم علماء العبرانية والفينيقية من الإنجليز والألمان، وفي القاهرة قد تحاول ألمانيا أن تدفع بهنريش بروجش لخلافة ماريبت في إدارة مصلحة الآثار. وبإقامة وريث فرنسي في الموقع تستطيع مدرسة القاهرة «تأكيد التفوق الفرنسي».[٢]

جدول ٥-١: الآثاريون في عهد ماسبيرو وأحمد كمال ١٨٨١–١٩١٤م

علماء مصريات غربيون	علماء مصريات مصريون	آثاريون آخرون	علماء آخرون وشخصيات سياسية
هـ. بروجش ١٨٢٧–١٨٩٤م		فرانز ١٨٣١–١٩١٥م	علي مبارك ١٨٢٣–١٨٩٣م
إدواردز ١٨٣١–١٨٩٢م			نوبار ١٨٢٥–١٨٩٩م
إ. بروجش ١٨٤٢–١٩٣٠م		بوتِّي؟–١٩٠٣م	أحمد عرابي ١٨٤١–١٩١١م
نافيل ١٨٤٤–١٩٢٦م			يعقوب أرتين ١٨٤٢–١٩١٤م

[٢] حول تأسيس المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، وتاريخه، راجع: IFAO, Livre du centenaire 1880–1980 (Cairo, 1980), vii–x; IFAO, Un Siècle de fouilles Françaises en Egypte 1880–1980 (Cairo, 1981).

علماء مصريات غربيون	علماء مصريات مصريون	آثاريون آخرون	علماء آخرون وشخصيات سياسية
ماسبيرو ١٨٤٦–١٩١٦م			محمد عبده ١٨٤٩–١٩٠٥م
بتري ١٨٥٣–١٩٤٢م	أحمد نجيب ١٨٤٧م -١٩١٠م		توفيق (الحكم) ١٨٧٩–١٨٩٢م
إرمان ١٨٥٤–١٩٣٧م	أحمد كمال ١٨٥١–١٩٢٣م		كرومر (قنصل) ١٨٨٣–١٩٠٧م
شياباريلّي ١٨٥٦–١٩٢٨م		هرتز ١٨٦٥–١٩١٩م	عباس الثاني (حكم) ١٨٩٢–١٩١٤م
بادج ١٨٥٧–١٩٣٠م			كتشنر (قنصل) ١٩١١–١٩١٤م
دي مورجان ١٨٥٧–١٩٢٤م		علي بهجت ١٨٥٨–١٩٢٤م	سعد زغلول ١٨٦٠–١٩٢٧م
لوريه ١٨٥٩–١٩٤٦م		برشم ١٨٦٣–١٩٢١م	
بوركارد ١٨٦٣–١٩٣٨م		سميكة ١٨٦٤–١٩٤٤م	
دارسي ١٨٦٤–١٩٣٨م			
برستد ١٨٦٥–١٩٣٥م			
ريسنر ١٨٦٧–١٩٤٢م			
لاكار ١٨٧٣–١٩٦٣م			
كارتر ١٨٧٤–١٩٣٩م		بريشيا ١٨٧٦–١٩٤٤م	
جانكر ١٨٧٧–١٩٦٢م			

وفي ٢٨ من ديسمبر ١٨٨٠م، أصدر رئيس الوزراء الفرنسي جول فيري قرارًا بإنشاء «بعثة دائمة باسم المدرسة الفرنسية بالقاهرة». وبعد ذلك التاريخ بعقد من الزمان، أثيرت مطالب أخرى لإقامة «المدرسة الإنجيلية والآثارية الفرنسية بالقدس». وفي عام ١٨٩٨م أصبحت المدرسة الفرنسية بالقاهرة، والتي كانت تُعرف أيضًا بالبعثة الآثارية، «المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة»، وبدأ المعهد حفائره الأولى في نفس السنة.

ووصل ماسبيرو إلى القاهرة ليصبح أول مدير «للمدرسة الفرنسية»، وذلك قبل وفاة ماربيت ببضعة أسابيع، وجاء بصحبته طالبان من طلاب المصريات، ومعماري يستمد إلهامه من الفن العربي، ومستعرب. وعندما خلف ماسبيرو ماربيت مديرًا عامًّا لمصلحة الآثار المصرية، تولَّى أحد الطالبَين (أوروبان بوريان) إدارة المدرسة، وفيما بين ١٨٨١ و١٩٣٦م قدم المعهد الفرنسي للآثار الشرقية لمصلحة الآثار المصرية من تولوا إدارتها فيما عدا واحدًا فقط هو دي مورجان.[٣] ولعبت مطبعة المعهد التي أنشئت عام ١٨٩٨م دورًا مهمًّا في إبراز الصورة العلمية للمعهد، وبحلول عام ١٩١٠م، كان مديرو وباحثو المعهد قد وصلوا إلى عشرين من المتخصصين في المصريات، وثمانية من المستعربين، وستة من المتخصصين في الهلِّينيات أو البيزنطيات، وجيولوجي واحد، وستة من الفنانين المعاونين.[٤]

وخلال مدة السنوات الخمس الأولى من إدارته لمصلحة الآثار، أعاد ماسبيرو تنظيم المصلحة بالكامل، واستمر في أعمال فتح أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة بالجيزة وسقارة، وقام بنشر متون الأهرام، كما تابع العمل في تنظيف المعابد المصرية بالصعيد.

ونص قانون الآثار — الصادر في عام ١٨٨٣م — على أن جميع الآثار والمتاحف ملكية عامة للدولة، وألحق مصلحة الآثار بوزارة الأشغال العمومية. وعلى نقيض ذلك نص قانون الآثار الصادر في إستانبول المستقلة عام ١٨٨٤م على تبعية مصلحة الآثار ومتاحفها لوزارة المعارف،[٥] واعتبر الآثار جزءًا من الإرث الوطني. وظلت مصلحة الآثار المصرية تابعة لوزارة الأشغال العمومية حتى حصلت مصر على الاستقلال المنقوص،

[٣] Livre du centenaire, xxi.

[٤] Michel Dewachter & Alain Fouchard, eds., L’Égyptologie et les Champollion (Grenoble, 1994), 367.

[٥] Stephen Vernoit, “The Rise of Islamic Archaeology”, Muqarnas 14 (1997), 2.

مما سمح بانتقال تبعية مصلحة الآثار لوزارة المعارف عام ١٩٢٩م، وبقيت كذلك حتى انتقلت تبعيتها إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومي عام ١٩٥٨م.[٦]

عودة علماء المصريات البريطانيين – بتري وصندوق الكشوف المصرية

اتخذت القوات البريطانية من ثكنات قصر النيل — جنوبي متحف بولاق — عام ١٨٨٢م، مقرًّا لقيادتها. وكما فعلت قوات بونابرت قبلهم، قام الإنجليز بتسجيل استحواذهم الرمزي على آثار مصر (انظر الشكل ٣٢). وكان على ماسبيرو أن يحشد كل مهاراته الدبلوماسية للحفاظ على «الآثار محمية فرنسية».[٧] وغازل البريطانيين بوضع نهاية لاحتكار مارييت للتنقيب، وشجع «صندوق الكشوف المصرية»، وبتري وآخرين على القيام بالتنقيب، ورتب لهم الاحتفاظ بنصيب سخي مما يعثرون عليه من آثار، ولم يكن البريطانيون قد عملوا في حقل المصريات منذ أيام ويلكنسون، وريتشارد فايس، وجون بارنج في الثلاثينيات، فيما عدا حالات استثنائية محدودة مثل حفائر ألكسندر ريند في طيبة، وبيازي سميث ووانيمان ديكسون في الجيزة، وقام علي الجابري بتقديم نوع من الرابطة الشخصية مع البريطانيين على مدى نصف قرن، وكان قد بدأ عمله في الحفائر كصبي يحمل السلة مع فايس، ثم أصبح مساعدًا لسميث وديكسون، ووصفه بتري بأنه «رفيقي الممتاز في كل أعمالي».[٨]

وازدهرت أعمال كل من بتري وماسبيرو تحت الاحتلال البريطاني، كل بطريقته الخاصة الفريدة، وقد اشتركا في قضاء مواسم الشتاء الطويلة في مصر، وإجازات الصيف الطويلة في بلديهما، وفيما عدا الدراسة، كان الرجلان على طرفَي نقيض. كان بتري يعيش حياة خشنة في الخيام بين المقابر، ويأكل الطعام المعلب، وكان ماسبيرو يعمل من مكتبه بالمتحف أو على ظهر باخرة المصلحة، وتلقى تعليمًا راقيًا رفيعًا في أفضل مدارس فرنسا، بينما فشل بتري في دراسة اللاتينية واليونانية، واضطر أن يعلم نفسه من خلال جمع العملات، ودراسة الآثار، ومسح المواقع البريطانية القديمة.

وعلى السواحل الشمالية للبحر المتوسط، أصبحت الحفائر أكثر علمية في السنوات الأخيرة من عمر مارييت، فقد حدثت ثورة فنية في هذا المجال لم يستطع اللحاق بها.

[٦] A. Khater, Le Régime juridique des Fouilles et des antiquités en Égypte (Cairo, 1960), 77.

[٧] Margaret Drower, Flinders Petrie: A Life in Archaeology, (Madison, Wis. 1995), 312.

[٨] Flinders Petrie, Seventy Years in Archaeology (New York, 1969 reprint of 1932 ed.), 22.

ففي الستينيات، قام فيوريلِّي في بومبي، وروسا في روما بوضع الحفائر على أسس علمية. وقام النمساويون (كونتزي) في ساموثراس — في بحر إيجة في السبعينيات — والألماني (كورتيوس) في أوليمبيا، بتسجيل دقيق للطبقات الأرضية أثناء الحفر. ووافق كورتيوس على أن يترك كل ما عثر عليه في اليونان مستعيضًا عن الحصول على القطع الأثرية باستعادة ما يتعلق بها من معلومات. وحتى شليمان الذي أزاح الأثرية في طروادة وميسيناي برعونة تماثل رعونة مارييت، حسَّن من مستواه في الثمانينيات، بمساعدة فيلهلم دورفيلد المعماري الأولمبي السابق.[٩]

واتسم بتري بالنزعة العلمية، فلم يستعر مباشرة مثل تلك النماذج، ولكنه اعتمد في الحفر على أساس علمي على جهده الخاص. فكان يرسم خرائط الموقع، وسجل مواضع الأغراض التي يتم العثور عليها، مبرزًا أهمية الأدوات الصغيرة التي تستخدم في الحياة اليومية، وطور طريقة تحديد عمر الفخار، وأسرع بنشر تقرير عن كل موسم من مواسم الحفائر. ووضع الأسرتان الأولى والثانية، كما وضع عصر ما قبل التاريخ في مصر، على الخريطة الأثرية (بالإضافة إلى جهد جاك دي مورجان في هذا المجال). ولعل ثراء الآثار التاريخية المصرية يفسر تأخر وصول التقدم الانقلابي في آثار عصر ما قبل التاريخ في أوروبا، إلى مصر. وقام بتري بتدريب عمال من قرية قفط، الذين قاموا بعد ذلك في العمل معه ومع غيره في جميع أنحاء مصر، وكان يفضل العمل مباشرة مع رجاله بدلًا من الاعتماد على «ريس» عمال، وبذلك قلل من تسرب القطع الأثرية إلى التجار بمكافأة من يعثر على القطع بجهده الخاص. وعلى كلٍّ، فهو لم يهتم بتسجيل الطبقات الأرضية إلا قليلًا، فيما عدا حفائر تل الحصى بفلسطين عام ١٨٩٠م.[١٠]

ولم يكن بتري متخصصًا في الدراسات الإنسانية، مدربًا على الكلاسيكيات، بل كان فنيًّا أثريًّا، ومسَّاحًا، فقد أولى الأغراض المنقولة مثل شقافات الآنية، أهمية خاصة. على حين كان «الأرستقراطي نافيل يميل إلى قضاء الوقت في طرح أسئلة تاريخية بنسخ وتفسير النقوش، وبالنسبة له كان يفضل عدم الحديث كثيرًا عن قاعدة العمل في الحفائر،

[٩] Bruce G. Trigger, A History of Archaeological Thought (Cambridge, 1975), 196.

[١٠] Drower, Petrie, 429–30.

وعن جمع المعلومات عن الفخاريات وما شابهها، فقد يلائم ذلك متخصص في العلوم، ولكنه ليس عمل الرجل المتخصص في الإنسانيات.»[١١]

وانتقد بتري الطريقة التي عمل بها مارييت، ولجوءه إلى استخدام الديناميت، واعتبرها عملًا وحشيًّا، كما انتقد عمل معاصره إميل أميلينو الذي شوه مقابر الأسرات الملكية المبكرة في أبيدوس، وكانت سعادته محدودة بالأعمال الميدانية التي يقوم بها ماسبيرو، وإدوارد نافيل وإميل بروجش. ورغم ذلك، ظل ماسبيرو ودودًا معه، يحذره من أن يجلب القطع الثمينة التي يعثر عليها إلى المتحف حتى لا يستولي عليها إميل بروجش، واقترح عليه أن يحتفظ بها في جيوبه حتى يستطيع تهريبها من الجمارك[١٢]

وقد رفض بتري الافتراضات المتفائلة المبكرة القائلة بوجود خط واحد للتطور الثقافي، مثله في ذلك مثل الكثير من معاصريه. وربط بين التطور الثقافي والتغير البيولوجي، معزيًا التقدم إلى هجرة مبدعي الثقافة. واتفقت مثل هذه المعتقدات مع النزعة العسكرية المتشائمة والعنصرية عند كثير من القوميين الأوروبيين في زمانه، وزادتها اشتعالًا.[١٣]

وفضل بتري أن يعمل مستقلًّا من خلال مؤسَّساته الخاصة — حساب البحوث المصري، «والمدرسة البريطانية للآثار بمصر» التي كانت موجودة عندئذٍ — ولكنه قام بحفائر لحساب «صندوق الكشوف المصرية» من حين لآخر خلال اثني عشر عامًا، وكان وراء تأسيس الصندوق عام ١٨٨٢م رجل البر الطبيب الجراح السير إراسمس ويلسون، وريجنالد ستيوارت بول — قريب إدوارد لين، وخبير النقود (العملات) بالمتحف البريطاني — والأديبة إميليا إدواردز.

ورغم انبهار إميليا إدواردز منذ طفولتها بألف ليلة وليلة، وكتاب ويلكنسون «قدماء المصريين»، إلا أنها كونت لها اسمًا في عالم الصحافة وفن الرواية. وفي الثانية والأربعين من عمرها قامت برحلة إلى مصر — وصفتها في كتابها «ألف ميل صعودًا في النيل (١٨٧٧م)» — ودفعتها الرحلة إلى دراسة الهيروغليفية، وتوجيه نشاطها كله إلى حقل المصريات،

---

[١١] T. G. H. James, ed., Excavating in Egypt: The Egypt Exploration Society 1882–1982 (London, 1982), 28.

[١٢] Petrie, Seventy Years, 34, 77, 80.

[١٣] حول المظاهر الإمبريالية والعنصرية في مجال الآثار في ذلك العصر، راجع: Trigger, History, 110 ff.

وكان — حتى ذلك الحين — وقفًا على الرجال، وبرعت إيمليا في الدعاية للمصريات وجذب الاهتمام إليها، ولولا إدارتها الحكيمة لما استطاع «صندوق الكشوف المصرية» الاستمرار.[١٤]

وكان إفلاس مصر عام ١٨٧٩م قد أدى إلى انقطاع كل المخصصات المالية التي كان مارييت يعتمد عليها في حفائره، وأشار نافيل إلى أن الألمان ينقبون عن الآثار في أوليمبيا وما كان باليونان دون أن يعدهم أحد بأخذ قطع أثرية لمتاحفهم. وأنه ربما كان من الممكن أن يحث المتبرعين البريطانيين على دعم الحفائر بغرض الحصول على المعلومات وليس القطع الأثرية، وخاصة إذا كانت تلك الحفائر تلقي الضوء على ما جاء بالكتاب المقدس، وأن الأطراف الشرقية للدلتا التي يذكرها الكتاب المقدس باسم «أرض جوشن» تمثل أفضل التطلعات لمثل هذه الحفائر.[١٥] وسرعان ما غيرت «جمعية النهوض بالحفائر الأثرية بدلتا النيل» اسمها ليصبح «صندوق الكشوف المصرية» في أبريل ١٨٨٢م، وأعلنت أن هدفها توثيق حقبة القرون الأربعة التي عاشها العبرانيون بمصر والتي أدت إلى الخروج. وفي عام ١٩١٩م تغير اسم الصندوق ليصبح «جمعية الكشوف المصرية».

وانتقد صامويل بيرش، الأخصائي بالمتحف البريطاني، صندوق الكشوف المصرية لأنه يمثل «دعائم الآثار العاطفي»، ولم يكن مرد ذلك إلى معارضته للأهداف المرتبطة بالكتاب المقدس، فقد كان بيرش نفسه الرئيس المؤسس «لجمعية علم آثار الكتاب المقدس» عام ١٨٧٠م. وكان وجه الاعتراض — عنده — أن صندوق الكشوف المصرية سوف يثري متحف بولاق الذي يديره الفرنسيون، ولن ينال المتحف البريطاني شيئًا مما يتم العثور عليه.[١٦] فقد كان بيرش يأخذ على ماسبيرو وبخله في السماح بالحصول على الآثار المصرية، وقد طلب ماسبيرو من «صندوق الكشوف المصرية» أن يشير في طلبه للترخيص بالتنقيب أن ذلك يتم «لأغراض علمية محضة»، دون الإشارة إلى الرغبة في الحصول على ما يتم الكشف عنه من آثار. ولكنه عاد إلى «حث» الحكومة المصرية — التي كانت قد أصبحت في قبضة الاحتلال البريطاني — على أن تعطي للمكتشفين نصيبًا سخيًّا مما يعثرون عليه من الآثار على سبيل الهدية.

---

١٤ Joan Rees, Amelia Edwards, Traveller, Novelist and Egyptologist (London, 1998).

١٥ Margaret-Drower, “Gaston Maspero and the Birth of Egypt Exploration Fund (1881–83)”, Journal of Egyptian Archaeology 68 (1982), 300.

١٦ Peter France, The Rape of Egypt, 151–54.

وفي عام ١٨٨٣م، قام نافيل بالتنقيب في تل المسخوطة لحساب صندوق الكشوف المصرية، وذكر في تقريره أن «الوفاق الودي مع ماسبيرو لا غبار عليه، ولا يمكن أن تكون الأمور أفضل من ذلك، والحق أنه مسموح لي بالحفر في أي مكان أريد من الدلتا.»[١٧] وعند نهاية الموسم حاول الخديو ومجلس النظار إعاقة طريق «الهدية» المقترحة لصندوق الكشوف المصرية، ولكن مناورات ماسبيرو نجحت في تمريرها. وعند نهاية الموسم سارع نافيل إلى نشر تقريره بعنوان «مدينة بيتوم المخزنية وطريق الخروج (١٨٨٥م)»، وقد بعث التقرير السرور في نفوس من يرون أن تل المسخوطة هي مدينة بيتوم التي ورد ذكرها بالكتاب المقدس (وهو استنتاج لم يعد يحظى بالقبول)، وأن جانبًا من وادي الطميلات هو أرض جوشن. وأصبحت بعثات «صندوق الكشوف المصرية» معلمًا دوريًّا من معالم المواسم الشتوية للحفائر في مصر بفضل جهود نافيل، وبتري، وغيرهما.

واستمرت صداقة بتري لإميليا إدواردز بعد انفصاله عن أعمال الصندوق وقيامه بالتنقيب مستقلًّا، وعند وفاتها عام ١٨٩٢م، أوقفت ما يقوم بتمويل كرسي الآثار بالكلية الجامعية بلندن من أجله، ليصبح بذلك أول كرسي أستاذية للمصريات في بريطانيا. وبذلك كانت الحفائر البريطانية في مصر، وأول كرسي للمصريات في بريطانيا مبادرات شخصية، على نقيض ما حدث في بلاد القارة الأوروبية.

الأهرام والتقدم، مصر القديمة عند علي مبارك

وفي العام ١٨٨٦–١٨٨٧م، بينما كان ماسبيرو بباريس عند انتهاء سنوات عمله الخمس الأولى، وكان بتري وصندوق الكشوف المصرية يدعمان وجودهما في مصر، قام علي مبارك بنشر «الخطط التوفيقية الجديدة»، وهي موسوعة طبوغرافية تقع في عشرين مجلدًا، تربو صفحاتها المكتظة على الألفي صفحة. وغالبًا ما يتخذ المؤرخون من الخطط التوفيقية مرجعًا للعصر الإسلامي أو للقرن التاسع عشر، ولكنها — أيضًا — تناولت مصر القديمة.[١٨]

---

[١٧] Drower, “Gaston Maspero”, 314.

[١٨] تعتمد هذه النقطة بصفة أساسية على دراسة: Darrell Dykstra, “Pyramids, Prophets and Progress: Ancient Egypt in the Writings of Ali Mubarak” Journal of the American Oriental Society 114 (1994) 54–65.

واتخذ علي مبارك من أعمال المقريزي والسيوطي نموذجًا، كما أن عنوان «الخطط» يعكس صدى خطط المقريزي، ويأتي عمل مبارك — أيضًا — بمثابة استجابة للعمل الفرنسي «وصف مصر» (ويسميها الخطط الفرنسية)، وهو محاولة لتصوير ماضي مصر وحاضرها وتقديمها لأبناء بلاده.[١٩] فذهب إلى أن القاهرة لم تعد كما كانت من قبل بسبب تغير العهود وتقلبات الأزمان، فلا يوجد بين أبناء مصر من يستطيع تفسير تلك التغيرات أو يقف على أسبابها، أو يوجه الناس لفهم الآثار العظيمة للبلاد، التي ننظر إليها ولا نعرف الظروف التي دعت إلى إيجادها، ونتجول بينها ونحن نجهل من صنعها، فكم من المساجد نسبت إلى غير من تولَّى بناءها، وكم من المعابد نسبت إلى من لم تقع عيونه عليها. ولكن من واجبنا معرفة ذلك؛ لأننا لا يجب أن نظل نجهل بلادنا ونهمل آثار أجدادنا، فهي درس لمن يتعظ، وتذكار لروح فعالة؛ لأن ما تركه أجدادنا من آثار ينظر إلينا ويدعونا أن نقتفي أثرهم، وننتج لزماننا مثل ما أنتجوه لزمانهم، وأن نكافح من أجل أن نكون نافعين، تمامًا كما كافحوا هم.[٢٠]

ونشر مبارك عمله الأدبي «علم الدين» عام ١٨٨٢م، الذي يقول فيه البطل — الذي جعل منه ابنًا لشيخ أزهري — إنه يشعر بالحرج في أوروبا عندما يعجز عن الإجابة على سؤال عن مصر القديمة.[٢١] وقد بدأت «الخطط» معالجة هذه المشكلة استنادًا إلى مصادر إسلامية وأوروبية، فخصص مواقع طويلة من الكتاب لطيبة ومنف، وتناول الكثير من المواقع القديمة الأخرى بقدر أكبر من الاختصار، مثلما فعل مع عين شمس (هليوبوليس) تحت مادة «المطرية»[٢٢]

وتعبر مادة «منف»، التي تحدث فيها عن الأهرام، عن هوية مبارك كعالم مسلم، فهو يورد مقتطفات طويلة من المقريزي والسيوطي عن الأهرام في كتابات العصور الوسطى. وكان للأوروبيين — أيضًا — تخميناتهم عن الأهرام التي ظنوا أنها ربما كانت صوامع للغلال، أو مخابئ للكنوز، أو ملاجئ للحفاظ على المعرفة من خطر الفيضان. وذكر

---

[١٩] J. E. Campo, "Mubark's Khitat", Unpublished Paper, MESA meeting, Beverly Hills, Calif., November 1989.

[٢٠] مبارك، الخطط، ١: ٢–٣.

[٢١] مبارك، علم الدين، ٤ أجزاء (الإسكندرية ١٨٨٢م)، ٢: ٦٣٤–٦٣٦.

[٢٢] علي مبارك، الخطط، ١٣: ٦٩–٩٠ (طيبة)؛ ١٦: ٢–٤٧ (منف)؛ ١٥: ٤٧–٦٩ (هليوبوليس).

مبارك أن جومار وماربيت وغيرهما من العلماء الأوروبيين رأوا أن الأهرام مقابر ملكية. ويميل مبارك قليلًا نحو هذه النظرية، ولكنه لا يتخلى تمامًا عن الأفكار التي رددها المقريزي والسيوطي.

وباعتباره مهندسًا، أبدى مبارك إعجابه الشديد بنظام المقاييس الذي اتبعه بناة الأهرام، واعتقد أنه كان أساسًا لكل مستويات القياس القديمة، وذكر الحسابات التي قام بها جون تيلور وبيازي سميث عن الهرم. ولكنه لم يحذ حذوهم — كمل فعل حككيان — بالقول بأنهم ألهموا الحكمة التي جعلتهم يحددون نسب الآثار القديمة. ولم يترك مبارك مجالًا للشك في أن مصر القديمة كانت مصدر الحضارة الإنسانية في يوم من الأيام، تمامًا كما فعل الطهطاوي من قبل، وأن مصر كانت مصدر إشعاع للعالم في العصر البطلمي، ثم عادت لتلعب نفس الدور في العصر الإسلامي، وقد شارك الطهطاوي نظرته إلى العصر العثماني كعصر تدهور واضمحلال، ولكنه امتدح محمد علي وخلفاءه لإعادتهم مصر إلى طريق التقدم. واعتقد الرجلان أن التفاخر بمصر القديمة يشكل مكونًا أساسيًّا للهوية الوطنية الحديثة. وعلى كلٍّ، كان على الجيل التالي لمبارك والطهطاوي أن يواجه بشكل مباشر المعوقات التي وضعتها الإمبريالية البريطانية والفرنسية في طريق محاولة المصريين اكتشاف واسترجاع تاريخهم القديم.

المناوشات في حقل المصريات في الطريق إلى فاشودة ١٨٨٦–١٨٩٩م

استقال ماسبيرو من مصلحة الآثار عام ١٨٨٦م، وعاد إلى باريس بسبب الحالة الصحية لزوجته، وخلفه في منصبه ثلاثة من الفرنسيين لمدة ١٣ عامًا قبل أن يعود إلى منصبه القديم مرة ثانية. وخلفاؤه هم: أوجين جريبو (١٨٨٦–١٨٩٢م)، وجاك دي مورجان (١٨٩٢–١٨٩٧م)، وفيكتور لوريه (١٨٩٧–١٨٩٩م) (انظر الجدول ٧ بالملاحق). وخلال تلك السنوات التي غاب فيها ماسبيرو تصاعد التنافس الإمبريالي الأنجلو-فرنسي حتى بلغ ذروته في أزمة فاشودة بالسودان عام ١٨٩٨م.

كان جريبو (١٨٤٦–١٩١٥م) يتولى إدارة البعثة الأثرية الفرنسية بالقاهرة عام ١٨٨٦م، عندما استقال ماسبيرو — أستاذه السابق — وعاد إلى باريس. فصمم جريبو أن يدافع عن الهيمنة الفرنسية في قطاع الآثار بالقاهرة مهما كان الثمن. واصطدم بإرنست بادج — صنيعة صامويل بيرش — الذي جاء من المتحف البريطاني عام ١٨٨٦م ليشتري

الآثار، وليقوم بالتنقيب في المقابر الصخرية بأسوان لحساب الكولونيل سير فرانسيس جرينفل، سردار بالجيش المصري، الذي كان من هواة الآثار — مثل خليفته كتشنر.[٢٣]

وكان السير إيفلن بيرنج — الذي أصبح لورد كرومر عام ١٨٩٢م — يفضل التنازل لفرنسا في مسألة الآثار مقابل الحصول منها على تنازلات في أمور أخرى. فاعترض بحزم على نوايا بادج وأساليبه. واحتد بيرنج ذات مرة قائلًا: «أتمنى ألا تكون هناك آثار في هذا البلد، فهي تثير المتاعب فيها أكثر مما يحدث في غيرها.»[٢٤] وقام باستدعاء بادج على الفور، وحذره من القيام «بأي مشروع للتنقيب بواسطة أي ممثل لأمناء المتحف البريطاني … لأن الحفائر التي يقوم بها أي موظف بريطاني في مصر تؤدي إلى تعقيد العلاقات السياسية، وأن الاحتلال البريطاني لمصر لا يجب أن يتخذ مبررًا لتسريب الآثار من البلاد سواء كان ذلك إلى بريطانيا أو إلى غيرها.»[٢٥]

وقام البعض بتأييد بيرنج، ولكن بادج «بيَّن له أن كل دولة كبرى (والكثير من الدول الصغرى) في أوروبا لها ممثل في مصر يشتري الآثار لحساب متاحف بلاده، وأن لبريطانيا الحق أن يكون لها — على الأقل — ممثل يجمع الآثار لحسابها … واضطررت أن أذكره أنني لست واحدًا من موظفيه، وأنني أنوي الاستمرار في تنفيذ تعليمات أمناء المتحف البريطاني، وهنا انتهت المقابلة فورًا.»[٢٦]

ولكن بادج لجأ إلى الالتفاف حول قرارات جريبو وبيرنج. فقد تحفظ رجال مصلحة الآثار على مخزن بالأقصر — بأمر من جريبو — كان بادج قد كدس فيه مجموعة من الآثار التي جمعها. ولكن بادج ورجاله قاموا بنقب حائط المخزن من جهة مبنى تابع لفندق الأقصر المجاور له، وقاموا بتفريغ المخزن — الذي شددت الحراسة عليه من الخارج. وقام البريطانيون المتحمسون في الجيش والبوليس وشركة النقل بمساعدة بادج على تهريب المجموعة خارج مصر.[٢٧] وكان لدى بادج مبرر جاهز: «فهذه الآثار كانت ستهرب من

[٢٣] E. A. Wallis Budge, By Nile and Tigris: A Narrative of Journeys in Egypt and Mesopotamia on Behalf of the British Museum between the Years 1886 and 1913, 2 vols., (London, 1920) 1: 74–117.

[٢٤] A. H. Sayce, Reminiscences (London, 1923), 285.

[٢٥] Budge, Nile, 1: 81.

[٢٦] Budge, Nile, 1: 117.

[٢٧] Budge, Nile, 1: 130–31, 140–44, 147–48, 241, 334, 2: 152.

مصر بنفس الطريقة، ولكن الفرق الوحيد هو اتجاهها إلى أحد المتاحف الأخرى بدلًا من المتحف البريطاني، أو إلى بعض أصحاب المجموعات الخاصة بأوروبا وأمريكا.»[٢٨]

لقد كان «صندوق الكشوف المصرية» وبتري موضع ترحيب ماسبيرو، ولكن جريبو أعلن رفضه «ترك الآثار المصرية للجمعيات البريطانية، وأن يصبح مجرد خادم مطيع للسياح الإنجليز».[٢٩] واعترض على اقتراح بيرنج السماح للبعثات الخاصة ببيع جانب من الآثار التي يقومون باكتشافها لتمويل أعمالهم في التنقيب. ورفض اقتراحًا بتعيين مفتش آثار إنجليزي بالصعيد وآخر فرنسي بالدلتا؛ واعتبره حيلة إنجليزية للسيطرة على المواقع الأثرية الغنية.[٣٠] ورد على اقتراح تعيين مدير مساعد لمصلحة الآثار، تتحمل راتبه الجالية البريطانية، ما دام معظم السياح من الإنجليز، رد بأن زوار المتحف المصري من المصريين يفوقون الزوار الغربيين عددًا، كما أن السياح الأمريكان قد تزيد أعدادهم على أعداد السياح الإنجليز، وأنه في حالة تعيين مدير مساعد إنجليزي، فهل يطالب الأمريكان بتعيين آخر بدورهم؟[٣١]

وفي العام ١٨٨٨م، أُسِّست بلندن «جمعية المحافظة على آثار مصر القديمة» لتمارس الضغوط على بيرنج والفرنسيين.[٣٢] وكان بيرنج قد نجح في فرض «اللجنة الاستشارية للآثار» (أو «لجنة المصريات») على جريبو فرضًا. وفي عام ١٨٨٩م، ضمت اللجنة الكولونيل فرانسيس جرينفل، وثلاثة آخرين من البريطانيين، وجريبو، وفرنسي آخر، ومثل مصر الأرمينيان يعقوب أرتين وتيجران، إضافة إلى مصطفى فهمي رئيس مجلس النظار، وأبدى بتري استياءه لأن الأرمينيَّين سينضمان إلى جريبو في تذليل العقبات التي تعترضه. ولم يكن ذلك هو كل ما حدث بالفعل؛ ففي ١٨٩٠م أكد تيجران شفهيًّا لباريس أن مصر لن تعيِّن مديرًا بريطانيًّا للآثار المصرية في مقابل موافقة فرنسا على قرض كانت مصر بحاجة إليه.[٣٣]

---

[٢٨] Budge, Nile, 1: 334.

[٢٩] Grange, “Archéologie”, 364.

[٣٠] الأرشيف الفرنسي، وزارة الخارجية، نانت، رسالة من جريبو إلى الخارجية في ١٣ يناير ١٨٩١م.

[٣١] دار الوثائق القومية، محفوظات مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، ٣ / ٤ متاحف ١٨٧٩–١٨٩٠م، رسالتان من سكوت مونكريف وجريبو، ٢٢ فبراير ١٨٩٠م.

[٣٢] James, Excavating, 29–30.

[٣٣] دار الوثائق القومية، مجلس الوزراء، الأشغال، مصلحة الآثار، متاحف، مذكرة بتاريخ ٩ نوفمبر ١٨٨٩م «مشروع اللائحة الداخلية».

وقامت «جمعية المحافظة على آثار مصر القديمة»، بحشد الجهود — في لندن — للمطالبة بتوفير الحماية للمواقع الآثرية بصورة أفضل، وإقامة مبنى جديد يضم آثار متحف بولاق. ولا شك أن السياح كانوا يقومون بأعمال تخريبية. ففي ١٨٩٠م نشرت مجلة «جرافيك» صورة سائحات يحفرن على أعمدة المعبد بأزميل (انظر الشكل ٣٣)، وأنحت المجلة — المعروفة باتجاهها الشوفيني — باللائمة على أولئك الذين يشوهون الآثار «من ذلك النوع من النساء الذين هم عامة أمريكيات».[٣٤]

كان الفيضان قد أغرق متحف بولاق عام ١٨٧٨م، وحتى في الظروف العادية «كان المبنى يغطيه الضباب الأبيض في الصباح الباكر في فصل الشتاء. ولم يكن من النادر أن ترى قطرات الماء تجري إلى أسفل على زجاج فاترينات العرض (من الداخل) التي تضم مومياوات ملوك مصر.»[٣٥] وكان الحريق يثير القلق كالفيضان، فمع ضيق المكان كانت المومياوات القابلة للاشتعال مكدسة في توابيت فوق بعضها البعض من الأرض إلى السقف.

وعارضت «جمعية المحافظة على آثار مصر القديمة» قرار الحكومة المصرية الصادر عام ١٨٨٧م لنقل المتحف بصفة مؤقتة إلى قصر بالجيزة. ولكن بيرنج أعلن صراحة أنه ليست هناك أموال لبناء متحف جديد، فانتقل المتحف إلى الجيزة. ولم يتورع دليل كوك السياحي عن ذكر بناء إسماعيل لقصر الجيزة بتكلفة باهظة «لسكنى حريمه».[٣٦] وكان القصر — على الأقل — بمنجاة من الفيضان، وأقل تعرضًا للحريق، وبه ساحات للعرض أوسع كثيرًا من مبنى بولاق.[٣٧] وفي ١٢ يناير ١٨٩٠م، افتتح الخديو توفيق متحف الجيزة (انظر الخريطة ٢).[٣٨]

وأخيرًا وافق القنصل العام الفرنسي — سرًّا — على ضرورة ترك جريبو — غير الدبلوماسي — لمنصبه، ولكنه عندما اقترح نافيل اسم دانينوس، المساعد السابق لماريت، خلفًا لجريبو، رد القنصل الفرنسي بأن دانينوس كان جزائريًّا وأصبح «شرقيًّا كما أنه

[٣٤] The Graphic, 26 July, 1890, 13.

[٣٥] E. A. Budge, Cook's Handbook for Egypt and the Sudan, 2nd ed. (London, 1906), 427.

[٣٦] Budge, Cook's Handbook, 427–28.

[٣٧] James, Excavating, 29–30.

[٣٨] Dia Abou-Ghazi, "The Journey of the Egyptian Museum From Boulaq to Kasr El-Nil" ASAE 67 (1991), 16.

لا يحمل اسمًا فرنسيًّا، ولم أتيقن بعد من ولائه لفرنسا».[٣٩] ولما كانت البعثة الأثرية الفرنسية تخلو من بديل ملائم لجريبو، قدم الفرنسيون جاك دي مورجان، صنيعة إجزافييه شارم أحد كبار موظفي وزارة التعليم بفرنسا، ولكن جريبو العنيد رفض الاستقالة من منصبه، مما تطلب من شارم ودي مورجان والقنصل الفرنسي تنسيق جهودهم للقيام بمناورة انتهت بإبعاد جريبو من منصبه، وعن مصر. وكان دي مورجان من خريجي مدرسة التعدين الفرنسية École des mines، وارتحل كثيرًا، وقام بالتنقيب في الهند، والملايو، والقوقاز، وفارس، ورغم عدم تخصصه في المصريات، سرعان ما «أثبت قدرته على حماية مصالح المتحف المصري بالقاهرة ومصلحة الآثار عامة، دون أن يسرق أهل البلاد أو يضطهدهم، أو أن يجعل اسمه ملعونًا في كل مكان من الإسكندرية إلى وادي حلفا.» وتغاضى دي مورجان عن القيام بحملات مداهمة ليلية لتجار الآثار، كما كان يفعل جريبو «واعتمد على خبرته السابقة في التعامل مع الشرقيين التي اكتسبها في فارس وغيرها من بلاد الشرق، فوصل إلى ترتيبات قائمة على الأخذ والعطاء للأهالي الذين يزودونه بالمعلومات التي تقوده إلى موقع يحقق نتائج جيدة.»[٤٠]

وسارع دي مورجان بفتح قاعات عديدة في متحف الجيزة الجديد أمام الزوار، ولكنه كان أميل إلى الحفائر من العمل بالمتحف، بحكم كونه أصلًا مهندس مناجم، فبنى لنفسه بيتًا في دهشور، وكشف مصطبة مروروكا في سقارة، واكتشف مجوهرات ملكية من عصور الدولة الوسطى في دهشور، ونقب في معبد كوم أمبو، وكلف جورج ليجران بالتنقيب في معبد الكرنك، ويعزى إليه وإلى بتري فضل فتح صفحة عصر ما قبل التاريخ في مصر بالحفائر التي أجراها في عدة مواقع بالصعيد. وعلى أية حال، جلب دي مورجان على نفسه عداء البعض، فانتقد ماسبيرو طرقه العلمية في الحفائر، واتهمه بتدمير ستين مكعبًا صخريًّا بكوم أمبو (كانت خالية من النقوش) لإقامة جسر يقي المعبد فيضان النيل، كما اصطدم دي مورجان بجورج فوكار — المفتش بمصلحة الآثار — متهمًا إياه بالتجسس لحساب الإنجليز، وإقامة علاقات غير سوية مع النساء المسلمات، ووصلت أصداء هذا الصدام إلى أثينا وباريس. فقد كان بول فوكار — والد جورج — مديرًا لمدرسة الآثار الفرنسية بأثينا، وعضوًا بالمجمع العلمي الفرنسي، وله اتصالات واسعة. فأوحى البعض

---

[٣٩] الأرشيف الفرنسي، وزارة الخارجية، نانت، رسالة من وزير التعليم للخارجية.

[٤٠] On de Morgan, see Who Was Who 3: 297.

إلى ناظر الأشغال العمومية بأن حفائر ما قبل التاريخ التي يقوم بها دي مورجان بحوث جيولوجية لا صلة لها بالآثار، فأمره بالتوقف عن إنفاق أموال الوزارة على تلك الأعمال.[٤١]

كان كرومر، و«صندوق الدين العام»، قد نجحا في كسب المعركة ضد الإفلاس، وبدأ التخطيط لإقامة متحف جديد. ولكن بعض الفرنسيين اتهموا دي مورجان بالمبالغة في صداقة الإنجليز،[٤٢] ففاض به الكيل، وترك منصبه عام ١٨٩٧م، ليرأس بعثة آثار في فارس، حيث قضى خمسة عشر عامًا في العمل هناك.

وخشي الفرنسيون أن يسعى الألمان لترقية إميل بروجش مساعد أمين المتحف المصري ليحل محل دي مورجان، ولكن مخاوفهم لم يكن لها ما يبررها،[٤٣] وتم تعيين فيكتور لوريه مديرًا عامًّا لمصلحة الآثار، وكان تلميذًا سابقًا لماسبيرو وعضوًا سابقًا بالبعثة الفرنسية للآثار. ويذكر بتري أن لوريه «كان واقعًا تمامًا تحت تأثير عارف أفندي الموظف الشاب الذي كان يرتدي معطفًا أنيقًا يزيحه للخلف ليكشف عن بطانته القرمزية البديعة بصورة تترك أثرًا واضحًا على من حوله.»[٤٤] كما كتب بتري أن «لوريه عديم الذوق، مكروه من الجميع: موظفي المتحف، والمصلحة، والأهالي … فهو رجل محدود الرؤية، فعندما أبلغته أن موقعًا قد نُهب، ردَّ قائلًا: مستحيل، إن هناك قانونًا يمنع ذلك.»[٤٥] وقد انضم الفرنسيون إلى الأمريكان والبريطانيين وحتى الروس في الضغط من أجل التخلص منه.[٤٦]

وأكد القنصل الفرنسي العام كوجوردو الحاجة الملحة «لاستعادة حقل المصريات هنا، الذي يعد حقًّا طبيعيًّا لنا بحكم كونه علمًا فرنسي الأصل، وما حقق مارييت من إنجازات،

[٤١] David, Maspero, 188–90.

[٤٢] Sayce, Reminiscences, 306.

[٤٣] Warren R. Dawson, “Letters from Maspero to Amelia Edwards” Journal of Egyptian Archaeology 3 (1947), 76.

[٤٤] Petrie, Seventy Years, 183; on Loret, see Who Was Who 3: 260.

[٤٥] Petrie, Seventy Years, 186.

[٤٦] الأرشيف الفرنسي، وزارة الخارجية، نانت، رسالة من القنصل بالقاهرة إلى الخارجية بتاريخ ١٦ مارس ١٨٩٨م.

فقد صنعت تضحيات فرنسا المعرفة بمصر القديمة، من حملة الجنرال بونابرت حتى إقامة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.»[٤٧]

وطلب كرومر من سايس أن يفاتح ماسبيرو،[٤٨] الذي كانت عودته إلى منصبه السابق مديرًا عامًّا لمصلحة الآثار عام ١٨٩٩م، مبعث ارتياحٍ عام للجميع.

البحث عن موضع قدم في «المصريات»، أحمد كمال وجيله

أدت الصرعات بين القوى الأوروبية وبعضها البعض في ذروة عصر الهيمنة الغربية، إلى إتاحة الفرصة — أحيانًا — للمصريين. فالوجود الألماني بالقاهرة ممثلًا في هنريش بروجش، مكن أحمد كمال وعددًا قليلًا من المصريين من دراسة المصريات رغم اعتراض مارييت. وفي التسعينيات نهج جريبو نهجًا آخر، فقام بترقية أحمد كمال من وظيفة سكرتير بالمتحف ليصبح أمينًا مساعدًا؛ وذلك حتى لا يفسح الطريق لتعيين بريطاني في هذه الوظيفة. فقد زعم جريبو أن عدد المصريين الذين يزورون المتحف يعادل عشرة أضعاف زواره من الأجانب، ونوَّه بعلم أحمد كمال، ومقدرته على مصاحبة زوار المتحف من المصريين والأوروبيين على السواء.[٤٩]

وُلد أحمد كمال بالقاهرة عام ١٨٥١م.[٥٠] جاء والده من أصول كريتية ربما للعمل في خدمة محمد علي. وتعلم بمدرسة المبتديان ثم المدرسة التجهيزية، وأتاح له تفوقه في اللغة الفرنسية فرصة الالتحاق بمدرسة اللسان المصري القديم. وأقبل أحمد كمال على دراسة المصريات بشغف كبير. ولكن رفض مارييت تعيين خريجي المدرسة بمصلحة الآثار دفع أحمد كمال للعمل مدرسًا للغة الألمانية بالمدارس، والعمل مترجمًا لنظارة المعارف، ثم بمصلحة البريد، ومصلحة الجمارك.

---

[٤٧] Grange, “Archéologie”, 356.

[٤٨] Sayce, Reminiscences, 306; David, Maspero, 192–201.

[٤٩] دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، أ ٣ / ٤، متاحف ١٨٧٩–١٨٩٠م، مذكرة جريبو ٢٢ نوفمبر ١٨٩٠م، انظر ترجمة أحمد كمال، المقتطف ٦٣، (نوفمبر ١٩٢٣م) ٢٧٣–٢٧٧.

[٥٠] اختلفت المصادر في تحديد تاريخ مولده، فذكرت عام ١٨٤٩م، وعام ١٨٥١م، ولكننا نرجح عام ١٨٥١م.

وكان قد بلغ الثلاثين من عمره عندما استطاع الالتحاق بمصلحة الآثار بتزكية من رياض باشا رئيس النظار،[٥١] فشغل وظيفة سكرتير مترجم بمتحف بولاق. وبعد ذلك بشهور قليلة، عندما كان ماسبيرو يقضي إجازة الصيف في باريس، قام أحمد كمال بمساعدة إميل بروجش في تنظيف التوابيت الضخمة للمومياوات الملكية التي عثرت عليها عائلة عبد الرسول قبل ذلك بسنوات في تبة فوق الدير البحري، وقد قام بروجش — فيما بعد — بالتقاط صورة لأحمد كمال بجوار تابوت الملكة نفرتاري (انظر الشكل ٣٤).

وخصص ماسبيرو خمسمائة جنيه مصري لأحمد كمال ليتولى تجهيز مدرسة صغيرة — تلحق بالمتحف — لتدريس المصريات، وقد تم افتتاحها في فبراير ١٨٨٢م كمدرسة داخلية بها خمسة تلاميذ. وتولى كمال إدارة المدرسة، وتدريس المصرية القديمة، والفرنسية، والتاريخ، براتب شهري قدره ثمانية جنيهات. وقام معلمون مصريون بتدريس اللغة العربية، والحساب، والجغرافيا.[٥٢] وفي أبريل ١٨٨٢م، اقترح ناظر الأشغال العمومية إضافة عشرة تلاميذ آخرين من بينهم أربعة أقباط «من أبناء أعيان الطائفة القبطية الذين يهتمون بالهيروغليفية لكونها لغة أجدادهم، وما زالوا يحتفظون ببعض تعبيراتها، مما يسهل لهم دراستها»،[٥٣] وسوف يعالج الفصل السابع من هذا الكتاب مسألة الميل القبطي تجاه «المصريات».

وقد استمرت مدرسة الآثار قائمة بعد الثورة العرابية والاحتلال البريطاني، وتم تخريج الفصل اليتيم عام ١٨٨٥م. وكان السبيل الوحيد، أمام ماسبيرو لتشغيل الخريجين هو إغلاق المدرسة، وتخصيص ميزانيتها لتغطية مرتبات المفتشين الجدد. وقبل عودته إلى باريس عام ١٨٨٦م دبَّر ماسبيرو لأحمد كمال ٣٨ جنيهًا مصريًّا ليشتري بها كتبًا لاستخدامه الشخصي.[٥٤]

ويتضح من حجم الرواتب عند نهاية ١٨٨٥م محدودية حجم مصلحة الآثار، فقد كان المرتب السنوي للمدير العام ماسبيرو ألف جنيه مصري، بينما كان مرتب مساعدَي أمين

---

[٥١] تذكر إليزابيث دافيد في ترجمتها لماريت باشا (باريس ١٩٩٤م)، ٢٤٨ أن ماريت طلب أن يحل أحمد كمال محل مترجمه القديم، وذلك في ٢٥ فبراير ١٨٨٠م.

[٥٢] دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، وزارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، أ/١/٤ متاحف ١٨٧٩–١٩١٤م، مدرسة الآثار ١٨٨١–١٨٨٦م، مذكرة بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٨٨١م.

[٥٣] دار الوثائق، المصدر السابق، وثيقة ٩٩ بتاريخ ١٧ أبريل ١٨٨٢م.

[٥٤] دار الوثائق، المصدر السابق، رقم ٤٠٦، ٢١ يوليو ١٨٨٦م.

المتحف: إميل بروجش ٤٢٠ جنيهًا سنويًّا، وأوروبان بوريان ٣٠٠ جنيه سنويًّا، وحصل خمسة من المفتشين المصريين بالدرجة الثانية على ٩٠ جنيهًا سنويًّا لكلٍّ منهم، وخمسة مفتشين درجة ثالثة (هم خريجو مدرسة المتحف) حصل كل منهم على ٦٠ جنيهًا سنويًّا. وكان راتب الناظر محمد خورشيد ٢٤٠ جنيهًا، والسكرتير أحمد كمال ٢٤٠ جنيهًا، وأمينا المخزن (مخزنجية) حصل أولهما على ٧٢ جنيهًا، والآخر ٤٥ جنيهًا سنويًّا.[٥٥]

وعندما استقال بوريان عام ١٨٨٥م ليتولى إدارة البعثة الفرنسية للآثار، طلب جريبو أن تتوفر فيمن يخلفه مؤهلات أخرجت المصريين من المنافسة هي: معرفة الهيروغليفية، والهيراطيقية، والديموقراطية، والقبطية، واليونانية، واللاتينية (وهي مؤهلات لا تتوفر حتى لبتري) ولا تتوفر في خريجي مدرسة بروجش، ومدرسة أحمد كمال الذين تعلموا كل هذه اللغات ما عدا اليونانية واللاتينية، وليس من الغريب أن يحصل على الوظيفة جورج دارسي، تلميذ جريبو.[٥٦]

وعلى كلٍّ، غير جريبو رأيه، وقام بترقية أحمد كمال — عام ١٨٩١م — إلى وظيفة مساعد أمين ليسد الطريق على الإنجليز.[٥٧] وبعد ذلك بوقت قصير، عندما كان أحمد كمال في الأربعين من عمره، سمع أن إميل بروجش سيستقيل من وظيفته التي تعد أرقى من الوظيفة التي حصل عليها أحمد كمال، وأن الأجانب تتجه أنظارهم إلى الحصول على هذه الوظيفة، فقدم أحمد كمال التماسًا إلى مصطفى فهمي — رئيس مجلس النظار — مطالبًا بالحصول على الوظيفة لأنه «المصري الوحيد المتخصص في المصريات، وتلميذ بروجش باشا. لقد انتظرت طوال ٢٢ عامًا في خدمة الحكومة حتى أصبح أمينًا مساعدًا. بالنظر إلى خدمتي، واستحقاقي، والقانون المصري، أتشرف بالتقدم إليكم بصفة شخصية طالبًا مساعدتي في الحصول على الوظيفة رغم كل المطالب الأجنبية.»[٥٨]

قدم أحمد كمال هذا الالتماس بالفرنسية، وأضاف إليه مذكرة قصيرة بالعربية ذكر فيها أن دارسي الأمين العام المساعد الفرنسي له نفس المؤهلات العلمية، ولكنه لا

[٥٥] دار الوثائق، المصدر نفسه، رقم ٣٢١، ٢٨ ديسمبر ١٨٨٥م، مفتشو الدرجة الثانية هم: علي حبيب، وأحمد كخيا، ومحمد مرزوق، وتادرس، وموتفيان، وأحمد الساقي. ومفتشو الدرجة الثالثة هم: محمد شعبان، وأحمد نجيب، ومحمود حمدي، وعبد الرحمن فهمي، وحسن حسني.

[٥٦] دار الوثائق، المصدر نفسه، رقم ٤٥٤، ٢٩ ديسمبر ١٨٨٥م.

[٥٧] دار الوثائق، المصدر نفسه، رقم ١٦، ٢١ فبراير ١٨٩١م.

[٥٨] دار الوثائق، المصدر نفسه، ٤ / ٣ ب، ٢٨ أكتوبر ١٨٩٢م.

يعرف العربية، ومدة خدمته لا تتجاوز ست سنوات بينما تبلغ سنوات خدمة كمال ٢٢ عامًا. وختم المذكرة بمناشدة وطنية رئيس النظار مساندة المصري بدلًا من الفرنسي أو الإنجليزي. ولم يترتب على ذلك الالتماس شيء؛ لأن بروجش ظل في وظيفته حتى عام ١٩١٤م. وفي ظل إدارة دي مورجان خليفة جريبو، كان أحمد كمال محظوظًا لاحتفاظه بوظيفته، فقد قيل إن جريبو كان يسعى للتخلص منه، ولم يتحدث إليه مدة عام كامل.[٥٩] وبعد عودة ماسبيرو وضع ثقته في أحمد كمال، وأسند إليه أعمال التنقيب والنشر، ولكنه لم يقم بترقيته، وتخطاه دارسي في الترقية إلى منصب سكرتير عام المصلحة عام ١٩١٣م. كان أحمد كمال يكبر دارسي وجيمس كيبل الذي أصبح أمينًا عام ١٩١٤م، باثني عشر عامًا.[٦٠]

وهناك خريج آخر من مدرسة بروجش، لمع اسمه، هو أحمد نجيب (١٨٤٧–١٩١٠م). وكانت ترجمته لكتاب بروجش في نحو اللغة الهيروغليفية، أول كتاب دراسي في هذا المجال باللغة العربية. وأمام موقف مارييت من خريجي المدرسة، اضطر أن يعمل مدرسًا للتاريخ بالمدارس الحكومية، وكان لا يزال بتلك الوظيفة عام ١٨٨٢م عندما كتب مقدمة لكتاب أحمد كمال «تاريخ مصر القديمة». وفي عام ١٨٩٢م فتح التنافس الأنجلو-فرنسي الطريق أمامه ليشغل إحدى وظيفتَي المفتش العام للآثار (وشغل الوظيفة الثانية فوكار)، وحصل نجيب على البكوية وتقاعد عام ١٩٠٥م بسبب حالته الصحية، وأصدر لفترة قصيرة مجلة «المنظوم».[٦١]

وتتضمن قائمة بأسماء مفتشي الآثار عام ١٨٩٩م اثنين من خريجي مدرسة الآثار ١٨٨١–١٨٨٥م (تلاميذ أحمد كمال) هما: محمد شعبان، الذي خلف أحمد كمال في وظيفة الأمين المساعد، بعد تقاعده والآخر حسن حسني. وكان علي حبيب — مفتش آثار الدلتا — أقدم وأفضل المفتشين القدامى الذين عملوا مع مارييت وكان معظمهم من العسكريين

---

[٥٩] توفيق حبيب «تاريخ الكشف عن الآثار المصرية وأعمال المرحوم أحمد كمال باشا»، الهلال، ٣ (نوفمبر ١٩٢٣م)، ١٣٥–١٤١.

[٦٠] On Daressy and Quibell, see Who Was Who 3: 116, 435.

[٦١] عن أحمد نجيب انظر: الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة وآثارها، وزارة الثقافة والإرشاد القومي (القاهرة د. ت)، ٨٢، وكذلك Who Was Who 3, 306.

السابقين، وقد تقاعد علي حبيب عام ١٩٠٧م. أما بقية المفتشين فكانوا من صف الضباط بالجيش الذي تكون بعد ١٨٨٢م، أو صغار الموظفين، بل إن أحدهم كان خادمًا.[٦٢]

علم المصريات والوجود المصري في «المجمع العلمي المصري»

أخذ ماسبيرو وخلفاؤه الثلاثة بالتقليد الذي وضعه ماريت باستخدام «المجمع العلمي المصري» ومجلته منبرًا للمصريات. وفيما بين ١٨٨٥ و١٨٩٩م، خصصت مجلة المجمع جانبًا كبيرًا من صفحاتها لتقديم كشاف عن مجموعات المتحف المصري، واشتملت سلسلة المذكرات المنفصلة التي أصدرها المجمع على موضوعات فرعونية. واختار المجمع ماسبيرو رئيسًا فخريًّا له عند عودته إلى القاهرة عام ١٨٩٩م، ولكن إصدار «حوليات مصلحة الآثار» قلل من اعتماد المصريات على مجلة المجمع.[٦٣]

وفي العام ١٨٩٠م، تضاعفت نسبة المصريين من أعضاء المجمع لتصبح ٣١٪، بعد أن كانت ١٤٪ عند تأسيسه.[٦٤] وكان المصريون أكثر بروزًا في قيادة المجمع، وخاصة إذا اعتبرنا يعقوب أرتين (١٨٤٢–١٩١٤م) مصريًّا، فقد كان يلعب دور الوساطة بين المصريين والأوروبيين، تمامًا كما فعل خاله يوسف حككيان من قبل. وكان أرتين كاثوليكيًّا فرنسي الثقافة، يتمتع بالحماية الفرنسية في مصر، وكان ولده — أرتين سكياس — ضمن البعثة التعليمية في باريس التي كان الطهطاوي عضوًا بها، وخدم محمد علي في «ديوان التجارة والأمور الإفرنجية». وقضى يعقوب أرتين حياته كلها موظفًا بالحكومة المصرية، وتولى رئاسة المجمع لعشرين عامًا في الفترة الواقعة بين (١٨٨٩–١٩١٤م)، وألقى تسعة أوراق بحثية أمام المجمع، وأتاح للمستشرقين الزائرين فرصة استخدام مكتبته الخاصة الضخمة.[٦٥]

---

[٦٢] Gaston Maspero, Rapports Sur la marche du Service des antiquités de 1899 à 1910 (Cairo, 1912) xxiii–xxvi.

[٦٣] Nicolas Grimal, "L'Institut d'Égypte et l'Institut Français d'archéologie Orientale", Bulletin de L'institut d'Egypte 70 (1989–90) 29–42.

[٦٤] Bulletin de L'institut d'Egypte, ser. 3, Fasc. 1 (1890) 219–24.

[٦٥] حول سيرة حياة يعقوب أرتين، راجع: Stevenson بأرشيف متحف جامعة بنسلفانيا، محفظة ١، ملف ٢ ك، وحول حسين فخري، راجع: Goldschmidt Jr., Biographical Dictionary of Modern Egypt (Boulder, Colo., 2000), 52.

وكان يعقوب أرتين، وحسين فخري رفيقين متميزين، فقد عمل حسين فخري إلى جانب يعقوب أرتين نائبًا لرئيس المجمع لمدة اثني عشر عامًا، وفي (١٩٠٥–١٩٠٦م، و١٩٠٩م) ترك أرتين الرئاسة لفخري. وفي مجال العمل، خدم حسين فخري طويلًا في عهد كرومر، ناظرًا للأشغال العمومية والمعارف، وبذلك كان رئيسًا لوكيل نظارة المعارف يعقوب أرتين الذي كان يده اليمنى فيها. وكان حسين فخري، ورئيس مجلس النظار نوبار باشا، وناظر الخارجية تيجران يتخذون من عضوية المجمع العلمي المصري نوعًا من الاستحقاق الأرستقراطي والوجاهة الاجتماعية، ولا يجدون أنفسهم بحاجة إلى إبراز قدراتهم العلمية بتقديم أوراق بحثية، كما كان يفعل أرتين، الذي اختلف عنهم تمامًا. وكان تيجران يهوى جمع الآثار، شأنه في ذلك شأن غيره من الأعيان.[٦٦]

وجاء اختيار علي بهجت عضوًا بالمجمع عام ١٩٠٠م، وأحمد كمال عام ١٩٠٤م اعترافًا ببروز سمعتهما العلمية. وفي عام ١٩٠٣م، اختار المجمع كيرلس مكاريوس ليصبح أول عضو قبطي بالمجمع، وقد قدم دراسات في التقويم القبطي،[٦٧] وبالإضافة إلى عضوية المجمع، انضم أحمد كمال إلى عضوية «الجمعية الجغرافية الخديوية». ونشر بحوثًا بمجلتها.

وكان الأوروبيون ما زالوا يوجهون دفة المجمع، فطوال الفترة (١٨٨٣–١٩١٤م)، كان الأمين العام، ومساعد الأمين العام، وأمين الصندوق، وأمين المكتبة منهم. وكان متوسط ما يقدمه المصريون من أوراق بحثية، ورقة واحدة فقط في العام. وهبطت نسبة المصريين في عضوية المجمع عام ١٩٠٩م هبوطًا طفيفًا لتصل إلى ٢٧٪ بعد أن كانت ٣١٪ عام ١٨٩١م.

تمثيل مصر القديمة في المعارض الدولية ومؤتمر المستشرقين الدولي

لعب كل من ماربيت، وديليسبس، وبروجش الدور الأكبر في تشكيل صورة مصر في المعارض الدولية في الستينيات والسبعينيات، وإن كانت مقاليد الأمور بيد الخديو إسماعيل. ولكن تحت الاحتلال البريطاني، لم تعد مصر تملك تحديد ملامح صورتها

[٦٦] “Daninos”, Who Was Who 3: 115.

[٦٧] Bulletin de L’institut d’Égypte, ser. 5, Fasc. 3 (1909), 176–77.

في المعارض الدولية حتى بشكل غير مباشر. ولما كانت الحكومة المصرية الخاضعة للاحتلال لا ترغب في توفير النفقات اللازمة للاشتراك في المعارض الدولية، لم يستطع توفيق وماسبيرو وخلفاؤهما منافسة الخديو إسماعيل وماربيت في قدراتهما. ففي معرض باريس الدولي عام ١٨٨٩م وقع تمثيل مصر خطأً على عاتق منظم فرنسي، عكس «شارع القاهرة» الذي عرض النظرة الغربية تجاه الشرق، التي سنناقشها في الفصل السادس من هذا الكتاب. وعرض توماس كوك نموذجًا دقيقًا لمعبد إدفو.[٦٨] وقد تسبب هذا المعرض الذي أقيم احتفالًا بمئوية الثورة الفرنسية في إثارة قلق الأنظمة الملكية؛ ولذلك لم تشترك فيه ألمانيا، والدولة العثمانية، واكتفت بريطانيا، وإمبراطورية النمسا، والمجر، وروسيا، وإيطاليا، والصين بتمثيل غير رسمي، وترك المعرض لباريس «برج إيفل».

وفي معرض كولومبيا بشيكاغو — الذي أقيم عام ١٨٩٣م متأخرًا عن موعده بعام — أقيمت بوابة معبد فرعوني ومسلة أمام «شارع القاهرة» ذي الطراز العربي الإسلامي، وتولى تنظيم الجناح المصري منظِّمان أحدهما بلجيكي والآخر يوناني.[٦٩] وفي عام ١٩٠٠م، اعتذرت الحكومة المصرية — مرة أخرى — عن عدم المشاركة في معرض باريس الدولي، وتولى هذه المهمة لبناني متمصر هو فيليب بولاد، استخدم معماري المتحف المصري الذي كان يشيد بالقاهرة — مارسيل دورنو — الذي قام بتصميم جناح مصري، مزج فيه بين ثلاثة أقسام في بناء واحد: قسم على الطراز الفرعوني (يجمع بين طيبة ومنف)، وقسمان على الطراز العربي الإسلامي.[٧٠] وقد تجاوب المصريون الذين زاروا المعارض الدولية التي أقيمت في أواخر القرن مع تمثيل مصر الحديثة، وليس القديمة، كما سنرى في الفصل السادس.

وفي معرض لويزنا للمشتريات الذي أقيم بسانت لويس عام ١٩٠٤م، قامت مصر وتركيا، وفارس، ومراكش باختيار مفوض عام (أجنبي) ومندوب (مصري). وهيمنت الأنثروبولوجيا على ذلك المعرض الذي ضم نماذج حية من أهل الفلبين التي استحوذت عليها الولايات المتحدة حديثًا، وعينة «عجيبة من اليابانيين قصار القامة البدائيين من

[٦٨] Thomas Cook Archives, Excursionist, 25 May (1889).

[٦٩] هذه المعلومات مستقاة من مراسلات القنصل الفرنسي بالقاهرة المودعة بالأرشيف الفرنسي، وزارة الخارجية، نانت.

[٧٠] Richard D. Mandrell, The Great World’s Fair (Toronto, 1967).

الأينو» الذين وصفوا «بالأدب الجم والنظافة»، وكان عنوان مصر البريدي بالمعرض «طرف قسم الأنثروبولوجيا». واشتملت المعروضات في قسم «مصر وإنسان ما قبل التاريخ» على أدوات من العصر الحجري جلبت من مصر، كما كان هناك قسم «أرض اللوتس» التي وضعت فيها الحضارة بذرتها الأولى، عرضت مقبرة كاملة، ومومياوات وتوابيت لشخصيات ملكية، وقط محنط، إضافة إلى الجعارين وغيرها من الرموز المقدسة لحضارة غابرة.[٧١]

وعلى الصعيد العلمي، استمر «مؤتمر المستشرقين الدولي» يطوف عواصم الدول الأوروبية الكبرى، فعقدت اجتماعاته في: فيينا، لندن، باريس، روما، مع اجتماعات في مراكز أوروبية أقل شأنًا هي: ليبزج، جنوا، هامبورج، كوبنهاجن، أثينا. وعقد المؤتمر السادس اجتماعه في المدينة الهولندية ليدن بعد وقوع الاحتلال البريطاني لمصر بعام واحد. وقام المؤتمر ذات مرة بالتوجه إلى موضوع دراسته، فعقد اجتماعًا في الجزائر.[٧٢]

واستمرت «المصريات» غالبة على أقسام الدراسات الأفريقية بالمؤتمر. وقد أورد جاك دي مورجان ذكر أحمد كمال بصورة إيجابية في تقريره للمؤتمر العاشر الذي عقد بجنيف عام ١٨٩٤م، ولكن لم يقم أي مصري بإلقاء بحث أمام المؤتمر قبل سامي جبرة الذي شارك في المؤتمر الثامن عشر المنعقد في ليدن عام ١٩٣١م. أما في مجال الدراسات العربية الإسلامية، فقد أسهم المصريون ببحوثهم منذ الثمانينيات كما سنرى في الفصل السادس.

مارسيل دورنو وتصميم المتحف المصري بالقاهرة

استقر رأي اللجنة التي اختارت — عام ١٨٩٥م — تصميم المتحف المصري الجديد بالقاهرة على «الفنون الجميلة» الكلاسيكية الجديدة. وكان إسناد مهمة التصميم إلى معماري مصري أو التفكير في طراز مصري محلي، أمرًا مستبعدًا. كان كرومر في ذروة سلطته، والمتاحف مؤسَّسات مستوردة، والمعماريون يسيطرون على ميدان التشييد

---

[٧١] John Wesley Hansen, Official History of the Fair, Saint Louis (St. Louis, 1904), 51.

[٧٢] أسقطنا هنا الاجتماعات التي غلبت عليها أعمال الهواة وليس العلماء (لندن ١٨٩١م – لشبونة ١٨٩٢م).

والزخرفة. والعمارة الإسلامية التقليدية تراجعت، والطراز الإسلامي الحديث كان لا يزال في بداياته. وجاءت لجنة التحكيم من الفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين. وجاءت غالبية المشاركين من هذه البلاد الثلاثة: ٢٦ متسابقًا إيطاليًّا، و١٦ فرنسيًّا، و١٥ من جنسيات أخرى ممن تقدموا لمسابقة تصميم المتحف، ولكن المشروعات الخمسة في التصفية النهائية كانت جميعها فرنسية.[٧٣]

وكان باستطاعة لجنة التحكيم النظر إلى حصاد قرن من الطرز المتنافسة في الغرب؛ بما فيها الكلاسيكية، والقوطية، وبصيص من الفرعونية والإسلامية.[٧٤] واستمد مصممو المتاحف التي أقيمت في أوروبا، إلهامهم من روما واليونان. وارتبطت المتاحف بالكلاسيكية الجديدة في أذهان أهل الغرب بتأثير المتاحف الأوروبية التي أنشئت على هذا الطراز: متحف الفن القديم الذي صممه كارل فردريش شنكل، ومتحف الفن الحديث الذي صممه فردريش ستولر، في برلين، ومتحف الفنون الزخرفية الذي صممه ليوفون كلنتز، في ميونخ، والمتحف البريطاني الذي صممه السير روبرت سميرك، بلندن. تُرى، كيف يستطيع المرء أن يشاهد رخام إيلجن في مكان أفضل من واجهة المتحف البريطاني ذات الطراز الأيوبي التي تردد منحوتاتها المثلثة أصداء «تقدم الحضارة».[٧٥]

على كلٍّ، فقد واجهت سيادة الكلاسيكية الجديدة تحديًا من جانب النزعة الرومانية، بما في ذلك تناسخ «الفنون الجميلة» بالطراز القوطي الفيكتوري «الوطني»، والعودة المثالية للطراز القوطي على يد أوجين إيمانويل فيوليه لودوك، وازدهرت صحوة الطراز القوطي في بناء الكنائس، والكليات في الولايات المتحدة بصفة خاصة، وأعلنت عن نفسها في متحف العلم الجديد بأكسفورد (١٨٥٥–١٨٥٩م)، وفي متحف الفنون الجميلة ببوسطن (١٨٧٦م).

وكان باستطاعة من يشتغلون بالطراز الروماني الذين وجدوا في الطراز القوطي طرازًا طبعًا، أن يحاولوا إحياء الطرازين الفرعوني والإسلامي، ومن سخرية القدر أن

---

[٧٣] المعلومات حول المشاركين في المسابقة استقاها المؤلف من خطاب شخصي تلقاه من إريك جادي في ١٦ يناير عام ٢٠٠٠م، وعن نتيجة المسابقة من مراسلات القنصل العام الفرنسي مع وزارة الخارجية.

[٧٤] Zeynep Çelik, The Remaking of Istanbul: Portrait of an Ottoman City in 19th Century (Seattle, 1986), 126.

[٧٥] James J. Sheehan, Museums in the German Art World from the End of the Old Regime to the Rise of Modernism (Oxford, 2000).

الطرازين الأخيرين جاءا إلى مصر كواردات أوروبية، ولم ينبتا من التربة المحلية. ويبدو أن «القاعة المصرية» التي أقامها وليم بالوك على الطراز الفرعوني الجديد ببيكاديلِّي، قد تم تصميمها خصيصًا لأول عرض للآثار المصرية بلندن، على يد بلزوني عام ١٨٢١م.[٧٦] واحتج شامبليون على خطة زخرفة غرف القسم المصري باللوفر بزخارف يونانية رومانية بدلًا من الفرعونية،[٧٧] ولكن قبضة الكلاسيكية كانت قوية (شأنها شأن الاستشراق) حتى إن أحد السقوف تمت زخرفتها بعمل فرانسوا إدوارد بيكو «آلهة الحكمة يكشفون مصر القديمة لأثينا».[٧٨]

وتخفي الزخارف الخارجية لمتحف برلين الجديد (١٨٥٠م) غزلًا فرعونيًّا مذهلًا،[٧٩] كما أن الزخارف الفرعونية والإسلامية اختلطت دون تمييز في أجنحة المعرض الدولية، فأشرف مارييت على إقامة نماذج للمعابد المصرية في معارض باريس الدولية في ١٨٦٧م و١٨٧٨م. وأدخل الطراز الفرعوني الجديد على زخرفة واجهة متحف بولاق. ورغم أن المتحف المصري الذي صممه دورنو على الطراز الكلاسيكي الجديد، كان يشيد بالقاهرة، فقد أظهر المعماري دورنو — نفسه — مهارته في الجناح الفرعوني — الإسلامي الذي أقيم عام ١٩٠٠م بمعرض باريس الدولي.

كان المتحف المصري في مقره المؤقت بقصر إسماعيل بالجيزة في التسعينيات، يحمل زخارف «نصف فرنسية، نصف شرقية» الطراز (انظر الشكل ٣٥). ويذكر بادج أنه «ليس من الممكن أن تحصل «الآثار المصرية» على مكان منقطع الصلة بها مثل هذا المكان، فكانت المومياوات الضخمة لرمسيس الثاني وغيره من الملوك العظام، تُعرض في وسطٍ يدعو للأسى، حيث طُليت حوائط الغرف باللون الأزرق، ذات كرانيش وردية اللون مذهبة، وزينت السقوف بأطر تحمل رسومًا لكيوبيد وفينوس ... إلخ.»[٨٠]

[٧٦] Jean-Marcel Humbert, Michael Pantazzi and Christiane Ziegler. Egyptomania: Egypt in Western Art 1739–1930 (Ottawa, 1994).

[٧٧] Humbert, Egyptomania, 334.

[٧٨] Humbert, Egyptomania, 334–36.

[٧٩] Humbert, Egyptomania, 342.

[٨٠] E. A. Wallis Budge, The Nile: Notes For Travellers in Egypt, 4th ed., (London, 1895), 154.

وقد دعمت النزعة الكلاسيكية الجديدة في «الفنون الجميلة»، وجودها في الغرب ومستعمراته عند نهاية القرن. وصاحب ذلك الصعود الإمبريالي الذي ارتبط بكيرزون وملز، وفردريك لوجارد، ورودس، وكرومر، وكتشنر. فقد أقيم النصب التذكاري المتباهي بالقوة «فيكتوريا ميموريال» بمدينة كلكتا كأول نصب كلاسيكي في الهند على مدى نصف قرن من الزمان، إحياءً لذكرى أبطال بريطانيا في الهند في زي كلاسيكي.[٨١] وأقيمت واجهة كلاسيكية (عام ١٩٠٢م) لمتحف متروبوليتان للفنون بنيويورك، وفي العام (١٩٠٧–١٩٠٩م)، استبدل متحف بوسطن للفنون بواجهته القوطية القديمة، أخرى على الطراز الكلاسيكي الجديد. وفي إستانبول، وقف متحف الآثار الذي صممه أنطوان فالوري على الطراز الكلاسيكي الجديد (١٨٩١–١٩٠٧م)، غريبًا إلى جانب كشك شنلي المزين بالزخارف، في حرم قصر طوب قابي.[٨٢]

وحال وضع مصر الخاص في ظل «الحماية المقنعة»، دون إقامة نصب إمبريالية مثل تلك التي أقيمت بكلكتا أو بنيودلهي. لقد احتلت دار المعتمد البريطاني موقعًا بارزًا على ضفة النيل، ولكن بناءها كان متواضعًا نسبيًّا. وجاء المتحف المصري (الذي يطل الآن على ميدان التحرير) وثيق الصلة بالمباني العامة ذات الهيئة الإمبريالية، ولكن تلك الهيئة لم تكن بريطانية خالصة.

وُلد مارسيل لازار دورنو (١٨٥٨–١٩١١م) في نفس العام الذي أسس فيه سعيد وماربيت «مصلحة الأنتيكات (الآثار)»، تخرج في مدرسة الفنون الجميلة بباريس، وقضى ١٢ عامًا في شيلي يعمل معماريًّا في خدمة الحكومة هناك. وفي المرحلة المصرية من حياته قام بتصميم مبنى المتحف المصري، ومبنى المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، والمستشفى الفرنسي، كما صمم جناح مصر في معرض باريس الدولي عام ١٩٠٠م.[٨٣]

وفي مطلع القرن العشرين، كانت ثكنات قصر النيل — التي يحتلها الإنجليز — تُنافس المتحف المصري في اجتذاب الأنظار، ورغم أنها بُنيت في عهد سعيد، فقد كانت

فيما يتصل بقصر الجيزة، راجع كتاب نهال تمراز: Nihal S., Tamraz, Nineteenth-Century Cairene Houses and Palaces (Cairo, 1998), 30.

[٨١] Metcalf, Imperial Vision, 176–210.

[٨٢] Çelik, Remaking of Istanbul, 139–40.

[٨٣] J. S. de Sacy, "Dourgnon" Dictionnaire de biographie Française (Paris, 1933), II (1967), 691.

ترمز إلى العصر الاستعماري. وجاء المتحف ليضفي على الحي صفةً أثرية: هناك شارع مارييت باشا الذي يمر بجوار المتحف حتى ميدان مارييت باشا، وشارع الأنتكخانة المصرية يتجه شرقًا خلف مبنى المتحف. وفيما وراء المتحف عبر شارع الأنتكخانة، كان المعهد الفرنسي للآثار الشرقية — الذي صمم دورنو مبناه يقدم خدماته للمشتغلين بالآثار (انظر الخريطة ٢).

وجاء القوس المركزي للمتحف، والقبة، والأعمدة الأيونية، والأعمدة البارزة من الحوائط، والأجنحة المتوازنة، والكرانيش، والقاعات التي تلتف حول فناء تضيئه السماء، جاء ذلك كله ليتفق تمامًا مع تقاليد مدرسة «الفنون الجميلة» (انظر الأشكال ٢ و٥ و٦). وقدمت التصميمات التي اتخذت شكل الجرة مع تواريخ الإنشاء لمسة من طراز الباروك فوق المدخل. وأنقذت الزخرفة الداخلية ذات الطابع الفرعوني محتويات المتحف من معاناة الغربة. وجاء القوس الروماني والأعمدة الأيونية للمدخل على شكل بوابة، بينما تقف حاتحور أو إيزيس حامية حجر العقد، وتقف الآلهة التي ترمز للصعيد في جانب، وتلك التي ترمز للدلتا في الجانب الآخر من المدخل.

وقد قام الخديو عباس الثاني بوضع حجر الأساس للمتحف في أول أبريل ١٨٩٧م،[٨٤] ولكن حالت بعض الصعوبات دون افتتاح المتحف، حتى تم ذلك في ١٩٠٢م. وبلغت تكاليف إنشائه ٢٥١ ألف جنيه مصري، وعزى القنصل الفرنسي العام دورنو التأخير في الافتتاح إلى سلوك الإنجليز. زعم دي مورجان أن الإنجليز انتهزوا فرصة غيابه عن القاهرة في بعثة أثرية بسيناء لتبرير تدخُّلهم. واتهم دورنو وزارة الأشغال العمومية بمساندة شركة المقاولات الإيطالية التي أسند إليها البناء. وعندما كتب اسم دورنو على باب ثانوي، وليس على الواجهة، رفع قضية على الحكومة المصرية مطالبًا بثلاثمائة جنيه مصري زيادة على أتعابه البالغ قدرها ألف جنيه.[٨٥] وهكذا عكس المتحف مدى اهتمام أوروبا بماضي مصر الفرعوني إلى حد إسقاط المصريين المحدثين من حسابهم، بقدر ما عكس الصراع الأنجلو-فرنسي طويل الأمد في المجالين السياسي والآثاري، على ضفاف النيل.

[٨٤] أحمد شفيق، مذكراتي في نصف قرن (القاهرة ١٩٣٦م) المجلد ٢، الجزء الأول، ٢٤٣.

[٨٥] الأرشيف الفرنسي، وثائق الخارجية، نانت، مراسلات من دي مورجان، ودورنو للخارجية الفرنسية (١٨٩٤–١٨٩٦م).

ماسبيرو والوفاق الودي

تنفس علماء المصريات والدبلوماسيون — البريطانيون والفرنسيون على السواء — الصعداء عندما عاد ماسبيرو إلى القاهرة عام ١٨٩٩م. وعدل ماسبيرو عن خطة سلفه في النضال من أجل إبعاد البريطانيين عن مصلحة الآثار، فمنحهم تمثيلًا سخيًّا، وأخيرًا كسب اعترافهم الرسمي بأن للفرنسيين اليد العليا في مجال الآثار في مصر. وقد سجل نقطة لصالحه عام ١٨٩٩م، عندما لم يبدِ قلقه لوجود ثلاثة من البريطانيين في «لجنة المصريات» إلى جانبه، وفرنسي آخر، وألماني واحد، وثلاثة من المصريين.[٨٦] ولكن إلى أي مدى يمكن اعتبار الأرمينيين المتمصرين أرتين وتيجران ورئيس مجلس النظار — الأداة في يد الاحتلال — ممثلين لمصر؟ يظل سؤالًا يبحث عن إجابة.

وأجرى ماسبيرو فحصًا لأوضاع مصلحة الآثار المضطربة، فوجد أن هناك مفتشَين عامَّين بمقر المصلحة بالقاهرة هما: جورج ليجران، وأحمد نجيب، وثمانية من المفتشين المصريين يتصفون بالإهمال لأنهم نادرًا ما يغادرون القاهرة للتفتيش على المناطق التابعة لهم. فقام ماسبيرو بتعيين مفتشَين عامَّين بريطانيَّين هما: كيبل للدلتا وهوارد كارتر للصعيد. وفي عام ١٩١١م، عين ماسبيرو خمسة مفتشين: ثلاثة بريطانيين، وفرنسي واحد، وإيطالي واحد، فتولى بريشيا — مدير المتحف اليوناني الروماني — مسئولية منطقة الإسكندرية الكبرى، وكامبل إدجار الدلتا، وكيبل منطقة سقارة، وليففر منطقة أسيوط، وويجول الأقصر.[٨٧] ولكن ظل التوتر الأنجلو-فرنسي قائمًا، يصل أحيانًا إلى درجة الاحتقان، مثل اصطدام السياح الفرنسيين مع حراس منطقة سقارة التي يشرف عليها كارتر. وحاول ماسبيرو معالجة الأمر بأن يقدم كارتر اعتذارًا، ولكنه رفض، وفضل الاستقالة.[٨٨]

وحظيت حفلة افتتاح النصب التذكاري تخليدًا لماريت في حديقة المتحف (مارس ١٩٠٤م) بتقدير دولي كامل.[٨٩] ففي أوروبا كانت بريطانيا وفرنسا تقتربان من إبرام

---

[٨٦] Maspero, Rapports… 1899 à 1910, v–vi.

[٨٧] Maspero, Rapports… 1899 à 1910, xx–xxii.

[٨٨] حول وجهات النظر الفرنسية، راجع: وثائق الخارجية الفرنسية، مراسلات القنصل العام بالقاهرة إلى الخارجية.

[٨٩] See Pamphlet Cérémonie d’inauguration du monument (IFAO, 1904).

الوفاق الودي الذي تم بعد أسابيع، وكانت إحدى مواده تؤكد أن يكون مدير عام مصلحة الآثار المصرية فرنسيًّا. واستمر الود بين الطرفين قائمًا في عهد السير ألدون جورست (١٩٠٧–١٩١١م) فحصل ماسبيرو على وسام فارس من بريطانيا عام ١٩٠٩م، وعندما استقال كرومر من عمله في مصر وتولى رئاسة «صندوق الكشوف المصرية» جامل فرنسا بوصفها «أم علم المصريات».[٩٠] وعدلت فرنسا عن ادعائها حق الحصول على المسلة الباقية بمعهد الأقصر، وتركت بريطانيا ادعاءها حق الحصول على تمثال رمسيس الثاني الضخم بميت رهينة، وكان محمد علي قد أهداه لكافيجليا، وستون عام ١٨١٨م.[٩١] وأثناء تقاعده، نصح كرومر حكومة بلاده بعدم إقامة معهد بريطاني للآثار في مصر؛ لأن ذلك قد يستثير عداء الفرنسيين، وكذلك «صندوق الكشوف المصرية».[٩٢]

وأدى سقوط عمود ضخم بالكرنك بعد عودة ماسبيرو ببضعة أيام في ١٨٩٩م، إلى تأييد قراره بالتركيز على صيانة الآثار والنشر العلمي، وترك معظم أعمال التنقيب للبعثات الأجنبية.[٩٣] وكان دي مورجان قد أسند إلى ليجران العمل بالكرنك عام ١٨٩٥م، وما زالت «إدارة أعمال الكرنك» مستمرة إلى اليوم باسم «المركز الفرنسي المصري لدراسة وترميم معبد الكرنك»،[٩٤] وسارع ماسبيرو بإصدار «حوليات مصلحة الآثار» التي كان لوريه قد بدأ إعدادها، كما نفذ خطة بوركارد للتعاون الدولي في إعداد «كتالوج عام» للمتحف المصري.[٩٥]

وجاء كتشنر (١٩١١–١٩١٤م) لينهي هذه الفترة من الوفاق في مجال الآثار بمناوراته العنيفة ضد الآثاريين الفرنسيين. وكان كتشنر يهوى جمع الآثار (على عكس كرومر) فأعاد مرة أخرى عهد القناصل جامعي الآثار الذي بدأه سولت قبل ذلك بقرن. وفي العام ١٩١٣م خلق منصب سكرتير عام مصلحة الآثار على أمل أن ينجح في تعيين

---

٩٠ Egyptian Exploration Fund, Report on the 23rd Meeting 1908–1909 (London, 1909), 18.

٩١ David, Maspero, 225–27.

٩٢ FO 633/201 pp. 123–26, 131, 256–57, December 1911.

٩٣ Maspero, Rapports… 1899 à 1910, viii–xxx.

٩٤ C. Traunecker and J.-C. Golvin, Karnak, (Paris, 1989).

٩٥ Maspero, Rapports… 1899 à 1910, xlii, 25.

كيب فيه.[٩٦] وفي ربيع ١٩١٤م أصاب الإرهاق ماسبيرو، فاقترح على كيتشنر اسم من يخلفه من الفرنسيين.[٩٧]

عودة الألمان والطليان

غلب احتكار الفرنسيين والبريطانيين لأعمال التنقيب عن الآثار المصرية في الثمانينيات والتسعينيات، ولكن ما لبث الألمان والأمريكان والطليان أن دخلوا الميدان. وجاءت نقطة التحول في (١٩٠٥–١٩٠٧م) بوصول العديد من البعثات الأمريكية، وتأسيس «المعهد الألماني للآثار». فرغم الطموح الدولي لألمانيا بعد تحقيق وحدتها، ومكانة جامعاتها، وقيادتها لفقه اللغة المصرية، لم يتم ترجمة ذلك كله بتحقيق وجود ألماني دائم بالقاهرة في حقل المصريات إلا بعد ستين عامًا من بعثة ليبسيوس. وقد تم تكريم إيبرس، ودوميشن، وهنريش بروجش، على واجهة المتحف المصري، جنبًا إلى جنب مع ليبسيوس رغم أنهم لم ينظموا بعثات تنقيب ذات بال.[٩٨] أما إستانبول والعراق التابع لها، حيث كان للألمان نشاط في الجيش وبناء الخطوط الحديدية، فقد كانت لألمانيا اليد العليا في مجال الآثار، فكان مدير مصلحة الآثار والمتحف في إستانبول ألمانيًّا في السبعينيات. ولكن ما قام به الألمان من أعمال التنقيب في برجامون عام ١٨٧٨م، وبعد ذلك في بابل، ثم في بوغاز كوى (عاصمة الحيثيين) فيما بعد، أثار حفيظة الفرنسيين.[٩٩]

كان إيرمان يعمل من برلين، ولكن مشروع القاموس المصري العظيم، الذي بدأه عام ١٨٩٥م، كان يحتاج إلى دراسات ميدانية للنقوش، وزاد من الحاجة إلى معهد ألماني للآثار بالقاهرة مثل معهدَي روما وأثينا. وتولت «الجمعية الشرقية الألمانية» التي تأسست عام ١٨٩٨م مسئولية أعمال التنقيب في الشرق الأوسط،[١٠٠] وبدأ لودفيج بوركارد، وفردريش

[٩٦] Grange, “Archéologie”, 369–70.

[٩٧] FO 633/23/p. 36, Maspero to Cromer, 12 May 1914.

[٩٨] On Ebers and Dümichen, see, Who Was Who 3: 136, 131–32.

[٩٩] حول أعمال التنقيب الألمانية والإنجليزية والفرنسية في آسيا الصغرى والعراق والشام، راجع: وثائق الخارجية الفرنسية — أرشيف نانت.

[١٠٠] Volkmar Fritz, “Deutsche Orient-Gesellschaft”; Oxford Ency. of Archaeology in the Middle East, 5 vols. (N.Y. 1957) 2: 146–47.

بيسنج التنقيب في معبد الشمس بأبي جروب في نفس السنة. وفيما بعد، قام بوركارد بالعمل لحساب الجمعية في حفائره بأبي صير، وتل العمارنة. وجمع مشروعه الطموح لإعداد كتالوج علمي لمقتنيات المتحف المصري، علماء المصريات من الألمان، والفرنسيين، والإنجليز، والأمريكان، معًا للعمل في ذلك المشروع.[١٠١] وكان بوركارد — أيضًا — ملحقًا ثقافيًّا بالقنصلية الألمانية بالقاهرة، وعضوًا بلجنة المصريات الحكومية، وتم افتتاح «البيت الألماني» على الضفة الغربية في طيبة عام ١٩٠٤م، وبعد ذلك بثلاث سنوات أصبح بوركارد أول مدير لأعمال المعهد الألماني للآثار في مصر.[١٠٢]

وجاءت الحرب العالمية الأولى لتجهض هذه البداية المبشرة بالخير، فقد فرضت الحراسة على الممتلكات الألمانية، واشتعل بعد الحرب النزاع حول قيام بوركارد بتصدير التمثال النصفي لنفرتيتي دون أن يشعر بذلك أحد. ورفض المصريون السماح بقدوم بعثات تنقيب أثرية ألمانية أو إعادة فتح المعهد الألماني للآثار حتى عام ١٩٢٩م، عندما احتل هيرمان يونكر مكان المنبوذ بوركارد. وكان يونكر ألمانيًّا حصل على الدكتوراه من جامعة برلين، ولكن كان يعمل بجامعة فيينا منذ عام ١٩٠٧م. وقد رعت الأكاديمية البروسية حفائره الأولى بالنوبة، ولكن أكاديمية فيينا رعت حفائره بالجيزة في (١٩١٢–١٩١٤م)، ثم في (١٩٢٥–١٩٢٩م)، وأصبح أستاذًا للآثار المصرية القديمة بالجامعة المصرية في الثلاثينيات، وظل في هذا المنصب حتى عام ١٩٣٩م، رغم اتهام الإنجليز له بالعمل لصالح النازية.[١٠٣]

كانت إيطاليا الوحيدة الباقية من دول ما قبل الحرب العالمية الأولى التي لها تطلعات محتملة في مصر، وكان تولي بوتِّي إدارة المتحف اليوناني-الروماني بالإسكندرية عام ١٨٩٢م انقلابًا ثقافيًّا، وجاءت خلافة بريشيا له عام ١٩٠٤م تأكيدًا لتحول المتحف إلى معقل إيطالي ثقافي. وبينما قام كل من بوتِّي وبريشيا بالتنقيب في الإسكندرية الكبرى عن الآثار اليونانية-الرومانية، امتدت حفائر عالم المصريات الإيطالي — أرنستو شياباريلِّي (١٨٥٦–١٩٢٨م) إلى جميع أنحاء مصر في اثني عشر موسمًا فيما بين (١٩٠٣ و١٩٢٠م)،

---

[١٠١] FO 141/440/206, Reisner to Allenby, 24 September 1921.

[١٠٢] مذكرة بتاريخ ١٧ أبريل عام ١٩٢١م بوثائق الخارجية الفرنسية، نانت بعنوان Note sur la Situation de l’IFAO.

[١٠٣] On Junker, see Who Was Who 3: 222–23.

وكان أشهر اكتشاف له هو مقبرة نفرتاري بوادي الملكات، وقد درس في تورين، وتتلمذ على ماسبيرو، ثم أصبح رئيسًا للقسم المصري بمتحف فلورنسا، ثم بمتحف تورين.[١٠٤]

وقد أثار استخدام الأمير أحمد فؤاد للأساتذة الإيطاليين بالجامعة المصرية قلق القنصلية الفرنسية. وفي عام ١٩٠٩م، حذت إيطاليا حذو الدول الأوروبية الأخرى، فأسست معهدًا للآثار بأثينا، وكان هناك كلام عن النية في إقامة معهد إيطالي للآثار بالقاهرة، ولكن الغزو الإيطالي لليبيا عام ١٩١١م غطى على المشروع الأخير، وأدى إلى إبعاد الإيطاليين من الجامعة المصرية.[١٠٥]

الظهور الأول للأمريكان

لا تظهر أسماء أمريكية على واجهة المتحف المصري بالقاهرة؛ فقد كان إدوارد روبنسون رائد علم آثار الكتاب المقدس منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، كما أن «الجمعية الشرقية الأمريكية» يعود تاريخها إلى عام ١٨٤٢م، ولكن الاتجاه نحو قيام الجامعات الكبرى والمتاحف برعاية علم الآثار جاء بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وفي السبعينيات، انضم أثرياء الصناعة الجدد إلى النخب القديمة المعنية بالديموقراطية في تأسيس متاحف الفنون الكبرى في بوسطن، ونيويورك، وفيلادلفيا. وقام الأمريكان الذين حصلوا على درجات الدكتوراه من الجامعات الألمانية باجتذاب حلقات البحث والمعامل بالكليات الجامعية نحو خلق الجامعة الأمريكية الحديثة.

ونحو نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت بضع جامعات ومتاحف معنية بالشرق الأدنى القديم وعلم المصريات، واستهلت جامعة بنسلفانيا أعمال التنقيب الأثري في نيبور (بالعراق الآن) عام ١٨٨٨م، بعد أن كانت قد أجرت استكشافًا مسحيًّا للرافدين في العام السابق على ذلك العام. وفي عام ١٩٠٧م، قام «متحف بنسلفانيا للآثار والأنثروبولوجيا» — الذي تأسس عام ١٨٩٠م — بمد أعمال التنقيب الأثري إلى مصر. وقامت «جمعية أدب وتأويل الكتاب المقدس» — التي تأسست عام ١٨٩٥م — و«المدارس الأمريكية للبحوث

---

[١٠٤] Who Was Who 3: 377–78.

[١٠٥] Donald Reid, Cairo University and the Making of Modern Egypt (Cambridge, 1990), 38–39.

الشرقية»،[١٠٦] بتجميع الموارد من عدة كليات وجامعات. وفي عام ١٩٠٠م تولت الأخيرة رعاية أعمال البحث في فلسطين.

وكما كانت الحال في فرنسا وألمانيا، سار علم المصريات الأمريكي في طريق ارتاده من قبل علم الآثار الكلاسيكية، فتولى تشارلز إليوت نورتون — الأستاذ بجامعة هارفارد — رئاسة «معهد الآثار الأمريكي» لمدة أحد عشر عامًا، وكان المعهد مهتمًّا بالكلاسيكيات، وتأسس عام ١٨٨٢م، وهو العام الذي شهد افتتاح «المدرسة الأمريكية للدراسات الكلاسيكية»، ثم أقيمت بروما «المدرسة الأمريكية للعمارة» (١٨٩٤م)، و«المدرسة الأمريكية للدراسات الكلاسيكية» (١٨٩٥م). وفي عام ١٩١٣م تم اندماج المدرستين في «الأكاديمية الأمريكية بروما».[١٠٧] وقد استلهم علم المصريات الأمريكي الألمان والبريطانيين أكثر من استلهامه الفرنسيين، إذ توفي اثنان من بين الأمريكان الثلاثة الذين تتلمذوا على ماسبيرو وهما في ريعان الشباب،[١٠٨] وبقي الهاوي الثري تشارلز ويلبور (١٨٣٣–١٨٩٦م) على هامش «المصريات» لعزوفه عن النشر، رغم خبرته، وقضائه موسم الشتاء باستمرار على ظهر دهبيته الفخمة في النيل. وقد درس ويلبور في برلين وباريس.[١٠٩] ولعبت الجامعات الألمانية دورًا في تكوين الجيل الأول من الأمريكيين المتخصصين في «المصريات» في ألمانيا في التسعينيات، ثم بدءوا العمل الميداني في مصر.

ولما كانت بداية «المصريات» متواضعة في الجامعات البريطانية، فقد تأثر المتخصصون بالمصريات من الأمريكان «بصندوق الكشوف المصرية»، وبتري. وجعل أعضاء الصندوق من الأمريكان المتحمسين، من رحلة إميليا إدواردز لأمريكا عام ١٨٨٩م، لإلقاء الخطب حول نشاط الصندوق، رحلة مكللة بالنجاح. وقبل أن تصبح قادرة على إيفاد بعثاتها الأثرية الخاصة بها، لجأت متاحف بوسطن للفنون الجميلة، والمتروبوليتان

---

١٠٦ Bruce Kuklick, Puritans in Babylon: The Ancient Near East and American Intellectual Life 1880–1930 (Princeton, 1996).

١٠٧ Martha Sharp, “Archaeological Institute of America” “Oxford Ency. Of Arch. in the Near East”, 1: 187–88.

١٠٨ Nancy Thomas, ed., The American Discovery of Egypt (Los Angles), 1995, 44.

١٠٩ Who Was Who 3: 62, 265, 351–52.

للفنون، وجامعة بنسلفانيا، وبروكلين، إلى تكوين مجموعاتها من الآثار المصرية من خلال مساهماتها المالية في «صندوق الكشوف المصرية».[١١٠]

وقد حصلت سارة يورك ستيفنسون — أول أمينة (١٨٩٠–١٩٠٥م) لقسم مصر والبحر المتوسط بمتحف جامعة بنسلفانيا للآثار والأنثروبولوجيا — على قطع الآثار المصرية من خلال بتري وصندوق الكشوف المصرية. وقامت بزيارة مصر عام ١٨٩٨م لدراسة إمكانية إرسال بعثة أثرية لمتحف الجامعة. وكتبت تقول: «إن البريطانيين هم حلفاؤنا الطبيعيون» في مجال المصريات، وعرضت اقتراحًا تقدم به يعقوب أرتين لإقامة «محطة علمية لعلماء المصريات والمستشرقين والمتخصصين في الآثار العربية والمسيحية من الأمريكان والبريطانيين» يمكنها أن توفر «تمثيلًا ميدانيًّا للعلم الأمريكي ... فالأمم الأخرى حريصة على ذلك، وتناضل بقوة لتنال نصيبًا من هذه الغنيمة العلمية الغنية، ولكن أمريكا ليس لها وجود هنا».[١١١] ولم يتحقق ذلك إلا عام ١٩٢٤م عندما قام «المعهد الشرقي» بجامعة شيكاغو بإنشاء قاعدة دائمة أمريكية لعلم المصريات على أن مصر، هي «بيت شيكاغو» بالأقصر. ولم يتم إنشاء «مركز البحوث الأمريكي بمصر» بالقاهرة إلا في عام ١٩٥١م.

وتولى الخيرون من أصحاب الملايين رعاية البعثات الأثرية الأمريكية التي قامت بالتنقيب في مصر، وهم: فوب هيرست، وتيودور دافيس، وإكلي برنتون كوكس (الابن)، وجون روكلفر (الابن)، ومؤسسة روكلفر. وقامت فوب هيرست — زوجة جورج هيرست قطب صناعة التعدين، ووالدة وليم راندولف هيرست بارون الصحافة — برعاية بعثة جامعة كاليفورنيا التي قادها ريسنر (١٨٩٩–١٩٠٥م)، وقام تيودور دافيس بتمويل حفائره الخاصة في وادي الملوك (١٩٠٣–١٩١٢م) بمساعدة خبراء من أمثال الإنجليزي بيرسي نيوبري، وآخرين، وقدم كوكس التمويل اللازم لبعثات متحف جامعة بنسلفانيا حتى وفاته عام ١٩١٦م، وتولى جون روكلفر (الابن)، ومؤسسة روكلفر تمويل حفائر برستد، والمعهد الشرقي الذي أسسه بجامعة شيكاجو.

وبدأ ريسنر التنقيب في مصر عام ١٨٩٩م، ودافيس عام ١٩٠٣م، ولكن الفترة (١٩٠٥–١٩٠٧م) شهدت انطلاق العمل الميداني الأمريكي على أيدي بعثات من هارفارد

[١١٠] James, Excavating, 23–24.

[١١١] University of Pennsylvania, University Museum Archives, Curatorial Files, Box 1.

— بوسطن (ريسنر)، ومتحف المتروبوليتان للفنون (ليثجو، ثم لحق به هربرت ونيلوك)، ومتحف بروكلن (هنري دي مورجان)، ومتحف جامعة بنسلفانيا (دافيد راندول ماكلفر، ثم كلارنس فيشر). وكان برستد يعمل ميدانيًّا لحساب شيكاغو في المسح الفوتوغرافي للنوبة (١٩٠٥–١٩٠٧م)، فقد أصر على أن تسجيل النقوش المعرضة للضياع مهمة عاجلة تفوق أعمال التنقيب من حيث الأهمية. وفي عام ١٩٠٧م — أيضًا — بدأ نورمان وأنَّا دي جاريس ديفز في تسجيل مقابر طيبة لحساب قسم النقوش بمتحف المتروبوليتان للفنون.

وانتهت أعمال بعثة بروكلين، وبعثة شيكاغو لمسح النوبة عام ١٩٠٧م بعد موسمين من العمل، ولكن بعثات هارفارد-بوسطن، ومتحف المتروبوليتان للفنون، ومتحف جامعة بنسلفانيا، استمرت حفائرها حتى الثلاثينيات من القرن العشرين، تخللتها فترات توقف قليلة. وقد أصبح معسكر هارفارد (ريسنر) بالجيزة، وبيت متحف المتروبوليتان، وبيت شيكاغو بالأقصر من العلامات المميزة المألوفة في حقل الآثار بين الحربين العالميتين.

وبرع كل من ليثجو، وبرستد، وريسنر في أحد مجالات المصريات. فقد كان ليثجو أول أمين لقسم الفن المصري بمتحف بوسطن للفنون الجميلة (١٩٠٢م) ومؤسسًا لقسم الفن المصري بمتحف المتروبوليتان (١٩٠٦–١٩٢٩م). وتميز برستد كعالم ومعلم وإداري. وكان كرسي أستاذية المصريات بجامعة شيكاغو الذي شغله عام ١٩٠٥م، أول كرسي للمصريات بأمريكا، وأصبح المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو الذي أسسه بتمويل من روكفلر، وافتُتح عام ١٩١٩م، مركز المصريات ودراسات الشرق الأدنى. وجمع ريسنر بين الأستاذية بهارفارد، وأمانة قسم الفن المصري بمتحف بوسطن للفنون الجميلة، ولكنه اكتسب شهرته من براعته في التنقيب وتفوقه على بتري في الأساليب الفنية للعمل، ولم يقبل بأن يكون هدف العمل تجميع الآثار للمتاحف، ولكن التنقيب في جبَّانات كاملة، والحفر في الطبقات الواحدة تلو الأخرى حسب الترتيب الزمني، مع تسجيل كل خطوة بالرسم والتصوير الفوتوغرافي ونشر التقارير العلمية التي تتضمن الإيضاحات.[١١٢]

وفي مذكرة مشهورة، عرض القنصل العام الأمريكي فردريك بنفيلد — عام ١٩٠٩م — أن يتحمل نفقات نقل المسلة الباقية بمعبد الأقصر إلى وسط القاهرة؛ لأنه يجب أن تكون بالقاهرة مسلة كما في لندن، وباريس، ونيويورك، وروما، وإستانبول؛ لأن المسلة

١١٢ Michael Hoffman, Egypt Before The Pharaohs: The Prehistoric Foundations of Egyptian Civilization (Austin, 1991), 250–254.

بالأقصر لا يراها إلا عدد قليل من السياح كل شتاء، فإذا نقلت إلى القاهرة «لن يشاهدها الزوار الأجانب وحدهم، بل سيشاهدها أعداد غفيرة من سكان البلاد كل يوم في غدوهم ورواحهم»، وقد رفض مجلس النظار العرض استنادًا إلى آراء الآثاريين.[١١٣]

أعمال أحمد كمال

> «لم يبلغ المصريون بعدُ درجة كافية من الحضارة حتى يهتموا بالحفاظ على آثارهم القديمة ... وليس لديهم شعور — أي درجة من درجات الشعور — بالذنب ترتبط بهذا الجرم الذي يعد ذنبًا مغفورًا ... نقول للمصريين: إننا حكومات متحضرة، لذلك نهتم بآثاركم القديمة. فإذا تظاهرتم بأنكم أمة متحضرة، فإن عليكم الاهتمام بها أيضًا.»
>
> من حديث للورد كرومر، جاء في:
> William Welch Jr., No Country for a Gentleman

هذه الملاحظات التي ينحى بها كرومر باللائمة على المصريين، تتجاهل نضال أحمد كمال من أجل جعل علم المصريات للمصريين، في جو استعماري عدواني. حمل أحمد كمال على كاهله مهمتين: تكوين نفسه تكوينًا علميًّا جادًّا في حقل المصريات، وحث أبناء وطنه على تعريف أنفسهم في إطار مصر القديمة. وجاءت بحوثه المنشورة بالفرنسية لخدمة المهمة الأولى، أما ما نشره بالعربية فكان لخدمة المهمة الثانية. وقد أبدى ماسبيرو احترامه لأحمد كمال بضمه إلى الفريق الدولي الذي تولَّى إعداد «الكتالوج العام» للمتحف المصري. وقد أنجز أحمد كمال مجلدات عن اللوحات البطلمية والرومانية، وعن منصات القرابين، ومنحته مصلحة الآثار مكافأة قدرها مرتب شهر (٣٣ جنيهًا بالنسبة له) عندما نشر المجلد الأول.[١١٤]

---

[١١٣] دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار ١٨٩١–١٩٢٢م، ب/٢/٤، بتاريخ ١٣ فبراير عام ١٩٠١م.

[١١٤] دار الوثائق القومية، محفوظات مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، ١٨٩١–١٩٠٧م، ب/٣/٤، بتاريخ ١٠ يونيو عام ١٩٠٥م.

وقد نشر أحمد كمال تسعة وعشرين مقالًا بالفرنسية بحوليات مصلحة الآثار خلال سنواتها العشر الأولى؛ أي ما يزيد على ضعف ما قام بنشره زملاؤه المصريون، فلم ينشر زميله في الدراسة أحمد نجيب سوى أربعة مقالات في بضع سنوات منذ صدور المجلة حتى تقاعده. كذلك نشر اثنان من تلاميذ أحمد كمال السابقين (خريجي مدرسة الآثار ١٨٨١–١٨٨٥م) أحدهما محمد شعبان، الذي نشر خمس مقالات في عشر سنوات، وما يزيد عليها قليلًا في السنوات العشر التالية.[١١٥]

ومعظم تلك المقالات عبارة عن مذكرات وتقارير قصيرة حول ملاحظات التفتيش على المواقع الأثرية، وجهود محاربة التنقيب العشوائي، وأحيانًا كان أحمد كمال ينشر تقريرًا عن متابعة الحفائر، وكان هذا هو كل ما يستطيع عمله في وقت كان فيه الغربيون يفتحون الأهرام، ويحفرون في مناطق هامة مثل الجيزة، وسقارة، والكرنك ووادي الملوك، وقد رفض أحمد كمال — من حيث المبدأ — إصدار تصاريح التنقيب لغير المتخصصين في المصريات، ومن لا يمثلون متحفًا أو مؤسسة علمية. وأقر بأن ذلك يعني استبعاد المصريين من التنقيب، ولكن هؤلاء كانوا يبحثون عن الكنوز ولا تحركهم «النزعة العلمية».[١١٦]

ولم تكن الأعمال العربية التي نشرها أحمد كمال معروفة لزملائه الغربيين. ويبدو أنه افترض وجود متخصصين، وطلاب، ومهتمين بالمعرفة من بين قراء العربية، غير أن فئة المتخصصين من القراء كادت أن تكون موجودة.

وكان جانب من أعمال أحمد كمال العربية، ترجمة عن اللغة الفرنسية على طريقة الطهطاوي ومدرسته. وكان انتقال المتحف إلى الجيزة يعني أن ترجمة عبد الله أبو السعود لدليل المتحف الذي وضعه مارييت قد أصبحت عديمة الجدوى، وقام كمال بترجمة الدليل الجديد الذي وضعه دي مورجان إلى العربية في (١٨٩٢–١٨٩٣م)، وبعد ذلك بعقد من الزمان، عندما انتقل المتحف — مرة أخرى — إلى موقعه الحالي، ترجم أحمد كمال الدليل الجديد الذي وضعه ماسبيرو، ولم يكن ذلك عملًا هينًا، فقد جاء النص العربي والصور

١١٥ أسهم من المصريين الآخرين في مجلة حوليات مصلحة الآثار: حسن حسني، وصبحي عارف، وحكيم أبو سيف، ومحمود رشدي، وتوفيق بولس، وجرجس إلياس.

١١٦ Maspero, Rapports… 1899 a xxx–xxxi.

الملحقة به في ٧٨٨ صفحة، كذلك قام أحمد كمال بترجمة الدليل الذي وضعه بوتِّي للمتحف اليوناني-الروماني، وجاءت الطبعة العربية في ٦٣٩ صفحة.[١١٧]

وبحلول عام ١٩١٥م، كان قد صدر من دليل ماسبيرو أربع طبعات فرنسية، وخمس إنجليزية، ولكن لم تتكرر طباعته بالعربية،[١١٨] فهل كان ذلك يمثل فجوة في الاهتمام النسبي بالآثار عند الأوروبيين والمصريين، أو جاء تعبيرًا عن ترتيب الأولويات عند مصلحة الآثار المصرية التي يديرها الأجانب؟ لقد رأينا من قبل شهادة جريبو عن إقبال المصريين على زيارة المتحف في جماعات كبيرة، وحذر دليل بايدكر السياح قراءه من زيارة المتحف يوم الثلاثاء؛ لأن رسم الدخول المنخفض (خمسة قروش) يجلب حشودًا من «الزوار العرب من الطبقات الدنيا»، وجرب ماسبيرو السماح بالدخول المجاني في فصل الصيف بعيدًا عن الموسم السياحي، وعندما نتج عند ذلك اندفاع الحشود وقيام البعض بحك أجسامهم بالآثار اعتقادًا منهم أنها تشفي بعض الأمراض، عدل ماسبيرو عن ذلك، وقرر رسم دخول قدره قرش واحد في موسم الصيف.[١١٩]

وألف أحمد كمال كتابًا بالعربية عن عين شمس القديمة قبل أن يتولى وظيفته الأولى بالمتحف. وعندما تولَّى التدريس بمدرسة الآثار المتواضعة في أوائل الثمانينيات، ألف كتابين آخرين بالعربية: تاريخ مصر القديم، وقواعد الهيروغليفية. ولسوء الحظ أغلقت المدرسة في نفس السنة التي صدر فيها الكتاب الأخير. وألف أيضًا كتابًا بالعربية عن منف، ومجلدًا ضخمًا عن الحرف وغيرها من مظاهر الحياة في مصر القديمة، ودليلًا مطولًا عن النباتات المصرية. وقد زود كتبه برسوم لمناظر المقابر، والنصوص الهيروغليفية، وقدم قراءة لها بالحروف العربية، ثم قدم ترجمة عربية للنص، ولعل أحمد كمال كان يتوقع قراء عربًا يمكن مقارنتهم بالقراء الأنجلو أمريكيين الذين أقبلوا على كتاب ويلكنسون

[١١٧] أحمد كمال، (مترجم)، الخلاصة الوجيزة ودليل المتفرج بمتحف الجيزة (القاهرة، ١٣٠١هـ)، ودليل دار التحف المصرية بمدينة القاهرة (القاهرة عام ١٩٠٣م)، والخلاصة الدرية في آثار متحف الإسكندرية (القاهرة ١٣١٠هـ / ١٩٠١م).

[١١٨] Maspero, L'Egyptologie (Paris, 1915), 25–26.

[١١٩] Baedeker, Baedeker's Egypt (Leipzig, 1897), 95.

«عادات وتقاليد قدماء المصريين» الذي شاع لعدة عقود، قبل أن تصبح الكتابة عن مصر في يد المتخصصين، وتنتشر أعمالها.[١٢٠]

ويصف أحمد كمال في أحد كتبه رحلة قام بها مع طلبة دار العلوم إلى الصعيد «لمعالجة عجز أبناء الوطن» عن تقدير قيمة الآثار، ألف أحمد نجيب كتابًا عن مصر القديمة بتكليف من نظارة المعارف. وتضمن الكتاب نصًا هيروغليفيًّا لقصة، وقراءة لها بالحروف العربية، ثم ترجمة عربية للنص أسفل كل سطر من سطور النص. كما كتب أحمد نجيب تقارير عن أحداث الحفائر التي قام بها دي مورجان.[١٢١]

وبعد عام ١٩٠٠م نال أحمد كمال اعترافًا بكفاءته العلمية بعد جهد مضن. فقد أصبح معروفًا في الأوساط الأوروبية من خلال كتاباته في مجلة حوليات مصلحة الآثار، وعمله في «الكتالوج العام» للمتحف. وأدى اختياره عضوًا بالمجمع العلمي المصري إلى اتساع دائرة اتصالاته، وزودوه بأداة جديدة لينشر أعماله.

وساعدته المحاضرات التي كان يلقيها بنادي طلبة المدارس العليا فيما بين (١٩٠٦ و١٩٠٨م)، والتي كانت تجتذب حضورًا كثيفًا، على أن يبث أفكاره بين الطلاب وخريجي المدارس العليا. وقد تأسس النادي عام ١٩٠٥م، وكان عدد أعضائه ٢٤٠ عضوًا، ثم قفز العدد إلى ٧٧٤ عضوًا عام ١٩٠٩م، وهي السنوات التي شهدت علو مد المعارضة ضد الإنجليز وخاصة ضد المحاكمات التعسفية في دنشواي، ورحيل كرومر، وظهور الأحزاب السياسية، ووفاة الزعيم الوطني مصطفى كامل، وتأسيس الجامعة المصرية الأهلية.[١٢٢]

وفي عام (١٩٠٨–١٩٠٩م)، نال أحمد كمال فرصة تدريس مادة تاريخ مصر القديم بالجامعة المصرية الجديدة، ولا شك أن ماسبيرو — الذي كان عضوًا بمجلس الجامعة —

---

[١٢٠] من أعمال أحمد كمال العربية غير ما ذكر آنفًا: ترويح النفس في مدينة الشمس (القاهرة ١٨٧٩م –؟؟؟؟)، والعقد الثمين في محاسن أخبار وبديع آثار الأقدمين من المصريين (القاهرة ١٨٨٢-١٨٨٣م)، والفرائد البهية في قواعد اللغة الهيروغليفية (القاهرة ١٨٨٥-١٨٨٦م)، والدر النفيس في مدينة منفيس (١٩١٠م)، وبغية الطالبين في علوم وعوايد وصنائع وأحوال قدماء المصريين (١٣٠٩هـ)، واللآلئ الدرية في نباتات وأشجار القدماء المصريين (١٣٠٦هـ).

[١٢١] أحمد نجيب، القول المفيد في آثار الصعيد، والآثار الجليلة لقدماء وادي النيل (القاهرة عام ١٨٩٥م)، وعن أحمد نجيب، راجع: إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة (القاهرة عام ١٩٢٨م)، ٤٠٢.

[١٢٢] حول محاضرات أحمد كمال، راجع: حبيب «تاريخ الكشف»، ١٣٧.

رشحه للتدريس، وقامت الجامعة بنشر محاضرات أحمد كمال التي غطت تاريخ مصر القديم حتى الأسرة الخامسة عشرة.[١٢٣] واستهل أحمد كمال كتابه بالبسملة والصلاة على النبي محمد، وقدم تبريرًا لنشر الكتاب، وبدأ بالحديث عن عصر ما قبل التاريخ، ولاحظ أن هناك اختلافًا بين الأوروبيين حول أصل البشر، وما إذا كانوا قد انحدروا من نسل آدم وحواء أم كانوا ثمرة تطور من الحالة الحيوانية، وما إذا كانت جميع الحضارات ذات أصل واحد.

وقد اهتمت الجامعة بنشر محاضراته؛ لأن «الأمم المتقدمة — كالعرب في عصر العباسيين، والأوروبيين منذ عصر النهضة، والآن أمريكا واليابان — استفادوا من حكمة مصر في عصر الجاهلية، وهو موضوع ما زال مجهولًا عندنا.»[١٢٤] وإذا كان الأجانب يأتون زرافات ووحدانًا لمشاهدة الآثار الفرعونية، فإنه يجب على المصريين أن يقدروا «تراث وطنهم العزيز». وأبدى افتخاره بأن الكهنة المصريين نظروا إلى اليونان نظرتهم إلى الأطفال، وأن الإغريق أشادوا بمصر باعتبارها مصدرًا للكتابة، والفلسفة، والقانون، والفنون والحضارة.[١٢٥]

وكانت المصادر الثانوية التي استخدمها أحمد كمال تتضمن أعمال بروجش، وليبسيوس، وماربيت، وشاباس، وماسبيرو، وهيرودوت، ومانيتو، وديودور الصقلي. كما أشار إلى عمل علي مبارك عند حديث عن النيل، ولكنه أهمل ما ذكره مبارك عن الأهرام نقلًا عن المصادر العربية.

وقد سار أحمد كمال على نهج الطهطاوي، وماربيت من حيث اتباع التحقيب الزمني الطويل، فوضع الملك مينا الذي ذكره مانيتو عند العام ٥٦٢٦ بالسنوات الشمسية قبل الهجرة (٥٠٠٤ق.م.). وفي كتاب تاريخ مصر القديمة الذي نشره أحمد كمال عام (١٨٨٢–١٨٨٣م) حدد الحوادث بالتقويم الشمسي قبل الهجرة كما في الكتب الدراسية عند الطهطاوي، وماربيت، ولكن عند نشر كتابه الذي أصدرته الجامعة كان استخدام تواريخ ما قبل الميلاد شائعًا، فلم يعد أحمد كمال يستخدم تاريخ ما قبل الهجرة.

[١٢٣] أحمد كمال، الحضارة القديمة، المجلد الأول (القاهرة عام ١٩١٠م)، ويبدو أن المجلد الثاني لم ينشر.

[١٢٤] أرشيف جامعة القاهرة، ب/ف، محاضر اللجنة الفنية، ٢ مايو عام ١٩٠٨م.

[١٢٥] أحمد كمال، الكنز الثمين في محاسن أخبار وبدائع القدماء المصريين، ٣، ٤.

وقد رتب فصول كتاب محاضراته بالجامعة على أساس موضوعات: النيل، والبيئة على ضفتيه وفي الدلتا، والدين، والتقسيمات الجغرافية إلى ولايات، والنظام الاجتماعي والسياسي، واللغة ونظام الكتابة، وشامبليون، وفك رموز الهيروغليفية. أما الفصول التي رتبت على أساس الحقب الزمنية، فتناولت الأسرات واحدة تلو الأخرى، وحكمًا تلو الآخر، مستقيًا مادته من الآثار وخراطيش الملوك. وقطع تسلسل تلك الفصول بأخرى لموضوعات مثل: «التجارة في عصر منف»، و«الفن المصري القديم».

وكان أهم إنجاز قام به أحمد كمال هو إقناع نظارة المعارف بافتتاح قسم للآثار المصرية القديمة بمدرسة العلمين العليا عام ١٩١٠م، حيث قام بالتدريس مرتين أسبوعيًّا لسبعة طلاب. أخذهم إلى المتحف المصري، وقادهم في جولة بين آثار الصعيد. وتخرجت الدفعة الأولى عام ١٩١٢م، والتحقت دفعة جديدة بالقسم.[١٢٦]

وعلى جبهة أخرى، قام أحمد كمال وماسبيرو بتشجيع السلطات الإقليمية على إنشاء متاحف صغيرة بالمديريات. وقد وافق ماسبيرو ولجنة الآثار لأحمد خشبة باشا — أحد أعيان المديرية — بالتنقيب عن الآثار بجوار أسيوط، وقد ذهب بعض ما تم العثور عليه من آثار إلى المتحف المصري بالقاهرة، وشجع على الاحتفاظ بما تبقى من الآثار لإنشاء متحف محلي. وقد أنشأت بلدية طنطا متحفًا بتشجيع من مصلحة الآثار (عام ١٩١٣م)، وقررت المنيا أن تحذو حذوها.[١٢٧]

مصر القديمة في مطلع القرن العشرين – الوعي الوطني

كما رأينا من قبل، اختارت مجلة «السمير الصغير» عام ١٨٩٩م شعارًا لصفحة العنوان يمثل فلاحة توجه أولادها نحو «نور المعرفة»، الذي يبرز فوق الأهرام وأبي الهول، بينما الخديو وأربعة من رواد التعليم يشكلون إطارًا لهذا المشهد (انظر الشكل ٧). ورغم أن ذلك يكاد يمثل نظرة المصريين للعالم في ذلك الوقت، فإنه يبين أن أحمد كمال لم يضع وحده قواعد الانتساب إلى مصر القديمة الذي شاع في العشرينيات من القرن العشرين.

كان الاقتصار على استخدام طوابع البريد التي حملت الأهرام وأبي الهول على الخطابات المرسلة من مصر إلى بلاد الغرب في الفترة (١٨٦٧–١٩١٤م)، توحي هناك

[١٢٦] المقتطف ٦٣ (١٩٢٣م)، ٢٧٥–٢٧٦.

[١٢٧] Alain Roussillon, Entre Réforme Sociale… 344–45.

بارتباط خدمة البريد، وكذلك مصر بالآثار المصرية (انظر الشكل ٢٢). وعندما قامت الحكومة المصرية الخاضعة للاحتلال البريطاني — في يناير ١٩١٤م — بإصدار طوابع بريد متنوعة التصميم، عكست ستة من بين عشرة تصميمات للآثار القديمة. وحملت أوراق النقد (البنكنوت) التي أصدرها البنك الأهلي المصري فيما بين ١٨٩٩م والحرب العالمية الأولى مناظر أبو الهول، والأهرام، ومعبد فيلة، بين ما حملته من مناظر أخرى.[١٢٨] ولكن العملات التي كانت تمثل رمز السيادة في العالم الإسلامي، اتسمت بالتحفظ. فحتى العام ١٩١٤م، ظلت تحمل طغراء السلطان العثماني، ونقوش أخرى بالخط العربي، مع زخارف نباتية أو هندسية.

وربما كان الخيار الأصلي لتصميمات طوابع البريد وأوراق النقد أوروبيًّا أكثر من كونه مصريًّا. فقد كان الإيطاليون أول من أسس خدمة البريد بمصر، كما أن حملة الأسهم من البريطانيين سيطروا على البنك الأهلي المصري، كما انفرد البريطانيون باتخاذ القرارات الهامة في مصر فيما بين (١٨٨٢ و١٩٢٢م). غير أن هذه الرموز التي طال أمدها، كان لها أثرها، فما زالت طوابع البريد وأوراق النقد في مصر المستقلة تبرز الرموز الفرعونية حتى اليوم.

وقد حرص حكام مصر على الظهور بمظهر حماة الآثار الفرعونية، على الأقل منذ صدور أمر محمد علي عام ١٨٣٥م، وعلى مدى القرن، قاموا بزيارات للمواقع الأثرية ضمن برامجهم الاحتفالية. فقام الخديو توفيق في مطلع عام ١٨٨٠م عشية توليه الحكم بزيارة استعراضية للصعيد ضمت موكبًا كبيرًا من ثلاث بواخر وعدد من القوارب المعاونة، وتوقف لزيارة عواصم الأقاليم وأعيانها على طول الطريق، كما زار معابد دندرة، وإسنا، وجزيرة فيلة، والأقصر، والكرنك.[١٢٩] وفي عام ١٨٨٦م، حضر احتفالًا بمتحف بولاق بمناسبة عرض مومياء أحد فراعنة الدولة الوسطى.[١٣٠]

---

١٢٨ “Egypt”, Scott 1991 Standard Postage Stamp Catalogue (Sydney, Ohio, 1990) 2: 86; Standard Catalog Of World Paper Money, vol. 2, General Issues to 1960 (Iola, Wis., 1996), 373–74.

١٢٩ Alfred J. Butler, Court Life in Egypt (London, 1887), 8–31.

١٣٠ James Baikie, A Century of Excavation in the Land of the Pharaohs, (London, n.d.), 161–62.

وجاءت زيارة توفيق للصعيد ١٨٩٠م على متن باخرة كوك، في صحبة سياح من الأمريكان. وكانت المحطة الأولى البدرشين لزيارة آثار منف وسقارة. أما محطات الآثار التالية فشملت دندرة، والكرنك، ووادي الملوك، والرمسيوم، وإسنا، وإدفو، وكوم أمبو، وأسوان، وفيلة. وقد ناقش مع حاشيته سبل تنمية السياحة من خلال شركة كوك.[١٣١] وفي العام التالي اصطحب توفيق مدير عام مصلحة الآثار جريبو في رحلة نيلية فيما بين الشلال الأول ووادي حلفا (انظر الشكل ٣٦).[١٣٢]

ونظم كوك رحلة مجانية لطلبة دار العلوم ضمت ٥٠ طالبًا على متن الباخرة «عباس»، لزيارة الصعيد وآثاره، أملًا في أن تحظى الشركة في عهد عباس الثاني بالرعاية الخديوية، كما كانت الحال في عهد أبيه. وعندما مرت باخرة الطلاب بجوار باخرة جون كوك، صعد الأخير على متنها وألقى على الطلاب كلمة جاء فيها:

«لقد التقيت الخديو الراحل، ووجدته مستاءً؛ لأن المصريين يتلقون تعليمًا جيدًا، يؤهلهم لشغل الوظائف الكبرى، ولكنهم مع مرور الزمن لا يقومون بزيارة الآثار القديمة، وقال لي: إن القليل من المصريين يقومون بالسياحة في بلادهم، بينما نرى السياح يأتون من أمريكا وأوروبا هذه الآثار ... لذلك يجب أن تعرفوا تاريخ أجدادكم وتمارسوا حياتكم العملية أسوة بهم ...»

وخصص كوك أفضل تراجمته — الحاج محمد أبو عليوة — لمرافقة الطلاب في هذه الرحلة.[١٣٣]

وقد أشرنا فيما سبق إلى قيام عباس الثاني بوضع حجر الأساس، ثم افتتاح كل من المتحف اليوناني-الروماني بالإسكندرية، والمتحف المصري بالقاهرة، وقد فعل نفس الشيء بالنسبة لمتحف الفن العربي. ومنذئذٍ حرص كل حاكم مصري على الظهور بمظهر حامي التراث الفرعوني والإسلامي.

وعبَّر رجلان نُفيا من مصر عن الحنين للوطن من خلال الإشادة بماضي مصر الفرعوني، رغم انحدارهما من أصول تركية-شركسية، هما: محمود سامي البارودي، والأمير إبراهيم حلمي. كان البارودي رئيسًا لمجلس وزراء الثورة العرابية، وقضى سبعة

---

[١٣١] أحمد شفيق، مذكراتي، ١: ٥٠٢–٥٠٩.

[١٣٢] الأرشيف الفرنسي، وثائق الخارجية، نانت، ١٦ فبراير عام ١٨٩١م.

[١٣٣] Thomas Cook Archives, Egypt (General), Nile fleet/153.

عشر عامًا في المنفى بسيلان، وعبر في أشعاره عن حنينه لمصر ذاكرًا الجيزة والأهرام وتحديها للزمن، شاهدة على عظمة بُناتها، ويشهد العالم بخلودها.[١٣٤]

أما الأمير إبراهيم حلمي فكان خريج الأكاديمية العسكرية الملكية (وولوتش)، وشارك الخديو إسماعيل منفاه في إيطاليا، ونشر عام ١٨٨٦م كتابًا بالإنجليزية بعنوان: «أدب مصر والسودان من العصور القديمة حتى عام ١٨٨٥م»، ورتب قائمة المصادر ترتيبًا أبجديًّا حسب الموضوع والمؤلف، وشملت تلك القائمة المصادر العربية والمراجع بمختلف اللغات الأوروبية التي تناولت جميع العصور، وأهدى الكتاب إلى «الخديو إسماعيل»، وقد جاء بمقدمة الكتاب:

«إن المعرفة المصرية بجميع فروعها كانت ذات قوة جذب ساحرة لكل مؤلف شهير، في كل عصر من العصور، وسواء كانت مناسبة هذا الافتتان حكمة وردت في التعاليم الهيروغليفية لكتاب الموتى، أو تتعلق بمقولة تتصل بمسألة اجتماعية أو اقتصادية، فهناك دائمًا معلومات مثمرة عن خلاصة المعرفة الفرعونية، يقع عليها من يعرف كيفية الوصول إليها.»[١٣٥]

كذلك لعب النفي عقابًا على تأييد الثورة العرابية، دورًا في شحذ الشعور بالهوية المصرية عند محمد المويلحي، فعندما عاد من منفاه، كتب «حديث عيسى بن هشام، أو فترة من الزمان» نشرها منجمة على صفحات جريدة «مصباح الشرق» التي أسسها مع والده إبراهيم المويلحي عام ١٨٩٨م. وفي ذلك العمل يصطحب الراوية الخيالي أحد الباشوات من أيام محمد علي في رحلة في مصر وأوروبا، معلقًا على مظاهر التغير الذي حدث في الحياة والمجتمع، بما في ذلك الموقف من الآثار،[١٣٦] وقد ظهر العمل في شكل كتاب عام ١٩٠٥م، وأعيد نشره فيما بعد.

وضمَّن المويلحي آراءه هذا العمل التخيلي، فعند وصفه لزيارة الهرم، يطرح العديد من الآراء: فالأهرام دليل على عظمة حضارة مصر القديمة، وهي رمز للاستعباد والطغيان،

[١٣٤] Mounah A. Khouri, Poetry and the Making of Modern Egypt (1882–1922) (Leiden, 1971), 20.

[١٣٥] Prince Ibrahim Hilmy, The Literature of Egypt and the Soudan From the Earliest Times to the Year 1885, 2 vols. (London, 1886) 1: vi.

[١٣٦] محمد المويلحي، حديث عيسى بن هشام.

وهي مكان للمرح والرقص الفاحش، وهي، مصدر رزق للبدو الذين يتعيشون على الأهرام وابتزاز السياح. وعند وصفه لزيارة المتحف المصري — وكان عندئذٍ بالجيزة — يطرح الفكرة القائلة بأن الآثار تقوم شاهدًا على عظمة مصر الفرعونية، ويبدي أسفه لعدم وجود كتب بالعربية تحمل هذه الرسالة، ويقدم شخصية أخرى ترى في تلك الآثار أشياء بالية لا نفع منها سوى بيعها للأجانب، ولا يقبل انتسابًا لغير العرب الكرام، وينتقد إنفاق الملايين على الحفائر الأثرية وإقامة المتاحف في بولاق والجيزة، والمتحف الجديد الذي كان لا يزال في مرحلة البناء.

وجاء نفي الشاعر أحمد شوقي فيما بعد، عندما خلع عباس حلمي الثاني من منصبه، وكان شوقي من حاشيته يلعب دور شاعر القصر. وقد ألقى قصيدة أمام مؤتمر المستشرقين الدولي بجنيف عام ١٨٩٤م تناول فيها أحداث وادي النيل، مشيدًا بعظمة الفراعنة والبطالمة إلى جانب مجد الإسلام. ونوه بالوحدانية على يد موسى وعيسى ومحمد، ولكنه أشاد أيضًا بإيزيس، ووضع الهكسوس، والفرس، والرومان، والصليبيين في مصاف الغاصبين الذين ما لبثوا أن أزيحوا من البلاد.[١٣٧]

ولم تكن أعمال أحمد كمال، وأحمد نجيب هي وحدها في متناول قراء التاريخ، بل كانت هناك كتب عامة كتبها غير المتخصصين، مثل أحمد حسن الذي كتب تاريخًا عامًّا لمصر حتى الفتح العربي (١٨٨٨م)، وحسين زكي مؤلف كتاب «تاريخ الشرق القديم» (١٩٨٢م) الذي خصص مجلدًا لكلٍّ من مصر القديمة، والعراق وبابل، وفارس، وميديا، ومملكة صور.[١٣٨] وإسماعيل سرهنك، مؤلف كتاب «حقائق الأخبار عن دول البحار»،[١٣٩] وهو كتاب في تاريخ العالم يركز على الشئون البحرية خصص المجلد الثاني لمصر، كان نصيب العصر الفرعوني منه ثماني عشرة صفحة فقط من مينا إلى الإسكندرية، وتسعة عشر صفحات أخرى من الإسكندر حتى الفتح الإسلامي. واستخدم سرهنك مراجع عربية وأوروبية من بينها مانيتو، وعبد اللطيف البغدادي، وماربيت، وكذلك أحمد نجيب «الأثر الجليل».

---

[١٣٧] أحمد شوقي، الأعمال الشوقية الكاملة. ٤ أجزاء في مجلدين (بيروت عام ١٩٨٨م).

[١٣٨] أحمد حسن، لب عن التاريخ العام (القاهرة عام ١٨٨٨م)؛ حسين زكي، تاريخ الأمم القديم (القاهرة عام ١٨٩٢م)؛ إلياس سركيس، معجم المطبوعات، ٣٨٢، ٧٧.

[١٣٩] إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ٣ مجلدات (القاهرة عام ١٨٩٥–١٩٢٣م).

وقدم ميخائيل شاروبيم (١٨٥٣–١٩٢٠م)[١٤٠] «الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث» تفاصيل أكثر مما جاء في سرهنك عن مصر القديمة، فعالج حكم الأسرات الثلاثين حتى الإسكندر في ١٧٨ صفحة مكتظة الأسطر. وشاروبيم قبطي قاهري، التحق في سن الرابعة عشرة بقسم المطبوعات الإفرنجية بنظارة المالية، وعمل قاضيًا بالمحاكم الأهلية، وتقاعد عام ١٩٠٣م. وتناول المجلد الأول من كتابه مصر القديمة من نوح حتى الفتح العربي، وتناول المجلد الثاني الفترة من الفتح العربي حتى الغزو العثماني عام ١٥١٧م، والثالث من بداية الحكم العثماني حتى تولية محمد علي، والأخير من محمد علي حتى وفاة توفيق.

ويشبه المجلد الأول من كتاب شاروبيم كتاب «أنوار توفيق الجليل» للطهطاوي من حيث الترتيب، والنطاق، والمحتوى: فكلاهما يغطي تاريخ مصر حتى الفتح العربي. ويقدم شاروبيم في الصفحتين الأوليين معلومات مستقاة من الإنجيل عن آدم، ونوح، والطوفان، واستقرار حام بن نوح في أفريقيا، ثم مصرائيم بن حام الذي أعطى اسمه لمصر، وهو الاسم الذي عرفت به في اللغات السامية. وكما فعل الطهطاوي، قام شاروبيم بالربط بين قصص الإنجيل، ومينا الذي ذكره مانيتو «الذي يقال: إنه مصرائيم الذي ورد ذكره بالتوراة».[١٤١] ويورد شاروبيم ما ذكره ليبسيوس، وهنريش بروجش، ومحمود الفلكي عن عمر الأهرام والغرض من بنائها،[١٤٢] واستخدامه لعمل الفلكي يعزز جهد العلماء المصريين المحدثين في البحث في مصر القديمة. ويقدم شاروبيم تواريخ ما قبل الهجرة (مقدرة بالتقويم الشمسي)، ولكنه يضيف إلى جانبها تواريخ ما قبل الميلاد على عكس ما فعل الطهطاوي. ومثلما فعل الطهطاوي، تناول شاروبيم الأسرات الثلاثين التي ذكرها مانيتو، ثم الإسكندر، فالبطالمة، والروم البيزنطيين، ثم الفتح الإسلامي، ويقطع السرد بإيراد مقالات في موضوعات محددة.

ويورد شاروبيم ما ذكره يوسيفيوس من أن المؤرخين الإغريق لا يذكرون «ما جاء بالكتب السماوية» عن الخروج، ثم خصص بضع صفحات لموسى، جاعلًا الخروج في

[١٤٠] ميخائيل شاروبيم، رقيب على أحداث مصر: حوليات مصر السياسية (١٨٧٩–١٨٨٢م)، تحقيق يونان لبيب (القاهرة عام ١٩٩٢م)، ٩-١٠.

[١٤١] ميخائيل شاروبيم، الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث، ٤ مجلدات (القاهرة عام ١٨٩٨–١٩٠٠م) ١: ٢٤.

[١٤٢] شاروبيم، الكافي، ١: ٤١.

عهد مونبتاح (الذي يخطئ في هجاء اسمه) ابن رمسيس الثاني، وقال: إن رمسيس الثاني يعادل سيزوستريس عند الإغريق، ولاحظ أن «بعض المؤرخين» يذكرون «داناوس المصري» الذي أسس المستعمرات في اليونان على أنه شقيق رمسيس الثاني.[١٤٣]

وقد تجاوز الطهطاوي في محاولة التوفيق بين الفراعنة الأسطوريين في الفكر التقليدي العربي، وقائمة مانيتو، والآثار؛ فالغازي الآسيوي مؤسس الأسرة الخامسة عشرة — سالاتس — «معروف عند العرب بالوليد بن الرقة»، وأبابي أو أيوفيس من الأسرة السادسة عشرة يعرفه العرب باسم الربان بن الوليد الذي كان يوسف وزيرًا له. واستخدم شاروبيم علم المصريات في الرجوع إلى معاهدة رمسيس الثاني مع ملك الحيثيين، ونقوش بيانخي بجبل برقة المودعة بمتحف بولاق وتصف غزوه لمصر.[١٤٤]

ويشارك شاروبيم الطهطاوي وافتخاره باعتراف اليونان بريادة مصر للحضارة، ويسير على نهج الطهطاوي ومؤرخي الغرب في إبراز طغيان الغزاة الفرس، والترحيب بالإسكندر كمحرر. ويفرد شاروبيم صفحات للفترة من الإسكندر إلى الفتح العربي تعادل ما خصصه للفراعنة.

وفي مطلع القرن العشرين، كان الوطنيون يأخذون على التعليم الخاضع للإنجليز إهماله تاريخ مصر القديمة، وعندما سافر سلامة موسى إلى أوروبا بعد إتمامه الدراسة الثانوية عام ١٩٠٧م، شعر بالحرج لعجزه عن الإجابة عن أسئلة حول مصر القديمة، واتهم موسى الإنجليز بإقصاء تاريخ مصر القديمة من برامج الدراسة بالمدارس، حتى لا يؤدي تدريسه في المدارس إلى تغذية الروح الوطنية والمطالبة بالاستقلال.[١٤٥] ورأى مصطفى كامل — مؤسس جريدة «اللواء» والحزب الوطني — في مصر أول بلد متحضر في التاريخ، كانت لها السبق على الجميع.[١٤٦] وبعد وفاته في ريعان الشباب، خلد المصريون ذكراه بتمثال برونزي يستند إلى رأس أبي الهول، لا يزال يزين ميدان مصطفى كامل.

أما لطفي السيد الذي ينتمي إلى حزب الأمة، والذي ركز جهوده على الإصلاح التدريجي وليس الاستقلال الفوري، فقد التمس لرؤيته القومية جذورًا متينة في مصر

---

[١٤٣] شاروبيم، الكافي، ١: ٨٩–٩٧.

[١٤٤] شاروبيم، الكافي، ١: ٦١، ٦٣، ٨٦، ٨٨، ١٤١، ١٤٣.

[١٤٥] سلامة موسى، تربية سلامة موسى.

[١٤٦] Charles Wendell, Evolution, 265, 267.

القديمة، ودعا إلى زيارة المتاحف والمواقع الأثرية الفرعونية والإسلامية «لأننا في حقيقة الأمر لا نعرف الكثير عن وطننا وأمجاده بقدر ما يعرف السياح.»[١٤٧] وكتب في هذا السياق:

«لا أطالب كل مصري أن يُظهر قدرة على الملاحظة كشامبليون، ولا معرفة بالآثار المصرية كماسبيرو، ولا براعة في الآثار مثل كمال بك. فما نحن بحاجة إليه محاضرات منتظمة، وتعليم مستمر، بالجامعة المصرية وغيرها من المنشآت العلمية، من النوع الذي ييسر لأبناء مصر سبيل التعرف على الماضي المجيد، ليس بطريقة علمية متعمقة، ولكن على نحو ما يفعل السائح الأوروبي الذي يزور بلادنا من تحصيل للمعرفة عن تاريخنا وتاريخ أجدادنا.»[١٤٨]

وإذا أحصينا الكتب العربية التي نشرت عن مصر القديمة نجد أن هناك كتابين نشرا في السبعينيات، وثلاثة في الثمانينيات، وستة في التسعينيات، و٢٤ كتابًا فيما بين ١٩٠٠ و١٩١٤م. ويوحي الرقم الأخير بزيادة — وإن كانت متواضعة — في الاهتمام بمصر الفرعونية، لعله كان مشجعًا لأحمد كمال.

غير أن «علم المصريات للمصريين» — شأنه شأن الاستقلال — بدا محيرًا عشية الحرب العظمى. فقد أدى رفض مصلحة الآثار المصرية توظيف خريجي قسم الآثار المصرية بالمعلمين العليا، إلى إغلاق القسم عام ١٩١٣م. ومني مشروع متحف أسيوط بفشل ذريع، فقد تسربت الآثار التي تم الكشف عنها إلى الأسواق، واضطرت مصلحة الآثار إلى إلغاء ترخيص التنقيب الذي أعطته لأحمد خشبة باشا. وفي الجامعة المصرية ابتعدت مادة «الشرق القديم» عن التركيز على مصر الفرعونية. وفي أوائل العشرينيات قام طه حسين بتدريس التاريخ اليوناني-الروماني مع الاهتمام بمصر في العصرين البطلمي والروماني.[١٤٩]

وعند تقاعد أحمد كمال عام ١٩١٤م، لم يكن هناك من يخلفه على الساحة من المصريين، وكان ولده حسن قد ذهب إلى إنجلترا لدراسة المصريات، ولكنه اتجه إلى دراسة الطب هناك. ووجد تلميذا أحمد كمال: سليم حسن، ومحمود حمزة (الذي تزوج ابنة

[١٤٧] Wendell, Evolution, 272.

[١٤٨] الجريدة، ٨ ديسمبر عام ١٩١٢م.

[١٤٩] كان المقرر الذي قدمه محمود فهمي استثناء في هذا الصدد، أرشيف جامعة القاهرة (ي ٦/ف ٨٧).

كمال) وجدا نفسيهما يعملان بالتدريس بالمدارس الثانوية، وحاولا الإبقاء على معرفتهما بالمصريات بالتردد على المتحف والارتباط بأستاذهما أحمد كمال. وحتى شفيق غربال — الذي أصبح مؤرخًا شهيرًا لمصر الحديثة — عمل مدرسًا بالمدارس الثانوية، وبدا أن المصريات ستفقد جيلًا آخر من المتخصصين.[١٥٠]

وجاءت ضربة أخرى عام ١٩١٦م، عندما هاجم جورج دارسي — سكرتير عام مصلحة الآثار — مقالًا لأحمد كمال، فلم ينقد ما تناوله من نقاط فحسب، بل شكك في كفاءته في فقه اللغة المصرية القديمة، وأدت العداوة الشخصية إلى زيادة حدة الصدام، فقد كان دارسي الذي يصغر أحمد كمال بثلاثة عشر عامًا هو الذي تعرَّض لمنافسة من جانب أحمد كمال في الترقية قبل ربع قرن من الزمان، ورغم أن دارسي انضم للمجمع العلمي المصري قبل أحمد كمال بعشر سنوات، وتخطاه في الترقيات بمصلحة الآثار.

هاجم دارسي الدراسة التي قدمها أحمد كمال بالمجمع العلمي المصري، ونشرت بمجلته، وكانت تعنى بتحليل أصول الرموز الهيروغليفية. ورأى كمال أن الكلمة اليونانية Aiguptos التي جاء منها اسم مصر يعود أصلها إلى مدينة قفط بالصعيد Coptos وليس إلى اسم معبد بمنف على نحو ما ذهب إليه هنريش بروجش. ويبدو أن وطنية كمال جعلته يبحث لكلمة «مصر» الاسم العربي لمصر عن جذور هيروغليفية بدلًا من أن ينسب المصطلح إلى جيران بلاده الساميين.[١٥١]

وقال دارسي: «إن أحمد كمال قدم عددًا من التأكيدات التي لا يقبل بها متخصص بالمصريات»، وأن كمال وقع في خطأ لغوي وتاريخي فادح عندما جعل للرموز الهيروغليفية ما يقابلها من بعض الحروف العربية، وتعديله لترتيبها حسبما أراد، واتهم كمال بإغفال السياق التاريخي للكلمات الهيروغليفية، والمبالغة في تأثير الساميين — وفيهم العرب — على مصر القديمة.[١٥٢]

وقد تصدى أحمد كمال لدارسي كاتبًا ومحاضرًا بالمجمع العلمي المصري، فقال: «إن اللهجات المصرية القديمة اختلفت من حيث درجات الصوتيات لبعض الرموز، وأنه اتبع قواعد فقه اللغة في تغيير المعاني. ودافع عن القائمة الطويلة للكلمات العربية التي

[١٥٠] عن حمزة وسليم حسن، انظر: Who Was Who 3; 189, 192–193.

[١٥١] BIE, ser. 5, 10, fasc. 1 (1916) 133–76.

[١٥٢] BIE, ser. 5, 10, fasc. 2 (1916) 359–60, 192–93.

استخلصها من اللغة المصرية، وأعلن أن «اللغة المصرية هي اللغة الأم للعربية، وكذلك العبرية».[١٥٣] وإذا كانت وطنية أحمد كمال قد أثرت على علمه، فإن بتري لا يخلو من الذنب من هذه الناحية. ويجب النظر إلى ما فعله دارسي في السياق الإمبريالي لذلك العصر.

وفي نفس العام — ١٩١٦م — أعلن أحمد كمال انتهاءه من كتابة ١٦ مجلدًا من قاموس اللغة المصرية وما يقابلها من العربية والفرنسية، الذي يقع في ٢٢ مجلدًا. وقابل حسن بن أحمد كمال بين العمل الفردي الذي قام به والده، وعمل الفريق الذي قاده إيرمان في برلين لإعداد قاموس ضخم للغة المصرية. واختفت خطة قاموس كمال بوفاته، ولا يُعرف مصير ما قام به من عمل يجمع بين العلم والوطنية، وهكذا عندما عطلت الحرب العالمية الأولى الجهود العادية، كان جيل ماسبيرو، وبتري، وإيرمان، وأحمد كمال قد ارتقى بعلم المصريات إلى مدى يفوق ما حققه مارييت، وليبسيوس، وبيرش من قبل. وجاء التقدم الذي تحقق في مجالات علم المتاحف، وفقه اللغة، والنقوش، وتاريخ الفن، والتاريخ، والأساليب الفنية للتنقيب عن الآثار. ولكن الصورة من المنظور الوطني المصري لم تكن مشجعة. كان الاهتمام بمصر القديمة ينضح عن النخبة المتعلمة، ولكن كفاح أحمد كمال لجعل علم المصريات للمصريين مني بالفشل، وشُغل بعد تقاعده بالعمل على إعداد قاموسه. ولم يكن يعلم أن جهوده ستثمر فجأة بعد نهاية الحرب في إصرار الوطنيين على بسط سيطرتهم على مصلحة الآثار، وإعداد المصريين المتخصصين في المصريات، وفي الزهو الوطني بإنجازات قدماء المصريين.

وفي مجال الآثار الإسلامية الأقل تقدمًا، قامت «لجنة حفظ الآثار والفن العربي» عام ١٩١٤م بوضع خطة للمحافظة على الآثار الإسلامية والقبطية، وعندما حرمت الحرب اللجنة من رئيسها ماكس هرتز فجأة، برز علي بهجت بجهده الشخصي كرائد للآثار الإسلامية، وأول مدير مصري لمتحف الفن العربي، ويعالج الفصل السادس هذه التطورات.

[١٥٣] BIE, ser. 5, 11, fasc. 1 (1917) 331, 325–38.

الفصل السادس

الفن الإسلامي والآثار والاستشراق لجنة حفظ الآثار وعلي بهجت

«لم تبلغ أي أمة الدرجة العالية التي بلغها العرب في العمائر الحجرية، وبراعتهم في البناء لا يعادلها سوى عدم اهتمامهم بالحفاظ على ما قاموا ببنائه ... فبمجرد أن ينتهي بناء مسجد أو قصر، يتركونه (دون صيانة) حتى ينهار ... والأتراك هم أقل الأمم على وجه الأرض احتفالًا بالفن، لقد بنى محمد علي، وعباس باشا، وسعيد باشا، وإسماعيل باشا جدرانًا أكثر مما فعل جميع من سبقوهم، ولكن أي نوع من الجدران تلك، يا سبحان الله! لو كان أحدهم قد ألهم فكرة إقامة قصر على الطراز العربي! ... لوجد حوله أخيرًا كل أنواع الحفر على الخشب البديعة الصنع، والسقوف ذات الزخارف الملونة والتصميم المتقن، والمشربيات الرقيقة الأنيقة التي تحاكي أرق الخيوط. ولكنهم أهدروا هذه الكنوز التي كان يمكن جمعها بأقل جهد ممكن ... ولكنهم الأتراك ... حاقت بهم لعنة إله الفنون!»

Gabriel Charmes,
Cinq Mois au Caire et dans la Basse-Égypte

عبر الصحافي الفرنسي جابرييل شارم عن آرائه تلك عام ١٨٨٠م، قبيل تأسيس «لجنة حفظ آثار الفن العربي»، والاحتلال البريطاني لمصر، ويبدو أن تلك الآراء قد فصلت على قياس إدوارد سعيد. فشارم يعظم من شأن الفن «العربي»، بينما ينتقد صناعه

انتقادًا مرًّا، ويصب اللعنات على الأتراك لتهافت الذوق الفني عندهم، ويهاجم أسرة محمد علي التي تحكم مصر لإهمالها الحفاظ على الموروث التاريخي.[١] فالتدخل الأوروبي وحده كفيل بإنقاذ الموقف. فبالنسبة لشارم يسير الاستشراق، والإمبريالية والحفاظ على التراث التاريخي معًا، يدًا بيد.

ويبدو أن هذا الفصل الذي خصصناه لدراسة التواصل الأوروبي — المصري في لجنة ومتحف الفن العربي، يدعم نظرية إدوارد سعيد، ولكن الأدلة التي يقدمها تبدو أقرب إلى مؤرخين من أمثال: جون ماكنزي ومارك كرينسون، الذين يرون الحاجة إلى معالجة أكثر انفتاحًا للتواصل بين الاستشراق والشرق، تقوم على أسس تاريخية.[٢] فالإمبريالية في مصر لم تكن وحدانية الطابع، والأوروبيون من أعضاء «لجنة حفظ آثار الفن العربي» لم يكونوا — ببساطة — أدوات في خدمة النزعات الإمبريالية لبلادهم. فقد جاءت الشخصيات الرئيسية في اللجنة فيما بين ١٨٨١ و١٩١٤م من بلاد ليس لها في مصر سوى تطلعات إمبريالية متواضعة، ونعني بذلك الألماني يوليوس فرانتز، والنمساوي-المجري ماكس هرنز.

وعلى الجانب المصري كان علي بهجت يماثل أحمد كمال، ولكن في مجال الآثار الإسلامية ومتحف الفن العربي، وكان عليه أن يناضل — مثل كمال — معركة الصعود بتكوين نفسه كمتخصص في الآثار الإسلامية في ظل سطوة الإمبريالية الغربية. وقد انضم علي بهجت في شبابه إلى جمعية سرية، وكاد يفقد وظيفته نتيجة اصطدامه بمستشار المعارف البريطاني دوجلاس دانلوب. غير أنه تعلَّم من الأوروبيين — مثلما فعل كمال — وعمل بجد واجتهاد لينال اعتراف الأوساط العلمية الدولية.

وعلاقة علي بهجت بيعقوب أرتين تعكس التركيبة التي تجمع بين الأصل العرقي، والعقيدة الدينية، والوعي الوطني في الشرق الأوسط الحديث، فعلي بهجت مصري مسلم

---

[١] Gabriel Charmes, Cinq Mois au Caire et dans la Basse-Égypte (Cairo, 1880), 47-48, 57-58, 111.

[٢] Edward Said, Orientalism (New York, 1978); John MacKenzie, Orientalism: History, Theory and the Arts (Manchester, 1995); Mark Crinson, Empire Building: Orientalist and Victorian Architecture, (London, 1996).

من أصول تركية، بدأ حياته العلمية في متحف الفن العربي برعاية أرتين، الأرمني المتمصر الكاثوليكي، وصديقه ورئيسه الوزير حسين فخري. وقد يرفض الوطنيون أرتين وفخري باعتبارهما من المتعاونين مع الإمبريالية، ولكنهما أنقذا علي بهجت من طغيان دانلوب، ووجهاه نحو مستقبل لامع في الفن والآثار الإسلامية.

وعمل علي بهجت تحت رئاسة ماكس هرتز النمساوي-المجري رئيس لجنة حفظ آثار الفن العربي، وأمين متحف الفن العربي، الذي انتهت مدة خدمته فجأة عند وقوع الحرب العالمية الأولى؛ لأنه أصبح عدوًّا — في أعين الإنجليز — بحكم كونه من رعايا دولة معادية لبريطانيا. وكان بهجت قد بدأ بالفعل حفائره في الفسطاط — أول حاضرة عربية — إسلامية لمصر — تلك الحفائر التي ستجعل من بهجت رائدًا للآثار الإسلامية، وبرحيل هرتز أصبح بهجت مرشحًا ليكون أول مصري يدير متحف الفن العربي.

وتمثل منشورات «لجنة حفظ الفن العربي»، التي لم يهتم أحد بالرجوع إليها عند دراسة تاريخ مصر الثقافي، تمثل مصدرًا أساسيًّا لهذا الفصل. فقد احتفظ أوروبيون من أعضاء اللجنة بمحاضر تغطي الكثير من تاريخها، ولكن الأمر يتطلب قراءة فاحصة للتعرف على وجهات نظر المصريين من الأعضاء.

وكان اختيار المصطلح في هذا الفصل محيرًا، تُرى، هل من الأفضل استخدام مصطلح «الفن العربي» الذي شاع منذ البداية، أو استخدام مصطلح «الفن الإسلامي» الذي لا يعرف سواه اليوم؟ في أواخر القرن التاسع عشر، آثر ستانلي لين بول استخدام مصطلح «فن السراقنة» على استخدام مصطلح «الفن العربي»، ومصطلح «المحمدي» على مصطلح «الموري»، وهي جميعًا مصطلحات بائدة اليوم. ولما كان تمييز مارشال هودجسون بين «الإسلامي» و«المتأسلم» لم ينل حظًّا من الشيوع، فلا يبقى أمامنا سوى الاختيار بين «الفن الإسلامي» و«الفن العربي». واستخدام مصطلح «الفن العربي» يتضمن مخاطرة الاعتقاد بأن العرب، والترك، والفرس، والبربر، والعناصر الزنجية، واستخدام المصطلح — أيضًا — يتنافى مع واقع الدولة العثمانية متعددة اللغات والأعراق، وولاية مصر التابعة لها، والدول الإسلامية السابقة عليها. وعلى كلٍّ، يثير مصطلح «الفن الإسلامي» اليوم نفس النوع من التساؤلات التي حيرت هودجسون من قبل مثل: هل يستطيع المعماري أو الحرفي المسيحي أن ينتج فنًّا إسلاميًّا؟ لقد فضل هذا الكتاب عدم الاتساق العرضي على الاتساق السطحي الذي يغلف هذه الإشكالية. وسوف نستخدم مصطلح «الفن العربي»

أحيانًا عندما نتكلم عن المنظور الأوروبي المبكر لهذا الفن، ومصطلح «الفن الإسلامي» عندما نتناول ما يعكس المنظور الحالي.[٣]

إرهاصات حفظ الآثار — القاهرة على طريقة هاوسمان

لو قُدر لإدمي فرانسوا جومار أن يزور القاهرة بعد ستين عامًا من رسمه لخريطتها بتكليف من بونابرت، لما وجد صعوبة في التعرف على المدينة. وكتب آرثر رونيه عام ١٨٦٣م الذي شهد تولية إسماعيل الحكم: «مدينة القاهرة ما زالت على حالها؛ فعلى الأقل استمرت آثارها في الوقوع — بهدوء — في وهدة الخراب على طريقة الشرق الأبدية، وعلى الأقل لم تبذل أي محاولة على طريق الأعمال التي يقال لها [تحسين] أو [ترميم]».[٤]

ظلت طبوغرافية وسكان القاهرة على حالهما في حكم محمد علي، على نقيض ما شهده ميناء الإسكندرية من ازدهار، ورغم التغيرات بعيدة المدى التي حدثت في عهده. قام محمد علي بردم بركة الأزبكية وأزال المصاطب التي تعوق المرور، وعمل على كنس الشوارع وإزالة النفايات، ووسع شارع الموسكي وزاد من طوله، وبدأ شق شارع محمد علي لربط الأزبكية بالقلعة. وأهمل عباس الأول فكرة شق الطرق، وأضاف ضاحية العباسية العسكرية، وسمح لشركة بريطانية ببناء الخط الحديدي الذي يربط القاهرة بالإسكندرية. وبدأ العمل في حفر قناة السويس في عهد سعيد — وحملت اسمه مدينة بورسعيد — غير أنه لم يدخل تغييرًا جذريًّا على القاهرة.[٥]

وتم تغيير ذلك كله على يد إسماعيل، الذي أدى اهتمامه بالتجديد الحضري إلى تغير وجه القاهرة، ووضع أسس إقامة «لجنة حفظ الآثار» ومتحف الفن العربي. وراحت

---

[٣] Stanley Lane-Poole, Cairo: Sketches of Its History, Monuments, and Social Life (London, 1898 reprinted New York, 1973), 99-100; Marshall Hodgson, The Venture of Islam, 3 vols., (Chicago, 1974) 1: 57–60, 95.

[٤] Arthur Rhoné, “Coup d’oeil sur l’état present du Caire ancien et moderne” Gazette des Beaux Arts 24 (1881) 420–32; 25 (1882), 55–67.

[٥] Janet Abu-Lughod, Cairo: 1001 Years of the City Victorious (Princeton, N.J., 1971) 83–101; see also André Raymond, Le Caire (Paris, 1993), 289–305. Doris Behrens-Abouseif, Azbakiyya and Its Environs 1476–1879 (Cairo, 1985), 81–100.

إميليا إدواردز تتحسر — عام ١٨٨٢م — على القاهرة القديمة، «قبل عشرين عامًا. كانت قاهرة الخلفاء لا تزال كما هي، فيما عدا عاديات الزمن بمآذنها الجميلة ومساجدها المنمقة، وأسبلتها العامة، وبواباتها العريقة، رغم أنها كانت تتجه ببطء نحو التداعي في بلد لا يبذل فيه أي جهد لوقف تقدم ذلك التداعي، غير أنها كانت تبدو بديعة في حالتها البائسة كما كانت في أيام عزها.»[٦]

قام مخطط المدن البارون جورج هاوسمان بمرافقة الخديو إسماعيل عند تفقده باريس الجديدة أثناء المعرض الدولي عام ١٨٦٧م.[٧] وكان علي مبارك بصحبة إسماعيل في تلك الجولة، ودفع إسماعيل مبارك إلى تقليد عمل هاوسمان بالقاهرة لتناظر باريس نابليون الثالث. وقد ربطت بين إسماعيل ومبارك زمالة دراسة قديمة عندما كانا معًا في البعثة الدراسية بباريس في الأربعينيات، فقاما بإقحام محمود الفلكي الذي درس — أيضًا — بباريس في الخطة، فكلف بوضع مخطط لتجديد القاهرة. وتضمن المخطط ميادين محورية تتفرع منها طرق شعاعية، وحدائق عامة، مع إنارة الشوارع بالغاز، ومدها بالمياه، وإقامة جسر عبر النيل، وطريق يربط القاهرة بالأهرام، وحتى دار للأوبرا على نسق لاسكالا في ميلانو. وعندما استضاف إسماعيل كبار الشخصيات الأوروبية لحضور حفلات قناة السويس عام ١٨٦٩م، كان باستطاعته أن يطلعهم — على الأقل — على ما ستكون عليه القاهرة التي خطط لها أن تعكس صورة باريس.[٨]

وتضمن حي الإسماعيلية الذي يقع بين الأزبكية والنيل طرقًا متفرعة من ميادين محورية، وكان ميدان قصر عابدين ذو الطراز الكلاسيكي الجديد، واحدًا من تلك الميادين. وتدهورت المدينة القديمة المكتظة بالسكان — التي أصبحت تعرف بقاهرة «العصور الوسطى»، أو «بالإسلامية» أو «بالفاطمية» — عندما تبع علية القوم الخديو في هجرته إلى الأحياء الحديثة. وكانت طرقها الضيقة غير المنتظمة تعج بالمشاة والدواب، ولكن العربات ذات العجلات عادت إلى طرقها في القرن التاسع عشر، لأول مرة منذ عهد الرومان. وكان محمد علي أول من استخدم عربة ركوب أوروبية الطراز، في مدينة القاهرة، وبحلول عام ١٨٧٥م كانت هناك تسعمائة عربة ركوب بالمدينة، وضعف هذا العدد من عربات نقل

[٦] Amelia Edwards, “The Destruction of Cairo” Academy 546 (21 October 1882), 301.

[٧] Crinson, Empire Building, 172.

[٨] Abu-Lughod, Cairo, 103–13.

البضائع.[٩] وهنا تم شق الطرق عبر المدينة القديمة لتيسير حركة العربات فيذكر آرثر رونيه:

«يعد شارع محمد علي أحد (المنشآت) الكبرى بالقاهرة وموضع الفخر والاعتزاز. لقد خرج كالطلقة من الأزبكية دون أن يدري أين يذهب، ووجد نفسه بعد كيلومترين يصب عند الميدان الذي يحتل جانبًا منه مسجد السلطان حسن الذي لم يستطع تفاديه. وخلال مسيرته جرف في طريقه تلًّا مليئًا بالبيوت والمساجد … ولاستكمال هذا الطريق بعد تفاديه مسجد السلطان حسن، اقتطع ركنًا هائلًا من جامع الأمير قوصون (١٣٢٩م)، أحد أكبر وأجمل المساجد.»[١٠]

وأدان جابرييل شارم الأسرة الحاكمة لإهدارها الناحية الجمالية: «إن ما أخذه إسماعيل باشا على وجه الخصوص — من الفنون يمثل تركيبة غير مستساغة من أكثر الأساليب الأوروبية ابتذالًا، وأكثر الأساليب التركية بشاعة.»[١١] وكان الأوروبيون من زوار القاهرة لا يبحثون عن باريس، ولكن عما استقر في مخيلتهم عن «ألف ليلة وليلة». وعبر لين بول عن حنينه لإنجلترا المفقودة، وأمله في القاهرة التي ما زالت تنتمي إلى العصور الوسطى، ولكنه أضاف:

«إن من حق الفنانين وعشاق القديم، الذين يهتمون مثلي بالماضي أكثر من اهتمامهم بالمستقبل، أن يشعروا بالأسى لتلك التغيرات التي تتم في مصر بتأثير الأوروبيين، ولكن … هذه التغيرات لا يمكن تفاديها، وتعد محاولة سد الطريق في وجه تلاشي النظام القديم في القاهرة مضيعة للوقت، تمامًا كما لو كنا نحاول تبديد انتصار الديمقراطية المعيبة في إنجلترا.»[١٢]

وحتى عندما حاول إسماعيل أن يبعث السرور في نفوس الأوروبيين بترميم الآثار، لم يحقق نجاحًا، وفي ذلك تقول إميليا إدواردز:

---

[٩] هناك كتاب يناقش اختفاء العربات ذات العجلات من العالم العربي فيما بين حكم الرومان والقرن ١٩

Richard Bulliet, The Camel and the Wheel (Cambridge, Mass., 1975).

[١٠] Rhoné: Coup d'oeil, 62.

[١١] Gabriel Charmes, “L'Art arabe au Caire”, Journal des débats, 2 August 1881.

[١٢] Lane-Poole, Cairo, 290.

«هناك طريقتان تتبعان في الترميم: أولهما أن يهدم البناء القديم ثم يعاد بناءه على أساس تقليد الأسلوب الإيطالي القوطي، والأخرى أن يهدم جزئيًّا، وتنزع الزخارف الخشبية المحفورة من السقوف، وينزع البلاط القيشاني الجميل من الحوائط، ثم يوضع مكانها الأسمنت والجص، وإحاطة الأخير بشرائح من الجرانيت المصقول أو الرخام. وفي كلتا الحالتين يباع البلاط للسياح وتجار الآثار، وتتحول الزخارف الخشبية المحفورة إلى وقود للعمال ... وقد تم ترميم مسجدَي السيدة زينب والحسين حسب الطريقة الأولى، وتقدم مساجد قيصون، والمؤيد، واليوسفي، وأزبك، كنماذج للطريقة الثانية.»[١٣]

وكان شارم أقسى في انتقاده:

«ربما كان التدمير الخالص والبسيط أفضل مائة مرة! لأننا نستطيع أن نرى الرخام النادر بمسجد السلطان حسن يغطى بطلاء زائف يمثل الرخام ... فقد قام وزراء إسماعيل بطلاء الآثار الرئيسية للفن العربي بهذا الطلاء البشع لاستقبال ضيوف احتفالات قناة السويس. اللهم اغفر لهم، فهم لا يدرون ما يفعلون.»[١٤]

حفظ المواقع التاريخية في أوروبا، وتقدير الفن العربي

كان ثمة اتجاهان في أوروبا، مهدا الطريق لقيام لجنة القاهرة ومتحف الفن العربي، هما: حركة الحفاظ على المواقع التاريخية، وزيادة تقدير الفن «العربي». فقد أطلقت التغيرات التي خلفتها الثورتان الفرنسية والصناعية، شعورًا قويًّا بالحنين إلى الماضي، تمثل في الدعوة إلى الحفاظ على المواقع الأثرية. وسعى فرانسوا جيزو — وزير لوي فيليب — إلى التماس الشرعية لملكية يوليو بدعم مزيج من ذكريات الثورة، ونابليون، والنظام الملكي القديم. وعينت الحكومة الفرنسية مفتشًا للآثار التاريخية عام ١٨٣٠م، وأنشأت عام ١٨٣٧م «لجنة الآثار التاريخية». وقد كانت جهود فيكتور هوجو وراء إقامة هذه اللجنة، وخدم الروائي بروسبير ميريميه كبيرًا للمفتشين باللجنة. وخاض أوجين إيمانويل فيوليه لودوك — كبير المعماريين باللجنة — معركة لإحياء الطراز القوطي في العمارة ضد دعاة النزعة الكلاسيكية الجديدة الذين اتخذوا من «مدرسة الفنون الجميلة»، ومجلس مباني

---

[١٣] Edwards, “The Destruction of Cairo”.

[١٤] Gabriel Charmes, Cinq Mois, 130.

الدولة موقعًا لهم. وكانت فلسفة فيوليه لودوك ترمي إلى انتزاع الإضافات المتأخرة الغربية من الأثر، وأن يتم — عند الضرورة — إعادة بناء أجزاء منه مطابقة للنمط الأصلي.

وبحلول الخمسينيات، اضطر هاوسمان نفسه أن يقدم بعض التنازلات إزاء المواقع الأثرية عند إعادة تخطيط باريس.[١٥] وفي عام ١٨٨٧م، صدر أول قانون فرنسي يجيز نزع ملكية المنشآت الخاصة ذات الطبيعة التاريخية.

ولم تعرف بريطانيا التي تبنت حرية العمل، لجنة مماثلة للجنة الفرنسية للآثار التاريخية، ولكن قام وليام مورس وبعض أتباع جون راسكين بتشكيل «جمعية الآثار القديمة» عام ١٨٧٧م. ودعا راسكين إلى ترميم الآثار وإبقائها على حالتها الراهنة، متأثرًا في ذلك بفيوليه لودوك. وفي العام ١٨٨٢م أنشأت بريطانيا «تفتيش الآثار القديمة» برئاسة اللفتنانت جنرال بت ريفرز،[١٦] وذلك بعد فرنسا بنصف قرن من الزمان. وتبع ذلك صدور قانون ضعيف لحفظ المواقع التاريخية عام ١٨٣٣م، ولم يصدر قانون حازم لهذا الغرض إلا عام ١٩٣١م. وقد استوردت القاهرة اللجنة متأثرة في ذلك بالنموذج الفرنسي، مثلما كانت الحال بالنسبة للكثير من المؤسَّسات، ولم يكن هناك بديل بريطاني في الأفق بعد.[١٧]

كانت الإشارات الضمنية عن الكتاب المقدس، والكلاسيكيات والفراعنة في الفن الغربي، جزء من سعي الغرب إلى الماضي الذي يدور في مخيلته. فالأفكار الفنية التي صور بها العرب أو الترك أو الفرس، أبرزت — على النقيض — «الآخر الشرقي» الذي يكن مختلف صنوف العداء، كما يعد غريبًا. فقد أضاف الرحالة المبشرون الكاثوليك إلى جولاتهم الدينية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، زيارة الخرائب الفرعونية والكلاسيكية، ولكنهم نفروا من زيارة المساجد، واعتبروها معاقل شاذة للتعصب والهرطقة، وحتى لو أرادوا زيارة المساجد لم يكن مسموحًا — عندئذٍ — لغير المسلمين بدخولها. وقد شذ عن ذلك القنصل الفرنسي بينوا دي ماليه والفنان لوي فرنسوا كاساس اللذان أبديا تقديرهما لمساجد القاهرة، وهو أمر مألوف في القرن الثامن عشر. فقد كتب دي

---

[١٥] Hans Huth, “The Evolution of Preservationism in Europe”, Journal of the American Society of Architectural Historians (July/October 1941), 5–12.

[١٦] Who Was Who 3: 337.

[١٧] John Pemble, Venice Rediscovered (Oxford, 1995), 126–33.

ماليه: «إن المرء لا يستطيع أن يبدي إعجابًا كافيًا بجمال تلك القباب، وعظمتها، ونسبها الهندسية، وشموخها، والفخامة المدهشة لبعضها. والزخارف الداخلية التي تزينها لا تقل جدارة بالاهتمام، بعضها يتخذ طابع الإفريز (الكرانيش)، والبعض الآخر يمثل زهورًا متداخلة، وبعضها من الخشب المعشق ...»[١٨] وعلى كلٍّ، حذف دي ماليه من لوحاته المباني الإسلامية، وعبر عن ذوق كلاسيكي متحفظ، عندما اقترح نقل عمود بومبي من الإسكندرية إلى باريس، وليس مسلة كليوباترا المغطاة بالنقوش الهيروغليفية التي قام برسمها. وكانت الأخيرة هي التي جذبت اهتمام خلفائه في القرن التاسع عشر.

وبين كتاب دينون «رحلة إلى مصر» (١٨٠٢م) المساجد مظللة على البعد.[١٩] وتضمن «وصف مصر» لوحات تفصيلية عن مسجد السلطان حسن، وغيره من المساجد، ولكن النص لم يحتو إلا على القليل عن العمارة الإسلامية. ويشكو شارم من أن «رفاق بونابرت» شغفوا بالخرائب الكلاسيكية والفرعونية، ولكنهم «ذكروا القليل عن قيمة آثار القاهرة التي وردت باللوحات ... وعندما صوروا مسجد السلطان حسن، نسوا شيئًا واحدًا: الإفريز العظيم الذي يتوج هذا الصرح.»[٢٠] ويأتي غياب القاهرة الإسلامية من لوحة الغلاف لوصف مصر مؤكدًا لهذه النقطة.

ومع مرور عقود القرن التاسع عشر، كان ثمة نوعان — على الأقل — من الاستشراق سعيًا وراء فهم جوهر الثقافة الإسلامية. وأحد هذين النوعين كان إدوارد وليم أستاذًا فيه، يقوم على فهم المجتمع الإسلامي من خلال النصوص العربية مثل القرآن، وألف ليلة وليلة، والنوع الآخر يتمثل في الرسم والتصوير الفوتوغرافي، ورسم العمارة والشوارع، والطبيعة، والأشخاص (وتصور غالبًا «نماذج» عرقية). وكانت كلمة «مستشرق» عند الفرنسيين تجمع بين الرسام والعالم. ورغم أن لين استخدم النصوص الأدبية لفهم جوهر المجتمع الإسلامي والمصري، فقد قدم الكثير من الرسومات. ويعتمد كتابه «عادات وتقاليد المصريين المحدثين» على وسيلة استشراقية ثالثة هي التحقيق الشفاهي والملاحظات الإثنوغرافية.[٢١]

---

[١٨] Carré, Voyageurs et écrivains, 1: 62.

[١٩] John Sweetman, The Oriental Obsession: Islamic Inspiration in British and American Art and Architecture 1500–1920 (Cambridge, Mass., 1988), 115.

[٢٠] Charmes, “L’Art arabe”; Description, vol. 1. Antiquités.

[٢١] Leila Ahmed, Edward W. Lane (London, 1978).

وقد اكتسبت «ألف ليلة وليلة» شعبية في الغرب بفضل ترجمتها الفرنسية التي قام بها أنطوان جالاند (١٧٠٤–١٧١٧م)، وما تلا ذلك من ترجمتها عن الفرنسية إلى الإنجليزية، ورجع كل من إدوارد وليم لين، وريتشارد بيرتون إلى النص العربي عند قيامها بتقديم ترجمات منافسة للترجمة القديمة (نشرت في ١٨٣٨–١٨٤١م و١٨٨٥م على التوالي)، وقد قام لين بحذف الفقرات التي تناولت مشاهد جنسية صريحة، أما بيرتون فقد أبقى عليها. وقام ستانلي لين بول فيما بعد بفصل ملاحظات عمه العظيم لين التي كتبها باستفاضة في حواشي ترجمته لألف ليلة وليلة عن نص الترجمة، وأعاد نشرها بعنوان: «المجتمع العربي في العصور الوسطى: دراسات من ألف ليلة وليلة» (١٨٨٣م). وفي مجال الحديث عن التجارب الشخصية في القاهرة، أعلن لين بول أن إدوارد وليم لين «لم يقع في أي مفارقات تاريخية: لأن المجتمع العربي الذي تحرك فيه صلاح الدين، وبيبرس، وبرقوق، وقايتباي … بقي غالبًا على حاله دون تغيير حتى عصر محمد علي، عندما قضى السيد لين سنوات طويلة من العلاقات الحميمة مع سكان القاهرة … إن استمرارية التقاليد الاجتماعية العربية لم تنقطع عمليًّا في الغالب منذ بداية الخلافة حتى القرن الحالي …»[٢٢] ومع وجود علماء يروجون لفكرة جمود الزمن في الشرق، ندر أن نجد سائحًا يكتب خطابًا لأسرته عن القاهرة المعاصرة دون أن يتمثل «ألف ليلة وليلة».

ولعل تقدير الأوروبيين للفن الإسلامي والعمارة الإسلامية لم يزدهر إلا عندما أرخوا لها، واعتبروها من «العصور الوسطى» وقد صنف «وصف مصر» الآثار الإسلامية على أنها «حديثة» فوضعها ضمن «الدولة الحديثة» وليس «القديمة». وجاء ابتداع مصطلح «أوروبا العصور الوسطى» في القرن التاسع عشر ليفترض قياسًا على ذلك «إسلام العصور الوسطى»، وبذلك لم تعد «الآثار العربية (أو الإسلامية)» تبدو متناقضة.[٢٣]

لم يحظَ المستشرقون الفنانون من أمثال أوجين ديلاكروا، وجان ليوجيروم، وهنري ماتيس، بالاهتمام إلا في وقت متأخر، ولكن ما يهمنا هنا هم الفنانون الذين جاء تناولهم للعمارة الإسلامية بالقاهرة موثقًا بصورة قوية. فابتداء من الثلاثينيات قدمت الكتب

[٢٢] Edward William Lane, Arabian Society in the Middle Ages: Studies from the Thousand and One Nights (London, 1987).

[٢٣] Irene A. Bierman, "The Time and Space of Medieval Cairo" Unpublished Paper, New York 1998.

التي حفلت بالرسومات توثيقًا تفصيليًّا للفن «العربي» الذي أغفله «وصف مصر»، وكان لكتاب باسكال كوست «العمارة العربية أو آثار القاهرة» (باريس ١٨٣٩م) فضل الريادة في هذا المجال، تخرج كوست في «مدرسة الفنون الجميلة»، والتحق بخدمة محمد علي عام ١٨١٧م بتوصية من جومار، وأصبح فيما بعد كبير المعماريين في حكومة الباشا، فحصل على أمر من محمد علي يصرح له بدخول وقياس ورسم مساجد القاهرة دون أن يعترض طريقه أحد.[٢٤] وقد زين صفحة غلاف الكتاب برسم لمنظر طبيعي للقاهرة على ضفة النيل، وهو ما تجاهله «وصف مصر» (انظر الشكلين رقم ١ ورقم ٣٧).

وتبع ذلك صدور كتاب روبرت هاي «تصاوير القاهرة» (١٨٤٠م)، ثم كتاب دافيد روبرتس الشهير «مصر والنوبة» (٣ مجلدات، ١٨٤٦–١٨٤٩م) وأتاحت السنوات التي قضاها جون فردريك لويس بالقاهرة في الأربعينيات فرصة مواتية له لتسجيل مناظر الشوارع والأحوال الداخلية للقاهرة. وأسهم الفرنسيون بعمل بريس دافين «الفن العربي استنادًا إلى آثار القاهرة» (٣ مجلدات، ١٨٧٧م) وفيما يتعلق بالآثار الإسلامية خارج مصر تأتي دراسة أوين جونز للحمراء بالأندلس (١٨٤٢–١٨٤٥م) التي كان لها تأثيرها الخاص. وأدى ارتفاع أسعار تلك الكتب وضخامة حجمها إلى قصر اقتنائها على المكتبات والأثرياء. وفي منتصف القرن، انضمت الفوتوغرافيا إلى الرسم في تسجيل صور الفن الإسلامي والعمارة الإسلامية وبحلول عام ١٨٩٠م حملت «مناظر الشلن» وبطاقة البريد التي تباع ببنس واحد صور مواقع القاهرة الإسلامية إلى دائرة أوسع من المتلقين.[٢٥]

وحتى محبي الفن الإسلامي من أمثال شارم، ولين بول، ويوليوس فرانتز كشفوا عن تحاملهم على الحضارة الإسلامية التي كانت فادحة العيوب، فيعترف فرانتز بأن «إعجابنا بتناسق وذوق الزخارف التي لا تدانيها أي مدرسة في العمارة، لا يتوازن مع شعور بعدم الارتياح من الناحية الجمالية ... إن السبب الرئيسي الذي جعل الفن العربي يعجز عن الوصول إلى مستوى رفيع من التطويع الفني — على نحو ما نرى في الزخارف — يجب أن نلتمسه في الانهيار المبكر لإمبراطورية الخلافة العظيمة، وفي الظروف السياسية التي

[٢٤] Pascale Coste, Architecture arabe ou monuments du Caire Mesurés et dessinées de 1825 (Paris, 1839).

[٢٥] Robert Hay, Illustrations of Cairo (London, 1840); Sweetman, Oriental Obsession, 112–52; MacKenzie, Orientalism, 43–70.

أعقبت انهيارها، واتسمت بالاضطراب، وإلى الاتجاه الذي يتميز به الشرق الذي يفضل التمسك بالأشكال القديمة، وعدم الميل إلى تغيير ما تم إنجازه من قبل. ولكن الكثير من الأرابيسك قد يكون مثيرًا، ومهما كان تأثيره على الفن الصناعي، فما زلنا نفتقد فيه تصوير الكائنات الحية التي تتطلب ذكاءً وحماسًا فعالًا.»[٢٦]

وتسبب إعجاب الأوروبيين بالآثار الإسلامية — كما كانت الحال بالنسبة للآثار الفرعونية — إلى إسراع وتيرة دمارها. ويشكو شارم من أن «هواة الفن العربي المفرطين في الحماس» يفقدون مساجد القاهرة مشكاواتها الزجاجية، ومنابرها المطعمة بالعاج. واستنكر لين بول ما يفعله «السياح الهمج بحكم طبيعتهم وعملهم، الذين لا يتوانون عن تدمير كل شيء ليأخذوا معهم تذكارًا لرحلتهم إلى البرابرة من أهلهم.»[٢٧]

الإمبريالية ومولد لجنة حفظ الآثار العربية

أشاد جبرييل شارم بإفلاس إسماعيل — الذي كان كارثة عند المصريين — لأن ذلك الإفلاس يعوق إنجاز مشروعات التجديد الحضري التي تؤدي إلى تدمير الآثار ذات القيمة الفنية العالية. ورأى شارم أن السيطرة الأوروبية وحدها هي التي تستطيع الحفاظ على آثار القاهرة، وأن البلد الذي يهمل آثاره لا يستحق الاستقلال، ورأى أنه:

«من الواضح أن مصر تسعى لتفادي الصدمات التي تهدد الشرق، وواجبه الأول (يقصد توفيق) أن يربط القوة الجديدة لأسرة محمد علي بالتراث الوطني العظيم المديد ... فاليونان يبذلون أقصى الجهد حتى يجعلونا نصدق أنهم من سلالة بركليز وفيدياس، فلماذا لا يحاول المصريون إقناع العالم بأنهم من سلالة صلاح الدين وقايتاي، والسلطان حسن؟ لقد فعلت الأكروبولس الشيء الكثير لتحقيق استقلال اليونان، أكثر مما فعلته الأشياء الأخرى ... فبفضل كنارس واللورد بايرون كان من حق تلك المملكة الهلِّينية الصغيرة أن تحظى برعاية أوروبا، فلماذا لا تجلب مساجد القاهرة نفس هذه الخدمة لمصر؟ وعندما يتم ترميم تلك المساجد يصعب إنكار حق بلد، قادر على الحفاظ على تلك الأعمال، في الاستقلال.»[٢٨]

---

[٢٦] Julius Franz Pasha, “Buildings of the Mohammedan”, Baed. 1908, clix–clx.

[٢٧] Charmes, Cinq Mois, 120; Lane–Poole, Cairo, 103.

[٢٨] Charmes, “L’Art arabe”, see also Charmes, Cinq Mois, 46–47.

ولما كان شارم وطنيًّا فرنسيًّا، لم يكن انفراد بريطانيا باحتلال مصر هو ما يعنيه بالطبع، فقد احتل البريطانيون مصر، بعد احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١م ببضعة شهور. وعبر زافييه شارم — الضابط الفرنسي الكبير، شقيق جابرييل — عن رؤية استشراقية إمبريالية فرنسية، كغازي ووريث للحضارة «العربية»، قائلًا:

«لقد أنقذنا أوروبا من الغزو العربي ... ونحن البون نجتاح البلاد العربية و ... نحطم دولها التي وصفت بأنها دول «بربرية»، حيث فقدت الحضارة العربية صلاحيتها بأكثر الأعمال الفوضية وحشية. ولكن يجب أن يلي عملنا العسكري بناء سياسي، وإداري وعلمي. ولما كنا ورثة العرب، فإن علينا أن نبحث في تاريخهم عن أعمالهم العظيمة التي تستحق البقاء، وعلينا أن نستعيد فنهم الذي طواه النسيان، وكذلك اكتشافاتهم الأدبية والعلمية.»[٢٩]

وتعود أصول لجنة حفظ الآثار ومتحف الفن العربي إلى أمر صدر وسط انشغال إسماعيل بأعمال التجديد الحضري عام ١٨٦٩م. وكانت الفكرة من اقتراح أوجست سالزمان، وهو معماري من رعايا النمسا والمجر، كان يعمل بنظارة الأوقاف، وقام يوليوس فرانتز — وهو ألماني يعمل بنفس الجهة — طلب منه أن يجمع قطعًا أثرية لإقامة متحف في جامع الظاهر بيبرس الذي كان يعاني الخراب.[٣٠] غير أن هذا الأمر لم ينفذ، وحث القنصل البريطاني إدوارد روجرز مؤتمر المستشرقين الدولي (عام ١٨٧٤م)، على إقامة لجنة لترميم وتسجيل الآثار والأعمال الفنية الشرقية، ولكن لين بول أثار تحفظات عملية: فمثل هذا العمل لا تستطيع الاضطلاع به إلا الحكومات، وقد فشل مرسوم بشأن برنامج مماثل في بريطانيا. أضف إلى ذلك أن إسماعيل «المذنب الرئيسي في قضية هدم آثار الفن العربي، قد يتساءل: أليست الطرق الباريسية، والفيلات الإيطالية التي زرعت في أرض مصر التاريخية أجمل من مساجد الخربة والبيوت المهدمة؟ وهل باستطاعتنا — حتى لو كنا ملائكة — أن نجيب على مثل هذا السؤال؟»[٣١]

---

[٢٩] الأرشيف الفرنسي، وزارة الخارجية، نانت، C177/D، بتاريخ ٢ يناير ١٨٨٢م.

[٣٠] Rhoné, Gazette 24 (Année 25, 1882): 63–64.

وانظر أيضا: زكي محمد حسن «العناية بالآثار» في إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عامًا على وفاته (القاهرة ١٩٤٥م)، ٣١٥.

[٣١] S. Lane-Poole, “Arab Art Monuments”, Academy 6 (1874), 361.

ولم يأت توقيت إصدار الأمر الخاص بإقامة لجنة حفظ الآثار في ١٨ ديسمبر ١٨٨١م، مفاجئًا. فقد كان توفيق محاصرًا من العرابيين الذين تحدوا احتكار الأتراك الشراكسة للسلطة، والتدخل الأوروبي معًا. وكان توفيق يبذل جهد اليائس لحشد التأييد الأوروبي لعرشه، فلعل التجمع الصغير لهواة الفن الإسلامي يجعل كفة الميزان تميل لصالحه. وقد كتب شارم: «ما أعجب فكرة هيمنة ورقابة أوروبا على المالية المصرية بشكل مباشر، التي امتدت إلى كل شيء غيرها — بصورة مباشرة أو غير مباشرة — وحتى إلى الفن.»[٣٢]

قدم كتاب «القاهرة» للين بول وصفًا تفصيليًّا لعمارة المدينة القديمة، وأبدى تقديره «للنتائج البديعة التي حققها النفوذ البريطاني الذي مارسه اللورد كرومر»، ويرى أنه «قد يكون وراء ذلك غرض وطني خفي، ولكني مقتنع أنه لا توجد أمة أخرى تصلح لتعليم مصر كيف تمضي على الطريق، سوى الأمة التي زرعت مستعمراتها في كل مكان على وجه الأرض، وبينت بحكمها الفريد للهند النتائج العظيمة التي يستطيع تحقيقها حكم الإنجليز للملل والنحل الأجنبية.»[٣٣]

وتضمن تشكيل اللجنة الذي أصدره توفيق ثلاثة من خبراء الفن الإسلامي هم: إدوارد روجرز — الذي كان عندئذٍ مستشارًا بالحكومة المصرية — والمعماري الفرنسي إمبرواز بودري (الذي أشاد شارم بفيلته التي أقامها على الطراز العربي بالقاهرة)، والمعماري الألماني يوليوس فرانتز الذي كان يعمل بنظارة الأوقاف (انظر الجدول ٦-١). كان هناك مستشرقون بريطانيون وفرنسيون وألمان يجمعون بين المعرفة النصية والبصرية، وكانت بلادهم تقترب من مرحلة حرجة في التعامل مع عرابي. وفي يناير ١٨٨٢م انضم جول بورجوان إلى اللجنة، وفي نوفمبر من نفس العام، أضيف إليها بيرجران، كبير مهندسي مصلحة التنظيم (التي تختص بالشوارع والمباني)، وبذلك ارتفع عدد الفرنسيين من أعضاء اللجنة إلا ثلاثة، وأصبحت الفرنسية — لغة الدبلوماسية والمجتمع المتفرنج في مصر — هي اللغة المستخدمة في أعمال اللجنة.[٣٤]

---

[٣٢] يعتمد هذا الفصل تمامًا على: D. M. Reid, “Cultural Imperialism and Nationalism: The Struggle to Define and Control the Heritage of Arab Art in Egypt”, IJMES 24 (1992) 57–76.

[٣٣] Lane-Poole, Cairo, viii, 292.

[٣٤] Comité de conservation des monuments de l’art arabe, Fascicule premier, Exercice 1882–1883, Procès-verbaux des séances, Fascicule no. 1: 5.

سنورد ذكرها مختصرة فيما بعد على النحو التالي: Comite 1, 1882–1883, PVSI.

جدول ٦-١: المهتمون بالفنون والآثار الإسلامية والاستشراق

الأوروبيون في اللجنة	مستشرقون آخرون – علماء وفنانون	المصريون في اللجنة
	ب. كوست ١٧٨٧–١٨٧٩م	
	دافيد روبرتس ١٧٩٦–١٨٦٤م	
	ربورت هاي ١٧٩٩–١٨٦٣م	
	إدوارد لين ١٨٠١–١٨٧٦م	
	بريس دافين ١٨٠٧–١٨٧٩م	
إدوارد روجرز توفي ١٨٨٤م		علي مبارك ١٨٢٣–١٨٩٣م
يوليوس فرانتز ١٨٣١–١٩١٥م		
إمبرواز بودري ١٨٣٨–١٩٠٦م		
جول بورجوان ١٨٣٨–١٩٠٧م		
		يعقوب أرتين ١٨٤٢–١٩١٤م
		حسين فخري ١٨٤٣–١٩١٠م
هاري فارنول ١٨٥٢–١٩٢٩م		
ستانلي لين بول ١٨٥٤–١٩٣١م		
ماكس هرتز ١٨٥٦–١٩١٩م		مصطفى فهمي ١٨٥٦–١٩٢٥م
		علي بهجت ١٨٥٨–١٩٢٤م
		أحمد زكي ١٨٦٠–١٩٣٤م
ماكس فان برشم ١٨٦٣–١٩٢١م		مرقص سميكة ١٨٦٤–١٩٤٤م

قام بورجوان بالتدريس بمدرسة الفنون الجميلة بباريس، وألف كتابين عن التصميم المعماري العربي. كما كان زميلًا «بالمدرسة الفرنسية» الجديدة. ورأى أن الفن الإسلامي يمثل إنتاج «الأجناس السامية»، وأن «الساميين» يتضمنون «جنسًا عربيًّا». وكان الشرق عنده ثابتًا لا يتطور «لا يجب أن نتوقع أن نجد في تاريخ فن الشرق مراحل مختلفة،

مماثلة لتلك التي يتميز بها فن الغرب»، وشرح فيوليه لودوك في مقدمته لكتاب بورجوان «الفنون العربية»، كيف أن العوامل الدينية والعرقية عند السكان الذين تمتزج أعراقهم، أدت إلى التجريد الهندسي للفن العربي.[٣٥]

وعمل إدوارد روجرز — البريطاني الوحيد باللجنة — قنصلًا بالشام ومصر، قبل أن يصبح موظفًا بالتعليم والمالية في خدمة الحكومة المصرية، وكان يجمع الآثار والعملات. ورغم أن يوليوس فرانتز تعلَّم جزئيًّا في النمسا ودفن بها بعد وفاته، فقد نشأ في عائلة ألمانية شمالية بروتستانتية، واحتفظ بجنسيته الألمانية حتى وفاته. وبحكم كونه كبير المعماريين بنظارة الأوقاف وعضويته للجنة، أشرف على الإصلاحات التي تمت في الآثار وبدأ يجمع القطع الأثرية لمتحف الفن العربي. وعلى مدى ١٢ عامًا بعد تقاعده عام ١٨٨٨م، واصل فرانتز قضاء الشتاء بمصر، وحضور اجتماعات اللجنة.[٣٦]

ولم تستطع اللجنة أن تجتمع سوى مرة واحدة في الأول من فبراير ١٨٨٢م قبل ثلاثة أيام من إسقاط وزارة شريف على يد العرابيين، وتولى محمود سامي البارودي رئاسة مجلس الوزراء الذي دخله عرابي وزيرًا للحربية،[٣٧] وحظي الحفاظ على الآثار باهتمام كبير، حتى أثناء تلك الظروف الحرجة، فقد شارك في اجتماع اللجنة وزيران من بين الوزراء السبعة الذين تشكلت منهم الوزارة: فتولى رئاسة اللجنة مصطفى فهمي ناظر الخارجية، ومحمود سامي البارودي ناظر الحربية عندئذٍ، بصفته عضوًا. ويشير أحد المصادر إلى أن التوصيات التي اتخذتها اللجنة بإصلاح المباني الأثرية، جاءت بناء على اقتراح البارودي الذي كان لديه «اهتمام مستنير» بالحفاظ على الآثار، غير أن ذلك لم يرد بمضبطة اجتماع اللجنة.

واختير روجرز سكرتيرًا للجنة، ويعقوب صبري — الموظف بالأوقاف — سكرتيرًا مساعدًا، وفرانتز مسئولًا عن الأرشيف. وليس من الغريب أن اللجنة لم تجتمع مرة أخرى

[٣٥] Gülru Necipoglu, The Topkapi Scroll—Geometry and Ornament in Islamic Architecture (Santa Monica, Calf., 1995), 66-67.

[٣٦] On Rogers, see, Who Was Who 3: 361; Heyworth-Dunne, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt (London, 1968), 386, 429.

[٣٧] William Gregory, “Arab Monuments in Egypt”, letter to the Times, reprinted in Architect, 4 February 1882, 69; Comité 1, 1882-1883, PVS 1 (1 February 1881) 7–13.

حتى ديسمبر ١٨٨٢م بعدما انتهت الثورة العرابية، واستقر الاحتلال البريطاني، وعاد الأوروبيون إلى مصر التي لفَّها صمت الصدمة.

اللجنة في عهد الاحتلال البريطاني

عقد الاجتماع الثاني للجنة في ١٨ ديسمبر ١٨٨٢م، قبل أسبوع واحد من رحيل عرابي ورفاقه إلى المنفى بجزيرة سيلان. ووجد الأوروبيون من أنصار الحفاظ على الآثار في الاحتلال البريطاني وسطًا ملائمًا للعمل، رغم العسر المالي الذي عانت منه اللجنة حتى أواخر التسعينيات. ولما كانت اللجنة تابعة لنظارة الأوقاف، فقد رأس محمد زكي ناظر الأوقاف اجتماع ديسمبر، وكان زكي قد ترك منصبه باستقالة وزارة شريف في فبراير، وعاد إليه في أغسطس مع تولِّي شريف الوزارة بالإسكندرية في حماية المدافع البريطانية. وغاب عن ذلك الاجتماع محمود سامي البارودي الذي كان مسجونًا مع عرابي بانتظار الترحيل إلى المنفى، كما غاب عنه مصطفى فهمي ومحمود الفلكي، ولعلهما كانا يمران بفترة احتجاب، ولكنهما ظلا عضوين باللجنة، وعادا إلى الوزارة قبل أقل من عام. أما ناظر الأشغال العمومية علي مبارك فكان قد تخلى عن عرابي في الصيف، واختار الوقوف إلى جانب الخديو توفيق بالإسكندرية في الوقت المناسب لينال نصيبه من وزارة شريف التي شكلت في أغسطس. وصدر أمر جديد في نوفمبر بضمه، وببيير جران، ويعقوب أرتين إلى عضوية اللجنة.[٣٨]

ورغم أن عدد المصريين من أعضاء اللجنة زاد على عدد الأوروبيين فيما عدا فترة قصيرة نحو عام ١٨٩٠م، فقد سيطر الأوروبيون تمامًا على عمل اللجنة كما سيطرت «الحماية البريطانية المقنعة» على مصر، فكان روجرز صاحب اليد العليا في اللجنة الفرعية الأولى التي تولت حصر الآثار التي يجب الحفاظ عليها، حسبما رآه الغربيون من الناحيتين الجمالية والأثرية. ورغم اعتقاد المستشرقين بأن جوهر الفن الإسلامي لا يرتبط بزمن محدد، يتعارض مع نظريات التطور، تم إيضاح الأسلوب الفني بدقة للعهود الطولونية،

---

[٣٨] Comité 1, 1882–1883, PVS 2 (16 December 1882), 12.

وانظر أيضًا: ألكسندر شولش، مصر للمصريين، أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨–١٨٨٢م، ترجمة رءوف عباس (القاهرة ١٩٨٣م).

والفاطمية، والأيوبية، والمماليكية البحرية والبرجية، والعثمانية. وتولى فرانتز إدارة أمور اللجنة الفرعية الثانية بمعاونة بورجوان، (وهي التي عرفت — فيما بعد — بالقسم الفني)، التي اختصت بإصلاح المباني الأثرية وجمع الآثار لمتحف الفن العربي، فكانت بذلك القلب النابض للجنة الأصلية.

فرض بيرنج على مصر نوعًا من التضييق المالي الصارم، معطيًا الأولوية المطلقة لخدمة الدين العام المستحق للدائنين من الأوروبيين، وتغطية تكلفة الاحتلال. ففي العام ١٨٨٥م، أنفقت «لجنة حفظ آثار الفن العربي» ٣٦٥١ جنيهًا من ميزانيتها البالغ قدرها ٣٨٨٩ جنيهًا على إصلاح أربعين من المباني الأثرية أما باقي الميزانية فخصص لتغطية الرواتب، وشراء مستلزمات المتحف، وأثاث المكاتب. وتحملت نظارة الأوقاف — في بداية الأمر — ميزانية اللجنة بكاملها. وبحلول عام ١٨٩٦م، تحسنت ميزانية الحكومة، وأصبح بيرنج (وكان عندئذٍ اللورد كرومر) مستعدًا لأخذ نفقات أخرى في الاعتبار، فوافق على ما جاء بتقرير ستانلي لين بول — العضو الفخري باللجنة منذ عام ١٨٩٠م — من التوصية بأن يقوم «صندوق الدين العام» بتخصيص عشرين ألفًا من الجنيهات المصرية للجنة، وجعل كرومر من تقرير لين بول ملحقًا لتقريره السنوي.[٣٩]

وعندما بلغت اللجنة العام الخامس والعشرين من عمرها (١٩٠٦م) كانت قد أنفقت ما جملته ٢٠٥٫٥٠٠ جنيه مصري، شملت ١٦٦ ألفًا من الأوقاف، و٣٩ ألفًا من الميزانية العامة للدولة، و٥٠٠ جنيه من بطريركية الأقباط (بعد ما دخلت المباني التاريخية القبطية في اختصاص اللجنة)، منها ٢٩ ألفًا للمرتبات والباقي لإصلاح المباني التاريخية.[٤٠] واستمرت ميزانية اللجنة بمستوى محترم حتى الحرب العالمية الأولى التي فرضت ضغط الإنفاق الحكومي عامة.

وفيما يتعلق بفلسفة اللجنة الخاصة بالحفاظ على المباني التاريخية، اقترح كاتب بريطاني مجهول (عام ١٨٨٢م) أنه عند التعامل مع آثار القاهرة «كل ما يمكن عمله الآن هو المحافظة عليها بوضعها الحالي لأطول فترة ممكنة بالاستعانة بكل الوسائل العلمية، لإصلاح الأجزاء التي تحتاج إلى ذلك، وعدم التسرع في الترميم، ونسخ زخارفها، وعمل

[٣٩] Comité 4, 1886, PVS 21 (10 March 1886), xv.

[٤٠] Comité 23, 1906, PVS 148 (18 December 1906), 112.

نماذج لها، وشدها بالدعامات، وعمل مسح لها وهي لا تزال قائمة، وبذلك يتم المحافظة على تصاميمها وزخارفها ...»[٤١]

وفي العام ١٨٩٥م، كانت اللجنة تعالج الآثار معاملة مختلفة حسب الفترة التي تنتمي إليها. فالآثار «المبكرة والفريدة» مثل مساجد ابن طولون والفاطميين، تم تثبيتها على حالتها الراهنة — ولعل ذلك جاء تلبية لراسكين — بينما تم إجراء إصلاحات أساسية للمباني المماليكية والعثمانية العديدة،[٤٢] وفقًا لما ذهب إليه فيوليه لودوك. وعلى كلٍّ، تم فيما بعد تفكيك بقايا مسجد الصالح طلائع الذي ينتمي إلى العصر الفاطمي، وأزيلت مئذنته التي ترجع إلى العصر العثماني، وتمت إعادة بنائه بالكامل وفق الطراز الفاطمي.[٤٣]

وسواء تم الحفاظ على الآثار بحالتها الراهنة حسب الشق الأول من سياسة اللجنة، أو أعيد بناؤها وفق الشق الثاني، فقد تم عزل المباني الأثرية وحدها، فتمت إزالة الدكاكين والمساكن التي أقيمت — عشوائيًّا — حولها، فقد كانت تلك المنشآت — في نظر الأوروبيين — تحجب تلك المباني الأثرية عن النظر. وبذلك تحول حفظة الآثار إلى هادمين لغيرها من المنشآت التي ليست لها قيمة أثرية. واعترضت اللجنة — بالطبع — على إقامة أي مباني تتعدى على تلك الآثار المعزولة. وأتيحت للسياح فرصة الرؤية التامة للآثار وتصويرها فوتوغرافيًّا، ولكن على حساب النسيج الحي الذي كانت تلك الآثار محاطة به، فلم يدخل في الحسبان الحفاظ على الأحياء التاريخية أو الاهتمام بالمناطق المجاورة للأثر سواء في مصر أو في الغرب.

وأدى تركيز اللجنة على المساجد والأضرحة إلى ترك المنازل الأثرية دون حماية، ونزلت اللجنة — أحيانًا — عن موقفها إزاء خطط الهدم التي قامت بها مصلحة التنظيم لشق الشوارع وإقامة المباني العامة، ولكن ضم بيير جران — مدير عام المصلحة — إلى عضوية اللجنة أتاح لها فرصة سماع رأيها في تلك الخطط.

وحمل رجل الأعمال جورج بانجالو معه إلى بلاده صلاحيات اللجنة ورؤيتها للأمور. وما كان بلزوني — جامع الآثار الفرعونية المغامر الذي عمل لحساب المتحف البريطاني

[٤١] “Protection”, Architect, 4 August 1883, 66.

[٤٢] Comité 13, 1896, PVS 71 (14 November 1896), 104–11.

[٤٣] Bierman, “Medieval Cairo”, 7.

في العقود الأولى من القرن — ليعترض على ما فعله جورج بانجالو، ولكن سياسة كرومر المالية الصارمة حالت دون اشتراك مصر في معرض كولومبيا عام ١٨٩٣م بمدينة شيكاجو، وأدى ذلك إلى فتح الباب أمام بنجالو لإقامة «شوارع القاهرة» بالمعرض كمشروع استثماري خاص. فقام بالتعاقد مع ٢٥٠ من المصريين — من المشتغلين بالرقص الشرقي والحمَّارين إلى المؤذنين — ليلعبوا دور سكان «شوارع القاهرة» في المعرض، وجاب أنحاء القاهرة الحقيقية بحثًا عن التراث المعماري حتى يضفي نوعًا من الأصالة على النموذج الذي يسعى لإقامته بالمعرض، وكتب عن ذلك:

«كان تجار الآثار يخربون القاهرة القديمة خلال العقود الثلاثة الماضية لحساب السياح والفنانين والمتاحف. والآن جاء دوري للانضمام إلى أولئك المخربين ... ورغم ما أشعر به من خجل عندما أقول ذلك، مضيت في هذا العمل بهمة تفوق همة الوندال ...

وفي الكثير من الحالات كان من الضروري أن أقوم بدفع مبالغ مالية مقدمًا في مقابل انتزاع المشربيات من النوافذ والشرفات، وكذلك الأبواب لتستبدل بها نوافذ وشرفات وأبواب جديدة حديثة الطراز. وفي حالات أخرى كنت أشتري المبنى بكامله ثم أنتزع منه مشربياته، وأبيعه من جديد. وهكذا في حوالي تسعة شهور تم انتزاع كل المشغولات الخشبية مما يزيد على ١٥ منزلًا، كما أسهم ما يزيد على ٥٠ منزلًا أخرى بمشربياته وأبوابه، وغيرها.»[٤٤]

وتعاقد ماكس هرتز — حامي حمى التراث الإسلامي المعماري في مصر — مع ذلك الذي وصف نفسه «بالوندال» ليكون مستشارًا له في تصميم مشروعه «شوارع القاهرة»، ولم تعترض اللجنة على ذلك على أساس أن هرتز قدم استشارته في غير أوقات العمل الرسمية، ولعل هرتز أقنع اللجنة بأنه لا ولاية لها على المباني غير المسجلة في قائمتها، وأن تلك المباني تتداعى بالفعل، وأن إعادة تجميع المشغولات الخشبية التي تنتزع منها في معرض كولومبيا يحفظها من الدمار الفوري.

تكوين علي بهجت

عند تأسيس اللجنة عام ١٨٨١م، كان علي بهجت قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره، وبدأ يعمل مدرسًا للغة الفرنسية بالمدارس. جاء علي بهجت من قرية باها العجوز التي

[٤٤] Georges Pangalo, “The Story of Some Old Friends”, Cosmopolitan 23 (1897), 277–88.

تقع على مسافة بضعة أميال من بني سويف حاضرة المديرية، وكان ينتمي إلى إحدى عائلات الأعيان شأنه في ذلك شأن علي مبارك، ومحمد عبده، وأحمد لطفي السيد، ولكنه اختلف عنهم في انحداره من أصل تركي، فقد كان جده لأبيه — علي أغا — يتولى منصبًا بالشرقية في عهد محمد علي، وحصل على ضيعة بقرية بها العجوز كمعاش له بعد تقاعده، حيث كان مسقط رأس ابنه محمود بك علي (والد بهجت) الذي كان موظفًا بمصلحة الدومين (الأراضي الأميرية) وتزوج من ابنة موظف تركي من قرية مجاورة. ويذهب مترجمو بهجت إلى أن العائلات التركية في الأقاليم نفرت من مخالطة جيرانها من المصريين، وأن بهجت أحب الوحدة، ولم يتواصل اجتماعيًّا إلا نادرًا، وكان يتسم بالحدة والصرامة.[٤٥]

وكانت المدارس الحكومية — أيام إسماعيل — تفتح أمام خريجها طريق الدخول في زمرة النخبة في الجيل التالي. وشق بهجت طريقه في تلك المدارس: المبتديان بالناصرية، المدرسة التجهيزية، المهندسخانة، ومدرسة الألسن. وتركت الدروس العربية التي تلقَّاها على الشيخ حسونة النواوي — الذي أصبح شيخًا للأزهر فيما بعد — أثرًا كبيرًا في نفسه شأنه في ذلك شأن صديقه أحمد لطفي السيد.[٤٦] ولم يكن بهجت متميزًا في دراسته، ولكن إتقانه للغات الأوروبية خدمه كثيرًا. فقد تخرج في مدرسة الألسن وقد أجاد العربية والفرنسية والألمانية والتركية، مما يسر له التنافس مع الشوام الذين احتكروا العمل كمترجمين في عهد إسماعيل وفي عهد الاحتلال البريطاني.

وبدأ علي بهجت عمله مدرسًا للغة الفرنسية بالمدرسة التجهيزية في ٩ أكتوبر ١٨٨١م، بعد نجاح عرابي في إسقاط وزارة رياض بشهر واحد، وقبل تأسيس لجنة حفظ الآثار بعشرة أسابيع، وكان راتبه خمسة جنيهات شهريًّا. وبعد ذلك بخمس سنوات، أصبح مفتشًا للغة الفرنسية بالمدارس الابتدائية التابعة للأوقاف، ثم تولَّى تدريس الفرنسية بمدرسة الخديوية الثانوية، وعند بداية القرن العشرين كان راتبه قد أصبح ٢٨ جنيهًا عندما أصبح كبير المترجمين بنظارة المعارف. وفي عام ١٩٠١م ترك خدمة المعارف بعد

---

[٤٥] حول سيرة علي بهجت، راجع: توفيق إسكاروس، «علي بهجت وفضله على علم الآثار العربية في مصر»، الهلال ٣٢، عدد ٨ (أول مايو ١٩٢٤م) ٨٥٦–٨٦١. وانظر أيضًا: دار المحفوظات العمومية، ملفات الخدمة والمعاشات، مخزن ١٠٥، دولاب ٣٧، عين ٣، محفظة ٧٦٧، ملف ٢١١٧٥.

[٤٦] أحمد لطفي السيد، قصة حياتي، (القاهرة ١٩٦٢م)، ٢٥.

خدمة عشرين عامًا أهلته للحصول على معاش، وتفرغ للعمل بلجنة حفظ آثار الفن العربي.[٤٧]

وقبل ذلك بحوالي العامين — في يناير ١٩٠٠م — انضم علي بهجت إلى اللجنة إلى جانب أعضائها الأوروبيين التسعة، والمصريين الاثني عشر وكان من بين المصريين ثمانية من المسلمين وقبطيان وأرمينيان. جاء أربعة من الأعضاء المسلمين من نظارة الأوقاف، واثنان من النظار (رئيس مجلس النظار مصطفى فهمي الذي كان حضوره اجتماعات اللجنة نادرًا، وحسين فخري)، وواحد من كل من مصلحة السكك الحديدية، ونظارة الداخلية. وكان أحد الأقباط موظفًا سابقًا بالمالية، والآخر موظفًا بنظارة الحقانية (العدل). أما الأرمينيان فهما تيجران باشا ناظر الخارجية السابق، ويعقوب أرتين وكيل المعارف. وكان أعضاء اللجنة من الأوروبيين: ماسبيرو مدير عام الآثار، وبول كازانوفا المستشرق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية، وفرنسي آخر على الأقل، وألمانيان، وإنجليزي واحد، وإيطالي واحد، وهرتز النمساوي-المجري. ويتضح مسار حياة علي بهجت العملية بعد التحاقه باللجنة من إلقاء نظرة فاحصة على العلاقات بين المصريين والأوروبيين باللجنة ومتحف الفن العربي.

علي مبارك وحفظة الآثار من الأوروبيين

كان علي مبارك أول من اصطدم بالأوروبيين من أعضاء اللجنة، ورغم انضمامه إلى توفيق ضد عرابي، ثم مشايعته للاحتلال البريطاني، ينظر المصريون إليه اليوم كبطل وطني للإصلاح الثقافي. وقد اختلف مبارك مع الأوروبيين من أعضاء اللجنة في اجتماعها الأول (ديسمبر ١٨٨٢م)، سواء كان ذلك بدافع وطني، أو بنظرة مهندس ضاق ذرعًا بحفظة الآثار الذين يعارضون رؤيته للتقدم، فهو — على أية حال — كان وراء مشروع التجديد الحضري الذي رعاه إسماعيل، وهو الذي شق شارع محمد علي، فاجتاح في طريقه مئات المنازل في منطقة مكتظة بالمباني. وجاء تكوين اللجنة ليضع حدودًا لحركته. (انظر الشكل ٣٨).

كان أعضاء بعينهم من الأوروبيين يتحكمون في اللجنة من خلال تركيبة معينة تجمع بين الأهداف السياسية، والخبرة، والعمل الجاد. أما المصريون من الأعضاء، فكان معظمهم

[٤٧] ملف معاش علي بهجت.

أقل اهتمامًا بعمل اللجنة، وربما كان مرد ذلك إلى انشغالهم بأمور أخرى لها الأولوية عندهم، أو لضيقهم بالهيمنة الأجنبية، أو ضعف لغتهم الفرنسية، أو افتقارهم إلى الخبرة الفنية. وأدى ذلك إلى تقوية ما أكده الأوروبيون من أن مصر ليست مهيأة للحفاظ على آثارها. وعلى الصعيد الشعبي كانت اللجنة تواجه بالكراهية والمقاومة لهدمها الدكاكين والمنشآت التي أحاطت بالمباني الأثرية، وإن كان ذلك يحتاج إلى المزيد من الدراسة.[٤٨]

ولكن المصريين لم يهملوا الآثار على نحو ما اعتقد شارم، ولين بول فقد توقف الجبرتي أمام تخريب الحملة الفرنسية لقلعة القاهرة، فسجل النتائج السلبية التي ترتبت على هدمهم لبعض مبانيها مثل قصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي وبعض الجوامع والزوايا، وتغييرهم لمعالم جامع الملك الناصر محمد بن قلاوون، واعتبر الجبرتي تصرفهم هذا تصرف أعداء الدين.[٤٩]

كان معظم المصريين يرتبطون دينيًّا بالمباني الأثرية دون أن تعنيهم القيمة التاريخية أو الفنية لتلك المباني؛ فالناس على اختلاف مراكزهم الاجتماعية يقدرون الأزهر، وجامع السيدة زينب، والإمام الشافعي، والسيد أحمد البدوي (بطنطا). فالإيمان بالقرآن ورسالته، وبالنصوص الدينية الأخرى يكشف عن مدى الارتباط بطراز معماري معين أو زخرفة في مبنى مجدد مهما كان قديمًا أو جميلًا من وجهة نظر الغربيين. فمعظم المصريين يعتبرون المساجد مراكز للعبادة أو الدراسة، وشعروا بالامتعاض من اتجاه الآثار إلى الاهتمام بإبراز جمالها وتاريخها أو حمايتها كأثر من أجل توفير المتعة للسياح والعلماء.

وقد شهدت المساجد — على مر القرون — أعمال هدم، وتوسيع، وإعادة بناء ... فلماذا يجمد وضع المبنى، بعدما تجاوز الزمن والغرض والطراز الذي كان يمثله في الأصل؟ فالقلل، والنسيج، والمشربيات، وأعمال الزخرفة، والحلي التي توضع اليوم في متحف الفن العربي كانت تستخدم في الحياة اليومية للأغنياء والفقراء، والآن بعدما اجتاح مصر الطراز الغربي في العمارة، والأثاث، واللباس، يأتي الأوروبيون بسطوتهم وبتأثرهم بالتطور الصناعي والسياسي في بلادهم، ليتدخلوا للحفاظ على «الفن العربي» الذي اعتبروه جميلًا، وأصيلًا، و«تقليديًّا». لعل «الحفاظ» — في حد ذاته — يحتاج إلى إيضاح.

---

٤٨ Comité 6, 1895, R 69, 121–28.

٤٩ الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس في مصر.

لقد وافق علي مبارك على ما ذهب إليه المستشرقون من أن القاهرة قد تداعت في العصر العثماني، فأشار إلى الخرائب وأكوام النفايات الضارة بالصحة، «حتى أرسل الله محمد علي باشا» ليصلح من شأنها.[٥٠] ولكن مبارك عارض المستشرقين عندما أشاد بالمباني ذات الطراز الغربي التي أقامتها أسرة محمد علي، باعتبارها علامة على الحضارة والتقدم.

ففي «الخطط التوفيقية الجديدة»، لم يقم مبارك باستخدام «الاحداثات الدالة، أو ما كان يسمى بالذاكرة البصرية ... فالقاهرة عنده كانت مدينة مواقع، جرى فيها تواصل اجتماعي، وكانت الذاكرة الجمعية فيها فاعلة، فهي ليست مجرد مدينة مواقع أو مناظر.»[٥١]

وإذا أمعنا النظر فيما بين سطور مضابط اللجنة، نستشف نوعًا من المقاومة من جانب مبارك أولًا، ثم من جانب المصريين، في مواجهة الهيمنة الأوروبية؛ ففي اجتماع ديسمبر ١٨٨٢م، اقترح مبارك إزالة السبيل القائم بالقرب من باب زويلة لإعاقته حركة مرور العربات ودواب الحمل، وردَّ الأوروبيون بأن عمل اللجنة هو المحافظة لا الهدم. وتشير المضابط إلى أن مبارك لم يحضر سوى اجتماع واحد أو اثنين بعد ذلك، ولا نجد بالمضابط ما يشير إلى تعليقات أخرى أبداها في الاجتماع، ثم استقال من اللجنة بحجة تزايد أعباءه الوزارية. وبعد ذلك بسنوات عندما أصبح ناظرًا للمعارف، رفض طلب اللجنة نقل متحف الفن العربي إلى الغرف الخالية بمبنى النظارة، وربما كان ذلك يشفي غليله.[٥٢]

كان علي مبارك مستنيرًا، مهتمًّا بالماضي الإسلامي لبلاده. فقد تناولت «الخطط التوفيقية الجديدة» تاريخ البلاد وآثارها بتفصيل مستفيض، فعبَّر مبارك عن الحنين إلى المجد الإسلامي الغابر، وتحسر على الفسطاط، وهو ينظر إليها من فوق مئذنة مسجد عمرو بن العاص.[٥٣]

ولا تدين «الخطط التوفيقية» للمصادر العربية وحدها، ولكنها تدين أيضًا لوصف مصر والعديد من الكتب الأوروبية في القرن التاسع عشر. فقد تعلَّم مبارك في باريس،

---

٥٠ M. J. Reimer, “Contradiction and Consciousness in Ali Mubarak’s Description of Al-Azhar”, IJMES 29 (1997), 55.

٥١ Bierman, “Medieval Cairo”.

٥٢ Comité 1, 1882–1883, PVS 2 (16 December 1882), 14–16.

٥٣ Jacques Berque, Egypt: Imperialism and Revolution, (New York, 1972), 72–73.

وترجم كتاب «تاريخ العرب» لسيديلو عن الفرنسية، واتفق مع ما توصل إليه مؤلف الكتاب — المتخصص في العصور الوسطى — من استنتاجات حول تدهور أحوال العرب تحت الحكم العثماني، مشيدًا بأسرة محمد علي لانخراطها في عصر الحضارة والتقدم.[٥٤] كذلك قدم علي مبارك «المستشرق البريطاني» في كتاب الروائي «علم الدين» بصورة إيجابية.

كان هناك — أو أصبح هناك — مصريون يهتمون بحفظ الآثار الخاصة بالفن الإسلامي، ولكن كان عليهم أن يحاربوا على عدة جبهات في وقت واحد. فإذا كانوا يريدون الاحتراف، فعليهم أن يتتلمذوا على أيدي المعلمين الأوروبيين، فعدم المراعاة الكافية للأوروبيين على الصعيد المهني، والإذعان لهيمنتهم السياسية، بسبب النوازع الوطنية أو الاعتداد بالذات، قد يؤدي إلى تدمير الحياة العلمية للمصري. كذلك لم يكن يسهل عليهم إقناع إخوانهم المصريين أن الحفاظ على ما صنفه الأوروبيون كتحفة من الفن والعمارة الإسلامية، يجب أن تكون له الأولوية على الحاجات الأخرى الملحة.

وقد يصوغ الأوروبيون المدائح البليغة في تحف الفن الإسلامي والعمارة الإسلامية، في بلد خاضع لاستعمارهم، ولكن سيطرتهم على ذلك المجال تعود إلى ما يعانون من القبح الناجم عن الصناعة في بلادهم الأصلية. فلا يعرف أحد كيف يمكن الحفاظ على القديم وتحقيق التحديث في الوقت نفسه. فعندما اندفع الخديو إسماعيل ومبارك نحو التحديث على الطراز الأوروبي، رفضا السماح للحنين إلى الماضي أن يقف في طريقهما. وانتصر المهندس على الآثاري في شخصية مبارك ذات الجوانب المتعددة، عندما قال: «هل نحن بحاجة إلى كل هذه الآثار مجتمعة؟ ألا يكفي الاحتفاظ بعينة منها؟» فقد كان باب زويلة يُستخدم من قبل لشنق المجرمين، «ونحن لا نريد الحفاظ على هذه الذكريات، بل علينا تحطيمها كما حطم الفرنسيون سجن الباستيل.»[٥٥]

وتلتزم مضابط اللجنة الصمت بالنسبة لحسين فهمي وكيل نظارة الأوقاف. فلا ندري ما كان يدور بخلده وهو يستمع إلى المشادة التي وقعت بين مبارك والأوروبيين. كان حسين فهمي زميلًا لعلي مبارك وإسماعيل في باريس، حيث درس الإدارة المدنية والهندسية. وعند عودته إلى مصر أسندت إليه مهمة تصميم عمارة مسجد الرفاعي بتكليف من أم الخديو إسماعيل (الوالدة باشا)، فجاء التصميم خليطًا من الطرز الأوروبية والإسلامية.

---

٥٤ Reimer, “Contradiction”, 57–66 n. 24.

٥٥ Marcel Clerget, Le Caire, 2 vols. (Cairo, 1934), 1: 337.

وقام أيضًا بتصميم المباني الحكومية الأخرى، وعبر فهمي عن حبه للفن الإسلامي عام ١٩٠٣م، عندما أعادت الكتبخانة الخديوية تجليد المخطوطات القديمة، واستغنت عن الأغلفة القديمة، قام حسين فهمي بشرائها ليعرضها في منزله «الذي كان أقرب ما يكون إلى متحف للفن العربي».[٥٦]

التمثيل الوطني الأوروبي في اللجنة

جمعت بين أفراد تلك الحلقة الصغيرة من الأوروبيين بالقاهرة، الذين أحبوا الفن الإسلامي، رابطة كوزموبوليتانية، غير أنهم لم ينسوا جنسياتهم، ومكانة بلادهم بين غيرها من بلاد أوروبا في مصر، من النواحي السياسية، والاجتماعية، والثقافية.

كانت الفرنسية لغة العمل باللجنة، ومصلحة الآثار المصرية، والمتحف المصري، والمحاكم المختلطة، والطبقة العليا في المجتمع. ورغم ذلك كانت اليد العليا في اللجنة والكتبخانة الخديوية للألمان حتى عام ١٩١٤م؛ فالوجود النمساوي-المجري، والألماني بنظارة الأوقاف يعود إلى أيام إسماعيل، عندما قام نمساوي-مجري بحشد الضغوط لتنفيذ الأمر الذي كان قد صدر عام ١٨٦٩م لحماية الآثار العربية، وإقامة متحف للفن العربي. وعندما تأسست اللجنة بعد ذلك باثني عشر عامًا، كان فرانتز ما زال موجودًا ليتولى مسئوليتها. وقد نجح هو وماكس هرتز في توجيه اللجنة ومتحف الفن العربي لمدة ٣٣ عامًا. وجاء الجمع بين الكتبخانة ومتحف الفن العربي في مبنى واحد عام ١٩٠٣م ليدعم المعقل الثقافي الألماني في مصر.

كان ماكس هرتز مجريًّا يهوديًّا، جاء إلى مصر عام ١٨٨١م معلمًا خاصًّا لأبناء أحد أصحاب الفنادق الأوروبيين (كانت إمبراطورية النمسا والمجر قد بسطت حمايتها على بعض اليهود السكندريين قبل عدة عقود من السنين). وما لبث فرانتز أن ألحق هرتز بخدمة الأوقاف واللجنة، ليعمل معه كمساعد معماري. وورث هرتز الوظيفتين بعد تقاعد فرانتز عام ١٨٨٨م. وظل متحف الفن العربي بعيدًا عن اختصاصه لأربع سنوات حتى أضافه هرتز إلى مسئولياته بصفة رسمية عام ١٨٩٢م. وأدى انكباب فرانتز وهرتز على الاشتغال يوميًّا بالعمارة الإسلامية والفن الإسلامي والمتحف، إلى مساعدتهما على اكتساب

---

[٥٦] Heyworth-Dunne, Education, 237.

خبرة، كان معظم أعضاء اللجنة يفتقرون إليها، ولما كانت اللجنة تجتمع خمس أو ست مرات سنويًّا، فقد قبلت — عادة — بآرائهما المهنية.[٥٧]

وكان اثنان من بين المستشرقين الألمان الخمسة الذين تعاقبوا على إدارة الكتبخانة الخديوية فيما بين ١٨٧٠ و١٩١٤م، عضوين باللجنة وهما: كارل فولورز، وبرنهارد موريتز. كذلك كان دي مول — ممثل ألمانيا بصندوق الدين العام — عضوًا باللجنة، وضمت اللجنة — بالإضافة إلى هرتز — نمساويًّا — مجريًّا آخر، هو الكونت تشارلز الوسكي، الذي كان يقيم بإحدى فيلات بودري ذات الطراز العربي.

وأدى تفوق الألمانية كلغة وسيطة في حقل الاستشراق — بما في ذلك الفن الإسلامي — إلى إضفاء أهمية ثقافية على الوجود الألماني-النمساوي-المجري باللجنة والكتبخانة الخديوية. ولكن كانت الأهمية السياسية لذلك الوجود محدودة، حتى عندما سعى الألمان للاحتفاظ بمواقعهم في الكتبخانة والمتحف المصري في السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى، بعدما وافق الإنجليز — عام ١٩٠٤م — على أن يكون مدير عام مصلحة الآثار فرنسيًّا، وعدوا الألمان بأن يكون مدير الكتبخانة ألمانيًّا، وقد أثارت تلك الاتفاقات غضب المصريين الذين لم يكن باستطاعتهم الاعتراض عليها، كما أنها تمت من وراء ظهورهم. وعندما انتهت مدة عمل بونهارد موريتز مدير الكتبخانة عام ١٩١١م، تدخل القيصر فيلهلم الثاني شخصيًّا للحفاظ على التمثيل الألماني في المؤسَّسات الثقافية المصرية. ولكن البريطانيين رفضوا المرشح الألماني لخلافة مورتيز في منصبه، وهو الدكتور كورت بروفر، الذي كان سكرتيرًا شرقيًّا للقنصلية الألمانية بالقاهرة، وخشي البريطانيون أن يضعه هذا المنصب «في اتصال يومي مباشر مع المثقفين من شباب المصريين». وفشلت جهود الحكومة المصرية لتعيين أحمد زكي — سكرتير مجلس النظار — مديرًا للكتبخانة. وفي عام ١٩١٣م، تولَّى المنصب مستشرق ألماني هو الدكتور آرثر شاد، الذي تم إبعاده عن مصر عند قيام الحرب العالمية الأولى، وقام بروفر وشاد بالخدمة مع المخابرات الألمانية في فلسطين، مستفيدين في ذلك من قدراتهما اللغوية.[٥٨]

---

[٥٧] توفيق إسكاروس «ماكس هرتز باشا»، الهلال ١٠ (أول يوليو ١٩١٩م)، ٩٢١–٩٢٨.

[٥٨] نجيب العقيقي، المستشرقون (القاهرة، ١٩٨٠م)، ٢: ٣٩٨–٣٩٩، ٤٠٣–٤٠٤. وانظر أيضًا: دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، نظارة المعارف، رقم ٢٢، الكتبخانة والخديوية، ١٩١٢م.

تعلَّم نفر قليل من المصريين اللغة الألمانية، على عكس الأتراك في مركز الدولة العثمانية. وكان من بين القلة الذين تعلموا الألمانية علي بهجت، وعباس الثاني، وأحمد كمال. فقد درس عباس بمدرسة تريزيانوم بفيينا، واختار أنطونيو لاسياك — الذي وُلد نمساويًّا مجريًّا رغم كونه وطنيًّا إيطاليًّا — ليعمل مهندسًا معماريًّا بقصره. كان توسع النمسا والمجر على حساب الدولة العثمانية في البلقان يجعلها موضع بغض المسلمين، ولكن الروابط العسكرية والسياسية والثقافية الألمانية مع إستانبول والأناضول والهلال الخصيب، زودت بعضها البعض بعوامل القوة. وكان خط سكك حديد برلين — بغداد رمزًا لهذا التحالف، وعندما قام القيصر فيلهلم الثاني بزيارة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٩٨م) أخذ معه إلى برلين من إستانبول والقدس، كمية كبيرة من الآثار التي شغلت مساحة كبيرة من مبنى المتحف الإمبراطوري الجديد ببرلين.[٥٩]

وكان التنافس الأنجلو-فرنسي في مصلحة الآثار والمعارف يطل برأسه — أحيانًا — في لجنة حفظ الآثار العربية. ففي سياق ترويجه لتأسيس اللجنة، ذكر شارم: «يحق لفرنسا أن تفخر لاكتشافها مصر الحديثة، واسترجاعها لمصر القديمة الذي يمهد الطريق لمصر المستقبل: فهل تترك للآخرين إبراز مصر العربية، وجعلها معروفة للعالم؟»[٦٠]

ولم يتوانَ لين بول عن إبراز خشيته من الفرنسيين كتابة: «إن أصدقاءنا الفرنسيين الذين يعيِّروننا بعادة كتابة أسمائنا على الآثار (بينما معظم الأسماء الكبيرة البارزة أسماء فرنسية)، هم أكبر المخربين للقاهرة، فأين ذهبت الأبواب البرونزية المفقودة من المساجد، وغيرها من كنوز الفن العربي ... التي لم نعد نراها؟ إنها في باريس، وإذا سألنا عن ذلك الهمجي الذي اقتلع مربعًا كبيرًا من الفسيفساء بجامع برسباي بالقرافة الشرقية، سيدهشنا البواب عندما يجيبنا: إنه مارييت المستنير، الذي ينحي باللائمة على السياح الإنجليز، والذي قام بتخريب الفسيفساء ليرسل شيئًا منها إلى معرض باريس.»[٦١]

ويبدو أن كرومر لم يساوره القلق إزاء النفوذ الفرنسي في اللجنة التي تعاقب على عضويتها مديرو مصلحة الآثار المصرية، وباحثو المعهد الفرنسي للآثار الشرقية. فلم يزد

---

[٥٩] Rogers, From Imperialism to Islamic Archaeology, (Cairo, 1974), 55–61.

[٦٠] Charmes, “L’Art arabe”.

[٦١] Lane-Poole, Cairo, 103.

عدد البريطانيين باللجنة على عدد الفرنسيين إلا في الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما كان التمصير قد بدأ.

وقد أزاحت وفاة روجرز عام ١٨٨٥م، العضو البريطاني الوحيد باللجنة. ولكن ما لبث المستشار البريطاني لنظارة الأشغال العمومية (سكوت مونكريف، ثم وليم جارستن)، والمستشار البريطاني للمالية (إدجار فنسنت)، أن قاما بملء هذه الفجوة. ورغم أنهما لم يكونا على درجة من العناية بالفن الإسلامي مثل روجرز، فإن وجودهما باللجنة أقام جسرًا متينًا بين اللجنة ودار المعتمد البريطاني. وكان انضمام المعماري سومرز كلارك إلى اللجنة، عندما اتسعت مسئولياتها لتشمل الآثار القبطية في التسعينيات، يمثل إضافة واضحة. وانضم كذلك (عام ١٩١٠م) هاري فارنول من «صندوق الدين العام، وما لبث أن أصبح صاحب الصوت القيادي البريطاني في اللجنة.»[٦٢]

ولم يكن لإيطاليا صوت باللجنة حتى انضمام المعماري ألفونسو ما نيشالو إليها عام ١٨٩٧م، وأصبح بوتِّي أمين المتحف اليوناني-الروماني عضوًا مراسلًا.[٦٣] أما اليونان التي اتجهت إليها أنظار النخبة السياسية في الغرب، فلم تكن ممثلة في ميداني المصريات، والدراسات الشرقية، على حد سواء.

متحف الفن العربي

انتقل متحف الفن العربي — خلال عقدين من الزمان — من مكان لآخر، فأقيم بمسجد الحاكم بأمر الله، بالقرب من أحد أبواب القاهرة الفاطمية الشمالية. وكان المسجد خربًا في مطلع الثمانينيات، عندما قامت نظارة الأوقاف، ولجنة حفظ الآثار بإزالة الركام، وسوت أرض الصحن، ورمم القسم الأوسط من المصلى لإقامة المتحف وكان من المقرر إقامة مدرسة للفنون في الصحن.[٦٤]

---

٦٢ On Clarke, see Who Was Who 3: 100–101; On Farnell, see, Dictionary of National Biography, 1929–1940, 431.

٦٣ بالنسبة للإيطاليين في مصر، انظر: Angelo Sammarco, Gli Italiani in Egitto (Alexandria, 1937).

٦٤ Karl Baedeker, Egypt: Part First, Lower Egypt with the Fayum and the peninsula of Sinai, (Leipzig, 1885), 280.

وقام فرانتز بحشد مجموعة من آثار التراث الفني الإسلامي، وقدم روجرز ويعقوب أرتين المشورة حول كيفية ترتيبها. وفي العام ١٨٨٣م، أضافت اللجنة مبنى مؤقت في صحن المسجد لاستيعاب الآثار التي تدفقت على المتحف، وافتُتح المتحف عام ١٨٨٤م، ولم يعيَّن سوى حارس. وعندما تبيَّن للجنة أنه «لا يرتدي زيًّا مناسبًا، ولا يتَّسم بحسن السلوك، وغير قادر على الشرح لزوار المتحف»، قررت اللجنة البحث عن «أفندي متعلم، تتوفر لديه القدرات المطلوبة، ويجيد التحدث بالفرنسية».[٦٥] وحتى عام ١٨٩٥م، لم يكن هناك سوى نسختين من مخطوطتين من كتالوج المتحف. ففي ذلك التاريخ قام هرتز بطبع دليل فرنسي لمقتنيات المتحف، وقام ستانلي لين بول بترجمته إلى الإنجليزية.[٦٦] وقد تم تنسيق المتحف على أساس المواد التي صنعت منها المعروضات: الزجاج، والمعادن، والخزف، والخشب، إلخ. وقد ملأت المعروضات ثماني غرف، وممرًّا وملحقين.

وكان هذا المتحف المؤقت لا تقع عليه عيون السياح تقريبًا في وقت كانت فيه المجموعات الإسلامية بمتاحف الغرب أفضل قليلًا. فعندما أسس متاحف بولاق، استطاع مارييت أن يستلهم الأفكار الخاصة بالتنسيق من متاحف باريس ولندن وبرلين وتورينو، ولكن مجموعات الفن الإسلامي كانت تتحسس طريقها في أوروبا ومصر على السواء بعد جيل كامل.

فقد ذهبت الآثار الإسلامية التي عرضت بمعرض كرستال بالاس عام ١٨٥١م، إلى متحف الفن الزخرفي، الذي أصبح — فيما بعد — متحف ساوث كنجستون، ثم متحف فيكتوريا وألبرت. كما أن الآثار الإسلامية التي عرضت بمتحف باريس ١٨٦٧م — أيضًا — أثرت مقتنيات باريس من تلك الآثار. وفي أعقاب الاحتلال البريطاني، أوفد متحف ساوث كنجستون، ستانلي لين بول إلى مصر لشراء قطع أثرية مما كان معروضًا بالسوق عندئذٍ. وفي العام ١٨٩١م، احتوى المتحف السلطاني للآثار في مبناه الجديد بحديقة قصر طوب قابي، على قسم للآثار الإسلامية.[٦٧] وأقام فردريش سار قسمًا إسلاميًّا بمتحف الدولة ببرلين عام ١٩٠٤م.

وبحلول عام ١٨٩٨م بدأ العمل في بناء المتحف المصري الجديد، بعدما استطاع كرومر إقناع «صندوق الدين العام» بتخصيص ٤٥ ألف جنيه مصري لإقامة بناء يضم

---

[٦٥] Comité 11, 1894, R 165: 3–54.

[٦٦] Baedeker, 1895, 73.

[٦٧] Crinson, Empire Building, 65; Lane-Poole, Cairo, 114–18.

الكتبخانة الخديوية ومتحف الفن العربي معًا. ولما كانت واجهة المتحف اليوناني-الروماني بالإسكندرية قد صممت على شكل معبد دوري، فلماذا لا تتخذ واجهة مبنى الكتبخانة ومتحف الفن العربي طابعًا إسلاميًّا جديدًا، وخاصة أن الكتبخانة تضم مجموعات رائعة من أهم المخطوطات العربية والإسلامية في العالم؟

قام ألفونسو مانيشالو — المعماري الإيطالي الذي انضم للجنة عام ١٨٩٧م — بتصميم المبنى (انظر الشكل ٣٩) الذي استلهم العمارة المماليكية مع بعض الملامح الأندلسية، ورغم هذا التصميم والزخارف الإسلامية، وكان المبنى يتفق مع الأفكار الغربية المتصلة بالمكتبات العامة والمتاحف، واحتل المتحف الدور الأرضي، بينما احتلت الكتبخانة — التي كان لها مدخلًا مستقلًّا — الدور العلوي.[٦٨]

وكان موقع المبنى مناسبًا أيضًا، بشارع محمد علي بباب الخلق عند التقاء القاهرة القديمة بالقاهرة الحديثة (انظر الخريطة ٢). وعلى بعد بضعة مربعات شرقًا يقع جامع المؤيد وباب زويلة. الذي يحرس مدخل القاهرة الفاطمية، وإلى الغرب وقف قصر عابدين والمدينة الحديثة. ويقع المبنى عند تقاطع شارع محمد علي مع شارع الخليج متخذًا موقعًا وسطًا بينهما. وعلى نقيض المتحف المصري الذي كُتبت لوحة تأسيسه باللاتينية، لم تحمل لوحة تأسيس مبنى المتحف والكتبخانة سوى اسم عباس الثاني بالعربية وحدها.

وفي ٢٨ ديسمبر ١٩٠٣م، قام الخديو عباس الثاني بافتتاح «هذا المبنى البديع ذي الطراز العربي»، بحضور اللورد كرومر، وقناصل الدول، والنظار، والشيخ حسونة النواوي شيخ الأزهر السابق والشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، وشيخَي الطريقة البكرية والطريقة السادانية.[٦٩] وأصبح المتحف بحاجة إلى دليل جديد، طبعه هرتز عام ١٩٠٦م.

أصبح من الواضح بعد الافتتاح أن محاولة تدبير ميزانية سنوية للمتحف من إيرادات أراضي الوقف المخصصة له قد باءت بالفشل. فقد كان من المتوقع أن تصل الإيرادات إلى ٢٠٩٣ جنيهًا سنويًّا، ولكن كان متوسط إيراد أراضي الوقف فيما بين ١٩٠٠ و١٩٠٤م

[٦٨] Tarek M. R. Sakr, Early, Twentieth-Century Islamic Architecture in Cairo (Cairo, 1993), 22-23.

[٦٩] أحمد شفيق، مذكراتي في نصف قرن، ٢؛ وانظر أيضًا: Baedeker, 1908, 88.

لا يتجاوز ١١٦٠ جنيهًا سنويًّا. واضطرت الحكومة أن تخصص للمتحف ميزانية سنوية قدرها ٢٠٣٥ جنيهًا من الموازنة العامة، مع زيادتها مرة واحدة لتغطية العجز المتراكم.[٧٠]

وعندما كان المتحف لا يزال في مكانه القديم في التسعينيات، أعرب لين بول عن تشككه من أن يكون واحدًا من بين كل مائة سائح قد سمع بوجوده. وأولئك الذين عرفوا طريقهم إليه كانوا يظنونه المتحف الفرعوني.[٧١] ولكن متحف الفن العربي لم يستطع منافسة المتحف المصري رغم موقعه المتميز — كعلامة ثقافية بارزة سواء في عيون الغربيين أو المصريين، وتكلف بناء المتحف المصري الجديد عام ١٩٠٢م أربعة أضعاف ما تكلفه مبنى الكتبخانة ومتحف الفن العربي. وما زال المتحف المصري اليوم علامة ثقافية بارزة في ميدان القاهرة المركزي، رغم تطاول فندق هيلتون ومبنى جامعة الدول العربية ومبنى المجمع عليه، بينما يقع متحف الفن العربي في مكان لا يقطعه السياح إلا نادرًا. وحدد دليل بايدكر السياحي للعام ١٩٠٨م قيمة كل من المتحفين من وجهة نظر صناعة السياحة، فخصص الدليل ٢٤ صفحة للمتحف المصري وخريطة مطوية لطابقيه، ولم ينل متحف الفن العربي سوى صفحتين ونصف الصفحة.[٧٢] وفي العام ١٩١٣م بلغ عدد زوار المتحف المصري ٢٩٫٨٧٩ زائرًا، ويمثل هذا العدد ستة أضعاف زوار متحف الفن العربي البالغ عددهم ٥١٦٦ زائرًا.[٧٣]

العمارة الإسلامية الجديدة

وجاء تصميم مانيشالو لمبنى متحف الفن العربي والكتبخانة، والتصميم المعدل الذي وضعه هرتز لاستكمال مسجد الرفاعي، ولمبنى نظارة الأوقاف الجديد، جاء ليضع أعضاء اللجنة قرب مركز إحياء العمارة «العربية» أو الإسلامية بالقاهرة. وكلمة «إحياء» تفترض وجود تدهور سابق عليها، فعند منتصف القرن التاسع عشر، عزفت مصر عن اتباع الطرز المماليكية والعثمانية في تشييد المباني الرئيسية. وكان مسجد محمد علي بالقلعة من حيث الطراز المعماري نقلًا حرفيًّا للمساجد السلطانية بإستانبول، في تحد رمزي

[٧٠] Comité 21, 1905, PVS (3 January 1905), 3–7; PVS (4 April 1905).

[٧١] Lane-Poole, Cairo, 98.

[٧٢] Baedeker, 1908, 58–60, 75–99.

[٧٣] Annuaire statistique de l'Égypte, 1914 (Cairo, 1914), 104.

للسلطان الذي ناصبه محمد علي العداء. ولكن حتى عندما كان بناء المسجد يسير على قدم وساق في الثلاثينيات، كان الطهطاوي يسبح بحمد العمارة الباريسية «المتحضرة» باعتبارها نموذجًا يُحتذى.[٧٤] وعبر لين عن حزنه لما ترتب على إغارة العمارة الأوروبية على القاهرة من نتائج وخيمة. ففي عهد سعيد وإسماعيل، أقبل أثرياء المصريين والأجانب على إقامة المباني أوروبية الطراز، واحتكر الإيطاليون صناعة البناء والزخرفة في مصر.[٧٥]

ولم يكن إحياء العمارة الإسلامية سوى طراز أوروبي مستورد آخر، يمثل — بدرجة أقل — نهضة معمارية ذات طابع محلي. فقد كانت المنافسة في الغرب — في القرن التاسع عشر — قائمة على قدم وساق بين إحياء الطراز القوطي والروماني واليوناني، والكلاسيكية الجديدة التي تستلهم أفكارها من عصر النهضة، وأولئك الذين لم يقبلوا بأيٍّ من تلك الخيارات، اتجهوا نحو «الشرق العريق». فصمم جون ناش الجناح الملكي في برايتون (١٨١٥–١٨٢٣م) متأثرًا بالعمارة المغولية بشكل كان ملفتًا للنظر، ولكن أول مبنى بلندن استلهم العمارة الإسلامية كان البهو الملكي Royal Panopticon (عام ١٨٥٣م). وتأثر أوين جونز بدراسته لقصر الحمراء بالأندلس عند تصميمه الزخارف الداخلية للمعرض الكبير بكرستال بالاس (١٨١٥م)، كما تأثر بالقصر الإسلامي الذي أعيد بناؤه في سندام، وساعد كتابه «قواعد الزخرفة» (١٨٥٦م) على نشر التصاميم الإسلامية، وأصبحت الأجنحة ذات الطراز المعماري الإسلامي الجديد شائعة بجميع المعارض الدولية، ومن بينها جناح «شوارع القاهرة» بمعرض كولومبيا–شيكاجو سالف الذكر.[٧٦]

وفي باريس، تمسكت «مدرسة الفنون الجميلة»، ومجلس المباني الحكومية بالأفكار الكلاسيكية وأفكار عصر النهضة كمثال للجمال الكوني، في مواجهة اتجاه إحياء الطراز القوطي الذي دعا إليه فيوليه لودوك «ولجنة الآثار التاريخية»،[٧٧] وتنبأ شارم عام ١٨٨١م بأنه «سيأتي الوقت الذي يضيق فيه شباب المعماريين ذرعًا بالطرز اليونانية والرومانية

---

[٧٤] Mona Zakarya, “L’Inscription du discours occidental dans l’architecture et l’urbanisme orientaux”, D’un Orient l’autre, 2 vols. (Paris, 1991) 1: 561.

[٧٥] Sakr, Islamic Architecture.

[٧٦] حول إحياء العمارة الإسلامية في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، انظر: Sweetman, Oriental Obsession.

[٧٧] Gwendolyn Wright, The Politics of Design in French Colonial Urbanism (Chicago, 1991), 200–201.

التي كررها السابقون عليهم، وقتلوها بحثًا، وأصبحوا على علم بنتائجها قبل مغادرتهم باريس، ويأتون إلى مصر ليقفوا على اتجاه لا يزال غفلًا.»[٧٨]

وكان باسكال كوست قد مزج في العشرينيات الزخارف الإسلامية والفنون الجميلة في المباني ذات الطابع الإيطالي التي صممها لمحمد علي. كما صمم كوست مسجدًا مستلهمًا الآثار المماليكية، ولكن تلك التصاميم لم تعرف طريقها إلى التنفيذ.[٧٩] وكان جيمس وايلد — صهر أوين جونز — قد جاء إلى مصر ضمن بعثة الآثار المصرية التي قادها ليبسيوس، ثم بقي في مصر لدراسة العمارة الإسلامية، وكلف بوضع تصميم لكنيسة القديس مرقص الإنجيلية بالإسكندرية. وقد مزج بين الزخارف البيزنطية والإسلامية لتأكيد التراث المسيحي العريق للمدينة، وليوحي للمسلمين بنزعة التسامح الديني عند بريطانيا. وعندما عاد وايلد إلى لندن عمل مستشارًا لمتحف ساوث كنجستون في الزخرفة الإسلامية.[٨٠]

وفي الستينيات وضع يوليوس فرانتز تصميم قصر إسماعيل بالجزيرة بمساعدة كوريل دلروسو على طراز انتقائي إسلامي جديد. وقام ألماني آخر هو كارل فون ديبتس باستكمال ملحق القصر وواجهته من الحديد الزهر التي اتخذت شكل الأقواس الأندلسية. وقام المعماري النمساوي فرانتيسيك شمورانتز ببناء قصر بالإسماعيلية على عجل ليكون جاهزًا عند افتتاح قناة السويس. وعندما عاد إلى فيينا قام بتنسيق الأغراض التي جمعها من القاهرة للجناح المصري الذي قام بتصميمه للمعرض الدولي عام ١٨٧٣م، وفيما يتعلق بالعمارة المحلية في مصر، أشاد بالفيلا التي أقامها أمبرواز بودري لنفسه بالقاهرة على الطراز «العربي» وعند انتهاء القرن بدأ آخرون يحذون حذوه في العمارة المحلية.[٨١]

بدأت ضاحية مصر الجديدة عام ١٩٠٦م، وكانت حلمًا استعماريًّا شرقيًّا للبارون البلجيكي إمبان. وقام جاسبي — المعماري البلجيكي — بتصميم «شارع عباس»، وفندق «هليوبولس بالاس» الذي يعد علامة على الضاحية. وكما حدث في الكثير من المباني العامة التي شيدت على الطراز الإسلامي الجديد، استخدمت العناصر الإسلامية في الزخرفة، ولكن

---

[٧٨] Charmes, “L’Art arabe”.

[٧٩] Hill, “Pascal-Xavier Coste”, esp. 30, 97, 144–46.

[٨٠] Crinson, Empire Building, 97, 190.

[٨١] Sakr, Islamic Architecture, 9; Charmes, Cinq Mois, 59.

النوافذ والشرفات الخارجية، وقاعات الاجتماعات كانت جميعًا غريبة الطراز، واتسمت النزعة الانتقائية في مصر الجديدة بالتمرد؛ فالحدائق الخارجية اتخذت طابعًا أندلسيًّا بينما استلهمت البواكي والأعمدة العمارة الإيطالية أو الفرنسية.[٨٢]

وإذا كانت الأقواس الأندلسية تفتقر إلى الأصالة في القاهرة، فما هي البدائل ذات الجذور المحلية التي يرتكز عليها إحياء العمارة الإسلامية؟ كان الطراز العثماني مستبعدًا عند سعيد وإسماعيل اللذان تركا مسافة بينهما وإستانبول. ولم يكن هناك سوى جامع ابن طولون ممثلًا للطراز الإسلامي السابق على العصر الفاطمي، وكانت هناك بضعة آثار فاطمية لا تزال قائمة، ولكن المنشآت المماليكية المبهرة كانت ماثلة في كل مكان. ورغم أن المماليك لم يكونوا في الأصل عربًا أو مصريين، فإن إحياء العمارة المماليكية كان ملائمًا تمامًا للنهضة العربية — المصرية، بعد قرون قضتها مصر كمجرد ولاية من ولايات الدولة العثمانية. وكان الطراز المماليكي في أوروبا واحدًا من بين عدة نماذج استشراقية، ولكنه أصبح في مصر بمثابة العودة للجذور المحلية، تمامًا مثل إحياء الطراز القوطي في العهد الفيكتوري بإنجلترا.

كلف عباس الثاني ماكس هرتز ليضع خطة جديدة (عام ١٩٠٥م) لاستكمال مسجد الرفاعي قبالة جامع السلطان حسن المماليكي الطراز. وكان حسين فهمي — كما ذكرنا من قبل — قد وضع التصميم الأصلي للمسجد، وبدأ بناءه عام ١٨٦٩م. وقد انهارت القبة أثناء عملية البناء، ثم توقف العمل بسبب إفلاس إسماعيل. وقد ألقى رونيه باللوم على خليل أغا وعده مسئولًا عن سقوط القبة لعدم استجابته لتحذيرات المهندس المعماري. وقد تعاون هرتز مع كارلو فرجيليو سيلفاني في وضع تصميم مماليكي جديد لاستكمال بناء المسجد.[٨٣]

وعمل في خدمة القصر بمصر، معماريون أوروبيون آخرون من المهتمين بالعمارة الإسلامية. وفي عام ١٩١٠م، انضم أنطونيو لاشياك — كبير المعماريين بالقصور الخديوية — إلى لجنة حفظ الآثار، وكان يعمل بالطراز الإسلامي الجديد، وغيره من الطرز المعمارية الأخرى.

---

[٨٢] Liliane Karnouk, Modern Egyptian Art: The Emergence of a National Style (Cairo, 1899), 76–77.

[٨٣] Rhoné, Gazette, 1882, 64; Max Herz Bey, La Mosquée El-Rifai au Cairo (Milan, n.d.).

وبعد قمع ثورة الهند عام ١٨٥٧م، فضل البريطانيون الطراز المعماري «الهندو-عربي» ليعطوا انطباعًا بتوطيد أقدامهم في البلاد مثلما فعل المغول الغزاة من قبل. أما في مصر، فكان الاحتلال حديث العهد محاطًا بمنافسات شديدة من القوى الأوروبية الأخرى، ولا يجد متسعًا لمحاولة تقديم بيان مماثل من خلال العمارة. وكانت هناك سياسة معمارية أخرى في الهند تفرض على الأمراء استخدام الطراز الهندو-إسلامي في مبانيهم لأنهم كانوا يريدون تأكيد حداثتهم من خلال بناء قصور على الطراز الكلاسيكي الجديد.[٨٤] أما في مصر، فقد أقام إسماعيل قصر عابدين على الطراز الكلاسيكي الجديد، وعبر عباس الثاني عن حداثته ببناء قصر المنتزه بالإسكندرية على الطراز الفلورنسي الجديد. وعلى كلٍّ، أخذ الطراز الإسلامي الجديد يروج بين الطبقة العليا من المصريين في العقد الأول من القرن العشرين. وعندما توفي علي بهجت كان يعيش في فيلا على الطراز «العربي» بالمطرية.[٨٥]

كان أحمد زكي — الموظف بالقصر الخديو وعضو لجنة حفظ الآثار — محبًا للكتب وعالمًا في الأدب العربي، وقد اعتبر الطراز المعماري الإسلامي الجديد الذي ابتدعه الأوروبيون فاشلًا من الناحية الفنية. واختلف أحمد زكي مع هرتز حول الجهود التي بذلتها اللجنة و«مدرسة الفنون الجميلة» — التي أقامها الأمير يوسف كمال — لإحياء الفن «العربي».[٨٦] وكانت المدرسة قد فتحت عام ١٩٠٨م، وتولى إدارتها المثال جيلوم لابلان، يعاونه بعض مدرسي الرسم والعمارة من الأوروبيين، واستهجن لابلان الاتجاه نحو استعارة الطرز المعمارية الأوروبية، وعمل على إحياء الفن العربي، الذي قضى عليه العثمانيون — على حد قوله — على مدى أربعة قرون مضت، وتولى الأمير يوسف كمال الإنفاق على المدرسة مدة عقدين من الزمان، وكانت الدراسة مجانية كما أوفد الأمير المثال محمود مختار إلى باريس لإكمال دراسته، وقد انضم الأمير يوسف كمال إلى عضوية «لجنة حفظ الآثار» لفترة قصيرة.[٨٧]

---

[٨٤] T. R. Metcalf, Imperial Vision, 56–58, 105–39.

[٨٥] Abd El-Razeq, Bulletin de l'institut d'Egypt, 6, 103.

[٨٦] Ahmed Zéki Pacha, "Le Passé et l'avenir de l'art musulman en Égypt", L'Égypt Contemporaine 4, fasc. 13 (1913), 1–32.

[٨٧] Guillaume Laplagne, "Des Aptitudes artistiques des Égyptiens…", L'Égypt Contemporaine 1, no. 3 (May 1910), 432–40.

وعند نهاية القرن برز المعماريون المصريون من خلف الظلال، وبدءوا يكلفون بأعمال كبرى. تُرى، هل كان تركيزهم على الطراز المماليكي الجديد بحثًا عن الأصالة التي تضرب جذورها في أعماق مصر؟ أم كان نوعًا من الكلاسيكية الجديدة المصرية؟ أم كانوا مجرد مقلدين للنماذج المعمارية التي أقامها الأوروبيون بالقاهرة والإسكندرية؟ ربما كانوا يجمعون بين ذلك كله، فلم تتم دراستهم إلا قليلًا. وبعد الحرب العالمية الأولى، ستصبح العمارة الفرعونية الجديدة — التي كان للأوروبيين فضل ريادتها أيضًا — مشابهة في غموضها.

مواقع المقاومة، موظفو الأوقاف والقصر

حضر كلٌّ من الأوروبيين الخمسة — بالقسم الفني للجنة — الاجتماعات بمتوسط ١٩ مرة فيما بين ١٨٩٤ و١٨٩٥م، بينما لم يحضر كل من المصريين الأربعة بنفس القسم اجتماعات اللجنة إلا خمس مرات خلال نفس الفترة،[٨٨] وربما كان ذلك نوعًا من المقاومة السلبية، أو خشية مواجهة الخبراء الأوروبيين، أو بسبب قلة الاهتمام، أو نتيجة ضغط العمل، كلها أسباب ربما أسهمت معًا في الحد من مواظبة المصريين من الأعضاء على حضور اجتماعات اللجنة. لقد عبر المصريون الآخرون من أعضاء اللجنة — غالبًا من موظفي الأوقاف وممن لهم صلات بالقصر — عن مقاومتهم الضمنية للهيمنة الأوروبية على اللجنة، وذلك في السنوات التي أعقبت ترك علي مبارك لها. ولما كانت مضابط الاجتماعات بيد الأوروبيين، يحتاج الباحث إلى قراءة ما بين السطور ليستشف تلك المعارضة المقنعة.

لقد قام محمد علي بوضع يده على الكثير من الأوقاف المحسوبة على دور العبادة، مما أدى إلى الإسراع في تداعي العديد من الأوقاف في اختصاص إدارة حكومية، ارتقى بها إسماعيل إلى مستوى الوزارة (النظارة)، وفي العام ١٨٨٤م، هبط بها توفيق إلى مستوى «المصلحة» لينأى بها عن مجلس النظار (الذي كانت قبضة الإنجليز عليه قوية)، وليجعلها تابعة له مباشرة: وأتاح ذلك لتوفيق، وعباس الثاني — من بعده — موارد مالية بعيدة عن تدخل الإنجليز، استخدمت لأغراض الرعاية. وبذلك كان كبار موظفي الأوقاف من رجال القصر، وليس من قبيل الصدفة أن رؤساء الوزارة (فيما بعد): حسين رشدي،

[٨٨] Comité 13, 1896, PVS 69 (1896), 35–36.

وعدلي يكن، وأحمد زيور، وإسماعيل صدقي، تولَّى كل منهم منصب مدير عام مصلحة الأوقاف، فلم يكن كرومر يتدخل في شئون الأوقاف أو الأزهر خشية رد الفعل الديني. وأعاد كتشنر الأوقاف إلى مستوى الوزارة عام ١٩١٣م، ولكنه فشل في مسعاه لكف يد القصر عن التحكم في ميزانيتها.[٨٩]

وكانت رئاسة اللجنة لناظر الأوقاف، كما كان أربعة من بين الأحد عشر عضوًا الأصليين موظفين بالأوقاف (هرتز وثلاثة من المصريين). وظهر نسق للتصويت باللجنة، استطاع من خلاله الأوروبيون، والعضوان الأرمينيان، وعضو مسلم واحد، التغلب على المقاومين، وتحقيق استقلالية اللجنة عن الأوقاف. وفي عام ١٨٩٠م تجاوزت اللجنة اعتراضات الخديو، وأنشأت مكتب فني خاص لإصلاح الآثار. ولكن مهندس الأوقاف صابر صبري، وإسماعيل الفلكي، وقفا إلى جانب ناظر الأوقاف على رضا في التصويت على إلغاء المكتب الجديد، غير أن الأوروبيين الأربعة، ويعقوب أرتين، وحسين فخري ناظر الأشغال العمومية هزموا اقتراح الإلغاء.[٩٠] ولعب فخري وأرتين نفس الدور — في مناسبات عدة — لمناصرة التكتل الأوروبي باللجنة. ورغم أن فخري وأرتين أحسَّا بالألفة في الوسط الفرانكفوني باللجنة، والجمعية الجغرافية الخديوية، والمجمع العلمي المصري، بشكل يفوق الدوائر الناطقة بالإنجليزية، فقد توصلا إلى تفاهم براجماتي مع المحتلين البريطانيين.

واتبعت «معارضة الأوقاف» المهزومة أسلوب المباغتة، فعندما كان الأوروبيون يقضون إجازة الصيف ببلادهم عام ١٨٩٣م، دعا صبري والفلكي إلى اجتماع عاجل للقسم الفني، وأضافوا إلى القسم أربعة من المهندسين المصريين بحجة متابعة الأعمال العادية خلال الصيف. وفي العام ١٨٩٧م، احتج صبري وعضوان آخران على تنظيف الآثار الحجرية باستخدام محلول البوتاسيوم واقترحوا بدلًا من ذلك إتباع أسلوب الحك الشديد (السنفرة) لتنظيف تلك الآثار، ولكن غالبية أعضاء اللجنة خذلتهم، واتخذت قرارًا

---

[٨٩] Gabriel Baer, “Waqf Reform” in his Studies in the Social History of Modern Egypt (Chicago, 1969), 83–84.

[٩٠] Comité 10, 1893, PVS 58 (13 June 1893), 40, 44–45; PVS 59 (27 November 1893), 46.
حول حسين فخري، راجع: يوسف آصاف، دليل مصر (القاهرة ١٨٩٠م) ٢٤٩–٢٥٢.

بمنع «كشط أو حك أي حجر». وقام القسم الفني — أيضًا — بتأنيب صبري لقيامه بإدخال تعديلات على تقرير عن الإصلاحات بعدما وقع عليه الأعضاء.[٩١]

وهُزمت نفس الأقلية عندما أدخل فخري والأوروبيون من أعضاء اللجنة الآثار القبطية تحت حماية اللجنة عام ١٨٩٦م، ووافق البطريرك على المساهمة في إصلاح الآثار القبطية، وألا تذهب أي من أموال الأوقاف إلى الكنائس، وصوَّت الأوروبيون الخمسة والأرمينيان وحسين فخري إلى جانب ضم اثنين من الأقباط إلى عضوية اللجنة، وتغلَّبوا بذلك على فيظي — رئيس اللجنة — وصابر صبري، وإسماعيل الفلكي الذين رأوا ضم واحد فقط. ولكن لم تتم الموافقة على تغيير اسم اللجنة لتصبح «لجنة حفظ آثار الفن العربي والقبطي».[٩٢] وسيعود الفصل السابع من هذا الكتاب إلى تناول دور الأرمن والأقباط خاصة في اللجنة والحياة الوطنية.

علي بهجت، والوطنية، والمستشرقون

لولا اصطدام علي بهجت بدوجلاس دانلوب — الأسكتلندي الصارم الذي أدار نظارة المعارف لحساب كرومر — لظل حتى تقاعده موظفًا مجهولًا بالمعارف. فقد حدث ذات مرة في أواخر التسعينيات أن أعد بهجت ووكيل النظارة أرتين يعقوب خطابًا لناظر المعارف حسين فخري لتوقيعه، فتورط حسين فخري في الخطأ عندما وقع الخطاب دون الرجوع إلى دانلوب مستشار المعارف، فاضطره الأخير أن يسحب توقيعه — فيما بعد — فكتب علي بهجت مقالًا بدون توقيع نشرته جريدة «المؤيد» المعارضة للاحتلال، هاجم فيه دانلوب ودافع عن فخري وأرتين. واكتشف دانلوب فعلة بهجت، وكاد يدمر مستقبله لولا تدارك فخري وأرتين للأمر، فاتخذا — عن طريق لجنة حفظ الآثار — قرارًا بنقل بهجت إلى مصلحة الآثار، بعيدًا عن متناول دانلوب.[٩٣]

وتعكس هذه الحادثة حقيقة وضع الوزير في إطار جدلية الإمبريالية/الوطنية؛ فالوزراء لا يملكون رفض «نصيحة» المستشار البريطاني، كما كان الخديو عباس حلمي

[٩١] Comité 10, 1893, R 153 (16 August 1893), 75; Comité 14, 1897, PVS 74 (9 March 1897), 48; PVS 75 (6 April 1897), 73–75.

[٩٢] Comité 13, 1896, PVS 69 (Spring 1896), 30, 33–35.

[٩٣] Abd El-Razeq, BIE 6: 109.

الثاني لا يملك تجاهل ممثل بريطانيا صاحب اللقب المتواضع «القنصل العام». وكان دانلوب وكرومر — ولا يزالان — عدوين لدودين في نظر الوطنيين المصريين.

كانت «المؤيد» التي يصدرها الشيخ علي يوسف بمثابة المتحدث غير الرسمي بلسان عباس الثاني، الذي شجع الطلبة والمهنيين على معارضة الاحتلال. وفي العام ١٨٩٦م، انضم علي بهجت، ولطفي السيد، وعبد العزيز فهمي، وطلعت حرب، وأربعة آخرون إلى جمعية سرية لتحرير مصر. وأصبح طلعت حرب مشهورًا باعتباره مؤسس بنك مصر وشركاته، وأصبح عبد العزيز فهمي قانونيًّا بارزًا، وأصبح لطفي السيد رئيس تحرير «الجريدة» مديرًا للجامعة المصرية، ووزيرًا، وموجهًا لجيل كامل من المصلحين. واشتم عباس وجود الجمعية فطلب من صفيه مصطفى كامل أن يحضر لطفي السيد إلى القصر، وكانت ثمرة هذا الاجتماع، أن أرسل عباس (في ١٨٩٧م) لطفي السيد إلى سويسرا للإقامة لمدة عام ليتأهل للحصول على جنسيتها، عندئذٍ يعود إلى مصر لإصدار جريدة معادية للاحتلال تحت حماية الامتيازات الأجنبية. وحمل لطفي السيد معه بعض الكتب من علي بهجت لتوصيلها إلى عالِمَين في سويسرا: المستشرق ماكس فان بيرشم، وعالم المصريات إدوارد نافيل. وحضر لطفي السيد بعض محاضرات جامعة جنيف، كما ساعد بيرشم في أبحاثه.[٩٤] ولكن مشروع عباس لم يقدر له النجاح، فقد وصل الشيخ محمد عبده — الذي كان على علاقة سيئة بالخديو — إلى جنيف وأصبح صديقًا حميمًا للطفي السيد، فقطع الخديو معونته المالية للطفي السيد عندما بلغته أنباء تلك العلاقة. وعاد لطفي السيد إلى مصر تاركًا لمصطفى كامل مهمة بدء مرحلة من الصحافة المعارضة للاحتلال عام ١٩٠٠م من خلال جريدة «اللواء».

كتب علي بهجت مقالات نشرت بمجلة «الموسوعات» فيما بين ١٨٩٨ و١٩٠١م، وقعها أحيانًا باسمه، وأحيانًا أخرى بالاسم المستعار «آثاري»،[٩٥] ورشحه يعقوب أرتين للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة لمساعدة الباحثين في اللغة العربية، والتقى علي بهجت وماكس فان بيرشم في ذلك المعهد، الذي شجعه على خوض غمار الدراسات الشرقية، وعلم المتاحف، والآثار الإسلامية.

[٩٤] لطفي السيد، قصة حياتي، ٣٤–٣٦.

[٩٥] Abd El-Razeq, BIE 6, 109.

واستطاع فخري وأرتين أن ينقذا بهجت من دانلوب بفضل علاقتهما الوثيقة بالدوائر الفرانكفونية والمؤسَّسات الثقافية بمصر. فقد وُلد حسين فخري لأسرة من النخبة «التركية» التي خدمت محمد علي، كان والده — جعفر صادق — قائدًا عسكريًّا شركسيًّا، وكان حسين فخري أصغر من أرتين — وكيل الوزراء الأرمني — بعام واحد. وقد درس القانون بفرنسا لمدة أحد عشر عامًا وعمل بالنيابة هناك، وعاد إلى مصر عام ١٨٧٤م قبل أن يؤسس نوبار وإسماعيل المحاكم المختلطة بوقت قصير، وأعطى تأسيسها الأفضلية المطلقة لمن خبروا القانون الفرنسي، وأصبح حسين فخري ناظرًا للحقانية (وزيرًا للعدل) وهو في السادسة والثلاثين، ثم رئيسًا للنظار في سن الأربعين، رغم أن وزارته لم تدُم سوى ثلاثة أيام؛ لأن عباس الثاني كلفه برئاستها دون استشارة كرومر. ولعل إجهاض وزارته أعطاه «شهرة لا يستحقها كوطني».[٩٦] ولكنه عاد بعد عام واحد عضوًا بوزارة مصطفى فهمي، فظل ناظرًا للمعارف والأشغال العمومية لمدة ١٢ عامًا.

ولعب حسين فخري دور الرئيس التركي لأرتين — المثقف والعالم والمترجم — في لجنة حفظ الآثار، والمجمع العلمي المصري، والجمعية الجغرافية. وخلال السنوات الطوال التي شغل فيها منصب نائب رئيس المجمع والفترة القصيرة التي تولَّى فيها رئاسته، لم يقم فخري بإلقاء بحث واحد، بينما قدم أرتين فيضًا من التقارير، والترجمات، والأوراق البحثية.[٩٧]

وقد قام فخري وأرتين بإلحاق علي بهجت بلجنة حفظ الآثار في بداية عام ١٩٠٠م، ولكنهما لم يتمكنا من إلحاقه بوظيفة بمصلحة الآثار إلا بعد عامين. وحاولا تعيينه أمينًا لمتحف الفن العربي، ولكن هرتز حصل على هذه الوظيفة في يناير ١٩٠٢م (مع استمراره في العمل كبيرًا للمعماريين والأوقاف وباللجنة)، وحصل بهجت على وظيفة أمين مساعد للمتحف براتب قدره ٢٥جنيهًا شهريًّا، وقدر له أن يعمل ١٢ عامًا تحت رئاسة هرتز.[٩٨]

كان فخري شركسيًّا، وأرتين أرمينيًّا، وبهجت تركي الأصل، وربما نظر الوطنيون إلى الأولَين نظرتهم إلى المتعاونين مع الاحتلال، وإلى بهجت نظرتهم إلى المهني البعيد عن

---

[٩٦] A. Goldschmidt Jr., Historical Dictionary 107.

[٩٧] Jean Ellul, Index des Communications et mémoires publiés par l'institut d'Égypte (1859–1952) Cairo 1852.

[٩٨] Comité 19, 1902, PVS 112 (23 January 1902), 3.

السياسة. فمن كان مثله كأحمد كمال وإسماعيل الفلكي، وأحمد شفيق، وأحمد زكي، خالطوا الأوروبيين في المجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية، والجامعة المصرية عندما كان الاحتلال في عنفوانه والإمبريالية في ذروة هيمنتها. فإذا كانوا لم يبلغوا من الوطنية ما بلغه مصطفى كامل، وما بلغه — فيما بعد — سعد زغلول، فإن أحمد كمال وعلي بهجت تحدوا ادعاء الأوروبيين بأنهم وحدهم أهل العلم والمعرفة والكفاءة في الإدارة، وبذلك وضع أحمد كمال وعلي بهجت الأسس الثقافية التي بنى عليها الوطنيون فيما بعد. وقد خطا بهجت خطواته الأولى على طريق الآثار الإسلامية عام ١٨٨٧م، عندما ترجم الأعمال الأولى للجنة حفظ الآثار إلى اللغة العربية، ويبدو أن أرتين كان وراء تكليفه بهذا العمل. وفي عام ١٨٩٤م ترجم إلى العربية تقريرًا كتبه أرتين عن التعليم، ويبدو أن تزكية أرتين له لدى المعهد الفرنسي للآثار الشرقية كانت تهدف إلى إعطائه قدرًا من «التدريب العلمي» لباحث واعد لم تتح له فرصة الدراسة بأوروبا.[٩٩]

كان ماكس فان بيرشم — الذي التقاه بهجت بالمعهد الفرنسي — مؤسس علم النقوش الإسلامية، وُلد لأسرة كلفينية ثرية بجنيف، وحصل على الدكتوراه في الاستشراق من جامعة ليبزج، وفي العام ١٨٨٧م جاء إلى مصر في رحلة سياحية مع والدته. وبعد خمس أعوام من تلك الزيارة دعا إلى تنظيم حملة دولية لكتابة موسوعة للنقوش العربية تضاهي ما فعله أوجست بوخ لليونان وتيودور مومسن للاتين. وحشد بيرشم كبار المستشرقين الذين عكفوا على النصوص الأدبية المتاحة بالمكتبات الأوروبية. ورد على مقولة إرنست رينان المثبطة. «النقش ليس نصًّا»، بقوله: «إن دراسة الأثر دراسة جيدة أفضل من خير النصوص»، وأشاد به ماسبيرو:

«كنت أظن حتى الآن مدرسة الاستعراب أخطأت الطريق برفضها أن ترى في العربية ما هو أكثر من النحو والأدب، يدرسانهما داخل مقصورة «مغلقة». ولكن دراساتك بالقاهرة توضح ما يمكن عمله في مجال الآثار، وما يمكن أن يترتب على ما لا يزال باقيًا من تلك الآثار من تحديد لحقيقة الشرق الإسلامي.»[١٠٠]

بدأ بيرشم عمله في الآثار كمستعرب يعمل في بعثات تركز على آثار ما قبل الإسلام.[١٠١] وفي العام ١٨٩٥م أصبح عضوًا مراسلًا بلجنة حفظ الآثار، ودعمت أكاديمية النقوش

---

[٩٩] يوسف إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية، ١٣٦٠.

[١٠٠] Solange Ory, “Max Van Berchem, Orientaliste” D’un Orient l’autre, 2: 11–24.

[١٠١] Rogers, From Antiquarianism, 60.

والآداب بفرنسا مشروعه لإعداد موسوعة للنقوش العربية من خلال المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة. ونشر المجلد الأول من «أعمال جمع النقوش العربية» عام ١٩٠٣م. وبعد ذلك بأربع سنوات، جعلته لجنة حفظ الآثار عضوًا فخريًّا، ولم يكن صدر من مجموعة النقوش العربية سوى القليل عندما شب أوار الحرب العالمية الأولى، وتفرقت السبل بالفريق العلمي الدولي الذي جمعه بيرشم. وبعد وفاة بيرشم عام ١٩٢١م، نشر جاستون فبيت ملحقًا بالمادة المصرية، وأسهم في العمل الأقل طموحًا من مشروع بيرشم، والذي وقع في ١٦ مجلدًا «تقرير زمني عن النقوش العربية» (القاهرة ١٩٣١–١٩٥٤م)، ويعمل برنارد أوكين مع مركز البحوث الأمريكي بالقاهرة الآن على نشر جميع النقوش العربية بالقاهرة السابقة على العام ١٨٠٠م.

كان فان بيرشم فخورًا بحياد جنيف ونزعتها الدولية، ولما كان أقل شبهة من زملائه البريطانيين والفرنسيين والألمان من حيث التورط في أغراض إمبريالية، فقد اتسعت دائرة أصدقائه متجاوزة كل الانقسامات والخلافات. كان صديقًا لخليل أدهم مدير عام متاحف إستانبول، وكانت علاقته بعلي بهجت حميمة، حتى إنه اعتبره مساويًا له: «إنني مدين بالكثير لصديقي الذي تعاون معي علي أفندي بهجت، فقد قضى أيامًا كثيرة في الكشف عن نقوش القاهرة وقراءتها معي. ووجدت في إخلاصه الدائم، ودقته وخبرته الأثرية، بالإضافة إلى امتلاكه المتميز لناصية لغته الوطنية، خير عون لي خلال قيامي بالبحث.»[١٠٢]

وفي عام ١٨٩٨م، ألقى علي بهجت أول بحث له أمام المجمع العلمي المصري، وكان في الأربعين من عمره، بفضل مساعدة أرتين وفخر له، للارتقاء من مجال الترجمة إلى البحث، إلى عضوية لجنة الاستشراق. وجمعت ورقة البحث التي قدمها بهجت بين التراث النابليوني والماضي العربي الإسلامي في تاريخ المجمع. فقد عثر في أرشيف محكمة رشيد على عقد زواج الجنرال مينو الذي اعتنق الإسلام وتزوج من امرأة مصرية. وبعد عامين من تقديم بهجت لبحثه اختاره المجمع عضوًا. وفي الفترة من ١٩٠٧م حتى ١٩٢٢م كان عضوًا بلجنة النشر إلى جانب ثلاثة من الأوروبيين. وعندما أصبح نائبًا لرئيس المجمع عام ١٩٢٣م، وكان قد قدم عشرة بحوث هناك، وكان من بين موضوعاتها: الحسابات العربية الخاصة بالأهرام، وتراجم المكتشفين العرب، وتاريخ وجغرافية مصر في عصر المماليك، وتقرير عن حفائره في الفسطاط.[١٠٣]

---

١٠٢ Max van Berchem, Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum vol. 19.

١٠٣ Ellul, Index, Passim.

وشارك الأعضاء الآخرون بلجنة حفظ الآثار أرتين وعلي بهجت اهتمامهما بالفن الإسلامي، وكان من هؤلاء صابر صبري، وأحمد زكي، وبوغوص نوبار. وربما كان فخري وأرتين وراء انضمام بهجت إلى الجمعية الجغرافية التي احتكر الإيطاليون رئاستها لعدة سنوات قبل الحرب العالمية الأولى.[١٠٤]

كان النشاط بإحدى تلك المؤسَّسات الثقافية يستدعي الانضمام إلى غيرها؛ ففي عام ١٩٠٨م، انضم علي بهجت إلى مجلس الجامعة المصرية الأهلية التي كان كرومر قد عارض مشروعها حتى لا تصبح مركزًا لتفريخ الوطنيين، ولكن خلفه السير ألدون جورست كان قد توصل إلى تفاهم مع عباس الثاني الذي أسند إلى عمه أحمد فؤاد مهمة إقامة وإدارة الجامعة،[١٠٥] وكان من أعضاء مجلس الجامعة ماسبيرو، ويعقوب أرتين، وأحمد زكي، والوزير حسين رشدي.

وحضر علي بهجت اجتماعات مجلس الجامعة بانتظام حتى العام ١٩٢٢م، عندما استقال لأسباب صحية، وعمل سكرتيرًا للمجلس فيما ١٩١٩–١٩٢٢م، وكان المجلس يضم — في عام ١٩١٩م — رئيس مجلس الوزراء حسين رشدي، وأربعة ممن أصبحوا رؤساء مجلس وزراء فيما بعد (سعد زغلول، عبد الخالق ثروت، إسماعيل صدقي، محمد محمود)، وأحمد لطفي السيد، وعبد العزيز فهمي، ومحمود فهمي المهندس بالأوقاف، وفوكار مدير المعهد الفرنسي للآثار الشرقية. وقد حضر سعد زغلول — مراقب الجامعة — اجتماع المجلس المنعقد في مارس ١٩١٩م، قبل اعتقاله بثلاثة أيام ونفيه من البلاد، الذي أدى إلى انطلاق الثورة في جميع أنحاء البلاد ضد الوجود البريطاني. وتولى بهجت القيام بعمل «مراقب الجامعة» أثناء غياب سعد زغلول بالمنفى.[١٠٦]

وأخيرًا، انضم علي بهجت إلى جماعة «أصدقاء الفنون الجميلة»، وأصبح عضوًا بمجلس الكتبخانة (دار الكتب المصرية)، وقام بترجمة تقرير الكتبخانة عن العام

---

[١٠٤] Reid, “The Egyptian Geographical Society”, 539–72.

[١٠٥] كان مشروع الجامعة عملًا أهليًّا وطنيًّا خالصًا، لم يكن الخديو عباس حلمي الثاني طرفًا فيه، وقد جاء اختيار الأمير أحمد فؤاد لرئاسة اللجنة بمبادرة من المؤسسين لدفع معارضة الخديو والإنجليز، واجتذاب التبرعات من الأثرياء. (المترجم)

[١٠٦] أحمد عبد الفتاح بدير، الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية (القاهرة، ١٩٥٠م)، ٢٣-٢٤؛ وانظر أيضًا، أرشيف جامعة القاهرة ٣ ب/ف ١٣٥، مضابط مجلس الإدارة، ٢٠ مارس ١٩١٩م.

١٩٠٨م، إلى اللغة العربية. فهل مارس الحديث بالألمانية مع مديري الكتبخانة من الألمان، أو مع هرتز — رئيسه باللجنة ومتحف الفن العربي؟ لقد أثبت بهجت قدرته على الحديث بالألمانية بطلاقة عندما قام بعرض بعض مقتنيات متحف الفن العربي في أول معرض للفن الإسلامي، أقيم بمدينة ميونخ عام ١٩١٠م.[١٠٧]

تمثيل مصر في المؤتمرات الدولية للمستشرقين

كان المجمع العلمي المصري، عند علي بهجت، بمثابة نقطة انطلاق إلى دوائر الاستشراق بالخارج؛ ففي العام ١٨٩٩م قرأ ورقة بالمؤتمر الدولي الثاني عشر للمستشرقين المنعقد في روما، كانت عن القلقشندي وكتابه: «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، الذي نشر في القاهرة — فيما بعد — (١٩١٤–١٩٢٨م). وعلق فان بيرشم على البحث — في الجلسة — متحدثًا عن أهمية الموضوع، وعن الآمال المعلقة على صاحبه. وكان بهجت في صحبة أقطاب الاستشراق بذلك المؤتمر: إجناتز جولد تزهر، وماكس مولر، وإدجار جرانفيل، وإذا عبر القاعة التي ألقى فيها بحثه، وجد نفسه في صحبة علماء المصريات من أمثال: إرمان، ونافيل، وشيا باريلي، وبرستد، ولعله استمع إلى تقرير بوتِّي عن حفائر المتحف اليوناني-الروماني بالإسكندرية.[١٠٨]

كانت تلك أول مشاركة من جانب علي بهجت في القضية التي تبناها المستشرقون وعلماء عصر النهضة من العرب، وهي دراسة، وإحياء، ونشر المخطوطات العربية. وفيما بعد، اختار بهجت تاريخ البلاذري، الذي يتناول الفتوح الإسلامية الأولى، لتتولى طباعته «جمعية نشر الكتب العربية»، وحقق المخطوط الفاطمي «ديوان قانون الرسايل».[١٠٩]

لقد تناول أنور لوقا، وتيموثي ميتشل، وكارتر فيندلي، المؤتمر الدولي للمستشرقين باعتباره مكانًا لتواصل المستشرقين والمسلمين.[١١٠] فيذهب ميتشل إلى أن «الشرقيين» الذين شاركوا في مؤتمرات المستشرقين، قضوا على الانقسام بين الموضوعي والذاتي. فهل

---

[١٠٧] إسكاروس، «علي بهجت بك»، ٨٥٨، ٨٦٠.

[١٠٨] International Cong. of. Orientalists 12, Rome 1899, Actes 1.

[١٠٩] Abd El-Razeq, BIE 6, 110–112.

[١١٠] Louca, Voyageurs, 181–237; Mitchell, Colonising Egypt, 1, 2, 6, 180–181.

باستطاعة الشرقي أن يكون مستشرقًا؟ وما مكان العالم «الشرقي» في جمهورية العلم، العالمية نظريًّا، التي يسيطر عليها الغرب من الناحية الفعلية؟

لم يكن بهجت أول عربي يقدم بحثًا في مؤتمر المستشرقين الدولي، فقد أرسل إيليا القدسي — الشامي المسيحي — بحثًا من دمشق إلى المؤتمر السادس للمستشرقين الذي عقد في ليدن عام ١٨٨٣م، كانت عن «طوائف الحرف في دمشق». ووصلت ورقته بعد انفضاض اجتماعات المؤتمر، ولكن المستشرق السويدي كارلو لاندبرج — القنصل العام السابق بالإسكندرية — امتدح طريقة القدسي في عرض مادته التي ليست في متناول الباحثين الأوروبيين، ونشر الورقة بنصها العربي ضمن أعمال المؤتمر. وأراد لاندبرج بذلك أن يبين «للشرقيين من خلال نشر تلك الورقة رغبتنا في أن نراهم يشغلون أنفسهم قليلًا بالعلم من أجل العلم». ولكنه ذكر العرب الذين ينوون المشاركة بأوراقهم في المستقبل بضرورة الاهتمام التام بضبط النحو العربي.[١١١]

أرسلت مصر — في بداية الأمر — إلى المؤتمر السابع للمستشرقين الذي عقد في فيينا عام ١٨٨٦م، المتخصصين في اللغة العربية، وفيهم الأزهريون الذين قاموا بالتدريس بدار العلوم. ونشرت الورقة التي قدمها حفني ناصف عن اللهجات العربية ضمن أعمال المؤتمر.[١١٢]

وحضر الشيخ حمزة فتح الله المؤتمر الثامن (عام ١٨٨٩م) الذي قسم جلساته بين ستوكهلم وكريستيانا، وتولى عبد الله فكري باشا — ناظر المعارف السابق، ومعلم أبناء الخديو — رئاسة الوفد المصري. وتولى ولده محمد أمين فكري — الذي تعلَّم في باريس — أعمال السكرتارية والترجمة. وامتدت مهمة الوفد إلى زيارة لندن والمعرض الدولي بباريس، بعد انتهاء أعمال المؤتمر. وتوفي عبد الله فكري — بعد عودته — دون أن يكمل تقريره عن المهمة، فلم يتجاوز ما كتبه ١٢ صفحة، أكملها ولده محمد أمين فكري ليصل بصفحات التقرير إلى ٨٠٠ صفحة.[١١٣]

وكان لاندبرج قد حث الخديو توفيق على إرسال الوفد، وبذل جهده — كمضيف — لجعل أعضاء الوفد يحسون بمعاملة الزملاء، وألقى عبد الله فكري قصيدة عربية

[١١١] ICO 12, 1899, Actes 2, Section 1: 3 ff.

[١١٢] K. Vollers, “Le IXme Congrès…”, BIE, ser. 3, 3 (Nov. 1892), 197.

[١١٣] أمين فكرى بك، إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا (القاهرة ١٨٩٢م).

عند مقابلته لملك السويد، ورد عليه لاندبرج بالعربية مادحًا الخديو توفيق. وقام أمين فكري بإهداء ملك السويد كتابًا عربيًّا عن جغرافية مصر يمثل مختصرًا لخطط مبارك التي عاونه في جمع مادتها.[١١٤] والتقى الوفد من المستشرقين جولد تزهر — الذي درس بالأزهر — وكان يتحدث العربية بطلاقة. وترأس المندوب العثماني أحمد مدحت أحد الاجتماعات، وترجم للمصريين، كذلك كان هناك وفد فارسي أيضًا. وكان الخدم في حفل الاستقبال يرتدون الزي المصري، وعزفت موسيقى أوبرا عايدة التي اعتبرها عبد الله فكري اختيارًا مناسبًا للمؤتمر.

خصص أمين فكري ٢٥ صفحة من كتابه لدحض مذكرة المستشرقين التي تدعو إلى استخدام العامية في الكتابة بدلًا من الفصحى. وقد قرأ المصريون أوراقهم بالعربية في قسم اللغات الإسلامية والسامية بالمؤتمر، ولكنهم ظلوا يلتزمون الصمت في الجلسات التي لم يحضرها أحد ممن يعرفون العربية من الأوروبيين للقيام بالترجمة. وكان أمين فكري يرى أن تقدم جميع أوراق المؤتمر بلغة الشعوب التي يقوم المستشرقون بدراستها وليس باللغات الأوروبية.[١١٥]

وعلى كلٍّ، رأى البعض في إلقاء الشرقيين لأوراقهم بلُغتهم، خطأً كبيرًا. وتململ أحد علماء أوكسفورد قائلًا: «لم أسمع شيئًا جديرًا بأن يصدر عن رجل متزن، سوى ... التقعر في نطق الكلمات على نحو ما يفعل طلاب الأزهر بالقاهرة، إن مثل هذه الاستعراضات في المؤتمرات تنقص من قدرها.»[١١٦]

وألقى أحمد شوقي قصيدة أمام المؤتمر الدولي التاسع للمستشرقين المنعقد بلندن عام ١٨٩٢م، وكان سعد زغلول من بين الحضور، وكان فولرز يمثل الكتبخانة الخديوية في المؤتمر، وقدم — بعد عودته — تقريرًا عن أعمال المؤتمر للمجمع العلمي المصري،[١١٧] ولكن أحمد زكي (١٨٦٧–١٩٣٤م)، الذي كان في الخامسة والعشرين من عمره، بزَّ غيره من المصريين، وكان ذلك شأنه في المؤتمرات القليلة التالية. تخرَّج أحمد زكي في مدرسة الإدارة العليا بالقاهرة، وكان رجل القصر، عمل سكرتيرًا لمجلس النظار لفترة

---

[١١٤] محمد أمين فكرى، جغرافية مصر (القاهرة ١٨٧٨م).

[١١٥] فكري، إرشاد، ٦٧٤–٧٠١، ٦٤٧.

[١١٦] الاقتباس مذكور في: Mitchell, Colonising Egypt, 2.

[١١٧] Vollers, “Le IXme Congrès…”, 193–209.

طويلة، واكتسب لقب «شيخ العروبة» لتفقهه في اللغة العربية، وآدابها.، وأغنت مكتبته الخاصة التي تركها دار الكتب المصرية، ولكن الكتابات الغربية لم تعطه الاهتمام الكافي. ففي مؤتمر لندن للمستشرقين تحدث عن العهد الذي أعطاه النبي محمد للمسيحيين في سيناء، وقال بتزويره، وألقى تقريرًا عن المخطوطات العربية بمكتبة الإسكوريال، وترجم القصيدة التي ألقاها الشيخ حمزة فتح الله إلى الفرنسية. وقد اختير زكي، وزميل فارسي، وآخر هندي ضمن لجنة الستة عشر، التي أنيط بها تقرير مكان عقد المؤتمر التالي،[١١٨] مما ينفي مقولة تهميش «الشرقيين» في تلك المؤتمرات، وقد كتب أحمد زكي كتابًا عن المؤتمر وزيارته للندن، وحضر المؤتمر العاشر بجنيف (١٨٩٤م) والثالث عشر بهامبورج (١٩٠٢م)، والسادس عشر بأثينا (١٩١٢م).

وفي العام ١٩٠٥م، عبر مؤتمر المستشرقين الدولي البحر المتوسط إلى الجزائر حيث عقد المؤتمر الرابع عشر، واختار المفتي الشيخ محمد عبده العلماء من المشايخ الذين مثَّلوا مصر بالمؤتمر، كان أشهرهم الشيخ عبد العزيز جاويش الذي لم يلبث أن لمع نجمه في الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل.[١١٩]

وعقد المؤتمر دورته السادسة عشر في أثينا عام ١٩١٢م، وبعد ذلك أدت الحرب العالمية الأولى إلى تعطيل اجتماعاته لمدة ستة عشر عامًا، وشارك يعقوب أرتين في المؤتمر الذي عقد في باريس ١٨٧٣م، كما كان ممن حضروا مؤتمر أثينا، وألقى أحمد شوقي قصيدة، مرة أخرى، وأشاد الأمير أحمد فؤاد — مدير الجامعة المصرية — بالمنافع التي عادت على البلاد العربية على يد المستشرقين.[١٢٠] وتحدث أحمد زكي عن تحمُّس المسلمين الأوائل لعلوم وفلسفة الإغريق، وامتدح الصحوة الثقافية القائمة في اليونان ومصر، وتولى جولدتزهر وكريستيان سنوك هرجرونجي رئاسة الجلسات التي قدم فيها أحمد زكي ثلاثة ورقات، وكان من بين المستمعين إليه: لوي ماسنيون، وأوجست فيشر، ودافيد مرجليوث، وهنري لامن. وألقى حفني ناصف ورقة عن ماريا القبطية زوجة الرسول، وتحدث الشيخ أحمد الإسكندراني عن الأدب الحديث المكتوب بالعامية المصرية.[١٢١]

---

[١١٨] أحمد زكي، السفر إلى المؤتمر (القاهرة ١٨٩٣م)؛ أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة (القاهرة، حوالي ١٩٦٤م).

[١١٩] الوثائق الفرنسية، وزراء الخارجية، نانت C 170/Dossier 1/24 May 1912.

[١٢٠] قصيدة «أثينا» في الأعمال الشعرية الكاملة لأحمد شوقي، ٢: ٦١.

[١٢١] ICO 16 Athens, 1912, 41, 115, 117, 119, 120, 121, 122.

وهكذا، على نقيض المصريات التي سيطر فيها الأوروبيون وحدهم على أعمال مؤتمر المستشرقين الدولي في مجالها طوال الأربعين عامًا السابقة على الحرب العالمية الأولى، كان لعلماء الدراسات العربية — الإسلامية من المصريين حضور إلى جانب المستشرقين من أمثال: ألفريد فون كريمر، وجولتزهر، وإجناسيو جيدي، ومايكل دي جوجيه، وسنوك هرجرونجي، وكارل بيكر، ولوي ماسنيون، وقدموا أوراقهم البحثية في المؤتمرات الدولية للمستشرقين منذ الثمانينيات حتى الحرب العالمية الأولى، وكان بعض المستشرقين إمبرياليين فاجرين، لم يرحبوا بمشاركة «الشرقيين» في المؤتمرات التي كانت اجتماعاتها تحت سيطرة الغربيين، ولكن الأمور لم تسر في اتجاه واحد، فلو شعر أحمد زكي بالإهمال والإقصاء لما داوم على حضور تلك المؤتمرات.

تمثيل مصر، «شوارع القاهرة» في المعارض الدولية

كان من بين الرسائل التي أراد معرض باريس الدولي (١٨٨٩م) توصيلها، هي انتصار الإمبريالية الغربية على باقي بلاد العالم. وبالنسبة لمصر، أغلق الاحتلال البريطاني الباب في وجه تمثيل مصر بالمعرض، فقد أدى التضييق في الإنفاق المالي الذي مارسه بيرنج إلى منع ماسبيرو من مواصلة التقليد الذي اتبعه ماربيت من عرض الآثار المصرية بالمعارض الدولية. وكانت شركة قناة السويس قد تحملت نفقات معرض باريس عام ١٨٧٨م بدلًا من إسماعيل، ولكن في عام ١٨٨٩م كانت شركة قناة بناما التي أقامها ديلسبس تعاني الانهيار، والفضيحة.

وقام رجل أعمال فرنسي مقيم بمصر، هو البارون ديلور دي جليو بتنظيم جناح خاص بمعرض باريس (١٨٨٩م)،[١٢٢] باسم «شارع القاهرة» وأقام به نموذجًا مصغرًا لمئذنة جامع قايتباي، واستخدم في إقامة الشارع الكثير من المواد الزخرفية التي انتزعت من البيوت القاهرية، وتضمن العرض التجار والحرفيين، واثنتين من الراقصات، وخمسين حمارًا أثاروا الصخب بدوابهم التي كانت أجرة ركوبها فرنكًا واحدًا: وتم إدخال تعديلات على «شارع القاهرة» على يد مستثمرين آخرين بمعرض شيكاجو عام ١٨٩٣م، ومعرض باريس عام ١٩٠٠م.

---

[١٢٢] الوثائق الفرنسية، وزارة الخارجية، نانت C 261, 24 Jan. 1897.

وكتب بعض المصريين ممن زاروا معرض باريس الدولي عام ١٨٨٩م من أعضاء وفد عبد الله فكري إلى المؤتمر الدولي للمستشرقين المنعقد في ستوكهلم، فقدم أمين فكري وصفًا تفصيليًّا للمعرض. كانت شركة توماس كوك ممثلة هناك، وتولت ترتيب كل إجراءات سفر الوفد؛ ولذلك خصص أمين فكري الشركة ومؤسسها بسرد سيرتهما بشيء من التفصيل.[١٢٣]

ورأى فكري أن «شارع القاهرة» واقعي من عدة جوانب. فرغم أن المسجد كان مجرد واجهة لمقهى به عدد من الراقصات المصريات والسودانيات، والمنشدين من أرباب الطرق الصوفية، وجه فكري اللوم إلى الأوروبيين لإفراطهم في الإعجاب بالراقصات والإنشاد الصوفي في مثل هذا الوسط، وأبدى إعجابه بالتاجر القاهري مصطفى الديب، الذي كان يبيع العطور وغيرها من المشغولات التي تباع بخان الخليلي،[١٢٤] فقد غامر ذلك التاجر بالمشاركة في المعرض، وحقق أرباحًا مجزية. ورأى فكري أن المعروضات المصرية «بقصر الصناعات المتنوعة» كانت بائسة، وأنحى باللائمة على الحكومة ورجال الأعمال المصريين لتضييعهم تلك الفرصة الجيدة.

وفي معرض شيكاجو الدولي عام ١٨٩٣م، أقيمت بوابة معبد ضخمة ومسلة كمدخل لما يفترض أن يكون «شارع القاهرة» الإسلامية. وقد أخذ الفكرة الأساسية من معرض باريس الدولي ١٨٨٩م، رجل أعمال بلجيكي يوناني الأصل، استأجر عضو لجنة حفظ الآثار، ماكس هرتز ليعمل مستشارًا له في انتزاع المشغولات الخشبية والمشربيات من بيوت القاهرة، وتصميم جناح المعرض، وفي شيكاجو، كان من المفروض أن يدخل الزوار إلى «البلاد العجيبة التي تسبق حضارتها التاريخ، التي تستولي أعمالها وعجائبها على مخيلاتنا … هنا تجد أنواع البشر والحيوانات التي يراها الإنسان في القاهرة الكبرى، هنا تجد المصريين، والعرب، والسودانيين، والأفارقة، والبرابرة، والجمال، والحمير …»[١٢٥]

وفي أوروبا، ترددت ألمانيا في إقامة معرض دولي في برلين عام ١٨٩٦م، أو عام ١٩٠٠م، ولكن الفرنسيين الذين فاقوهم خبرة سارعوا إلى الإعلان عن معرض باريس

[١٢٣] فكري، إرشاد؛ محمد عمر الباجوري، الدرر البهية في الرحلة الأوروبية (القاهرة ١٨٩١م)؛ ديمتري نعمة الله خلاط، سفر السفر إلى مرد الحضر (القاهرة ١٨٩١م).

[١٢٤] فكرى، إرشاد، ١٢٩–١٣١.

[١٢٥] Pangalo, “The Story of Some Old Friends”.

الدولي عام ١٩٠٠م، واستقر رأي ألمانيا على المشاركة في معرض بجناح يلفت الأنظار، ويثير المخاوف معًا، واكتفت بمنافسة فرنسا في الميادين الصناعية والعسكرية بمواقع أخرى، وألقت كوابيس قضية دريفوس، وانتصار بريطانيا في فاشودة، وتعاظم قوة ألمانيا، بظلالها على المعرض الدولي بباريس، فغصت أجنحة المستعمرات الفرنسية في الهند الصينية، وكمبوديا، والسنغال، وتونس، والجزائر بالمئات من الحرفيين من أبناء تلك البلاد الذي فاق عددهم ما قد يوجد في البلاد المستقلة.[١٢٦]

ولما كان كرومر يقف ضد مشاركة الحكومة المصرية بالمعارض، قام رجل أعمال شامي متمصر هو فيليب بولاد بالاشتراك مع أبناء عمومته والتاجر المصري مصطفى الديب، بإقامة جناح خاص بالمعرض باسم مصر،[١٢٧] قام بتصميمه المعماري مارسيل دورنو، مهندس المتحف المصري الجديد الذي كان يبنى بالقاهرة، واشتمل التصميم على قسم بالطراز الفرعوني، ووكالة إسلامية، ملحق بها سبيل، ونموذج لمعبد دندرة بالخارج، ومسرح بالداخل للموسيقى والرقص.

ورأى أحمد زكي أن عمارة مصر وآثارها قد مثلت تمثيلًا مناسبًا، ولكن المنتجات الزراعية والقطنية بالوكالة لم تكن تعكس تقدم مصر الصناعي والتجاري والعلمي، وأبدى امتعاضه من الشيخ الذي ارتدى ملابس شيخ الأزهر وراح يكتب لزوار الجناح أسماءهم بالعربية. وأراد حذف الرقص الشرقي من «باليه عنتر» التي كانت تُعرض بالجناح. كذلك انتقد أحمد زكي غياب الأصالة بالجناح العثماني.[١٢٨]

وزار محمد المويلحي المعرض ضمن حاشية عباس الثاني، وكتب عنه عام ١٩٢٧م في وصف ألحقه بالطبعات المتأخرة من «حديث عيسى بن هشام»، واختار للفصل «الافتراء على الوطن» عنوانًا، قدم فيه آراء متناقضة تجعل تحديد رأيه الشخصي من الصعوبة بمكان، وأبدى استياءه من الراقصات، والشخص الذي يمثل الشيخ الأزهري، وشيخ

---

[١٢٦] R. D. Mandell, Paris, 1900, The Great World’s Fair (Toronto, 1967).

[١٢٧] بالإضافة إلى المراجع سالفة الذكر عن المعرض، هناك ملف عن بولاد ومشروعه للمعرض في وثائق الخارجية الفرنسية ١٤ ديسمبر ١٨٩٦م.

[١٢٨] أحمد زكي بك، الدنيا في باريس (القاهرة ١٩٠٠م)، ٩١–٩٤. وانظر محمد المويلحي، حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن، ٣٣٠–٣٣٥. ومحمد لبيب البتانوني، رحلة الصيف في أوروبا (القاهرة ١٩٠١م)، ١٠٢–١٠٣. ويلوم الأخير الحكومة لتقصيرها في تمثيل مصر بشكل لائق، ويبدي امتعاضه من انفراد الشوام بالجناح المصري.

الكتاب الذي يضرب التلاميذ بجريد النخل، ومنظر الفتاة التي ليس لها ذراعان وتغزل بقدميها. ورأى أحمد زكي أن عجز مصر عن تمثيل نفسها في المعارض، أتاح للمستشرقين الأوروبيين أن يشوهوا صورتها بالتعاون مع نكرات المصريين. حتى برج إيفل — الذي كان علامة بارزة للمعرض — اعتبره يحاكي في خيلائه برج بابل، وقد زجت فضيحة قناة بناما بإيفل نفسه في السجن.

اختلطت ردود أفعال أمين فكري، وأحمد زكي، ومحمد المويلحي تجاه تمثيل مصر في المعارض الدولية، فقد مال فكري وزكي إلى الإعجاب بها على عكس المويلحي، ولكن أحدًا منهم لم يرض عن وقوع بلاده والقدرة على تمثيلها في مثل تلك المعارض، في أيدٍ أجنبية، كما أن علي بهجت شاركهم ذلك من منظور آخر، عندما اكتشف جانبًا صغيرًا يعبر عن استقلال مصر الثقافي عشية نشوب الحرب العالمية الأولى.

علي بهجت وكشف الفسطاط ونشوب الحرب

«فتح عمرو بن العاص مصر، وأسس الفسطاط تحت راية الإسلام، واكتشف علي بهجت الفسطاط تحت راية العلم.»

Mustafa Abd El-Razeq, “Ali Bey Bahgat 1854–1924”, Bulletin de l’Institut égyptien.

كان علي بهجت في الرابعة والخمسين من عمره، عندما بدأ حفائره بالفسطاط عام ١٩١٢م، تلك الحفائر التي جعلت منه رائد علم الآثار الإسلامية. فقد كان هرتز مشغولًا بالأعمال المعمارية، ولعله أطلق يد بهجت في إدارة متحف الفن العربي. ولعب بهجت دور قناة الاتصال بين لجنة حفظ الآثار والمصريين الذين لا يعرفون لغة أوروبية، فترجم دليل هرتز لمتحف الفن العربي إلى اللغة العربية (عام ١٩٠٩م)، وفي العام ١٩١٢م وصل بما تم طبعه من أعمال اللجنة باللغة العربية إلى العام ١٩٠٩م، وللأسف ليس لدينا معلومات عن المصريين الذين استخدموا تلك الطبعات العربية المترجمة سواء بالنسبة لدليل المتحف أو أعمال «لجنة حفظ آثار الفن العربي».

وفي عام ١٩١٢م — أيضًا — حصل بهجت على إجازة لمدة شهرين لمصاحبة طالب إلى باريس لدراسة التاريخ وعلم الآثار، تمهيدًا للعمل بالمتحف.[١٢٩] وكان قد زار أوروبا

[١٢٩] إسكاروس، «علي بهجت بك» ٨٥٨، ٨٦٠.

من قبل، ولكن الخبرة المباشرة بأوروبا كانت عنده — كما كانت عند أحمد كمال — محدودة، وجاءت في مرحلة متأخرة نسبيًّا من العمر.

ويكشف التقرير الذي قدمه بهجت في مايو ١٩١٠م عن رحلة قصيرة قام بها بالصعيد عن حدود فكرته — وكذلك اللجنة — عن علم الآثار في ذلك الوقت، فقد ذهب بهجت إلى هناك ليشتري أغراضًا للعرض بالمتحف من تجار الآثار بالأقصر وسوهاج، فاكتشف أن الوقت لم يكن مناسبًا؛ لأن الموسم السياحي قضى على ما كان عند التجار من قطع أثرية، اشتراها السياح، وحملوها معهم إلى بلادهم، وأن التجار ينتظرون أن يزوِّدهم الفلاحون الذين يحفرون من أجل «السباخ» بما يعثرون عليه من آثار، عندما يعودون إلى العمل. واقترح بهجت أن يعود إلى هناك — مرة أخرى — في شهر نوفمبر بعدما ينتهي الفلاحون من جمع السباخ، وقبل وصول السياح إلى الصعيد.[١٣٠]

وفي يوليو ١٩١٢م، حانت فرصة مهمة حولت انتباهه إلى أمور أخرى. فقد نقلت الحكومة إلى اللجنة مهمة الإشراف على الفسطاط — العاصمة العربية الإسلامية الأولى لولاية مصر — التي كان الأوروبيون يطلقون عليها «القاهرة القديمة»، وأحيانًا يطلقون عليها «القاهرة القبطية» وإن افتقر المصطلح الأخير إلى الارتياح. وربما كانت الحفائر الألمانية في سامراء بالعراق التي بدأها فردريش سار، وتابعها إرنست هرتز فيلد لحساب متحف برلين (١٩١١–١٩١٣م)، قد دفعت إلى تحريك العمل بالفسطاط.[١٣١] فالعمل المتوازي في مشروع خط سكك حديد بغداد، والصلات العسكرية الألمانية بتركيا، والحفائر في العراق، تم تجميعه في سياق إمبريالي غربي. كما أن الحفائر التي جرت في المواقع الإسلامية في سمرقند على يد الروس (منذ ١٨٨٥م) وقلعة بني حمد بالجزائر على يد الفرنسيين (١٨٩٨م)، وربما أيضًا مدينة الزهراء على يد الإسبان (١٩١٠م)، كانت جميعًا تمثل نغمات حادة لمعزوفة التوسع الإمبريالي الأوروبي.[١٣٢]

والشيء المميز في الفسطاط هو أن من تولَّى حفائرها مصري مسلم فقد أسندت اللجنة تلك المهمة إلى علي أفندي.

وكانت الفسطاط قد هجرت منذ القرن الحادي عشر، وأدى قربها من القاهرة إلى تحويل موقعها — بمرور الزمن — إلى كومة من النفايات، تجلب منها الأحجار للبناء،

---

[١٣٠] Comité 27, 1910, R 420 (15 June 1910) appendix, 94–95.

[١٣١] Rogers, From Antiquarianism, 58–60.

[١٣٢] Vernoit, “Rise of Islamic Archaeology”, Muqarnas 14 (1997), 3–4.

ويصنع عندها الفخار وغيره من الصناعات، ومكانًا للنهب. وقام جامعو السباخ بتقليب الموقع خلال القرن التاسع عشر، ولكن خلوه من الخرائب الفرعونية تحت آكامه، أنقذه من الوقوع ضحية الاهتمام التدميري للباحثين عن الآثار الفرعونية في القرن التاسع عشر.[١٣٣]

وعلى كلٍّ، لم يزود بهجت على باعتماد مالي مناسب للحفائر التي كلف بها. وكل ما كان يستطيع عمله هو إحكام الرقابة على الأفراد والشركات الذين كانوا يحفرون في الفسطاط منذ وقت طويل لجمع السباخ. وأشار بهجت إلى ما حققه هذا النظام من فوائد للجميع: فقد حصل متحف الفن العربي على قطع أثرية (معظمها قطع من الفخار المطلي أو غير المطلي)، والأحجار ذات النقوش الهيروغليفية ذهبت إلى المتحف المصري، وحققت شركات السماد مكاسب، واستفاد الفلاحون بالسباخ، وغنمت الدولة تسوية الأرض التي يمكن استخدامها في أغراض أخرى.[١٣٤] ويبين ذلك كيف أن مفهوم بهجت للآثار كان آخذًا في الاتساع حتى بمعايير اليوم. فقد أصبح لا ينشد جمع القطع الأثرية وحدها، بل يبحث عن بقايا المباني والشوارع التي تساعد على إعادة تركيب الشكل الطبوغرافي للمدينة القديمة. واستمر بهجت في العمل بالفسطاط في العشرينيات، عندما ووجه بهجوم من الأجانب جعل لجنة حفظ الآثار تكلف عالمَين فرنسيَّين بكتابة التقارير التي يتم نشرها عن النتائج التي توصلت إليها حفائره.

وفي الوقت الذي هزت فيه الحرب أوروبا، ترددت أصداؤها في لجنة حفظ الآثار ومتحف الفن العربي. فقد فقد هرتز منصبه باللجنة والأوقاف والمتحف، لكونه من رعايا الأعداء، وغادر البلاد، واحتفظ بحقه في المعاش، وقدَّر هاري فارنول خدماته للجنة والأوقاف على مدى ٣٣ عامًا، وأعلن أسفه لأن «ظروفًا خارجية حرمت اللجنة من خدمات هذا المعماري والآثاري المتميز»، وتمنى مرقص سميكة أن يتمكن هرتز من استكمال الطبعة الثالثة من كتالوج المتحف، وقدم اقتراحًا — ربما كان سابقًا لأوانه — أن يصبح هرتز عضوًا مراسلًا باللجنة. وقد لجأ هرتز إلى سويسرا وتوفي في مدينة زيورخ عام ١٩١٩م عن عمر يناهز الثالثة والستين.[١٣٥]

---

[١٣٣] Vernoit, “Rise of Islamic…”, 5.

[١٣٤] Comité 30, 1913, 115–17.

[١٣٥] Comité 31, 1914, PVS 215 (4 January 1915), 134–36.

وكان من النتائج — غير المتوقعة — التي ترتبت على الحرب العالمية الأولى تولَّى المصريين إدارة متحف الفن العربي ودار الكتب المصرية (الكتبخانة)، فتولى علي بهجت إدارة المتحف، وأحمد لطفي السيد إدارة دار الكتب خلفًا للمستشرق الألماني آرثر شاد.

وقفت إيطاليا موقف المتفرج بعض الوقت، ثم انضمت عام ١٩١٥م إلى الحلفاء. وبذلك استطاع أخيل باتريكولو — مساعد هرتز الإيطالي الجنسية — أن يحتفظ بوظيفته. وكان باتريكولو يؤكد دائمًا أن الجمع بين الحفاظ على عمارة الآثار وإدارة المتاحف غير معروف في أوروبا؛ فالمحافظة على الآثار مهمة الخبير المعماري، وإدارة المتاحف تقع في اختصاص الآثاري.[١٣٦] وأصبح باتريكولو كبير المعماريين باللجنة خلفًا لهرتز (رغم أنه لم يحمل اللقب في بداية الأمر، كما لم ينل مقعد هرتز باللجنة)، ولكنه لم يرغب في إدارة المتحف. وأدى ذلك إلى إفساح الطريق أمام علي بهجت ليصبح مديرًا لمتحف الفن العربي بعد طول انتظار، وكان عندئذٍ — في السادسة والخمسين من عمره — وكان نجاح علي بهجت وأحمد كمال في وقت علا فيه مد الإمبريالية، نجاحًا صعب المنال، تختلط فيه حلاوة النجاح بمرارة الكفاح من أجل تحقيقه. وعندما توفي علي بهجت عام ١٩٢٤م، شارك الأوروبيون باللجنة نقاده في الخارج إثارة الشكوك حول كفاءته ونزاهته. ولم يكن هناك بديل مصري يستطيع أن يحل محله عند وفاته، فعاد متحف الفن العربي مرة أخرى إلى السيطرة الأوروبية؛ من خلال المستشرق الفرنسي جاستون فييت الذي تولَّى إدارته خلفًا لبهجت. وفي عام ١٩٣٣م أدخل كريزويل في مناهج الجامعة المصرية برنامجًا للدراسات العليا في الآثار الإسلامية. وكان لفييت وكريزويل — اللذان قبِل كل منهما الآخر على مضض — حضورٌ فعال في لجنة آثار الفن العربي حتى مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، رغم تناقص التمثيل الأوروبي باللجنة، وقدر لأمناء المتحف المساعدين من المصريين — الذين تدربوا على يد فييت والذين تخرجوا في الجامعة من خلال برنامج كريزويل الخاص بالدراسات العليا في الآثار الإسلامية — قدر لهم أن يقضوا معظم سنوات خدمتهم تحت رئاسة الأوروبيين، تمامًا كما حدث لبهجت من قبل، وترك لعبد الناصر مهمة تحقيق الاستقلال السياسي الوطني، والسيطرة الوطنية على المتاحف والآثار والمؤسَّسات التعليمية، في نفس الوقت. ومع ذلك، ظلت القضايا

[١٣٦] On Patricolo see FO 371/3202/137229 Herbert to Balfour, 14 July 1918.

القديمة متضمنة في أطروحات جديدة — الاستعمار الجديد، والهيمنة الثقافية، وما بعد الحداثة، وما بعد الكولونيالية، وما بعد الاستشراق — برزت في محاولة لإحكام القبضة من جديد.[١٣٧]

١٣٧ Reid, "Cultural Imperialism".

الفصل السابع

أحفاد الفراعنة مرقص سميكة والتاريخ القبطي

يذكر مرقص سميكة (١٨٦٤–١٩٤٤م) أنه زار الأنبا كيرلس الخامس — بطريرك الأقباط — ذات يوم من أيام شتاء عام ١٩٠٨م، فوجده يُشرف بنفسه على صَهر الآنية الفضية القديمة التي تملكها الكنيسة لإعادة تشغيلها، وكانت جميعها تحمل نقوشًا قبطية وعربية تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. كان سميكة — عندئذٍ — نائبًا لرئيس المجلس المِلِّي للأقباط، فعرض على البطريرك أن يدفع ١٨٠ جنيهًا هي قيمة الفضة بعد الصهر على أن يتم الحفاظ على تلك الآنية الفضية في مخزن كبداية نحو إقامة متحف. فوافق البطريرك، وبذلك بدأت نواة المتحف القبطي.[١]

هذا التحول الذي أصاب تلك الأواني القديمة من كونها لا تساوي إلا قيمة وزنها من الفضة، فأصبحت قطعًا أثرية لا تقدر بثمن، يعكس تحولًا دراميًّا في الطريقة التي نظر بها الأقباط إلى ماضيهم، وحددوا هويتهم الحديثة. كان مرقص سميكة ومَن على شاكلته من الأقباط، نتاجًا للإصلاح الاجتماعي، بقدر ما كانوا دعاة له، ولم ينشدوا الهروب من الحاضر إلى الماضي البائد، فقد سعى المعارضون للأكليروس القبطي من أبناء الطائفة إلى إصلاح أحوالها، والإعلاء من شأن الهوية القبطية والوطنية، في وجه معارضة رجال الكنيسة، تمامًا كما حدث في فرنسا في القرن الثامن عشر واليونان في القرن التاسع

[١] هذه المعلومات، وغيرها مما سيرد بهذا الفصل عن مرقص سميكة مستقاة من مذكراته الشخصية المنسوخة على الآلة الكاتبة، والمودعة لدى أسرته، وسنشير إليها في هذا الفصل «بمذكرات سميكة».

عشر، وكان مرقص سميكة يتصدر الجهة المطالبة بالإصلاح حتى أدرك ضرورة الميل إلى المهادنة حتى يفوز بموافقة البطريرك على إقامة المتحف القبطي.

وكان شأن مرقص سميكة مع الآثار القبطية كشأن أحمد كمال مع الآثار الفرعونية، وعلي بهجت مع الآثار الإسلامية، رائدًا يناضل من أجل إشعال الحماس لآثار وتاريخ فترة حيوية من التاريخ، ومظهر من مظاهر الماضي الوطني. ورغم أنه كان يصغر كمال بخمسة عشر عامًا، وبهجت بست سنوات فقد شاركهما الوعي الذي تميز به ذلك الجيل، فقد تعلَّم ثلاثتهم في المدارس التي أوجدها الإصلاح، كما تعلموا اللغات الأوروبية التي ساعدتهم على تنمية اهتمامهم بالآثار، وأكملوا تعليمهم قبل وقوع الاحتلال البريطاني، وعاشوا معظم حياتهم العملية خلال السنوات الأربعين التي شهدت عنفوان الاحتلال (١٨٨٢–١٩٢٢م). وإذا كان كمال قد مات عام ١٩٢٣م، وبهجت عام ١٩٢٤م، فقد عمر مرقص سميكة حتى العام ١٩٤٤م.

ويلقي هذا الفصل الضوء على الحياة العملية لمرقص سميكة، لدوره الأساسي في علم الآثار القبطية، ولأن مذكراته الشخصية غير المنشورة التي لم تستخدم من قبل تعد مصدرًا غنيًّا لدراسة هذا الموضوع، أما المصادر الأخرى، فتشمل مجلتَي «لجنة حفظ آثار الفن العربي»، و«جمعية الآثار القبطية»، وهما مجلتان معروفتان للمتخصصين في الفن، والعمارة، والدراسات الدينية، ولكنهما لم تستخدما من قبل لدراسة تاريخ مصر الحديث، كذلك ساعدتني المقابلات الشخصية على دراسة مرامي ومسيرة الدراسات القبطية قبل العام ١٩١٤م.[٢]

الأقباط حتى العام ١٨٥٤م

يُجِلُّ الأقباط القديس مرقص الذي جلب المسيحية إلى الإسكندرية في القرن الأول، ويعتبرونه المؤسس لكنيستهم. ومع انتشار المسيحية حول البحر المتوسط في القرنين الرابع والخامس، أقيمت مجامع دورية للتفريق بين المعتقد الصحيح (الأرثوذكس)

[٢] أجريت مقابلات شخصية مع مديري المتحف القبطي: جودت جبرة عبد السيد (فبراير ١٩٨٨م، مارس ١٩٩٩م)، وفيكتور جرجس (مارس ١٩٨٨م)، وباهور لبيب (أكتوبر ١٩٨٧م)، كما قابلت مريت بطرس غالي (أبريل ١٩٨٨م)، وعالم المصريات لبيب حبشي (نوفمبر ١٩٨٢م)، وكمال الملاخ (أكتوبر ١٩٨٧م)، وأجريت مقابلة في سولت ليك سيتي مع عزيز سوريال عطية (مارس ١٩٨٦م).

والهرطقة. وأدت الخلافات المسيحية في مجمع مقدونيا عام ٤٥١ للميلاد إلى انفصال الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية وروما عن الكنيسة القبطية. وأدى اضطهاد الإمبراطورية البيزنطية للأقباط إلى تمهيد الطريق للفتح الإسلامي لمصر خلال (٦٤٠–٦٤٢). وبعد بضعة قرون من الحكم الإسلامي، أصبح الإسلام دين الأغلبية، ورجحت كفة اللغة العربية على حساب القبطية كلغة للحديث والتعامل اليومي، وتراجع استخدام القبطية لغةً للحديث إلى مناطق منعزلة بالصعيد، ثم ما لبثت أن اختفت تمامًا.

وفي العام ١٨٠٠م، كانت أغلبية الأقباط تسكن الصعيد، وخاصة في مديريتَي المنيا وأسيوط، وكان معظمهم من الفلاحين، شأنهم في ذلك شأن مواطنيهم المسلمين. واشتغل أقباط الحواضر بالحرف اليدوية، والوظائف الكتابية في المالية والضرائب، مع اشتغال القليل منهم بالأنشطة التجارية التي اجتذبت — أصلًا — اليونان الأرثوذكس والأرمن المسيحيين.

وكانت التجارب السلبية التي عاناها الأقباط مع اليونان الأرثوذكس أيام الحكم البيزنطي، والروم الكاثوليك القادمين من غرب أوروبا أيام الحروب الصليبية، حيث لقوا منهما الاحتقار والاتهام بالهرطقة، كانت وراء مشاعر الشك العميق في إخوانهم المسيحيين القادمين من الشمال. فلم يؤيد الحملة الفرنسية إلا نفر قليل من الأقباط. ومن بين هؤلاء يعقوب حنا — أحد جُباة الضرائب بالصعيد — الذي حول ولاءه من المماليك إلى الفرنسيين، وأصبح الجنرال ديزيه لا يستطيع الاستغناء عن خدماته في حملة الصعيد. وبعد رحيل بونابرت إلى فرنسا، قام الجنرال كليبر بتزويد يعقوب حنا بحرس من الجنود الفرنسيين مكون من ثلاثين جنديًّا، وجعل منه قائدًا لفيلق يضم ثمانمائة رجلًا من الأقباط. ولم يكن أمام يعقوب حنا مفر من الهرب عندما غادر الفرنسيون البلاد، ومات على ظهر سفينة بريطانية وهو في طريقه إلى أوروبا.[٣]

وعندما تولَّى محمد علي حكم مصر، لم يتمسك بالقيود التقليدية المفروضة على غير المسلمين من حيث الملبس، وركوب الخيل، غير أنه لم يحقق نجاحًا كبيرًا في التخفيف من اعتماد الحكومة على الأقباط ككتبة وجباة ضرائب.

وغلبت على مسيحيي الغرب — في القرن التاسع عشر — فكرتان عن الأقباط: فهم لا يرونهم إلا هراطقة أحيانًا، وأحيانًا أخرى يُبدون قبولًا بهم كإخوان في المسيحية. وأحس

[٣] Jean-Joël Brégeon, L'Égypte Française au jour le jour 1798–1801 (Paris, 1991), 318–20.

الغربيون — الذين التمسوا في مصر أرض الإنجيل، ومهد الآباء الأول للكنيسة — بخيبة الأمل في الأقباط من أهل مصر، تمامًا كإحساس عشاق التراث الهلِّيني الذين التمسوا في اليونان المحدثين، أبطال العصر القديم. فقد عكس دليل نلسون السياحي في التسعينيات التعصب الأوروبي الدفين تجاه الأقباط: «الأقباط أكثر الرجال قبحًا، وهم أيضًا على درجة عالية من القذارة، وعاداتهم تثير بالغ الاشمئزاز.»[٤] وكان إدوارد لين بول على نفس الدرجة من التطرف: «إن التعصب من أبرز سمات شخصية القبط، فهم يضمرون بعض الكراهية لجميع المسيحيين الآخرين، وهم حتى يتفوقون في ذلك على كراهية المسلمين لغير المؤمنين بالإسلام ... وهم — بصورة عامة — يمتازون بحدَّة الطبع، وشدة البخل، والنفاق البغيض، يتذللون أو يطغون حسب الظروف.»[٥] وواصل ستانلي لين بول (قريب لين) تقاليد العائلة في التحفظ تجاه الأقباط: «ينسب لمصر شرف اختراع الرهبنة والديرية، المثير للجدل.»[٦]

واعترف لين أنه كان له «حظ مصادفة شخصية كنت أشك في وجودها، وهو قبطي يتمتع بعقلية متحررة ذكية» قدم له المعلومات التي استخدمها في الملحق الخاص بالأقباط، في كتاب «عادات وتقاليد المصريين المحدثين».[٧]

ووجد ويلكنسون رهبان وادي النطرون «على درجة بالغة من الجهل»، وعبر عن الاستنكار البروتستانتي الشائع للرهبنة، ولكنه لاحظ أيضًا أن: «هناك روح من الوقار والطيبة، في مشية كبار الرهبان، والآباء من كبار السن، تعد ميزة مسيحية خالصة، وتضع خطًّا فاصلًا بين تواضعهم وغطرسة علماء الإسلام، تدخل السرور على الزوار المسيحيين الأجانب، وتذكرهم بإيمان أولئك القوم الذين — رغم جهلهم وتشددهم — يرتبطون بالرب برباط الوحدة، ولديهم مُثُل توجِّه حماسهم تجاه الرب وحده.»[٨]

ووجد بعض أهل الغرب المتأثرين بمصر القديمة — مثل ويلكنسون — من السبل فأتيح لهم المزج بين مصر القديمة وهذا الإيمان العميق بالمسيحية. فتبين اللوحة التي

---

[٤] Practical Guide to Alexandria, Cairo and Port-Saïd and Neighbourhood, (London, ca. 1896), by Nilsson and Company.

[٥] E. W. Lane, Manners and Customs…, 555.

[٦] S. Lane-Poole, Cairo, 203.

[٧] E. W. Lane, Manners and Customs…, 535.

[٨] Wilkinson 1843, 1: 387-88.

رسمها لوك أوليفييه ميرسون عام ١٨٧٩م، العائلة المقدسة تحت سماء تسطع فيها النجوم تتجه نحو أحضان أبي الهول المصري الذي مد ذراعيه مرحبًا بها (انظر الشكل ٤٠).

النهضة والنكوص – البطريرك كيرلس الرابع وما بعده

يذكر الأقباط البطريرك كيرلس الرابع (تولَّى ١٨٥٤–١٨٦١م) بأنه كان «أبو الإصلاح». لقد كان الأقباط يدفعون «الجزية» التي تفرض على غير المسلمين، مقابل عدم تجنيدهم في الجيش. ولكن عباس الأول جندهم في الجيش،[٩] واستمر سعيد في تجنيدهم، وألغى الجزية، جاعلًا بذلك الحواجز الطائفية الدينية عرضة للتآكل بمرور الزمن، غير أنه لم يسمح بقبول الأقباط بالمدارس الحكومية، وكان عليه الانتظار حتى أصدر مبارك قرارًا عام ١٨٦٧م، أباح الالتحاق بالمدارس للجميع بغض النظر عن عقيدتهم الدينية. وفي عهد الخديو إسماعيل تم إيفاد بعض الأقباط للدراسة بالخارج على نفقة الدولة لأول مرة.[١٠] وأدخل إسماعيل — أيضًا — الأقباط في «مجلس شورى النواب» وخلال نصف القرن التالي، أقبل الأقباط على الالتحاق بمدارس الدولة ومدارس الأقباط، كما استفادوا كثيرًا بمدارس الإرساليات التبشيرية.[١١]

وبدأ كيرلس الرابع موجة الإصلاح القبطي الحديث الأولى عام ١٨٥٤م، ومنذ ذلك التاريخ حتى ثورة يوليو ١٨٥٢م ظهرت موجة جديدة من الإصلاح القبطي، توجت كل عقد من العقود. وقاد العلمانيون كل موجة من موجات الإصلاح التي قاومها الأكليروس، فيما عدا الدرجة الأولى التي قادها كيرلس الرابع. وكان للإصلاح القبطي آليات الحركة الداخلية الخاصة به، ولكنه اتفق مع نغمة وإيقاع الإصلاح الوطني في مصر والدولة العثمانية.

جاء كيرلس الرابع من بين صفوف الفقراء من الفلاحين بالصعيد، ودخل سلك الرهبنة، وهو بعدُ شاب في ريعان الشباب، في دير القديس أنطونيوس بالصحراء الشرقية.

---

[٩] Ehud Toledano, State and Society in Mid-Nineteenth-Century Egypt (Cambridge, 1990), 187.

[١٠] Doris Behrens-Abouseif, Die Kopten in der ägyptischen, 35.

[١١] حول الإصلاح القبطي في تلك الفترة ودورهم السياسي، راجع: طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية (القاهرة ١٩٨٢م).

ولعله تأثر بحلقة دينية قصيرة الأمد نظمها مبشر إنجيلي بالقاهرة في الأربعينيات،[١٢] ولكن إصلاحات محمد علي كان لها بالغ الأثر عنده. فقد أدت تلك الإصلاحات إلى تعامل الدولة مع الأفراد المسيحيين واليهود مباشرة، دون أن تلجأ إلى رئاساتهم الدينية، مما أضعف دور بطريرك الأقباط وحاخام اليهود في الوساطة بين طوائفهم الدينية والحكومة.

غير أن ضعف إيقاع عملية الإدماج تلك، يعني أن الأقباط لم يكن لهم مكان في الجيش الجديد، ولا في المدارس العليا والبعثات التعليمية التي أوفدت إلى أوروبا، وقلم الترجمة، والمطبعة، والوقائع المصرية. وعندما نصب كيرلس الرابع بطريركًا، قرر أن تتولى الكنيسة مهمة جلب منافع الإصلاح للأقباط. فقام باستيراد مطبعة من بريطانيا، وشن حملة على فساد رجال الأكليروس وجهلهم، وفتح مدارس جديدة للأقباط، ومد الصلات المسكونية مع اليونان الأرثوذكس، والأرمن، وربما الإنجيليين. وقد شاع الاعتقاد أن اتصال كيرلس الرابع بالكنيسة اليونانية الأرثوذكسية جعل سعيد يتخوف من التدخل الروسي في مصر، فدسَّ السم للبطريرك عام ١٨٦١م.[١٣]

وكان من أعظم إنجازاته تأسيس «مدرسة الأقباط الكبرى»، فقد رفض سعيد طلبه السماح بقبول الأقباط بالمدارس الحكومية، لينضموا إلى مواطنيهم المسلمين الذين كانوا — عندئذٍ — يشغلون المراكز الدنيا في الإدارة. وكان التعليم المتاح للأقباط — حينئذٍ — عند مستوى «الكتاب»، حيث كان الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة، والكتاب المقدس، وبعض الحساب. ولم تكن هناك مدرسة قبطية من مستوى الأزهر.

ولعبت «مدرسة الأقباط الكبرى» — التي تعلَّم فيها مرقص سميكة — دورًا في تكوين جيل كامل من نخبة الأقباط العلمانيين قبل أن تجعل مدارس الإرساليات التبشيرية، والمدارس الحكومية، التعليم متاحًا — على نطاق واسع — للأقباط. ويذكر سميكة أن المدرسة خرجت ثلاثة ممن تولوا رئاسة الوزراء هم: بطرس غالي، ويوسف وهبة، ويحيى إبراهيم،[١٤] ومن بين الخريجين الآخرين: فليني فهمي، والمؤرخ ميخائيل شاروبيم، والصحافي ميخائيل عبد السيد، وعالم القبطيات والمصريات كلوديوس لبيب.

---

[١٢] عن سيرة كيرلس الرابع، انظر: جرجي زيدان، تراجم مشاهير السوق (القاهرة ١٩٢٢م) ١: ٢٧١–٢٨٠.

[١٣] Samir Seikaly, “Coptic Communal Reform 1860–1914”, Middle Eastern Studies 6 (1970), 250.

[١٤] مذكرات مرقص سميكة، ١١.

كان موقف البطاركة: ديمتريوس الثاني (١٨٦٢–١٨٧٠م)، وكيرلس الخامس (١٨٧٤–١٩٢٧م)، ويوحنا التاسع عشر (١٩٢٨–١٩٤٢م)، بالغ الحدة في مواجهة المؤثرات الأجنبية التي قابلها كيرلس الرابع وسميكة، والكثير من الأقباط العلمانيين. فقد جاء المشيخون المتحدون التابعون «للإرسالية الأمريكية» «لاحتلال» مصر،[١٥] في نفس السنة التي تولَّى فيها سعيد الحكم، ونصب فيها كيرلس الرابع بطريركًا. وهاجم ديمتريوس الثاني المشيخيين الدخلاء، الذين يعتبرون الكنيسة القبطية مهرطقة، وفاسدة، وجاهلة. وساند كل من سعيد وإسماعيل البطريرك القبطي في مواجهة أولئك الأجانب الذين يثيرون المتاعب. وواجه إسماعيل المدارس التبشيرية بمنح الكنيسة القبطية ١٥٠٠ فدان من الأراضي الزراعية لتنفق من ريعها على مدارسها وتعمل على تطويرها،[١٦] وبفتح مدارس الحكومة أمام غير المسلمين في ١٨٦٧م. (كانت الإرساليات الكاثوليكية تعمل بمصر قبل وصول المشيخين بوقت طويل، ولكنهم كانوا أقل اصطدامًا بالكنيسة القبطية). ولكن إسماعيل كان بحاجة — أيضًا — لتحسين علاقته مع الولايات المتحدة التي أمدته بالخبراء العسكريين بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وساعدت الحماية الدبلوماسية الإرسالية الأمريكية على توطيد مقرها الرئيسي بأسيوط وبناء المدارس والكنائس في مختلف أنحاء البلاد. وما لبث الأقباط الكاثوليك والبروتستانت (الإنجيليين) أن انفصلوا عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

اشترك مرقص سميكة مع جوقة المرتلين عند تنصيب الأنبا كيرلس الخامس، الذي ما لبث أن استجاب لمطالب دعاة الإصلاح من العلمانيين بتأسيس كلية أكليركية، وانتخاب المجلس الملِّي للمساعدة في إدارة أمور الأقباط. وقام بطرس غالي بصياغة القانون الذي تم بموجبه إنشاء المجلس الملِّي عام ١٨٧٤م، واختير نائبًا للرئيس تحت رئاسة البطريرك.[١٧] وكانت تلك المجالس شائعة في الدولة العثمانية، فقد سمحت بتأسيس مجالس ملية للأرمن، وبرلمانًا عام ١٨٧٤م، وإن كان مجلس شورى النواب الذي أسسه إسماعيل (١٨٦٦م) أسبق وجودًا.

---

[١٥] Andrew Watson, The American Mission in Egypt 1854–1896 (Pittsburgh, 1898), 87.

[١٦] Heyworth-Dunne, Introduction, 422.

[١٧] مذكرات مرقص سميكة، ٢٠.

وما لبث كيرلس الخامس أن انقلب على المجلس المِلّي، وقام بحله في حركة مماثلة لما فعله السلطان عبد الحميد الثاني بالبرلمان والدستور العثماني عام ١٨٧٨م. وبذلك انتهت المحاولة الثانية للإصلاح القبطي، والتي كانت أول محاولة يقودها العلمانيون.

وعاد العلمانيون إلى الكفاح ضد البطريرك ورجال الأكليروس الرجعيين، بعد ذلك التاريخ بعقد من الزمان للحدِّ من سلطتهم التقليدية على الطائفة، طالب الإصلاحيون بأن يظل المجلس المِلّي قائمًا على الدوام ليدير أوقاف الكنيسة والأديرة، ومدارس الأقباط، وليتولى النظر في قضايا الأحوال الشخصية المعلقة بالطلاق والميراث. وكان البطاركة والأساقفة — الذين جاءوا من أصول ريفية فقيرة، وعاشوا رهبانًا في أديرة الصحراء — ينالون احترام الأقباط وتقديرهم لورعهم وزهدهم في أمور الدنيا، ولكن تنقصهم الثقافة وخبرة التعايش مع عالم أرحب نطاقًا من عالمهم المحدود.

كتب سميكة «إنه اعتراف مثير للخجل، ولكننا يجب أن نقر بأن القلة القليلة من الأساقفة الحاليين، جاءوا من عائلات محترمة.»[١٨] فقد انحدر معظم الرهبان من عائلات الفلاحين الفقراء في الصعيد، ومن كان يتولى منهم منصبًا كبيرًا في الكنيسة كان لا يستطيع مقاومة مطالب الأقارب الذين يسعون لتعويض حرمان الماضي. وتعكس انتقادات مرقص سميكة لرجال الأكليروس لكسلهم، واعتبارهم هاربين من عالم العمل الحقيقي إلى مجال الفساد والدعة، تعكس مقولات بروتستانتية مألوفة. فقد اتهم رجال الأكليروس بإهمال واجباتهم الدينية، وبيع العدالة، وإثراء الأقارب عن طريق نهب أموال الكنيسة.[١٩] أما كبار الملاك والمهنيين من أعيان الأقباط، الذين انتخبوا لعضوية المجلس المِلّي، فكانوا من الأثرياء ميسوري الحال، الذين تلقوا تعليمًا أفضل، ويتطلعون إلى أن تكون لهم كلمة نافذة في شئون الأقباط. ففي العام ١٨٩١م، كان سبعة من بين أعضاء المجلس المِلّي الاثني عشر يحملون رتبة البكوية وباشا واحد هو بطرس غالي،[٢٠] ولكن البطريرك والأساقفة وغيرهم من رجال الأكليروس كانوا يتحصنون بالكنيسة، ولهم تأثير كبير على الجماهير القبطية، وتمسكوا بمواقفهم المعارضة لمحاولات الإصلاح التي يتبناها المجلس

---

١٨ A Coptic Layman [Simaika], “The Awakening of Coptic Church”, Contemporary Review 71 (1847), 737.

١٩ “The Awakening”, 737–38.

٢٠ Seikaly, “Coptic Communal Reform”, 262.

المِلّي. وكان لهذا الجمود ما يناظره في السياسة الوطنية بين الوفد وأحزاب القصر بين عامَي (١٩١٩–١٩٥٢م)، وكان له ما يوازيه في الأزهر الذي جاء معظم طلابه — منذ ٩٠٠ — من بين صفوف الفقراء، أو من أصول ريفية.[٢١] فقد عارض معظم العلماء محاولات إصلاح الأزهر، والمحاكم الشرعية، والأوقاف، خشية فقدان نفوذهم ومكانتهم. وكان الإصلاحيون من شيوخ الأزهر — من أمثال الشيخ محمد عبده — يمثلون حالات استثنائية، شأنهم في ذلك شأن الإصلاحيين من أساقفة الأقباط، واستند كلاهما إلى تأييد نخبة العلمانيين، وكان باستطاعة دعاة الإصلاح من الأقباط أن يلجئوا إلى الدولة لترجيح كفتهم، ولكنهم تحسبوا لما قد يترتب على ذلك من فقدان الطائفة لاستقلالها.

تربية مرقص سميكة

نشأ مرقص سميكة في بيت جده لأمه، بحارة الأقباط شمالي الأزبكية، في زمان لم تعد الحارة فيه تغلق أبوابها مساءً لحماية سكانها، وأصبح الأقباط يشعرون بدرجة كافية من الأمان تجعلهم يستطيعون الإقامة في أي مكان يشاءون بالقاهرة. وكانت نشأة مرقص سميكة في عائلة من عائلات أعيان القاهرة التي حققت ثراءً من خلال العمل في خدمة الدولة والكنيسة. ولدت أمه بدمشق، عندما كان والدها يعمل كاتبًا بمعية إبراهيم باشا ابن محمد علي في الثلاثينيات. ومن ناحية الأب، تبرع أجداده ببعض المخطوطات والأشياء الثمينة الأخرى للكنيسة المعلقة.[٢٢]

وعلى مسيرة مائتي متر بشارع الواسعة من بيت جده، كانت تقع البطريركية، وكاتدرائية القديس مرقص، ومدرسة الأقباط الكبرى. وكانت الدراسة مجانية بتلك المدرسة، التي كانت تقبل التلاميذ من مختلف الديانات، ولكن معظمهم جاءوا من عائلات الأعيان من الأقباط مثل سميكة. ويذكر أنه تعلَّم في تلك المدرسة اللغات العربية والقبطية، واليونانية، ولكن التركية لم تكن من بين تلك اللغات، فقد قل النفع منها في عهد إسماعيل لأن النخبة الحاكمة كانت تميل نحو التعريب.

[٢١] عن الأزهر والموقف من الإصلاح، انظر: A. C. Eccel, Egypt, Islam and Social Change: Al-Azhar in Conflict and Accommodation (Berlin, 1984) 290–92.

[٢٢] مذكرات مرقص سميكة، ١–٦، ١٥.

واختار مفتشو المدرسة اثنين من أشقاء مرقص سميكة للدراسة بمدرسة الحقوق تمهيدًا للالتحاق بخدمة الحكومة. وكما كانت العائلات المسلمة تخصِّص أحد أبنائها للالتحاق بالأزهر، حاول والد مرقص سميكة أن يدفع به إلى الكنيسة؛ ولذلك منعه من حضور دروس اللغة الإنجليزية بمدرسة الأقباط. وكان عبد السيد يتولى تدريس الإنجليزية بالمدرسة، وكان محررًا لصحيفة «الوطني» القبطية، ومن نفرٍ قليل من الأقباط الذين تعلَّموا بنفس المدرسة، مدارس الإرسالية الأمريكية، وكذلك بالأزهر.[٢٣] وخشي والد مرقص سميكة من أن يؤدي تعلمه الإنجليزية إلى اتجاهه إلى الحياة العلمانية، ولكن إصرار مرقص وإضرابه عن الطعام، جعل والده يعدل عن موقفه. فدرس الإنجليزية ثم اتجه إلى «مدرسة الفرير» لدراسة الفرنسية. وكانت مخاوف والده في موضعها، فقد انصرف تمامًا عن التفكير في العمل الكنسي.[٢٤]

كانت مدرسة الأقباط الكبرى والكلية الإكليركية توفران فرصة دراسة اللغة القبطية بمستويات أعلى من تلك التي يوفرها «الكتاب» القبطي؛ ولذلك تعرَّف الأقباط على تراثهم من كتابات الأوروبيين. فقد استخدم فصل سميكة بالمدرسة نسخة تاتام من الإنجيل القبطي-العربي الذي أهداه المؤلف في مقابل المخطوطات التي حصل عليها من أديرة وادي النطرون. وكتب برسوم الراهب — معلِّم سميكة — أول كتاب في النحو القبطي باللغة العربية. وتعلَّم كلوديوس لبيب (١٨٦٨–١٩١٨م) — عالم المصريات والقبطيات — بنفس المدرسة. ويبدو أن رجال الكنيسة القبطية لم يكن يعنيهم أمر المصريات، على نقيض رجال الدين البروتستانت في الغرب، الذين دعموا مجال الآثار لإثبات «صحة الإنجيل» في مواجهة من ينتقدونه.[٢٥]

وعلى كلٍّ، لم يعمل الإصلاح دائمًا في تناغم مع الآثار والمحافظة عليها، فقد اعترض المبشرون البروتستانت على وجود الأيقونات بالكنائس القبطية، تمامًا كما فعل المسيحيون الأوائل عندما طمسوا بالملاط وجوه صور الآلهة بالمعابد الفرعونية. وعندما أعيد بناء

[٢٣] عبد العزيز، روضة المدارس، (القاهرة ١٩٨٥م)، ٣٨١-٣٨٢.

[٢٤] مذكرات مرقص سميكة، ٨–١٣. وجرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ١: ٢٧٧، ويذكر أن اللغة التركية كانت تدرس أيضًا.

[٢٥] مذكرات سميكة، ٩. وعن كلوديوس لبيب، راجع: رمزي تادرس، الأقباط في القرن العشرين، ٥ أجزاء (القاهرة ١٩١٠–١٩١١م) ٤: ١٣٥–١٣٩.

كاتدرائية القديس مرقص، أمر البابا كيرلس الرابع بحرق الأيقونات القديمة، ومنع عمل غيرها. وفي العام ١٨٦٩م قامت زمرة من الشباب الأقباط، الذين تأثروا بالمبشرين الأمريكان، بالإغارة على الكنائس القبطية بأسيوط لتحطيم أيقوناتها، فتم إلقاء القبض عليهم وإرغامهم على ردها إلى ما كانت عليه. ولكن لم يمضِ وقت طويل «حتى توقفت ورشة التصاوير عن العمل»، على حد قول سميكة.[٢٦]

الإصلاح القبطي والاحتلال البريطاني

كان مرقص سميكة في الثامنة عشرة من عمره عندما دخل الجيش البريطاني القاهرة، وسرعان ما استفاد بمعرفته للإنجليزية فعمل سكرتيرًا لسيدة إنجليزية كانت تدير مستشفى تطوعي لعلاج الجرحى البريطانيين، وفي العام ١٨٨٣م بدأ حياته العملية كاتبًا بمصلحة السكك الحديدية، ولم يكن ذلك غريبًا، فبعد ذلك بجيل (عام ١٩١١م) بلغت نسبة الأقباط العاملين في السكك الحديدية والبرق (التلغراف) ٤٨٪ من جملة العاملين بتلك المصلحة.[٢٧]

وأسهم الاحتلال البريطاني في المحاولة الثالثة لإصلاح أحوال الطائفة القبطية؛ ففي مايو ١٨٨٢م، كان بطرس غالي أول قبطي يصل إلى رتبة الباشا يعمل وكيلًا لنظارة الحقانية، وتبنى — مرة أخرى — قضية الإصلاح القبطي. تعلَّم بطرس غالي بمدرسة الأمير فاضل (وكان والده يعمل مباشرًا بدائرة الأمير)، ومدرسة الأقباط التي أنشأها كيرلس الرابع تجارة السقايين، ومدرسة الألسن. واستخدام معرفته بالعربية والتركية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية في الوساطة بين الأقباط والدولة، والخديو عباس الثاني والمعتمد البريطاني، وبين المصريين والأوربيين. وكان عضوًا بمجلس الوزراء منذ ١٨٩٣م حتى تم اغتياله عندما كان رئيسًا للوزراء عام ١٩١٠م. وعلى طول هذا الطريق كون ثروة شخصية عن طريق شراء أراضي الدومين بأنشاص بالشرقية.[٢٨]

ساندت «جمعية نشر المسيحية بمصر» — وهي مؤسسة إنجيلية — الأقباط العلمانيين في دعوتهم للإصلاح في أوائل الثمانينيات. وكانت تستند إلى أساس يثير التساؤل، جاء

---

[٢٦] (Simaika), “The Awakening”, 737.

[٢٧] مذكرات سميكة ٧١، ٧٢–٨٣.

[٢٨] رمزي تادرس، الأقباط، ٢: ٦٢–١٤٢.

على لسان متحدث رئيسي بأحد الاجتماعات الأولى شن فيه الهجوم على «هرطقة الأقباط المدمرة للروح».[٢٩] كان كيرلس الخامس رئيسًا للمجلس الملِّي بحكم القانون، ولكن رفضه الاعتراف بالمجلس حال دون انعقاده. وفي عام ١٨٨٤م تم حل المجلس الملِّي مرة أخرى، وفي عام ١٨٩٠م قامت «جمعية التوفيق القبطية» برابع محاولة للإصلاح. ورغم أن مرقص سميكة كان في منتصف العشرينيات من عمره، فقد فاز بعضوية المجلس الملِّي. وعندما رفض كيرلس الخامس — مرة أخرى — الاعتراف بالمجلس، حاول بيرنج (المعتمد البريطاني)، ومصطفى فهمي (رئيس الوزراء)، وبطرس غالي، إخضاع البطريرك بنفيه إلى أحد أديرة وادي النطرون. وكلفت هذه الغربة مصطفى فهمي منصبه، كما دمرت مكانة البريطانيين. وألغى رياض — الذي خلف مصطفى فهمي — قرار نفي البطريرك، وعاد كيرلس الخامس إلى القاهرة ليلقى ترحيب المنتصر، وثارت ضجة — أيضًا — حول القس الإنجليكاني جورج هورنر، الذي كان يبحث في مجموعة المخطوطات القديمة بالبطريركية، وكان بطرس غالي، وبيرنج، ومرقص سميكة، قد رتَّبوا له مهمة الاطلاع على تلك المخطوطات، ولكن سرت شائعات حول وجود مؤامرة إنجليكانية للاستيلاء على الكنيسة القبطية، وأن للقس هورنر يد فيها. وبعد عودة البطريرك كيرلس الخامس من المنفى شكل لجنة استشارية من أربعة من المشايعين له لتحل محل المجلس الملِّي، و «لم يجرؤ أحد أن يتحدث عن الإصلاح».[٣٠] وأعاد البطريرك افتتاح الكلية الإكليركية، ولكن هيئة التدريس كانت ضعيفة وكذلك كانت حال طلابها.

وثمة ما يوازي إجهاض محاولة الإصلاح هذه، بالنسبة للأزهر، فبعد تشدق الخديو عباس بالحديث عن الإصلاح، إذا به يعيِّن شيخًا للأزهر من المحافظين. ويئس محمد عبده من إمكانية إصلاح الأزهر فاستقال من مجلسه. وكذلك تشبه محاولة الدولة انتزاع السيطرة على الأوقاف من علماء الأزهر، صراع المجلس الملِّي مع البطريرك للسيطرة على الأوقاف القبطية.[٣١]

وأعاد دعاة الإصلاح القبطي تنظيم صفوفهم ببطء من أجل القيام بمحاولة خامسة للإصلاح. وفي عام ١٨٩٥م أنشأوا جريدة لمواجهة صحيفة بتشجيع تادرس شنودة

---

[٢٩] E. L. Butcher, The Story of the Church of Egypt, 2 vols. (London, 1897), 2: 410.

[٣٠] مذكرات مرقص سميكة، ٨٢–٨٨.

[٣١] Eccel, Egypt, 169–71, 175–78.

المنقبادي — عضو جمعية التوفيق المؤيد للمجلس المِلّي — على إصدار صحيفة «مصر» التي جمعت بين الدعوة للإصلاح القبطي، وتأييد سياسة الاحتلال البريطاني.[٣٢]

إعادة تقييم الماضي القبطي من منظور أوروبي

لم تكن اللغة القبطية بحاجة إلى من يقوم — مثل شامبليون — بحل رموزها؛ لأنها بقيت — إلى جانب العربية — لغة النصوص الدينية والتراتيل الكنسية للكنيسة القبطية. وبدأت الدراسات الجادة للغة القبطية في الغرب في القرن التاسع عشر على المخطوطات التي جلبها الرحالة معهم. وشجع الفاتيكان هذا العمل لأسباب تبشيرية، ورعى نشاط الفرنسيسكان وغيرهم من المبشرين العاملين بين صفوف الأقباط. وقام إثناسيوس كيرشر (١٦٠٢–١٦٨٠م) — اليسوعي الألماني الذي أقام بروما لمدة طويلة — بدراسات مستفيضة لكل من الهيروغليفية والقبطية. وكان اشتغاله بالهيروغليفية متواضعًا (فقد اعتقد أنها طريقة رمزية خالصة للكتابة)، ولكن عمله في القبطية أصبح أساسًا لجميع الدراسات الأوروبية القبطية.[٣٣]

وهكذا ترعرعت الدراسات القبطية في أوروبا في حجر دراسات الكتاب المقدس، والدراسات اللاهوتية، وربيبها: الاستشراق. وقام المتخصصون في «المصريات» — منذ أيام شامبليون — باستخدام القبطية كأداة لفهم الهيروغليفية. وتحدث جومار قليلًا عن الأقباط في «وصف مصر»، وتناولهم وليم لين في ملحق بكتابه الشهير «عادات وتقاليد المصريين المحدثين»، وفي الثلاثينيات من القرن التاسع عشر قام كل من روبرت كيرزون، وهنري تاتام (انظر الجدول ٧-١) بتهريب المخطوطات القبطية وغيرها التي اكتشفت بالأديرة المصرية إلى بريطانيا. وكما رأينا من قبل، كان قدوم مارييت إلى مصر عام ١٨٥٠م لشراء مخطوطات قبطية وغيرها من المخطوطات لحساب اللوفر.[٣٤]

ورسم سومرز كلارك صورة قاتمة لحال الآثار القبطية بمصلحة الآثار قبل عودة ماسبيرو إلى إدارة المصلحة عام ١٨٩٩م:

[٣٢] مصطفى الفقي، الأقباط في السياسة المصرية (القاهرة ١٩٨٥م)، ٣٣؛ فيليب الطرازي، تاريخ الصحافة العربية، ٤ مجلدات (بيروت ١٩١١–١٩٣٣م)، ٣: ٩–١٢.

[٣٣] Martin Krause, “Coptological Studies”, Coptic Ency., 2: 613–61.

[٣٤] Robert Curzon, A Visit to the Monasteries of the Levant (New York, 1849), 1–105.

«كان الموقف الفكري للمتخصص في المصريات تجاه أي دراسة للآثار المصرية لا تتم على طريقته — في ذلك الوقت — أبعد ما يكون عن الصفة العلمية، كما كان مسببًا للإحباط. ولم يكن مدير عام الآثار يتحدث إلا باشمئزاز عن (الأقباط التافهين). كان في منتهى القسوة والبربرية التي لا داعي لها في مدينة حابو، فقد تم تحويل أحد إيوانات ذلك البناء الضخم الأخَّاذ إلى كنيسة في عهد متأخر، فأقيمت الأعمدة، وبناء حجري نصف دائري للمذبح ... فلم تعجب تلك الصفحة من التاريخ جناب المدير العام، وما قد تشير إليه من أدلة، فقام بانتزاع الأعمدة بمشقة وكلفة كبيرة. ولم يفعل ذلك وحسب، بل لم يعنَ بنشر تصميمها ورسوماتها، والمعلومات الوصفية لها. وعلينا الآن أن نبحث عن الكيفية التي حاول بها أولئك المسيحيون إعادة تنظيم الإيوان لاستخدامهم الخاص، بالرجوع إلى الرسم الوارد بكتاب وصف مصر.»[٣٥]

وما زالت هناك بعض الصور الفوتوغرافية لبقايا الكنيسة القبطية قبل أن تتم إزالتها من الموقع (انظر الشكل ٤١).

جدول ٧-١: علماء القبطية وقيادات الأقباط

علماء أوروبيون	علماء	علمانيون	البطاركة — مدة الخدمة
تاتام ١٧٨٨–١٨٦٨م			
كيرزون ١٨١٠–١٨٧٣م			
كلارك ١٨٤١–١٩٢٦م			
		بطرس غالي ١٨٤٦–١٩١٠م	
أميلينو ١٨٥٠–١٩١٥م			
بتلر ١٨٥٠–١٩٣٦م		ميخائيل شاروبيم	

[٣٥] Somers Clarke, Christian Antiquities in the Nile Valley (Oxford, 1912), 189–90.

علماء أوروبيون	علماء	علمانيون	البطاركة — مدة الخدمة
		١٨٥٣–١٩٢٠م	
شتا يندورف ١٨٦١–١٩٥١م	مرقص سميكة	فليني فهمي	كيرلس الرابع
	١٨٦٤–١٩٤٤م	١٨٦٠–١٩٥٤م	١٨٥٤–١٨٦١م
كروم ١٨٦٥–١٩٤٩م	كلوديوس لبيب	ميخائيل عبد السيد	ديمتريوس الثاني
	١٨٦٨–١٩١٨م	١٨٦٠–١٩١٤م	١٨٦٢–١٨٧٠م
كليدا ١٨٧١–١٩٤٣م		مرقص حنا	
ماسبيرو ١٨٨٥–١٩١٥م		١٨٧٢–١٩٣٤م	
		ويصا واصف	كيرلس الخامس
		١٨٧٣–١٩٣١م	١٨٧٤–١٩٢٧م

وأخذت الدراسات القبطية — في الدوائر الأوروبية الأخرى — تحظى بالاهتمام في الثمانينيات والتسعينيات، فاشتغل كل من أميلينو، وأوسكار فون وليم، وولتر كروم باللغة والأدب، ونشر شتا يندورف كتابًا مهمًّا في قواعد اللغة القبطية عام ١٨٩٤م. وبدأ الفن والعمارة القبطية يدخلان دائرة الاهتمام عام ١٨٨٠م عندما قدم إلى مصر الفرد بتلر ليعمل معلمًا لأبناء الخديو توفيق، فخلبت لبَّه الكنائس القبطية. وفي عام ١٨٨٤م نشر كتابه «الكنائس القديمة في مصر»، الذي ذكر فيه أن «الآثار القبطية في طريقها للفناء يومًا بعد يوم؛ فلا يعرفها السياح الأوروبيون، ولم يهتم بها الأقباط أنفسهم إلا نادرًا، ولم يتم عمل أي شيء مطلقًا لإنقاذها من الدمار.»[٣٦] وفي العام ١٩٠٢م، نشر بتلر كتابه «الفتح العربي لمصر».

بدأ حقل الآثار القبطية يجتذب الاهتمام بعد العام ١٩٠٠م، فبعدما ترك سومرز كلارك العمل في مجال العمارة بإنجلترا عام ١٩٠٢م، استقر في مصر، وتفرغ للبحث

[٣٦] A. J. Butler, Ancient Churches of Egypt, 2 vols. (London, 1884) 1: 371.

وكان ماسبيرو — على نقيض مارييت — مهتمًّا بالآثار القبطية، وبدأ يعمل منذ عام ١٩٠٠م على تعويضها عما أصابها من إهمال. وخصص قاعة بالمتحف المصري للآثار القبطية، هي التي نُقلت فيما بعد إلى المتحف القبطي.[٣٧] وأصبح ابنه جان — الذي مات في الثلاثين من عمره على الجبهة الغربية للحرب — قد أصبح متخصصًا بالبيزنطيات وأعد كتالوجًا للبردي اليوناني بمتحف القاهرة. واشتملت الحفائر التي أجراها جان كليدا (١٨٧١–١٩٤٣م) قبل الحرب الأولى، على مواقع قبطية في بويط، ودير أبو حنس، ودير القديس سمعان بأسيوط، وأسيوط، وأخميم، وأديرة سوهاج، وقد رعى تلك الحفائر المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ومصلحة الآثار المصرية، ولجنة حفظ الآثار، وشركة قناة السويس.[٣٨] وأسس بتلر، وكلارك، ومورتز (مدير الكتبخانة الخديوية)، وماكس هرتز، «جمعية تاريخ الآثار القبطية في مصر» عام ١٩٠٣م، ولكن يبدو أنها لم تعمر طويلًا.[٣٩]

إعادة تقييم الماضي القبطي — سميكة ولجنة حفظ الآثار

كان المصريون الذين قدر لهم أن يلبوا دعوة بتلر إلى إنقاذ الكنائس القديمة يطورون اهتماماتهم، وينمون قدراتهم للقيام بهذا العمل، وكان مرقص سميكة — في صباه — يحب زيارة المتحف المصري، وأهرام الجيزة وسقارة، ومساجد القاهرة وكنائسها. وبعدما انقشع غبار الاحتلال البريطاني، رافق سميكة مخدومته الكونتيسة سترانجفورد عند زيارتها لتلك الأماكن. واعترف في مذكراته بأنه تعرَّف على آثار بلاده من كتب مواري وبايديكر لدليل مصر السياحي، وفي ذلك يقول: «رغم أن ذلك يمس مشاعري الوطنية، لا بد أن أعترف بأننا ندين للأوروبيين — وخاصة الفرنسيين — باكتشاف هذه الآثار، ودراستها علميًّا، وترميمها.»[٤٠]

---

[٣٧] Christian Cannuyer, Les Coptes (Belgium, 1990), 193.

[٣٨] Who Was Who 3: 101.

[٣٩] توفيق إسكاروس، «ماكس باشا»، الهلال ٢٧ (أول يوليو ١٩١٩م)، ٩٢٥.

[٤٠] مذكرات سميكة، ٢٩، ٧١–٧٢.

وساعد الشقيق الأكبر لمرقص سميكة بتلر في بحثه عن الكنائس القبطية، وفي ١٨٩٠م زار مرقص الباحث البريطاني بأكسفورد.[٤١] وعرفه بتلر على سومرز كلارك، المعماري البريطاني المتخصص في ترميم الكاتدرئيات. وقد بدأ كلارك اهتمامه بالمصريات والعمارة القبطية كهواية، ثم انكبَّ على دراستها بعد تقاعده في بيته الذي بناه في الكاب، ونشر كتابه «الآثار القبطية في وادي النيل» عام ١٩١٢م.[٤٢]

ونبَّه سميكة كلارك إلى أن أعيان القبط يستبدلون بالكنائس القديمة، عمائر على الطراز «اليوناني الحديث» المغطى بالرخام الإيطالي. وأن ذلك يتم بحسن نية، ولا يلقى معارضة من جانب البطريرك، وكبار العلمانيين، وفيهم بطرس غالي. فقام كلارك بنشر مقالة احتجاجية نارية بجريدة التايمز اللندنية. وفي العام ١٨٩١م، رافق مرقص سميكة بيرنج في جولة لزيارة كنائس القاهرة، وحثَّه على وضع تلك الكنائس تحت رعاية «لجنة حفظ آثار الفن العربي».[٤٣] وبعد ذلك بسنوات، عبر سميكة عن تقديره لعمل بتلر بإهداء الدليل الذي أعده للمتحف القبطي إلى ذكراه، وذكر أن كتاب بتلر «الكنائس القديمة في مصر» ألهمه الدعوة إلى وضع الآثار القبطية تحت رعاية «لجنة حفظ الآثار» وتأسيس المتحف القبطي.[٤٤]

وكما رأينا في الفصل السادس، أسَّس توفيق لجنة حفظ الآثار عام ١٨٨١م، وفي ١٨٩٤م اقترحت اللجنة أن تتولى مسئولية الحفاظ على الكنائس والأديرة القبطية الأثرية، فخشي البطريرك كيرلس الخامس أن يؤثِّر ذلك على صلاحيته، وبعد عامين من ذلك التاريخ، عرضت اللجنة تخصيص ٢٠٠٠ جنيه مصري لإصلاح الآثار القبطية إذا شاركت الكنيسة بدورها في تحمل جانب من التكلفة، فوافق البطريرك بعد تردد. وتم ضم عضوين من الأقباط إلى اللجنة على نحو ما رأينا.[٤٥]

ويذكر سميكة أن البطريرك كيرلس الخامس «لامَهُ» على ذلك التدبير، وكان «عزاؤه الوحيد» أنه لم يدخل اللجنة. واتهم سميكة أحد العضوين القبطيين باللجنة — نخلة

[٤١] Butler, Ancient Churches, 1: xiv.

[٤٢] Michael Hoffman, Egypt Before The Pharaohs, 352.

[٤٣] مذكرات سميكة، ٢٩، ٣٢.

[٤٤] Marcus H. Simaika Pacha, Guide sommaire du Musée Copte et des, principles églises du Caire (Cairo, 1937) preface.

[٤٥] Comité 11, 1894, PVS 63 (1894), 64.

البراتي — لهدمه برجًا رومانيًّا في حصن بابليون لتوسيع مدخل الكنيسة المعلقة، وإزاحة الستائر والأيقونات عند إعادة تأثيثه لكنيسة مارجرجس، فمنذ عام ١٨٧٩م، أنفق نخلة البراتي ٦٠٠٠ جنيه من ماله الخاص في إعادة تأثيث الكنيسة المعلقة، ولكن الآثاريين البريطانيين ساءهم فقْد البرج الروماني، وطالبوا كرومر بالتدخل لإنقاذ البرج الآخر.[٤٦] وفي عام ١٨٩٨م، كتب كرومر إلى ستانلي لين-بول:

«إنني أكافح ضد البطريرك القبطي، وأسعى لإيجاد نوع من السيطرة الأوروبية على الكنائس القبطية من الناحية الأثرية ... ويؤسفني أن أحدًا لم ينبهني قبل ذلك لما حدث بقصر الشمع. وبمجرد قراءتي لخطاب سومرز عن الكنائس قمت بزيارة الموقع. لقد حدث ضرر كبير بالمكان تم بحسن نية، ومن حسن الحظ أنني وصلت في الوقت المناسب لإنقاذ البرج الروماني الآخر من الدمار؛ فالآثار القبطية على نفس درجة الآثار الرومانية من حيث الأهمية. ولا بد أن أسعى لوضعها تحت إشراف هرتز بصورة أو بأخرى؛ لأنني على ثقة من قدرته على ذلك العمل.»[٤٧]

وفي نفس الوقت، بدأ مرقص سميكة يجد نفسه — تدريجيًّا — أمام اختيار صعب: أن يستمر في السعي للإصلاح القبطي، أو يخفف من ذلك، ويرمم الصدع الذي أصاب علاقته بالبطريرك كيرلس الخامس، ويحاول الحصول على مساعدته لدخول لجنة حفظ الآثار، ولإقامة المتحف القبطي. كان مرقص سميكة — عام ١٨٩٣م — واحدًا من بين المتشددين من أعضاء المجلس المِلِّي الذين رفضوا التوقيع على التماس أعده بطرس غالي للمطالبة بعودة البطريرك من منفاه بوادي النطرون.[٤٨] والآن غيَّر سميكة رأيه، ونحَّى فكرة الإصلاح جانبًا، وبدأ يتودد لكيرلس الخامس. وفي عام ١٩٠٥م، أصبح عضوًا بلجنة حفظ الآثار، وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس المتحف القبطي.

من الأرمن إلى الأقباط

انتقل تمثيل المسيحيين في قمة النخبة السياسية في مصر من الأرمن إلى الأقباط خلال سنوات الحكم البريطاني (١٨٨٢–١٩٢٢م)، وانعكس ذلك التغير على عضويته لجنة

[٤٦] مذكرات سميكة، ٣١–٣٣.

[٤٧] FO 633/8 Cromer to Lane-Poole, 2 January 1898, 15.

[٤٨] مذكرات سميكة، ٨٦–٨٧.

حفظ الآثار. لقد لعب الأرمن والأقباط دور الوساطة بين المصريين المسلمين والأوروبيين، ولكن ظروف هاتين الطائفتين المسيحيتين في مصر كانت مختلفة تمامًا. فالكثير من أفراد الطائفة الأرمنية الصغيرة الحجم قدموا إلى مصر في القرن التاسع عشر، ولم تكن لهم جذور قوية بها، واعتمدوا على حماية الأسرة الحاكمة أو الدول الأوروبية، ولم يتورطوا في الحركة الوطنية المصرية. أما الأقباط فكانوا على نقيضهم تمامًا، يدَّعون أنهم أعمق المصريين جذورًا في البلاد، ويتخذون من العربية لغة لهم، ونفروا من التعاون مع الاحتلال البريطاني، وتضامنوا في العمل الوطني مع المسلمين في النضال من أجل الاستقلال.

وفي التسعينيات، كان الأرمن الذين رجحوا كفة الأوروبيين في لجنة حفظ الآثار هما: تيجران (صهر نوبار رئيس الوزراء، ووزير الخارجية من ١٨٩١م حتى ١٨٩٤م)، ويعقوب أرتين وكيل المعارف، وفيما يتعلق بمجلس الوزراء، شكا كرومر من مقاومة تيجران الضمنية للاحتلال، وعزا ذلك إلى عقليته «الفرانكو-بيزنطية».[٤٩]

أما يعقوب أرتين (١٨٤٢–١٩١٩م)، فقد تواترت الإشارة إليه في الفصول السابقة من هذا الكتاب، قضى نصف حياته بلجنة حفظ الآثار؛ ولذلك كان أهم من تيجران الذي كان عابر سبيل. وكان أرتين حفيدًا لمهاجر أرمني من سيواس (بآسيا الصغرى) جاء إلى مصر للعمل في خدمة محمد علي نحو عام ١٨٠٨م، وهو ابن أرتين بك شراكيان المترجم وناظر التجارة والأمور الأفرنجية في الأربعينيات، وكان أيضًا قريبًا ليوسف حككيان، وتربى يعقوب أرتين في فرنسا تربية كاثوليكية، وجاء إلى مصر كرعية فرنسية ولم يتعلم التركية والعربية إلا في العشرين من عمره؛ ولذلك كان تصنيفه كمصري إشكاليًّا في حد ذاته. وكما كانت الحال بالنسبة لنوبار وتيجران، شقَّ يعقوب أرتين طريقه نحو القمة بإتقانه الفرنسية واستعداده للعمل مع الأوروبيين. فكان معلمًا خاصًّا لأبناء إسماعيل، كما اشتغل سكرتيرًا خاصًّا له. وكان يعمل في خدمة المصالح الأوروبية تمامًا من خلال عمله في «لجنة التحقيق في الديون».

وبعد الاحتلال البريطاني، تولَّى يعقوب أرتين رئاسة اللجنة التي نظرت دعاوى التعويضات عن الأضرار الناجمة عن الثورة العرابية. وفيما بين ١٨٨٤ و١٨٨٨م كان وكيلًا للمعارف، ولكنه اصطدم بناظر المعارف علي مبارك، فانتقل إلى مصلحة السكك الحديدية حيث النفوذ الأقوى للبريطانيين حتى خرج علي مبارك من الوزارة (١٨٩١م)،

[٤٩] Cromer, Modern Egypt, 633.

فعاد وكيلًا للمعارف، وكان يقيم في بناية واحدة بجوار تيجران ونوبار فيما بين الأزبكية وباب الحديد.[٥٠]

وانضم يعقوب أرتين إلى لجنة حفظ الآثار في نوفمبر ١٨٨٢م — عقب الاحتلال مباشرة — وكانت خطوته الأولى لفتح أبواب المقدسات الإسلامية عنوة باسم الفن أو العلم. أخذ يشكو من أن «أعضاء بعينهم» (يقصد المسيحيين) لا يُسمح لهم بدخول المساجد أحيانًا، واستجابت اللجنة لذلك فزودت الأعضاء بميدالية برونزية تتيح لهم دخول أي مسجد.[٥١]

وقد عُمِّر أرتين لما بعد ذروة النفوذ الأرمني في مصر ولجنة حفظ الآثار: فتقاعد تيجران بعد خروجه من نظارة الخارجية عام ١٨٩٤م، وفي السنة التالية أنهى سقوط وزارة نوبار مشاركة الأرمن في مجلس الوزراء، وتقاعد أرتين من منصب وكيل المعارف عام ١٩٠٦م حتى لا يعمل تحت رئاسة ناظر المعارف سعد زغلول. وظل نشطًا في لجنة حفظ الآثار، والجامعة المصرية، والمجمع العلمي المصري حتى وفاته في يناير ١٩١٩م، قبل شهرين من اندلاع الثورة التي دشنت عصرًا جديدًا لم يترك للأرمن سوى مساحة سياسية ضئيلة.

وملأ الأقباط الفراغ السياسي الذي تركه الأرمن؛ ففي عام ١٨٩٣م، أصبح بطرس غالي أول قبطي يصل إلى الوزارة، وظل بها حتى اغتياله عام ١٩١٠م عندما كان رئيسًا للوزراء. وقد اتبع سنة الأرمن في شغله لمنصب ناظر الخارجية، وفي رئاسته لمجلس النظار، وقد تعاون بطرس غالي مع الإنجليز، ودفع حياته ثمنًا لذلك على يد أحد الوطنيين. ومنذئذٍ أصبح وجود وزير قبطي بمجلس الوزراء حقيقة واقعة ثابتة. وامتص حكماء الأعيان الأقباط صدمة اغتيال بطرس غالي، ووجهوا طائفتهم إلى التضامن مع المسلمين في العمل الوطني من أجل تحقيق الاستقلال.

وجاء التمثيل المسيحي بلجنة حفظ الآثار، في التسعينيات. ولكن طال أمده في اللجنة عنه في الوزارة بسبب استمرارية وجود يعقوب أرتين. وبدأ الوجود القبطي باللجنة بعضوين اثنين عام ١٨٩٦م بعد وضع الآثار القبطية تحت إشراف اللجنة، فكان ذلك خطوة باتجاه الوحدة الوطنية.

---

[٥٠] أرشيف متحف جامعة بنسلفانيا، أوراق سارة ستيفنسون، رسالة من أرتين في ١٠ أغسطس ١٨٩٧م.

[٥١] Comité 1, 1882–1883, PVS 7 (23 November 1883), 113.

وعند عام ١٩٠٦م، كانت الكنيسة قد أسهمت بمبلغ ٥٠٠ جنيه في أعمال اللجنة في مقابل ١٦٦ ألفًا من الجنيهات قدمتها فيما بين ١٨٨١ و١٩٠٦م، و٣٩ ألفًا قدمتها غيرها من النِّظَارات.[٥٢] وكان التحاق مرقص سميكة باللجنة عام ١٩٠٦م علامة فارقة في النشاط القبطي في مجال حفظ الآثار القبطية، وفي العشرينيات كان صوت سميكة من أعلى الأصوات باللجنة.

تأسيس المتحف القبطي

ويبدو أن البطريرك كيرلس الخامس وافق على المتحف القبطي في مقابل قيام سميكة بكبح جماح الإصلاحيين بالمجلس الملِّي، فبدون موافقة البطريرك لا يمكن إقامة متحف لأن مكانه ومقتنياته من ممتلكات الكنيسة. وقد ملأ المتحف الفجوة التاريخية بين المتحف المصري والمتحف اليوناني الروماني من ناحية، ومتحف الفن العربي من ناحية أخرى. وكانت جميع المتاحف تحت إدارة الحكومة فيما عدا المتحف القبطي، الذي كان تابعًا للكنيسة، وكان مؤسِّسه مصريًّا.

والمتحف القبطي يبرز ظاهرة في التاريخ المصري أكثر من عرضه لعصر معيَّن؛ فمن حيث السيادة السياسية لم يكن هناك حكم قبطي؛ لأن مصر انتقلت من الحكم البيزنطي إلى الحكم الإسلامي، ولم يعرف تاريخها دولة قبطية، كذلك ليست هناك عملة قبطية. وكان عرض الآثار القبطية المبكرة في المتحف اليوناني-الروماني، يضفي نوعًا من الغموض على الفترة الفاصلة بين ما يعرف بروما القديمة، وما يطلق عليه الآثار المتأخرة، وكانت إقامة متحف بيزنطي غير واردة في بلد تشكلت هويته من خلال مقاومته للقسطنطينية والأرثوذكسية اليونانية. وكان عرض الآثار القبطية التالية للعام ٦٤٠ بمتحف الفن العربي سواء مختلطة مع غيرها، أو كمجموعة قائمة بذاتها في قسم خاص بها إشكالية أيضًا، ورغم تداخله الزمني مع المتاحف الأخرى، وصعوبة تحديد «العصر القبطي»، سد «المتحف القبطي» ثغرة مهمة، في وقت كان المصريون فيه يناضلون من أجل تحديد هويتهم الوطنية الحديثة.

كان ماكس هرتز أول من طرح فكرة إقامة «متحف قبطي» على لجنة حفظ الآثار عام ١٨٩٧م، واقترح استئذان البطريرك في جمع رءوس الأعمدة الحجرية المحفورة

[٥٢] Comité 23, 1906, PVS 147 (27 November 1906), 113.

وغيرها من الآثار المهملة من الكنائس، لتشكيل نواة المتحف.[٥٣] وكان البطريرك متقبلًا للأمر في البداية، واقترح أن يتولى نخلة البراتي — عضو اللجنة — الإشراف على تخزين الآثار التي تتجه إلى هرتز بمبنًى ملحق بالكنيسة المعلقة،[٥٤] ولكن المدى الذي بلغته تلك الترتيبات قبل أن يتولى سميكة هذه المهمة، ليس واضحًا، ويبدو أن سميكة قد أغفل (في مذكراته) أي دور لهرتز ونخلة البراتي في فكرة إقامة المتحف.

وقد أسس المتحف القبطي في حوالي نفس الوقت الذي أسس فيه المتحف البيزنطي بأثينا، الذي افتُتح عام ١٩١٤م، وذلك بعد تأسيس المتحف الوطني للآثار بأثينا بنحو ثمانين عامًا، مسجلًا الاعتراف الرسمي بعصر وتراث كان اليونانيون المعاصرون على استعداد تام للانتساب إليه.[٥٥]

ولم يكن ثمة مكان أفضل للمتحف القبطي من ذلك الموقع التاريخي الذي أقيم فيه بجوار الكنيسة المعلقة بحصن بابليون بمصر القديمة (الفسطاط، انظر الخريطة ٢)، وهناك بالجوار كنيسة القديس سرجيوس (التي يعتقد أن موقعها مكان إقامة العائلة المقدسة)، وغيرها من الكنائس التاريخية الأخرى، وسوف يتم توسيع المتحف، وصممت واجهته على الطراز الفاطمي البديع المرصع برموز مسيحية، وذلك في فترة ما بين الحربين العالميتين. وأعاد الملك فاروق افتتاح المتحف عام ١٩٤٦م، وأقيم في فنائه نصب يحمل تمثالًا نصفيًّا لمرقص سميكة (انظر الشكلين ٤٢، ٤٣).

طوَّف مرقص سميكة بالكنائس والأديرة «من رشيد إلى الخرطوم»[٥٦] عام ١٩٠٨م، مزوَّدًا ببركات البطريرك، وكان يدفع للكنيسة ثمنًا رمزيًّا لما يختاره من أشياء، ولم تسهم الكنيسة — ماليًّا — في إقامة المتحف، وجاءت التبرعات التي أقيم بها المتحف من العلمانيين من الأقباط، وبعض رجال الدين، والأمير حسين كامل (السلطان فيما بعد)، وأعضاء مجلس الوزراء، والمستشارين الإنجليز، وزملاء سميكة من أعضاء مجلس شورى القوانين. وقدمت الحكومة إعانة سنوية قدرها مائتي جنيه، زيدت إلى ٣٠٠ جنيه عام ١٩١٨م، وألف جنيه عام ١٩٢٥م، و١٥٠٠ جنيه عام ١٩٣٠م.[٥٧]

---

[٥٣] Comité 15, 1898, PVS 80 (4 January 1898), 4, 6.

[٥٤] Comité 15, 1898, PVS 81 (1898), 16.

[٥٥] Kaplan, ed., Museums and the Making of Ourselves, 256–58.

[٥٦] مذكرات مرقص سميكة، ٤٢.

[٥٧] مذكرات سميكة، ٤٦.

وما لبث المتحف المتواضع أن أصبح مفخرة الأقباط، وموقعًا احتفاليًّا يعرض فيه حكام مصر المسلمون اهتمامهم برعاياهم من المسيحيين. وفي عام ١٩١٠م ألقى الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت كلمة في الجامعة المصرية، استنكر فيها اغتيال بطرس غالي، وهاجم الوطنيين، وأشاد بالحكم البريطاني لمصر. وعبر أعيان الأقباط عن شكرهم له بدعوته لزيارة المتحف القبطي، واقترح فليني فهمي إهداء أهم مخطوط قبطي لروزفلت، ولكن سميكة رفض الاقتراح.

ولم يدخل المتحف أفق السياحة الغربية إلا بعد الحرب العالمية الأولى، فلا يرد ذكره بدليل بايديكر (١٩١٤م)، ولا ما كميلان (١٩١٦م). وساعدت زيارة السلطان فؤاد للمتحف عام ١٩٢٠م على معرفة الجمهورية، وبعد ذلك بثلاث سنوات. اصطحب فؤاد الملك فيكتور إيمانويل الثالث ملك إيطاليا والملكة في زيارة للمتحف.[٥٨]

الأقباط بين الملة والأمة

لا يرِد ذكر الإصلاح القبطي، والمتحف القبطي في الكتب التي تتناول تاريخ تلك الفترة الحافلة بالاضطراب السياسي، السابقة على الحرب العالمية الأولى، كان الأقباط يمرون بالمحاولة الرابعة للإصلاح بقيادة العلمانيين، بعدما أصبح سوء إدارة المدارس والأوقاف القبطية على يد اللجنة الاستشارية الرباعية التي أقامها البطريرك، واضحًا عام ١٩٠٥م، حتى إن جريدتَي «الوطن» و«مصر» اتَّحدتا في المطالبة بإعادة إقامة المجلس الملِّي، واستجاب البطريرك كيرلس الخامس وتم انتخاب مرقص سميكة عضوًا بالمجلس الملِّي الجديد، الذي تغيرت أفكاره، فأصبح يرجع الصدام الذي حدث عام ١٨٩٢-١٨٩٣م بين البطريرك والمجلس الملِّي، إلى اشتطاط أعضاء المجلس (وكان واحدًا منهم)، في سياستهم.[٥٩]

ولاحظ أحد الكتاب البريطانيين أنه «كان من الممكن جذب البطريرك قليلًا نحو الإصلاح ببعض اللطف والحيلة التي عُرف بها رجل مثل مرقص سميكة باشا»،[٦٠] وبيَّن سميكة على صفحات مذكراته كيف تخلَّص من التوتر الذي شاب علاقته بكيرلس الخامس

---

[٥٨] مذكرات مرقص سميكة، ٥٢.

[٥٩] A. Dowling, The Egyptian Church (London, 1909), Appendix 3.

[٦٠] Leeder, Modern Sons of the Pharaohs: A Study of the Manners and Customs of Copts of Egypt (London, 1918), 263.

الذي كان متسامحًا مع رجال الإكليروس الفاسدين، يغدق من أموال الكنيسة على أقاربه، ويسعى لتحويل المعادن إلى ذهب ليستخدمه في بناء الكنائس، ويجبر سميكة على الحفر تحت مذبح إحدى كنائس القاهرة ليستخرج «كنزًا» من تحتها.[٦١]

استقال كرومر عام ١٩٠٧م، وحلَّ بطرس غالي — بعد ذلك بعام — محلَّ مصطفى فهمي رئيسًا للنظار، فكان أول قبطي يتولى هذا المنصب، ولكن الوطنيين المعارضين اعتبروه مسئولًا عن توقيع اتفاقية الحكم الثنائي المصري — الإنجليزي في السودان عام ١٨٩٩م، وعلى رئاسته لمحكمة دنشواي التي قضت بإعدام الفلاحين (١٩٠٦م)، وإصدار قانون المطبوعات الذي كمم المصحف، والسعي لمدِّ امتياز شركة قناة السويس. ولم يكن بطرس غالي فريدًا في تعاونه مع الإنجليز، فلم يختلف في ذلك عن غيره من الأعيان المسلمين والأقباط في تلك الأيام. فمن الأقباط كانت جريدتا «مصر» و«الوطن» وأخنوخ فانوس من أعيان أسيوط، يدافعون صراحة عن الاحتلال، وزين البطريرك كيرلس الخامس قاعة الاستقبال بصورتي إدوارد السابع وجورج الخامس.[٦٢] وأسَّس أخنوخ فانوس — البروتستانتي، خريج الكلية السورية البروتسنتية — «جمعية الإصلاح القبطي» و«حزب المصريين المستقلين» الذي طالب الحكومة والإنجليز بتقديم امتيازات للأقباط.

أما الحكماء من قادة الأقباط الآخرين فاختاروا العمل في إطار التيار الوطني، فانضم ويصا واصف حنا إلى الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل الذي كان يطالب بالاستقلال الفوري. واختار فخري عبد النور وسينوت حنا الانضمام لحزب الأمة الذي كان لطفي السيد وراء تأسيسه، ضم كبار الملاك والمثقفين الذين رأوا في الإصلاح الاجتماعي تقدمًا تدريجيًّا نحو الاستقلال، وأكد كل من مصطفى كامل، ولطفي السيد أن المسلمين والأقباط يكونون أمة مصرية واحدة. ولكن تدهورت علاقة الأقباط بالحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨م، وخاصة عندما قام أحد المنتمين إلى الحزب الوطني باغتيال بطرس غالي عام ١٩١٠م. وبالغ المؤتمر القبطي — الذي نظَّمه فانوس وآخرون بأسيوط — في تصعيد الخلاف وشق الصف الوطني، واستدعاء عقد مؤتمر إسلامي ردًّا عليه.[٦٣]

---

[٦١] مذكرات سميكة، ٢١–٢٤.

[٦٢] Leeder, Modern Sons, 246.

[٦٣] حول أخنوخ فانوس، راجع: يوسف آصاف، دليل مصر، ٣٥٣–٣٥٥. وحول دور الأقباط في حزبَي الوطني والأمة، أبو سيف يوسف، الأقباط والقومية العربية، ١١١.

كان سميكة يناور سياسيًّا بين صفوف البريطانيين، ومع البطريرك، ودعاة الإصلاح العلمانيين بالمجلس الملِّي. ولا يكاد يخلو كتاب إنجليزي عن الأقباط في مطلع العشرين، من الإشارة إلى جهود مرقص سميكة. ويذكر سميكة أنه استطاع إقناع كرومر بتخصيص إعانة للمدارس القبطية الخاضعة لتفتيش المعارف، وأنه أقنع مستشار المعارف دوجلاس دانلوب باستبدال أحد الإصلاحيين المتعلمين بفرنسا بناظر الكلية الأكليريكية صنيعة البطريرك.[٦٤]

وعلى صعيد العمل الوطني، عيِّن سميكة عضوًا بمجلس شورى القوانين (١٩٠٦–١٩١٣م)، وبالجمعية التشريعية (١٩١٤م)، ويبدو أن علاقته بلطفي السيد وحزب الأمة كانت سطحية.[٦٥] وكان الأقباط الآخرون من أعضاء مجلس شورى القوانين: فليني فهمي، وسينوت حنا، وكامل صدقي، وفي غضون تلك الأيام، حصل سميكة على الباشوية.[٦٦]

شعر الأقباط بالحاجة إلى جمع الصفوف بعد اغتيال بطرس غالي، وفي العام ١٩١٢م، عمل اللورد كتشنر من خلال فليني فهمي للوصول إلى حل وسط، ضم بموجبه أربعة من الأكليروس بطريق التعيين إلى جانب ثمانية من العلمانيين المنتخبين أعضاء بالمجلس الملِّي، وعاقَ قيام الحرب العالمية الأولى واشتعال ثورة ١٩١٩م دون ظهور محاولة جديدة للإصلاح القبطي.[٦٧]

يروي هذا الفصل قصة صراع دام أربعين عامًا بين البطريرك كيرلس الخامس، والعلمانيين من دعاة الإصلاح بالمجلس الملِّي، غير أن ذلك لا يحجب ما حققه الأقباط من إنجازات في التعليم، والثروة، والسياسة الوطنية عند قيام الحرب العالمية الأولى. وتعد الإحصائيات الخاصة بتلك المحاولات موضع الشك بسبب تباين الدوافع عند الأطراف التي طرحتها في خضم الصراع الطائفي (الفتنة الطائفية). ولعل «الهلال» لم تتجاوز الحدود عندما ذكرت عام ١٩١١م — استنادًا إلى إحصاء ١٩٠٧م — وعائدات الضرائب أن الأقباط يمثلون ٧٪ من سكان مصر، ولكنهم يملكون ١٦٪ من العقارات والأراضي الزراعية، و٢٥٪ من الثروة الوطنية.[٦٨]

[٦٤] مذكرات سميكة، ١٣-١٤، ٨٩–٩١.

[٦٥] أحمد شفيق، مذكراتي في نصف قرن، ٢ حـ ٢: ٢٣٦–٢٣٧.

[٦٦] محمد خليل صبحي، تاريخ الحياة البرلمانية في مصر، ٦: ٥٢، ٨١-٨٢.

[٦٧] Seikaly, “Coptic Communal Reform”, 265–66.

[٦٨] Seikaly, “Coptic Communal Reform”, 268.

أبناء الكنيسة القبطية أم أبناء الفراعنة

كان باستطاعة الأقباط إرساء هويتهم الحديثة على بر آباء المسيحية الأوائل في العصر الروماني — البيزنطي (الذي كان عصر اضطهاد)، أو على شاطئ مصر القديمة. وكانت الرؤية المتمركزة حول الكنيسة أكثر قبولًا عند رجال الدين وعامة الناس من الأقباط، بينما شعر العلمانيون الذين تأثروا بالأفكار الغربية بإغراء الرجوع إلى الفراعنة.

لم يحكم الأقباط مصر في يوم من الأيام، وليس لديهم سوى الشهداء أو النساك من أمثال القديس أنطونيوس والقديس باخوميوس موضع فخار واعتزاز. فالتقويم القبطي لا يبدأ بمولد المسيح أو قدوم القديس مرقص إلى مصر، بل يبدأ بعصر «الشهداء» في عهد دقلديانوس. بينما التاريخ الفرعوني — على نقيض ذلك — حافل بمظاهر الاعتزاز بمجد الأجداد والعظمة التي يتوقون للافتخار بها.

وسواء كان التأكيد على العصر الفرعوني أو على العصر المسيحي — كما ذهب سميكة و«جمعية الآثار القبطية» التي أسسها مريت غالي في الثلاثينيات — فقد كان العلمانيون هم الذين قادوا حركة الحفاظ على الآثار التاريخية القبطية وتأسيس المتحف القبطي بينما كان البطريرك ورجال الأكليروس يستمدون شرعيتهم من خلافتهم للقديس مرقص، ومن الاشتهار بالتقى والزهد، غير أنهم كانوا لا يدرون ما يعود به الإصلاح التعليمي من منفعة، ولا يقدِّرون قيمة الآثار القبطية.[٦٩]

كان تادرس شنودة المنقبادي (١٨٥٧–١٩٣٢م) علمانيًّا من جيل سميكة، متعمقًا في الاهتمام بالماضي القبطي. استفاد مرتين من تحدي المبشرين الأمريكان للكنيسة القبطية، فتعلم بالمدرسة الأمريكية الابتدائية بأسيوط، ثم انتقل إلى المدرسة التي أقامها البطريرك ديمتريوس هناك لمواجهة البروتستانت. وما لبثت المدرسة القبطية أن أغلقت بعد وفاة البطريرك، عندما كان تادرس في الثالثة عشر من عمره، فساعد والده في تجارته حينًا من الزمن وشغل بعض الوظائف الحكومية بمديرية أسيوط. واشتغل بالتجارة واستصلاح الأراضي، وساعد في تأسيس «الجمعية الخيرية القبطية» بأسيوط. وانتخب عام ١٨٩٢م عضوًا بالمجلس الملِّي الإصلاحي. وفي عام ١٨٩٥م أسس جريدة «مصر» لسان

[٦٩] Leeder, Modern Sons, 173.

حال الإصلاحيين، كما أسس «جمعية حفظ التاريخ القبطي» بأسيوط عام ١٨٨٣م أو ١٨٨٤م، وترجم كتاب بوتشر «تاريخ الكنيسة في مصر» إلى اللغة العربية.[٧٠]

كان الاهتمام بالماضي القبطي والماضي الفرعوني من قبيل التباهي — غالبًا — وليس من قبيل الارتباط القصري. وكلاهما كان سهل التوافق مع الوطنية المصرية، فمعرفة اللغة القبطية لا تؤهل المرء للدراسات القبطية فحسب، بل ودراسة مصر القديمة أيضًا. ولم يرَ سميكة فارقًا كبيرًا بين ديانة مصر القديمة والمسيحية. وذهب إلى أن معظم المصريين المسلمين انحدروا من صلب الأقباط، وأن جميع المسلمين المستنيرين يعرفون ذلك، فكل المصريين أقباط: بعضهم مسلمون أقباط، والبعض الآخر مسيحيون أقباط.[٧١]

وفي ربيع عام ١٨٨٢م، اعترف ناظر الأشغال العمومية بالصلة بين الأقباط ومصر الفرعونية عندما اقترح إضافة عشرة تلاميذ إلى الخمسة الذين ضمتهم مدرسة أحمد كمال للآثار بالمتحف، على أن يكون من بين العشرة أربعةٌ من الأقباط.[٧٢] وجاء تأكيد بعض العلماء من أمثال ماسبيرو وبتري، وسايس، على انتساب الأقباط إلى الفراعنة ليضاعف من شعور الأقباط بالفخر. ففي حديثه أمام «نادي رمسيس» (وهو تجمُّع قبطي) ذكر ماسبيرو أن الأقباط يمثلون سلالة فرعونية خالصة. وأن المسلمين المصريين ينتسبون إلى نفس السلالة، ولكن التزاوج مع العناصر الوافدة جعلهم أقل نقاء، من الناحية العرقية، من الأقباط. ونقل كل من سايس وبتري هذه الرسالة العنصرية إلى مستوًى بالغ الخطورة.[٧٣] فكتب بتري: «القرية القبطية نظيفة، طرقاتها جيدة الكنس، يجلس النسوة في مداخل الدور يعلمن أو يتحدثن معًا على مستوى بلاد البحر المتوسط المتحضرة، وليست بالغة القذارة والفوضى كقرية المسلمين ... ولن تصبح مصر أبدًا بلدًا متحضرًا إلا إذا حكمها الأقباط — إذا قُدِّر لهم ذلك.»[٧٤]

وطرقت ملكة سعد — محررة المجلة النسوية «الجنس اللطيف» — هذا الطريق الخطر عام ١٩٠٨م، عندما كتبت: «النساء المصريات درجن على دراسة العلوم، والخطابة

[٧٠] إلياس زاخورا، مرآة العصر، ١: ٤١٤–٤١٧.

[٧١] (Simaika), "Awakening", 734.

[٧٢] دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، وزارة الأشغال ومصلحة الآثار، ١/ ٤ متاحف، رقم ٩٩، ١٧ أبريل ١٨٨٢م.

[٧٣] Seikaly, "Coptic Communal Reform", 269–70.

[٧٤] Petrie, Seventy Years, 223–24.

فوق المنابر، وحكم الإمبراطورية.[٧٥] عندما كانت نساء البلاد الأخرى يعشن حياة العبودية والبؤس، واستمرت حرية النساء مع قدوم المسيحية، غير أنها تلاشت بعد الغزو العربي، وفرض الخدر والحجاب على النساء.»

وتكشف العناوين التي اختارها الأقباط لصحفهم عن تزايد انجذابهم نحو مصر القديمة. فقد اختار تقلا — المسيحي الشامي — «الأهرام» عنوانًا لجريدته، أما الأقباط فاختاروا «الوطن» و«مصر» التي عكست قومية إقليمية مليئة بالاعتزاز بمصر القديمة. وحملت الصحف القبطية الأخرى عناوين فرعونية صريحة: رمسيس (١٨٩٣م)، و«فرعون» (١٩٠٠م)، و«عين شمس» (١٩٠٠م)، و«الآثار المصرية» (١٩٠٩م)، و«رمسيس» أخرى (١٩١١م).[٧٦]

واكتشف سلامة موسى — الكاتب القبطي — مصر القديمة عندما سافر إلى أوروبا. واهتم مكرم عبيد — السياسي الوفدي — بمصر القديمة عندما كان يدرس بفرنسا.[٧٧] فاكتشاف الوطن من خارجه ظاهرة شائعة في القومية الحديثة.

ومزج كلوديوس لبيب (١٨٦٨–١٩١٨م) بين «المصريات» و«القبطيات» مثلما فعل بعض علماء الغرب. درس القبطية بمدرسة الأقباط الكبرى وتعلم الهيروغليفية أثناء عمله بمصلحة الآثار، وتركها عام ١٨٩٢م ليقوم بتدريس اللغة القبطية بالكلية الإكليريكية، وأدار مطبعة البطريركية التي كانت تنشر كتبًا دينية، وبدأ يعد قاموسًا للغة القبطية، وفي عام ١٩٠٠م أصدر مجلة عربية — قبطية هي «عين شمس». وبدأ الأقباط يطلقون على أولادهم أسماء فرعونية، ولكن كلوديوس لبيب أصر على أن يتخذ أولاده الستة من القبطية لغةً للحديث في المنزل.[٧٨]

ويعكس كتاب ميخائيل شاروبيم «الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث» — الذي يقع في أربعة مجلدات — وطبع فيما بين ١٨٩٨ و١٩٠٠م، اهتمامًا قبطيًّا عميقًا بتاريخ مصر كله، وليس بالعصر الفرعوني، أو البيزنطي — القبطي وحدهما.[٧٩] ويغطي تاريخ مصر من أيام مصرائيم بن حام بن نوح حتى الخديو توفيق.

---

[٧٥] Beth Baron, The Women's Awakening in Egypt, 109–10.

[٧٦] فيليب طرازي، تاريخ، ٤: ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٩، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٥.

[٧٧] مصطفى الفقي، الأقباط، ٤٦؛ Louca, Voyageurs, 70.

[٧٨] تادرس، الأقباط، ٤: ١٣٥–١٣٩.

[٧٩] J. A. Crabbs Jr., The Writing of History, 133–36.

ورغم أن شاروبيم أدخل الأقباط في إطار معالجته لتاريخ مصر الإسلامي والحديث، فقد قدم تاريخًا قوميًّا، وليس طائفيًّا، وإطار تناوله لما قبل الإسلام يشبه تناول الطهطاوي لنفس العصر في «أنوار توفيق»، وربما كان معتمدًا عليه. ونادرًا ما أشار الطهطاوي إلى أسماء البطاركة الأوائل، ولكن شاروبيم فعل ذلك منذ النصف الثاني من القرن الثاني، عندما بدءوا يظهرون من بين ضباب الأساطير. ولخص الاضطهاد الروماني — البيزنطي. ولم يفترض استمرارية التاريخ القومي المصري منذ أقدم العصور فحسب، بل وضع الأقباط في مكانهم من ذلك التاريخ على مر العصور.

وعند الحرب العالمية الأولى، كان المتحف القبطي المتواضع، والكنائس التي قامت لجنة حفظ الآثار بإصلاحها ترمز لرؤية الأقباط للماضي والحاضر التي اختلفت عما كانت عليه قبل ذلك بنصف القرن. كان الأقباط أفضل تعليمًا، وأكثر ثراء، واتصالًا بالعالم الخارجي من ذي قبل. وعكست الصراعات بين الأكليروس والمجلس الملِّي تصميم العلمانيين المتعلمين الأثرياء، وتشدد الأكليروس. وكان التحول من وضع الأقلية التي تحظى بالتسامح إلى المواطنين المتساوين في حقوق المواطنة يسير في طريقه. وأحس الأقباط بالاعتزاز الشخصي بتراثهم الفرعوني، ولكن كان عليهم أن يحذروا ما قد يجرهم إليه ذلك من القول بتميزهم على مواطنيهم من المسلمين.

الخاتمة

على مر الرحلة التي قطعها هذا الكتاب من ١٧٩٨م حتى ١٩١٤م، قام بربط تاريخ علم الآثار المصرية — كما يُكتب في الغرب — بتاريخ دخول المصريين المحدثين في ذلك المجال، فوضع بذلك تاريخ الآثار والمتاحف في سياقاتٍ أرحب أبعادًا لكلٍّ من الإمبريالية الغربية، وتاريخ مصر القومي، وجمع بين تخصصاتٍ أربعة في علم الآثار، غالبًا ما يُدرس تاريخ كل منها على حدة. وتناول هذا الكتاب التوتر الذي اتَّسم به الالتزام الأيديولوجي بالإمبريالية والقومية من ناحية، والمُثل الخاصة بالمعرفة العالمية الموضوعية، من ناحية أخرى، آخذًا في الاعتبار الاهتمامات البحثية والشعبية بالآثار في كل من مصر والغرب، ويوضح هذا الكتاب كيف أثَّر علم الآثار في عملية بناء الهوية المصرية الوطنية.

ففي الغرب، ألقى الافتتان العلمي والشعبي بالعصر الفرعوني، بظلاله على الاهتمام بالعصور الأخرى من تاريخ مصر، ويعكس دليل بايديكر السياحي في تغطيته للمتاحف المصرية عام ١٩١٤م، الأهمية النسبية للعصور المختلفة من منظور صناعة السياحة، فقد خصص للمتحف المصري ٤٢ صفحة، وللمتحف اليوناني-الروماني أربع صفحات، وصفحتين ونصف الصفحة لمتحف الفن العربي، ولم يكن المتحف القبطي قد دخل دائرة اهتمام دليل بايديكر بعدُ، وإن كان قد أشار إلى المجموعة القبطية بالمتحف المصري في بضعة أسطر، وفي طبعة ١٩٢٩م، أضاف ذلك الدليل صفحة واحدة عن المتحف القبطي، ولكن نِسب التغطية للمتاحف الأخرى ظلت تميل إلى جانب مصر القديمة.

وكانت المسافة التي قطعها علم المصريات الغربي فيما بين ١٧٩٨ و١٩١٤م، بالِغة الطول. ففي أيام بونابرت، قدَّم العلماء رؤيةً مضطربة لظلال مصر القديمة استنادًا إلى المصادر الكلاسيكية، والكتاب المقدس، والآثار التي اختفى نصفها تحت الرمال. وعند العام ١٩١٤م كان العلماء يقرءون منذ وقت طويل كلمات المصريين القدماء أنفسهم.

فقد قام علماء المصريات بنسخ ودراسة آلاف النقوش، ومَلئوا متاحف الغرب والقاهرة بمجموعات بالغة الثراء من الآثار الفرعونية. كما قاموا بالتنقيب على نطاق واسع، وتحسنت الطرق الفنية للحفائر تدريجيًّا، ودخلت آثار ما قبل التاريخ مجال الاهتمام.

ومن الصعوبة بمكانٍ رصد التغير في أفكار المصريين عن الآثار والتاريخ طوال القرن التاسع عشر. فلا يزال إدراك معظم المتعلمين المصريين لمصر القديمة محجوبًا وراء ظلال الدراسات الإسلامية والعربية التقليدية، وما زالت «فرعون» و«فرعوني» كلمتين بغيضتين عند الكثير من المتدينين المحافظين حتى يومنا هذا. ولكن الطهطاوي، وعلي مبارك، وأحمد كمال، وكلوديوس لبيب، تكونت عندهم رؤًى مختلفة لمصر القديمة باعتبارها تمثل ماضيًا مجيدًا يحسد العالم المصريين عليه. ورغم الصعاب التي واجهت أحمد كمال في زمنٍ علا فيه مدُّ الإمبريالية، كوَّن نفسه في مجال المصريات، وساعد على إقناع أحمد لطفي السيد وغيره بأن الاعتزاز بمصر القديمة ضروري للصحوة الوطنية.

وعلى ضفاف السين، بدأ رفاعة الطهطاوي يراجع فكره عن هوية مصر، وصاغ فلسفة سياسية ربطت الوطنية المصرية (التي تضمنت مكونًا فرعونيًّا)، بالولاء للأمة الإسلامية، والإخلاص لأسرة محمد علي. ولعب الطهطاوي دورًا في الجهود التي بذلها محمد علي للحدِّ من نهب الآثار، وألف — بعد ذلك بثلاثة وثلاثين عامًا — أول كتاب في تاريخ مصر القديمة، يُنشر باللغة العربية.

وفي الجيل التالي، كان لعلي مبارك، ومحمود الفلكي، اهتمامات موسوعية تجمع بين تاريخ مصر القديم والإسلامي معًا. ولعبا دورًا في وضع أُسُس التعليم الحديث في مصر.

واستطاع الفرنسيون الاحتفاظ لأنفسهم بالسيطرة على الآثار المصرية منذ إنشاء المصلحة الخاصة بها، بفضل جهود مارييت ودبلوماسية ماسبيرو. وسجلت واجهة المتحف الذي افتُتح عام ١٩٠٢م «الغلو الاستشراقي الإمبريالي» عندما خلدت علماء المصريات الغربيين، وأهملت المصريين. وفي العام التالي تم افتتاح مبنى الكتبخانة الخديوية ومتحف الفن العربي، ذي الطراز المماليكي، وكان المستشرقون الأوروبيون قد أقنعوا الخديو توفيق عام ١٨٨١م بتأسيس لجنة حفظ آثار الفن العربي، وجاء متحف الفن العربي ثمرةً لجهود تلك اللجنة، من باب الافتتان «بالآخر الشرقي»، وقامت اللجنة بالمحافظة على بعض المباني الأثرية الإسلامية، وترميم بعضها، وإعادة بناء البعض الآخر.

وفي عام ١٨٩٢م أقامت الجاليات الأجنبية بالإسكندرية المتحف اليوناني-الروماني، الذي دخل تحت الإشراف «العلمي» لمصلحة الآثار المصرية، وقامت نخبة الجاليات الأجنبية السكندرية بدعم المتحف من خلال «الجمعية الآثارية السكندرية».

وفي إطار تلك المؤسَّسات التي تطلَّع المصريون المعنيون بالمصريات إليها، تكوَّن ثلاثة من الرواد المصريين الذين قضوا معظم حياتهم العملية تحت ظلال الاحتلال: عالم المصريات أحمد كمال، وعالم الآثار الإسلامية علي بهجت، ومرقص سميكة مؤسس المتحف القبطي؛ هؤلاء الرواد الذين انتموا إلى جيل الثمانينيات، عزفوا عن الاتجاه الموسوعي للجيل السابق عليهم، وسايروا التوسع الهائل في المعرفة بالاتجاه نحو التخصص، شأنهم في ذلك شأن أبناء الغرب في القرن التاسع عشر.

وإذا استرجعنا ظروف علم الآثار عند نهاية العام ١٩١٤م، نجد أن الوطنيين المصريين لم يجدوا ما يبعث السرور عندهم. فقد فتحت بداية الحرب الطريق أمام علي بهجت ليتولى إدارة متحف الفن العربي، وتولى أحمد لطفي السيد إدارة (دار الكتب)، ولكن تلك كانت حالاتٍ استثنائية. فقد كان حماس المصريين أن ينالوا موقعًا في مصلحة الآثار، ولجنة حفظ الآثار، والمجمع العلمي المصري والمتاحف في العقود السابقة على الحرب، مرهونًا ببقائهم تحت الهيمنة الأجنبية. فقد حالت معارضة الأوروبيين دون تكوين جيل ثالث من المصريين المتخصصين في المصريات، وتقاعد كلٌّ من أحمد كمال، وعلي بهجت دون أن يخلُفهم مصريون في مواقفهم.

وإذا نظرنا إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، نجد أن السياسات الإمبريالية والوطنية حددت اتجاه العمل في مجال علم الآثار، ولكن المجال ذاته كان له إيقاعاته الداخلية الخاصة به. وجاء اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون صدفةً في نفس السنة التي أعلنت فيها بريطانيا — من جانب واحد — استقلال مصر (٢٨ فبراير ١٩٢٢م)، ليربط علم الآثار بالسياسة برباطٍ لم يستطع منه فكاكًا. وأتاح هذا «الاستقلال» المحدود لمصر فرصة الاحتفاظ بكل محتويات مقبرة توت عنخ آمون، ووضع قيود أكثر حزمًا على تصدير الآثار، والبدء في تمصير العمل بالمتاحف ومصلحة الآثار، وتدريس التاريخ الفرعوني بالمدارس، وإقامة جامعة حكومية، وفتح برامج جامعية لتدريب المصريين في مجالات المصريات، والكلاسيكيات والآثار والفنون الإسلامية.

ولكن التراجع الإمبريالي كان مخادعًا، فمع وجود دريتون على رأس مصلحة الآثار — وكريزويل على رأس قسم الآثار الإسلامية بمعهد الآثار التابع للجامعة، وجاستون فييت على رأس متحف الفن العربي، وأدرياني على رأس المتحف اليوناني-الروماني، أحكم الأجانب سيطرتهم على تلك المؤسَّسات لجيل كامل آخر. لقد كانوا جميعًا علماء بارزين، بذلوا القليل من الجهد لإخضاع الوطنيين.

وعرف الانتساب إلى مصر القديمة طريقة للبروز من خلال التيارات الوطنية الرئيسية، ومن خلال وسائل الإعلام، وتمثال نهضة مصر لمحمود مختار، وضريح سعد زغلول، وجدارية محمود سعيد بمبنى البرلمان، وعلى طوابع البريد، وأوراق البنكنوت، ورواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، وثلاثية نجيب محفوظ.

وحصلت مصر على استقلالها التام، وأحكمت قبضتها على الآثار والمتاحف في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين. فقد تعرَّض فييت للضغوط حتى اضطر لترك منصبه في ربيع ١٩٥١م وغادر البلاد. وفي ديسمبر من نفس السنة أنهت آخر حكومة وفدية عمل كريزويل وغيره من الموظفين الإنجليز بالحكومة المصرية. وبعد ستة شهور أرسل «الضباط الأحرار» دريتون إلى بلاده، عشية قيامهم بالثورة. وهكذا أصبح مصطفى عامر أول مدير مصري لمصلحة الآثار، بينما جاء تعيين محمد مصطفى مديرًا لمتحف الفن الإسلامي ليسدَّ فراغًا تركه علي بهجت من قبل.

والآن انضمت تماثيل نصفية لأحمد كمال وبعض علماء المصريات الآخرين إلى النصب التذكاري للعلماء الذي كان قاصرًا على الأوروبيين تخليدًا لماريت في فناء المتحف المصري (انظر الشكلين ٣ و٤٤)، وأطلق اسم كلٍّ من أحمد كمال وعلي بهجت على شارعين من شوارع القاهرة الفرعية، ووازنت أوراق البنكنوت بين الآثار الفرعونية والإسلامية، فخصصت وجهًا لكلٍّ منها في سياق تحديد رسمي قوي للهوية الوطنية المصرية، ولا نكاد نرى في الأفق نهاية للاختلاف حول دور تراث مصر القديمة في تحديد هوية مصر الحديثة.

وفي عام ١٩١٣م، أصدرت سارة الميهية مجلة نسائية لم تُعمر طويلًا حملت عنوان «فتاة النيل»، ولم تكن سارة متعلمة تعليمًا غربيًّا كما لم تسافر إلى أوروبا، بل كانت مسلمة محافظة تعارض الدعوة إلى رفع الحجاب، ولكنها وجدت وضع الأهرام إلى جوار النيل، والشمس والهلال، والنخيل، وبيوت الريف على غلاف المجلة (انظر الشكل ٤٥)، وسيلةً طبيعية للتعبير عن هويتها؛ فالأهرام ترافق النيل الخالد واهب الحياة لأرض مصر، فجاء شعار المجلة رمزًا للاعتزاز بالماضي المجيد وللوطنية. ولكن الإسلام والتراث العربي ما زال أكثر عمقًا عند المصريين من تراث مصر القديمة، وخبت جذوة «الفرعونية» كمكون من مكونات القومية المصرية.

ملحق بالجداول الإيضاحية

جدول ١: كتب الدليل السياحي المصري حسب اللغات.*

التواريخ	الإنجليزية	الفرنسية	الألمانية	لغات أخرى
الثلاثينيات	١	١	-	-
الأربعينيات	٣	١	١	-
الخمسينيات	٤	١	١	-
الستينيات	٤	٨	-	١ (بالإيطالية)
١٨٧٠–١٨٨٢م	٥	٢	٣	-
١٨٨٣–١٨٨٩م	٢	-	٢	-
١٨٩٠–١٨٩٩م	١٩	٤	٣	-
١٩٠٠–١٩١٤م	٣١	١٥	٩	١ (بالروسية)

* المصدر: قمنا بعمل الجدول استنادًا إلى كتاب: Oleg V. Volkoff, Comment on visitait la Vallée du Nil: Les Guides de l'Égypte (Cairo, 1967), 103–19.
وقد أسقطنا من الحصر الوارد به كتب الدليل الخاصة بالمدن، أو الأقاليم، أو المتاحف.

جدول ٢: جنسيات مؤلفي كتب الدليل السياحي الخاصة بمصر*

التواريخ	بريطانيون	فرنسيون	أمريكان	ألمان	نمساويون مجريون	إيطاليون	روس	آخرون
١٧٩٠–١٧٩٩م	٣	٦	–	١	–	–	–	–
١٨٠٠–١٨٠٩م	١٧	٧	–	–	–	١	١	–
١٨١٠–١٨١٩م	٧	٤	–	٢	–	–	–	١
١٨٢٠–١٨٢٩م	٢٠	٧	٢	٤	–	–	–	٤
١٨٣٠–١٨٣٩م	٢٤	١٨	٤	٢	–	٢	–	٢
١٨٤٠–١٨٤٩م	٤٥	١٣	١٠	٦	١	١	–	٢
١٨٥٠–١٨٥٩م	٣٥	١٢	٢٥	٨	١	٣	–	٢
١٨٦٠–١٨٦٩م	٢٧	١٥	١٥	٦	٢	–	٢	٤
١٨٧٠–١٨٧٩م	٣٧	١٧	٣٦	١١	٢	–	٦	٦
١٨٨٠–١٨٨٩م	٣٥	١٣	٤٧	٤	٢	٣	٨	٨
١٨٩٠–١٨٩٩م	٢٤	٨	٤٨	٣	–	–	٢	٥
١٩٠٠–١٩١٤م	٢٧	٩	٩٧	١١	١	–	٥	٨

* المصدر: قمنا بعمل الجداول استنادًا إلى كتاب: M. R. Kalfatovic, Nile Notes of the Howadji, A Bibliography of Travelers' Tales From Egypt, From Earliest Times to 1918 (Metuchen, N.J., 1992).

جدول ٣: المقيمون الأجانب في مصر (والتابعون لحمايتهم) حسب الجنسية (الأرقام بالألف)*

التواريخ	يونان	طليان	بريطانيون	فرنسيون	نمساويون مجريون	روس	ألمان	مجموع الأجانب	تعداد سكان مصر
١٨٧١م	؟	١٤	؟	؟	؟	؟	؟	٨٠	٥٢٥٠
١٨٨٢م	؟	١٩	؟	؟	؟	؟	؟	٩١	٦٨٠٤
١٨٩٧م	٣٨	٢٤	٢٠	١٤	٧	٣	١.٣	١١٣	٩٧١٥
١٩٠٧م	٦٣	٣٥	٢١	١٥	٨	٢.٤	١.٨	؟	١١.٢٨

* المصدر: تعداد سكان مصر عام ١٩٠٧م، المنشورة بالقاهرة (١٩٠٩م)، ص ١٣٠، وكتاب: A. E. Crouchley, The Economic Development of Modern Egypt (London, 1938), 256.

ملاحظة: كل الجنسيات الأوروبية التي لا تظهر بالجدول والولايات المتحدة الأمريكية، كان لكلٍّ منها حوالي أقل من الألف مقيم بمصر.

جدول ٤: حجم الجاليات الأجنبية في مصر ومؤشرات السياحة (مرتبة حسب الأعداد)*

الدهبيات بالأقصر ١٨٧٣م	لغة طبعات كتب الدليل السياحي ١٨٣٠–١٩١٤م	عدد الرحالة المؤلفين ١٨٨٠–١٩١٤م	حجم الجالية في مصر في ١٨٩٧م و١٩٠٧م
(١) بريطانيا	(١) الإنجليزية	(١) الولايات المتحدة	(١) اليونان
(٢) الولايات المتحدة	(٢) الفرنسية	(٢) بريطانيا	(٢) الطليان
(٣) ألمانيا	(٣) الألمانية	(٣) فرنسا	(٣) البريطانيون
(٤) فرنسا وبلجيكا	(٤) الإيطالية والروسية	(٤) ألمانيا	(٤) الفرنسيون
		(٥) روسيا	(٥) النمساويون-المجريون
		(٦) إيطاليا	(٦) الروس
		(٧) النمسا والمجر	(٧) الألمان

* ملاحظة: هذا الجدول يقدم تلخيصًا للجداول من ١–٣.

جدول ٥: عضوية «المجمع العلمي المصري» و«الجمعية الجغرافية الخديوية»*

فرنسيون	بريطانيون	ألمان	طليان	نمساويون ومجريون	روس	سويديون	بلجيك	هولنديون	يونان	مصريون	أمريكان	آخرون	المجموع
المجمع العلمي المصري ١٨٥٩م													
أعضاء فخريون													
٣٨	٨	٤	٣	٣	٢	١	١	–	١	١	–	١	٦٣
أعضاء مقيمون													
٢١	٣	٢	٩	–	١	–	–	–	٣	٧	–	٤	٤٩
أعضاء مراسلون													
١٦	٢	٢	٨	١	١	١	–	–	–	٩	–	٢٣	٦٣
الجمعية الجغرافية الخديوية (جميع مستويات العضوية) ١٨٨١م													
٢٧	١٥	٥	٣٧	٨	٢	–	٣	٢	٦	٢٥	٦	٤	١٤٠

* ملاحظة: الأربعة (الآخرون) من أعضاء الجمعية الجغرافية كانوا من سويسرا، والمراسلون من أعضاء المجمع العلمي (الآخرون) جاءوا من بلاد الشرق الأوسط خارج مصر، وبينهم مصري واحد.

جدول ٦: المعارض الدولية، والمؤتمرات الدولية ١٨٥١–١٨٨٢م

التاريخ	المعارض الدولية	المؤتمرات الجغرافية	المؤتمرات الاستشراقية	مؤتمرات أخرى
١٨٥١م	لندن			(١) صحي، باريس
١٨٥٣م				(٢) إحصائي، بروكسل
١٨٥٥م	باريس			
١٨٦٢م	لندن			
١٨٦٣م				الصليب الأحمر، جنيف
١٨٦٥م				(١) اتحاد التلغراف (باريس)
١٨٦٦م				(١) الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ والآثار(نيوشاتل)
١٨٦٧م	باريس			(٢) صحي، إستانبول
١٨٧٠م				
١٨٧١م		(١) أنتورب		
١٨٧٢م				
١٨٧٣م	فيينا		(١) باريس	(١) اتحاد البريد، برن
١٨٧٤م			(٢) لندن	
١٨٧٥م		(٢) باريس		
١٨٧٦م	فيلادلفيا		(٣) سان بطرسبرج	
١٨٧٧م				
١٨٧٨م	باريس		(٤) فلورنسا	
١٨٨١م		(٣) فينسيا	(٥) برلين	
١٨٨٢م				

جدول ٧: مديرو مصلحة الآثار المصرية
(الأنتيكات، والأنتكخانة)
١٨٥٨–١٩٥٢م

أوجست مارييت	١٨٥٨–١٨٨١م
جاستون ماسبيرو	١٨٨١–١٨٨٦م
أوجين جريبو	١٨٨٦–١٨٩٢م
جاك دي مورجان	١٨٩٢–١٨٩٧م
فيكتور لوريه	١٨٩٧–١٨٩٩م
جاستون ماسبيرو	١٨٩٩–١٩١٤م
بيير لاكاو	١٩١٤–١٩٣٦م
إيتيان دربيوتون	١٩٣٦–١٩٥٢م

جدول ٨: المعارض الدولية، والمؤتمرات الدولية ١٨٨٣–١٩١٤م

التاريخ	المعارض الكبرى	المؤتمرات الاستشراقية	المؤتمرات الجغرافية	مناسبات ومؤتمرات دولية أخرى
١٨٨٣م		(٦) ليدن		
١٨٨٦م		(٧) فيينا		
١٨٨٨م		(٨) ستوكهلم وكريستيانا		
١٨٨٩م	باريس		(٤) باريس (٤)	
١٨٩١م			(٥) برن (٢)	
١٨٩٢م		(٩) لندن (انقسام)		
١٨٩٣م	شيكاجو	(٩) لندن (انقسام)		
١٨٩٥م		(١٠) لشبونة جنوا (انقسام)	٦- لندن (٦)	
١٨٩٦م				(١) الألعاب الأوليمبية — أثينا

التاريخ	المعارض الكبرى	المؤتمرات الاستشراقية	المؤتمرات الجغرافية	مناسبات ومؤتمرات دولية أخرى
١٨٩٩م		(١١) باريس (١٢) روما	(٧) برلين (١)	
١٩٠٠م	باريس			
١٩٠٢م				(١) أثينا — الآثار الكلاسيكية
١٩٠٣م		(١٣) هامبورج		
١٩٠٤م	سانت لويس	(١٤) الجزائر	(٨) الولايات المتحدة (١)	
١٩٠٨م			(٩) جنيف (٣)	
١٩٠٩م				(٢) القاهرة – الآثار الكلاسيكية
١٩١١م		(١٥) كوبنهاجن		
١٩١٢م				(٣) روما — الآثار الكلاسيكية
١٩١٣م		(١٦) أثينا	(١٠) روما (٣)	

جدول ٩: تاريخ تأسيس معاهد الآثار الغربية في بلاد البحر المتوسط

المكان	فرنسا	ألمانيا	الولايات المتحدة	بريطانيا	النمسا والمجر	إيطاليا
أثينا	١٨٤٦م	١٨٧٤م	١٨٨٢م	١٨٨٦م	١٨٩٧م	
روما	١٨٧٣م	١٨٢٩م	١٨٩٥م	١٨٩٩م		١٩٠٩م
القاهرة	١٨٨٠م	١٩٠٧م	١٩٤٨م			
القدس	١٨٩٠م	١٩٠٢م	١٩٠٠م	١٩٢٠م		
إستانبول	١٩٣٠م	١٩٢٩م	١٩٧٤م			

ملحق الأشكال

خريطة مصر حوالي عام ١٩١٤م.

شكل ١: تأطير وتبني مصر القديمة
صفحة العنوان لكتاب «وصف مصر» (١٨٠٩م).

شكل ٢: تخليد علم المصريات الغربي – المتحف المصري بالقاهرة.

شكل ٣: تخليد أوجست مارييت – النصب التذكاري والتمثال.

شكل ٤: آباء علم المصريات من الغربيين – لوحة على واجهة المتحف المصري بالقاهرة.

شكل ٥: منظر العباءة المبتلة – نخت تمثل الصعيد.

شكل ٦: اللاتينية الإمبرالية. نقش على واجهة المتحف المصري.

شكل ٧: إعادة تأطير وتبني مصر القديمة، صفحة العنوان لمجلة عربية (١٨٩٩م).

شكل ٨: مصر بعيون كلاسيكية –أثناسيوس كيرشر يحل لغز أبي الهول.

شكل ٩: مصر بعيون الكتاب المقدس – يوسف ينقذ مصر، لوحة آبل دويوجو (١٨٢٧م).

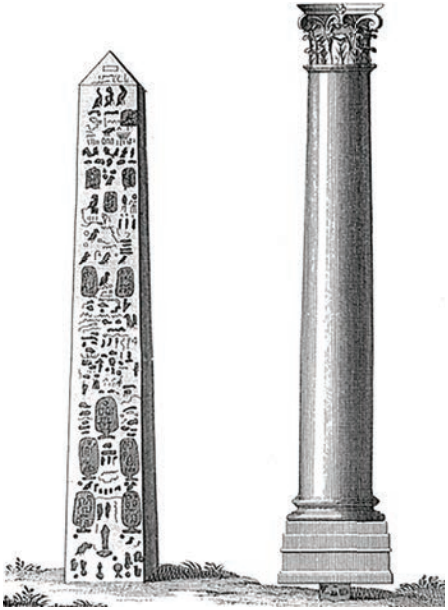

شكل ١٠: ما الذي يجب أن يرسل لفرنسا: المسلة أم عمود بومبي؟

شكل ١١: علماء الحملة الفرنسية محاصرون فوق عمود بومبي- لوحة جليراي (١٧٩٩م).

شكل ١٢: بعثة ليبسيوس على قمة الهرم الأكبر (١٨٤٢م).

شكل ١٣: النهب النابليوني
لوحة بنيامين زيكس (حوالي ١٨٠٩–١٩١١م).

شكل ١٤: رفاعة رافع الطهطاوي — مؤلف أول كتاب بالعربية عن مصر القديمة.

نمره
١٩

وقائع مصرية

في ١٣ شوال سنة ١٢٤٤

تريسته دن برقطعه نمچه سفينه سی چكراسنه وامتعه
ايله جوبار بازركان اوزرينه يگرمی التی كونده
انكليز سفينه سی برمقدار امتعه حموله سيله قورنبسی
وز كونده وقورفه دن برقطعه شود سفينه سی بلا حموله
جولوق جوجوقلريله اون نفر مسلمان بوجيلريله
كان اوزرينه اون التی كونده وتريسته دن برقطعه نمچه
حموله سيله ودانستاسی بازركان ذمتنه ایكی قطعه
يك فرانسه ايله تلكی بازركان اوزرينه اون التی كونده
اتلردر

قد ورد الى الاسكندريه سفينة نمساوية من تريستة موسوقة بضاع
وخشبا وفيها ثلثون الف ريال فرانسا على ذمة الخواجا جوبارود ثلث في ستة
وعشرين يوما وورد من مالطا في تسعة ايام سفينة انكليزية موسوقة بضاعة
على ذمة الخواجا قورنبسى وورد من كرفو في ثلثة عشر يوما سفينة شو
على ذمة الخواجا دانستاسى بقيروسى فيها عشرة رجال من مسلمي المور
مع اولادهم وعيالهم ووردت سفينة نمساوية من تريستة في ستة عشر يو
موسوقة خشبا وقد بلغت معها الى الخواجا دانستاسى صاريد
والى الخواجا اتلكى خمسة الاف ريال فرانسا وذلك في اليوم الخامس عش
من شهر رمضان

شكل ١٥: الهرم رمزًا لمصر — عنوان أول جريدة مصرية (١٨٢٩م).

شكل ١٦: سياح بشرفة فندق شيبرد بالقاهرة.

شكل ١٧: الحمَّارون والسياح الأجانب — رسم لرودولف هوبر يسجل مضايقة السياح (١٨٧٨م).

شكل ١٨: رحلة إلى الهرم على النمط القديم.

شكل ١٩: سائحات أمريكيات يتسلقن الهرم، لمصور مجهول.

خريطة القاهرة حوالي ١٩١٤م.

شكل ٢٠: الترتيبات الجمالية التي أقامها ماربيت بمتحف بولاق.

شكل ٢١: فناء متحف الآثار ببولاق — لنساء محجبات وسياح أجانب.

شكل ٢٢: طابع بريد يحمل صورة الأهرام وأبو الهول.

شكل ٢٣: مدخل الجناح المصري بمعرض لندن — كريستال بالاس ١٨٥٤م.

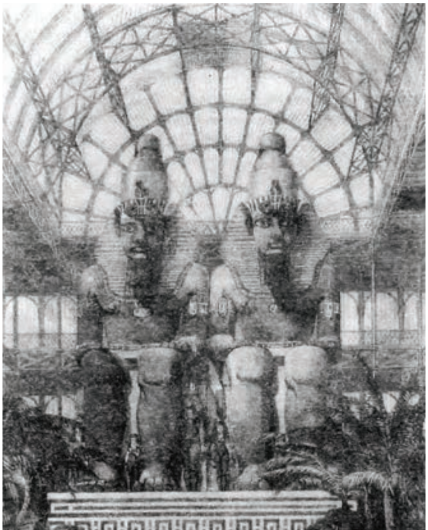

شكل ٢٤: نسخة لتمثالَي رمسيس بأبو سمبل ١٨٥٤م كريستال بالاس لندن.

شكل ٢٥: مصر — هل هي قابلة للتغيير؟
أوهام الاستشراق.

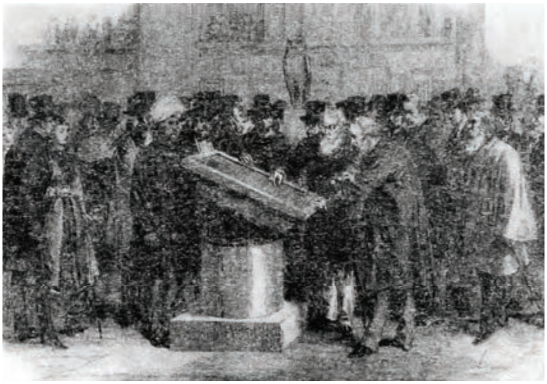

شكل ٢٦: «شرقي» في مؤتمر المستشرقين الدولي من صحيفة الإستراند لندن نيوز سبتمبر ١٨٧٤م.

شكل ٢٧: كشف أسرار مصر القديمة لأثينا – لوحة ١٨٢٧م فرانسوا-إدوارد بيكو.

شكل ٢٨: جول المنتصر يكشف مصر القديمة – ميدالية من تصميم بار ١٨٢٦م.

شكل ٢٩: بريطانيا في عباءة كلاسيكية، رسم بصحيفة باتش (١٨٩٨م).

شكل ٣٠: كليوبترا أمام قيصر، أو مأزق مصر رسم بصحيفة باتش (١٨٨٢م).

شكل ٣١: شريف باشا — رئيس الوزراء — وخلفه تمثال نصفيٌّ لإمبراطور روماني.

شكل ٣٢: جنود أسكتلنديون يحتلون أبو الهول في الثمانينيات.

شكل ٣٣: جميلات يحفرن أسماءهن على آثار مصر، مجلة جرافيك، يوليو، ١٨٩٠م.

شكل ٣٤: أحمد كمال وتابوت الملكة أحمس نفرتاري.

شكل ٣٥: قصر الخديو إسماعيل بالجيزة — مقر المتحف المصري ١٨٩٠–١٩٠٢م.

شكل ٣٦: الخديو توفيق وحاشيته بمعبد فيلة.

شكل ٣٧: بانوراما القاهرة عام ١٨٣٩م – عند المستشرق باسكال كوست.

شكل ٣٨: علي مبارك المهندس والمصلح والعالم.

شكل ٣٩: متحف الفن العربي والكتبخانة الخديوية.

شكل ٤٠: مصر القديمة ترحب بالعائلة المقدسة — لوحة أوليفيية — ميرسون (١٨٧٩م).

شكل ٤١: بقايا كنيسة قبطية داخل معبد رمسيس الثاني — مدينة حابو.

شكل ٤٢: المتحف القبطي.

شكل ٤٣: مرقص سميكة مؤسس المتحف القبطي.

شكل ٤٤: تمثال نصفي لأحمد كمال — النصب التذكاري لماريت.

شكل ٤٥: الأهرام والنيل رمزًا لمصر — صفحة العنوان من مجلة فتاة النيل — عام ١٩١٣م.

هنـــداوي